كتاب مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم)

﴿ وهذا ﴾

﴿ الجزء الاول منه ﴾

(الطبعة الثانية)

مطبعة مستديرية بشارع المهدي بالازبكية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أفاض على الانسان من نور العقل ما شرف به على سائر المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقاة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فانتشروا في أكناف الارض يبتغون الى ذلك الوسيلة . ويتذرعون الى السبق في مضمار الحياة بالاعمال الجليلة . فشيدوا صروح المدنية فشادوا الممالك . فمنها الموجود ومنها الهالك . وصلى الله على سيدنا محمد اعظم البشر بلا مراء . ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم الحرية والعدالة والاخاء . الذي دانت لدينه الامم . وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ القمم . وعلى آله واصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء . وخلفائه الذين اهتدوا بسنته فخضعت لهم الشعوب لارهبة ولا رياء ﴿ اما بعد ﴾ فان الله سبحانه وتعالى منذ دحا الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء . وتتبارى فيه الاكفاء . والانسان ابن بجدتها . والسابق في حومتها . كل فريق منه يباري فريقاً . وكل امرئ ينتهج الى المجد طريقاً . فمن استمسك بعروة الجد استعلى . ومن استمهل عزيمة النفس ونى واسترخى . فكانت يده في هذا الوجود هي الدنيا . ويد السابق هي العليا . وبعيد الهمة يأبى الادنى . والغضاضة لا يرضاها الا ضعيف الحجى . ومن ثم كانت مراتب الناس في هذا الوجود بنسبة الاعمال . وخلائقهم سبب تفاوت الرجال . فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير . وآخر لا في العير ولا في النفير

ولم أر امثال الرجال تفاوتاً   الى الفضل حتى عدّ الف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة ويشقى

الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب اسباب السعادة بافذاذ من كل امة معدودين . وافراد من الرجال مشهورين . كبرت نفوسهم عن ان تخلد الى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى معالي الامور وانصرفت بهممهم الى غايات الكمال فنالوا بهذا حياة لا تفنى . وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول لانهم اقطاب العالم الذين تقوم بهم اركانه . ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها بنيانه . وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الارض فانهم على قلة عددهم من كل قبيل . وندرتهم في كل جيل . لم يخل تاريخ كل امة من ذكرهم . ولم تمح عن صفحات الوجود آيات فخرهم . وللامم في تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الازمنة والاقوام وقد بلغ بالاقدمين منهم كاليونان مثلاً ان أنزلوهم منزلة الآلهة ورفعوا لهم في هياكل العبادة الانصاب وأما أهل العصور المتمدنة فقد افردوا لافرادهم التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر . وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر

لو نقبنا عن هؤلاء الرجال في تاريخ كل أمة لوجدنا أعظمهم عملاً وأعلاهم كعباً . وأبعدهم همة رجال الاسلام الذين نبتت اصولهم في منابت الشيح والقيصوم . وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب واوربا والروم . فدانت لهم أعظم دول الارض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد الأمم صولة وأرقاهن قوة ومدنية كالفرس والرومان والغوط وغيرهم

ان ممن اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز

اليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ومع هذا فأين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءآ من أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة في افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر الف مقاتل مضيق سبتة الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار . بل اين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الاموي وانساح بجيشه القليل في احشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والقوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع جيشه على ادراجه واوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة عجاجة

اين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الاوربيون من أشهر القواد في العالم لحروب طويلة اصلاهم نارها. واذاقهم شدة اوارها. لم تأت لدولته بفتح جديد. او خير عتيد. من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان او عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها اطماع الطامعين. واشرأبت الي التحزب والانقسام اعناق المسلمين . فبادر الى تلافي الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأي فذلل صعاب الامور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة . ثم بعد ان استصفى لنفسه الخلافة وأجرى امور الملك مجرى السداد والطمأنينة اطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة اعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها

ومع ان هؤلاء الرجال واضرابهم كثير عددهم في الاسلام فان العناية باستقصاء اخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وافرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوفرة عند المسلمين . ولا ملتفت اليها عند المؤرخين . اللهم الا ما اوردوه من اخبارهم مبذعراً في بطون التواريخ متفرقاً في كتب التراجم التي تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على ارباب القلم دون ارباب السيف

نعم قد عني بعض المؤرخين بافراد كتب خاصة بتاريخ افراد من رجال الاسلام كسيرة السلطان محمود الغزنوي وسيرة صلاح الدين وسيرة تيمورلنك الا ان الاحرى ببعض هذه السير ان تسمى كتب ادب لا كتب سير وتاريخ كسيرة السلطان محمود الغزنوي المشهورة بتاريخ العتبي وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور لالتزام مؤلفيهما طريق التقفية وتكلفهما السجع الممل للنفوس المخل باصول التاريخ وفضلاً عن هذا فان في المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو افردت لكل واحد منهم سيرة خاصة او افردوا بتاريخ خاص لكان ذلك أبقى لذكرهم . وأظهر لشهرتهم . واقرب لتناول أخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل اعمالهم . فان لبعض النفوس ميلاً غريزياً الى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور فاذا عرف أربابها كيف ساد اسلافهم واشتهر عظماء قومهم ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والاشارة الى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى كانوا من زعماء الأمة وقادة الافكار والسياسة الى التشبه باولئك في جلائل أعمالهم وتدقيق النظر في سيرهم للوقوف على مواضع الاصابة ومظان الخطأ من أعمالهم والاخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بافرادهم التواريخ لرجالهم والعناية بالتنويه بشأنهم بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق وساحات المدن وشيدوا باسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجي ليكون ذلك ادعى لتوجيه الانظار اليهم. وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم. كما انهم اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وايراد الاستعارات والمجاز في الوصف ورص الالقاب الكثيرة رصاً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتمعض على الناقد اوصافه الحقيقية. ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على ايراد الحقائق في منشأ المترجم ومآثره في حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع في قالب الوجود حتى كانما هو يراه

ولعمري ان رجال الأمم العظام لخليقون بمثل هذه العناية جديرون باعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان الاسلام قد أنجب كثيراً من امثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً في بطون التواريخ متفرقاً في ثنايا الكتب والسير فقد نهضت بي عزيمة النفس واستفزني الولع برجال الاسلام الى ان استقصى اخبارهم واتتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتي به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على اسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع للاوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة في النفس الى المزيد ولا يحوج المطالع الى الامعان في جمع مزيج الاخبار الى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها. والتفريق بين جواهرها وأعراضها

هذا وقد أخذت على نفسي أن أطلق لها في كل مجال عنان القول وأرمي

بسهام الفكر الى كل غرض يبدو للنظر عساني ان ألم بشيء من الادواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين. واستطيع من اسداء النصح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين . سيما اذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة الى الدين

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت ان اقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على اشهر مشاهير الاسلام خاصة وأورد في ختامه ملخصاً تاريخياً لمشاهير رجال الاسلام عامة يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه الى ملخص تاريخهم

واني وان كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم اجمعين ولم أر بداً من ايراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لانهم جميعاً من دعائم الاسلام التي قامت عليها صروحه . واعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم او حكمة زاجرة يحتاج اليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ عليّ ما يُرى من الاختصار في تراجمهم والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم

وقد جعلت الكتاب اقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها مقدماً في الذكر الاقدم من الخلفاء والسلاطين ومن يليه وهكذا الى آخر الكتاب وأتبع كل خليفة او سلطان بذكر من قام في دولته . واشهر من بين زمرته . من امراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم في الاسلام أثرهم . والله المسئول ان يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب انه مجيب السؤال

﴿ القسم الاول ﴾

(دولة الخلفاء الراشدين)

هذه الدولة التي أسست مجد الاسلام ورفعت منار الدين الحنيف وبلغت خيلها شطوط المحيطين ونشأت على الخشونة في العيش والاعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بايدي الناس هي الدولة الأولى التي كان بها فخر الاسلام والى خلفائها الاربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد وانما قامت الدولة الاسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الاسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضلٍ هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو افضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الامم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار اليهم بالبنان . ويعدون من افراد ذلك الزمان . في الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الأكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة . وقد عزمنا على أن نأتي على سيرتهم في دولة الخلفاء كل رجل منهم مع خليفته الا الاحنف والمغيرة فبما انهما خدما هذه الدولة الى نهايتها فسنأتي على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين

﴿ أبو بكر الصدّيق ﴾

(باب)

« حاله في الجاهلية »

(نسبه وأصله)

اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله واسم أبي قحافة أبيه عثمان وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انت عتيق من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي وسمي صديقاً لانه بادر الى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال التيمي وهو في التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عم أبي قحافة وتكنى أم الخير . وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ شرفه ﴾

انتهى الشرف من قريش الى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم ولما كان هؤلاء

الرهط الذين اليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية واتصلت بالاسلام منهم من صار من مشاهير الاسلام وستأتي ترجمتهم بعد فقد رأيت ان آتي هنا على بيان هذه المكارم وعامة من انتهت اليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم منهم في هذا الكتاب فاقول

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن

وهم هاشم . وأمية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدي . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد اعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار . ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له اعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بني تيم أبو بكر الصديق وكانت اليه الاشناق وهي الديات والمغرم فكان اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه . ومن بني مخزوم خالد

ابن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب . ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بامر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه . ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر وكان كل شرف من شرف الجاهلية ادركه الاسلام وصله لهم وقد رأيت مكانة أبي بكر من الشرف في قريش هذا فضلاً عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله

﴿ صناعته ﴾

كانت قريش مع ما تمتّ به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما انها حامية البيت وصريح ولد اسماعيل لا يستنكف أشرافها من الاحتراف أو المتاجرة والاعتماد في الاسترزاق على عمل اليد ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء . فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتي ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يبري النبل . ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم

على مصالح المسلمين والذي بقي عنده مازال يتجر به حتى مات رضي الله تعالى عنه وأرضاه

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة واحسان وتفضل فيهم ولهذا قال له ابن الدغنة يوماً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتقري الضيف . وكان عالماً بالانساب وأخبار العرب رغاباً عن الدنايا عفيف النفس حرّم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية . قال السيوطي أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لقد حرّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية

اللهم ان امرأ ينشأ بين الاوثان حيث لادين زاجر . ولا شرع للنفوس قاهر . وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعري العفة والمروءة لجدير بان يتلقى الاسلام بملء الفؤاد . ويكون أول مؤمن بهادي العباد . مبادر باسلامه لارغام انوف أهل المكابرة والعناد . ممهد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه المستمسكين بمتين سببه «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» وأولهم أبو بكر

﴿ باب ﴾

(اسلامه وصحبته)

(اسلامه)

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس اسلاماً فقال بعضهم انه عليّ وقال

بعضهم انه أبو بكر وقال بعضهم خديجة وقد أخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن عليّ رضى الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ومما يؤيد انه أول الناس اسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

اذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعدلها ... الا النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الاقوال بان أبا بكر أول من أسلم من الرجال وعليّ أول من أسلم من الصبيان وخديجة أول من أسلمت من النساء وأول من ذكر هذا الجمع الامام أبو حنيفة رضى الله عنه (وهو الصواب)

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة وخلص جوهره من الدغل وانفطر على سلامة النفس من شوائب المناد وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب والمماراة في الحق فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لاول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر)

سبق أبو بكر بالايمان فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم ببركة اسلامه الى نيل السعادة بالاسلام لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر الا ان يكون نبيّ) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فقد أسلم

منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون

﴿ صحبته ﴾

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم الى حين توفي خير صحبة وكان أحب رفيق اليه وأعز صاحب لديه حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة اولو القوة ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي الى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته واستبشاراً بتخفيف اذى قريش عنه . ورافقه في الغار ثلاثاً وعينه من اجله لا تنام ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ليسكن اضطرابه ويأمن على نبيه وأنزل فيه قرآن (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه)

علم أبو بكر ان لله عليه حقاً وان للايمان بكتابه شرطاً وهو الامتثال لما جاء به والعمل بما فيه وان الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بانّ لهم الجنّة) فسمح بماله في سبيل الاسلام وأنفقه على النبي عليه الصلاة والسلام وكان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام. لانقاذهم من الآلام. كما كان يشتري على الاسلام ايضاً (١) حتى

(١) اخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتق على الاسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء اذا أسلمن فقال أبوه أي بني أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت أنا أريد ماعند الله وأخرج الطبراني عن عروة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب في الله اه

اثنى عليه الرحمن ونوّه به القرآن ومنه قوله تعالى (فأمّا من أعطى واتقى) الآية وقوله تعالى (وسيجنبها الاتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الى آخر السورة كل هذه الآيات وغيرها نزلت في أبي بكر

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حضره ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ويقف في وجه الاعداء دونه

اخرج البزار في مسنده عن عليّ انه قال . اخبروني من أشجع الناس. فقالوا انت . قال اما اني ما بارزت احداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فمن . قال (أبو بكر) انه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكن مع رسول الله لئلا يهوى اليه احد من المشركين . فوالله ما دنا منا احد الا أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى اليه احد الا هوى اليه فهو أشجع الناس. قال عليّ رضى الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون انت الذي جعلت الآلهة الهاً واحداً فوالله ما دنا منا احد الا أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول . ويلكم أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله امؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر. فسكت القوم فقال الا تجيبوني فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه

﴿ باب ﴾

(خلافة أبي بكر)

(كلام على الخلافة)

قبل الكلام على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه نأتي بتمهيد مختصر في الخلافة الاسلامية فيه بيان يحتاج الى النظر فيه كل باحث في تاريخ الاسلام فنقول

انّ موازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تخلف سواء عن الشرائع الالهية . أو الاوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولي الشرائع (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الاشارة الى ملازمة القوة للدين ارهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التي لا يقوّمها مجرّد الارشاد واللين وهذه القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة

ومن المقرر انّ وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع اليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه الا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنه الرسول وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية

والعقل والعدالة والعلم ولا يشترط فيها شئ من النبوّة بل النبوة رسالة الهية يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع واقامة أركان الدين ولا تناسب بين الوظيفتين البتة لهذا تضافرت الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام وأيد هذا سنته العملية فقد فارق هذه الدنيا الى الملأ الأعلى وليس لاحد من آل بيته أمر من أمور الناس أو ولاية من ولايات الاطراف ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملا من الاعمال أبى عليه ذلك لئلا يظن بعده انه أراد بقاء الامارة فى بنى هاشم متصلة بالنبوة مع ان النبوة شئ والامارة شئ آخر

وقد علم هذا الحسن بن على رضى الله تعالى عنه لما تنازل عن الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوّة والخلافة فينا) وحسب آل البيت شرفاً أن تكون النبوّة فيهم

قلنا ان الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار أنها شئ والنبوة شئ آخر وانما قالوا انها رئاسة دينية وخلافة نبوية لما يتعلق بها من اقامة أركان الدين كما تقدم وهى بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكا دنيوياً بحتاً اذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الامارة وهى الصلاة بالناس التى استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الامة فى الدين كما صار أميراً عليها فى أمور سياستها فى الدنيا ومن هنا اشتق اسم امارة المؤمنين اذ لابد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدبر سياسة ملكها لاسيما وان الاسلام جاء بقسمى السياسة والدين ولم يقتصر

على أصول التوحيد والعبادات لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا

من ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجها الى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على أيدى ذوى العبث بالنظام . الا انهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافاً ليس فيه ما ينافى المصلحة الاسلامية بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون أثبت قدماً فى الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختاروا للخلافة رجلا من غير بيت النبوة ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة ولكان أولى الناس بهذا الامر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم أو علي بن أبي طالب لسابقته فى الاسلام وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسبا وصهرا بعد العباس

هكذا كان أيضاً بعض بنى هاشم وبعض بنى أمية يتوقعون انه لا يعدل بعلي كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبنى هاشم والا لو صح عندهم شيء من وجوب الخلافة لبنى هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بها من علي لانه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن الامر كذلك لم يتخلف علي عن مبايعة أبي بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة

له وعوناً له على أمره

هذا اذا صح انه تخلف عن بيعته ولم يصح وانما وجد عليه وعلى عمر بن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وهى قرية بخيبر لما ثبت عند أبى بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة انما يأكل آل محمد من هذا المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر وانى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت فى عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره علي أيضاً الى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبى بكر وكان لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فصالحه وربما وهم الرواة من هذا الامر انه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً وسترى من الروايات الآتية ما يدل على ان علياً لم يتخلف عن البيعة الا قليلا والله أعلم

ولكن ما الحيلة وقد رزىء هذا الدين بشراذم من المنافقين انما دخلوا فى هذا الدين للتشويش على أهله لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الاسلام التى ملأت قلوبهم لم يمكناهم من بث الفتنة فى الدين فبثوها وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور رأى بعدُ منافقوا الاعاجم ومجوسهم الذين ابتز الاسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فهالهم أمره وساءتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لادخال الوهن على الاسلام وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحيهما فى وجوه المسلمين فزعموا ان منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن أصله . ولا يصح وضعه فى غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط فى

النبوّة من العصمة وهي لا تكون على زعمهم الا في عليّ وأهل بيته والّا فلا امام يؤتم ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذي رموا اليه يومئذ بسهم نفذ في كبد المسلمين. وفرق وحدة المؤمنين. ولا يزال يتابعهم عليه الى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون . ولا فهم لحقيقة ما هم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظاراً لامام موهوم ويوم معلوم

وامصيبتاه من هذه العقول التي لم تدرك الى الآن مرامي غرض السالفين ومهاوي ضلال الزنادقة الكاذبين الذين جعلوا مسئلة الامام المعصوم عقبة دون اقامة شعائر الدين. لن تزول من وجه الاسلام الى يوم الدين . ما دامت مدعمة باحاديث المهدي الموضوعة . واخبار الامامة المصنوعة . التي يدل على انها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الاسلام من الوهن وهذا شئ لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ولو صح شئ منه لما ترك الله عباده الى الآن يتخبطون في ظلمات الفوضى بلا امام معصوم والعصمة انما هي لله وللانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ولن يرسل للبشر الائمة والسلاطين المعصومين كما يريد فريق المتخرصين من الشيعة. وهذا العالم البشرى على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان الآن أو كسرى في قديم الزمان . فاللهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة وتأليف تلك القلوب المتفرقة انك مجيب السؤال

ولنرجع الى الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ونبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول

﴿ بيعة أبي بكر ﴾

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبا في أهله بالسنح فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم في أختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم المصدّق ومنهم المكذّب فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة ابداً . ثم خرج الى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت . ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية فكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا ان سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الارض ما تحملني رجلاى. فاللهم ارزقنا قلوبا كهذه القلوب ملئت بالايمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق انه قد مات لدهشة أخذتها وحزن أصابها وأسى راعها وبلاء فاجأها ولما لم تطق حمل هذا كله زهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت الى نفسها . وعاد اليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا في ذهول عنها وما هو الا ذهول الحزن ووقع أليم المصاب

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فاخبرهم باجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل افتراق الكلمة فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد ابن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله

يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلاً الا وأنتم له أهل . وان العرب لا تعرف هذا الامر الا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح فكثر حينئذ اللغط بين الانصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم ان عمر لما رأي أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين بجعل الخلافة في قريش وانّ الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله قام الى أبي بكر وقال ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

وتخلف عن بيعته عليّ وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب ان الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى البيعة لأبي بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوّة وان أبا بكر أحق الناس بها بعد ان أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين فى حال مرضه اقبلوا على بيعته وبايعه علي رضي الله تعالى عنه بعد أيام على الارجح لا بعد ستة أشهر وقد سبق الكلام على هذا فى أول الفصل ويؤيده ما رواه الرواة عن أبي سعيد الخدري انه قال فى حديث طويل انّ أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم يرَ الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

ثم نظر فى وجوه القوم فلم يرَ علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

وأخرج ابن عساكر عن على انه قال . لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ان يصلي بالناس (١) واني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني فى الافراد والخطيب وابن عساكر عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله ان يقدمك ثلاثاً فأبى عليّ الاّ تقديم أبي بكر

هذا كله يدل على أن علياً رضي الله عنه لم يتردد عن بيعة أبى بكر الا قليلاً ويعضده أيضاً ان جماعة من بنى أمية منهم أبو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقريعاً

هذا ولما استقرت الخلافة لأبى بكر وذلك سنة احدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان اسأت فقوّموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قويّ عندى حتى آخذ له الحق

---

(١) أخرج الشيخان عن أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه قال مرض النبى صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة انه رجل رقيق القلب اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس فعادت فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس فانكن صواحب يوسف

إن شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

كلام يمثل معنى الرئاسة العامة فى الاسلام تمثيلاً تستكن امامه القلوب التي أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول الى نتائجه اعناق زعماء الحرية فى كل أمة وجيل

كلام صدر عن اول خليفة فى الاسلام يبشر الأمم بنزع اغلال الذل والاستعباد من اعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم

بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة فى الاسلام ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين . فانا لله وإنا اليه راجعون . على ما كان بعد ذلك في المسلمين وما سيكون

﴿ انفاذه جيش أسامة بن زيد ﴾

لم يكن أمر البيعة اول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يكد ينتشر نعيه في الآفاق . حتى ظهر النفاق واشرأبت من الامم المجاورة الاعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم

كان النبي عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه أسامة ابن زيد لبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه و وفاته عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لأبي بكر قال له الناس ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغى ان تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه والذي

نفسي بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو ثبات امام الاخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ فى مثل ذلك الموقف الحرج الذي وقف به المسلمون لا تصدر الا عن مثل أبي بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهيز وان يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل

لما خرج الجيش الى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان معه فى جيشه الى أبي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون

وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله الا فأمضى فأبلغه عنا ان يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فاصرّ على ثبات رأيه واستمر فى مضاء عزيمته على انفاذ جيش أسامة وقال لعمر لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته

قال عمر فان الانصار تطلب رجلا أقدم سناً من أسامة . فأدرك أبو بكر من هذا ما يخالج ضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل فى نفوسهم من آثار الفخر الجاهلية والاستمساك بعرى التفاضل بالانساب فرأى ان يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى والاعمال وان يبدأهم

من ذلك بنفسه فماذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لا نزلتَ ولا أركب وما عليّ ان اغبر قدميّ ساعة في سبيل الله . فلم يسع الانصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب اسامة الا السكوت ولم يبدر من احد منهم بادرة قط بل ساروا صحبة أسامة وابدوا ما عرفوا به من الاخلاص في الجهاد والذب عن حياض الاسلام والاستماتة في قتال الاعداء فرضي الله تعالى عنهم اجمعين

ولما اراد أبو بكر ان يرجع قال لأسامة ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل فأذن له

امام أمره نافذ في جيوشه وسلطته مبسوطة على قواده احب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش الا باذن قائده أسامة بن زيد تنبيهاً لمن فيه الى وجوب الطاعة لامره وعظيم الحيد عن اشارته ما دام فيهم اميراً ولهم قائداً وقد كان في استطاعته ان يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه لو لم يران يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه وهيهات هيهات ان تلد الولادات مثل أبي بكر وعمر

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ان الدول المتمدنة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة في خدمة الانسانية والانسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن ان تقيد جيوشها بمثل مضمونها او يرتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وها هي بنصها

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا للاكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً

ثم قال اندفعوا باسم الله وأوصى أسامة ان يفعل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار وأوقع بقبائل من قضاعه وأغار على أُبنى موضع بناحية البلقاء (1) وغنم وعاد بعد اربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً

﴿ باب ﴾

(الكلام على الردة)

« بحث في الردة »

ربما يتوهم متوهم من ايراد الكلام على أهل الردة على علاته ان الردة انما هي ارتداد العرب عن الاسلام الى الشرك كما توهم بعضهم في مناظرة جرت بيني وبينه من بضع سنين في مجلة الهلال التي تطبع في مصر والحال أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة وانما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركناً من اركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن احببت ان الخصها في هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه الصحيح فاقول

«١» في الجنوب الغربي من الشام

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا سيما لما بلغهم استفحال امر مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالاتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ولم تلبث ان فشت هذه المقالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ولما انتهى الخبر الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى فاختلفوا في هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعوني عقالا [1] مما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ومضى بنفسه الى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم وقد ادّى اجتهاد عمر في ايام خلافته. الى ردّ السبايا والاموال اليهم واطلاق المحبوسين منهم

وفى سياق حكاية اقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف في حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها فقد نقل ابن شاكر فى عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى فى قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم فقال أبو بكر والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى مشكاة المصابيح نقلاً عن النهاية ــ أراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ فى الصدقة لان على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدّق أعيان الابل قيل أخذ عقالا واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اهـ وقال المبرد فى الكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة مافيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالاً واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً

لقاتلتهم على منعها . فقال عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله [1] وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله)

فقال أبو بكر . والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال الاّ بحقها . قال عمر رضى الله عنه فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت انه الحق اه

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلي في رسالة البدع في الجزء العشرين من كتاب الكواكب [2] أن قتال الصديق رضى الله تعالى عنه لاهل الردة انما كان لمنعهم الزكاة فقط وأفاض في هذا البحث مبينا أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قوتل عليه كله والزكاة من الدين فاجتهاد أبى بكر أداه لقتال العرب عليها اه

وفي حديث ابن مسعود الذى يقول فيه (وسيأتى بتمامه) فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية . فاما الخطة المخزية فان يقروا بان من قتل منهم في النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الاسلام الى الشرك والا فما معنى اقرارهم على أن من قتل منهم في النار ولو كانوا على الشرك فهم في النار بالطبع انكروا أو أقروا

وانما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالاتاوة بدليل

(١) هكذا في الاصل ولم ترد في هذه الرواية وانما وردت في رواية حتى يشهدوا ان لا الخ (٢) هذا الكتاب موجود فى مكتبة دمشق الشام فى جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهي المكتبة التي عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة فى المدارس القديمة المرحوم مدحت باشا لما اسندت اليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر في نيف وأربعين مجلداً

ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بني عامر فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مثواه فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال ياهذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من صناديد قريش ودهاتها فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ما ينتظر منه حيث قال له . أكفرت ياقرة وتخوفنا بالعرب فوالله لاوطئن عليك الخيل في حفش أمك وأحفاش بيت ينفرد فيه النفساء ثم قام وذهب

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة كمن شايع مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى قد بسطناها ليكون القارئ منها على علم وهي وأن تكن بتلك المثابة الا انها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

﴿ قتال أهل الردة ﴾

اعلم انه كما كان للمهاجرين والانصار فضل وسابقة في نصرة الاسلام ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طأ من بهم من إشراف من ناواه. واستخذى من عاداه . فلعامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان قريشاً استقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة أو خاصة الا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك الفجاج الذي يرتج بأهل الردة ارتجاجا :

وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجا . وممن عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد ابن سعيد والمهاجر بن أبي أمية ولم يلبث ان أطفأ أبو بكر نيران الردة بامثال هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادهما في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية ابن أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى وسعد بن أبي وقاص واضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الاهوال ما لا يحلم بذكره الانسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعدُ الا انه يؤخذ على بعضهم تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضرها ، وهي شؤون وان كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ، الا أن قريشاً كانت أولى في مثل عصرها الذي نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والاخذ باسباب الحزم والتضافر . بعد اذ انتهت اليهم السيادة في الاسلام كما انتهت في الجاهلية ومع هذا فلا يسعنا نكران فضلهم على المسلمين بخدمتهم الاسلام في أيام الفتوح العظيمة وأما ما عدا هذا فلهم فيه شؤون ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر وليست العصمة الا لله وللرسول ولله في خلقه شؤون

نعود الى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذى وقف فيه

المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله منّ علينا بأبى بكر . أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وان نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبى بكر على قتالهم فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية فاما الخطة المخزية فان يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وانّ ما أخذوا منا مردود علينا واما الحرب المجلية فان يخرجوا من ديارهم

بلغ بعزيمة أبى بكر وعظيم رأيه بعد اذ رأي ما أصاب المسلمين من الغم ان آلى على نفسه ان لا يدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف آخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم بجرانه وبينماهو يطاول في الامر انتظاراً لرجوع أسامة بجيش المسلمين أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالابرق فارسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أنّ مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعليّ وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارةً مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم رداً فوافوا ليلا الانقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وارسلوا الى أبي

بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى [١] فخرج عليهم الرد بانحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها [٢] على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم

ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبية فما طلع الفجر الا وهم والعدوّ على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرّن فى عدد ورجع الى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم فى أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام اليه عليّ والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى وقال والله لأواسينكم بنفسي وسار الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع الى المدينة فلما استراح أسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر الى تسيير الجيوش الى أهل الردة .

﴿ تسيير الجيوش الى أهل الردة ﴾

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة احد عشر لواء

الأول عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له

---

١ ذو القصة وذو حسى « أو ذو خشب على رواية البعض » اما كن قرب المدينة لجهة نجد وهي منازل القوم

٢ أي نفخوها والانحاء هي القرب

(٢) لعكرمة بن أبي جهل القرشي وسيره الى مسيلمة

(٣) المهاجر بن أبى أمية المخزومى القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الابناء على قيس بن مكشوح ثم يمضى الى كندة بحضرموت

(٤) خالد بن سعيد بن العاص القرشي وبعثه الى مشارف الشام

(٥) عمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاعة

(٦) حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وأمره باهل دبا

(٧) عرفجة بن هرثمة البارقي من الازد وأمره بمهرة

(٨) شرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة وأرسله فى أثر عكرمة بن أبي جهل واذا فرغ يلحق بقضاعة

(٩) معن بن حاجز السلمي وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) سويد بن مقرّن من أوس و أمره بتهامة باليمن

(١١) العلاء بن الحضرمي حليف بنى أمية ووجهه الى البحرين

لما سير أبو بكر هؤلاء الامراء كتب لهم عهداً ستأتى صورته فى باب كتبه وخطبه وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتابا وسيره مع الرسل وستأتى صورته أيضاً

باب

حروب الامراء مع أهل الردة وأخبارهم

طليحة الأسدى

هو طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خذيمه وكان قد تنبأ

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبيةً لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ولما قصد مهاجمة المدينة أمدَّ هذه القبائل بأخيه حبال فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت الى ذى القصه ثم أوفدوا وفداً الى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل، ولما سار امراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضى الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه وأسر منهم عيينة بن حصن الفزارى كما سيأتي تفصيل ذلك فى سيرة هذا البطل المغوار ان شاء الله

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فُلاًّ لهم الى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر كانت سبيت فى مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشه فاعتقتها فرجعت الى قومها ولما اجتمع اليها هذا الفلّ أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففلّ جمعها وقتلها

تميم وسجاح

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بنى تميم ستة أمراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما وقع اليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان الى أبى بكر بصدقات بنى عمرو ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بصدقات الرباب وهى ضبة بنت أدّ بن طابخة وعدىّ وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أدّ بصدقات عوف والابناء وكلها من بطون تميم ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة فأما قيس فندم ولما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج

الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه وأما مالك فتحير وتشاغلت تميم بعضها ببعض فقام من بقي على الاسلام في وجه من ارتد وبينما هم على اختلافهم اذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية وكانت ورهطها في اخوالها من بني تغلب في الجزيرة فادعت النبوة وجاءت تريد غزو أبي بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادعة فوادعها وردها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بني تميم فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا أمامها أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية فأغار عليها أوس بن خزيمة الهجيمي في بني عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ثم تحاجزوا على ان يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم فيئست بذلك من الذهاب الى المدينة وانقلبت تريد اليمامة وجرى لها مع مسيلمة امور لا محل لذكرها هنا ثم رجعت الى الجزيرة ولم تزل في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن اسلامها واسلامهم

﴿ مالك بن نويرة ﴾

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا وتراجعوا الى الاسلام وأدّوا الصدقة الاّ مالك بن نويرة فانه بقي متردداً بين الامرين واجتمع اليه قومه بالبطاح فسار اليه خالد بعد ان انتهى من امر طليحة فلما علم مالك بمسيره اليه أمر قومه فتفرقوا في المياه فبث خالد السرايا في أثرهم فأتي بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتي تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد

﴿ مسيلمة وأهل اليمامة ﴾

كان مسيلمة ممن وفد مع قومه بني حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رجع ومن معه الى منازلهم باليمامة ادعى مسيلمة النبوة وانه

أشرك مع محمد بالامر واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين الف مقاتل ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة ابن أبي جهل الى اليمامة كما تقدم وأمده بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكب فكتب الى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر وكتب اليه لا أرينك ولا تراني فتوهن الناس امض الى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت

وكتب الى شرحبيل بالمقام الى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد فاذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة . فلما رجع خالد من البطاح الى أبي بكر واعتذر اليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره ورضي عنه ووجهه الى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والانصار وعلى الانصار ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حذيفه وزيد بن الخطاب . وسار خالد للقاء مسيلمة فأمده أبو بكر بسليط ليكون رداً له لئلا يؤتي من خلفه فلما علم مسيلمة ومن معه بدنو جنود خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفر اليهم عدد كثير

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لادراك ثأر لهم وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بني حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا الاّ مجاعة فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الارواح بيع السماء وأصيب

المسلمون بناس من ذوي البصائر والشرف وانتهى الامر بقتل مسيلمة وانهزام بني حنيفة وسيأتي هذا الخبر مفصلا في سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله تعالى فان هذا الموطن من مواطنه العظيمة فى حروب الردة

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوي فلما توفى عليه الصلاة والسلام كان المنذر مريضاً فتوفى عقبه فارتد أهل البحرين فأما بكر فتمت على ردتها وأما عبد القيس فراجعت الاسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلّى العبدي وكان جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه فى الدين وامتلأ قلبه بنور اليقين وعاد الى قومه عبد القيس فكان فيهم الى حين الردة فجمعهم لما قالوا لو كان محمد نبيا لم يمت وقال لهم: أتعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فان محمداً قد مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله : فأسلموا وثبتوا على اسلامهم .

هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر وليس بين الشقاء والسعادة الا عقبة لا يقطعها الا المخفون من الشهوات الغالبون على هوى النفس المالكون للارادة التى لا سلطان عليها من الشهوات ولا قائد لها من التقليد وانما هي مطلقة فى عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث

فكما مني الاسلام بناس من المعطّلين الذين ران الهوى على قلوبهم، واستحكمت عادة الضلال والاضلال في نفوسهم، فأثاروا ثائرة الفتنة وأبوا الا الاسترسال فيما وجدوا عليه آباءهم من الضلال فقد رزق ناساً على العكس من هولاء قد غلبت ارادتهم على الهوى، واستنارت بصائرهم بنور الهدى. فكانوا

للحق أنصاراً، وللاسلام أعوانا، وفيمن كان من هؤلاء فى أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعرى الاسلام عشيرته فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين هذا الشهم أي الجارود بن المعلّى العبدي وصفوان بن صفوان التميمي وعدي بن حاتم الطائى وأمثالهم من أهل البصيرة والرأى الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين، ويكونوا عوناً للمسلمين، لتعلو كلمة هذا الدين، ولو كره المشركون

لما اجتمع الى الجارود قومه من المسلمين واستمروا على الاسلام خرج اليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا حماه وينتقموا على زعمهم ممن جاراه فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود فارسل أبو بكر كما تقدم العلاء بن الحضرمي لاهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى فى مسلمة بنى حنيفة وقيس ابن عاصم المنقري فى قومه واتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى اذا كان فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت إبلهم باحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء فلحقهم من الغم ما لا يعلمه الا الله ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا اليه فقال ما هذا الذى غلب عليكم من الغم فقالوا كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك

حقاً انه لموقف يروّع القلوب . ويستدعى اليأس من الحياة، إبل نافرة بالزاد والماء، وصحراء رملية تتلظى تلظي الرمضاء، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها الا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لا زاد لديهم، ولا ماء يبل صداهم، فماذا يصنعون؟

رحماك اللهم فانّ العلاء آلى ان لا تهلك هذه العصابة المسلمة في مثل

هذه الدهناء ما دام في سبيل الله سعيها، والى نصرة الحق قصدها، فقال لهم: لن تراعوا أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن تخذلوا: فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلمع لهم الماء فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الابل تجمع من كل وجه فأناخت اليهم فسقوها

فكأن الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم تتمكن منها اليقين وأسعفهم بعد الشدة برحمته ليوقنوا انه لا يتخلى من عباده المخلصين

ثم أرسل العلاء الى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون الى الحطم الا أهل دارين واجتمع المسلمون الى العلاء وخندق كل على نفسه وكانوا يتراوحون القتال فاذا أمسوا رجع كل الى خندقه حتى اذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شرّبيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاؤا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ثم قصد فلهم جزيرة دارين في الخليج الفارسي وعبروا اليها في السفن فعبر خلفهم المسلمون وقاتلوهم هناك فظفروا بهم وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء الى أبي بكر بالفتح

عمان ومهرة

لما أسلم أهل عمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الاخوين جيفراً وعياداً ابني الجلندي وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الازدي وكان يسمى في الجاهلية الجلندي وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً فتبعه كثير من أهلها فخانه ابنا الجلندي فعاذ بالجبال وبعث

جيفر الى أبي بكر فبعث اليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة فلحقهما قبل أن يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان أما لقيط فانه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا أن الله منّ عليهم بمدد عظيم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا الى أبي بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس

وأما مهرة فان عكرمة بن أبي جهل سار اليهم لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين أحدهما مع سخريت رجل منهم والثاني مع المصبح أحد بني محارب ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتا فأجابه وأسلم وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب فرأى أن يمحو ما لحقه من غضب أبي بكر لانهزام جيشه في حرب مسيلمة فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاؤا من الغنائم فبعث عكرمة بالاخماس الى أبي بكر مع سخريت وأقام هناك يدبر الامور ويدعو الناس الى الاسلام حتى اجتمع الناس على ما يحب وضرب الاسلام بجرانه

ردة اليمن

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملا للاكاسرة على اليمن ثم دان بالاسلام وكان مقره صنعاء فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من

الصحابة منهم أبو موسى الاشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار وشهرته الاسود فادعى النبوّة فأجابه بعض العرب ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله وأقام أصحاب الاسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون الى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أعمالهم وبعثوا الى المدينة بالخبر وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الاسود فاجتمعوا اليه وأراد أن يحتال في قتل كبار الابناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الاسود العنسى) فهيأ لهم طعاما ودعاهم اليه فظفر بواحد منهم وهو داذويه ونجا الباقون وهما اثنان فيروز وخشنش [1] فطلبهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس الى صنعاء فاستأثر بها وعمد الى عيالات الابناء فغرّبهم وأخرجهم فلما علم بذلك فيروز استمد بنى عقيل بن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الابناء التي سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم انصرفوا الى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم وفى غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسى ومعاونة الابناء وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل بعد ان انتهى من عمان ومهرة فساعدا الابناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الاسود فسيراهما الى أبي بكر

كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يتألف القلوب بالاناة ولا يتعجل بالعقوبة فلما وصل اليه قيس أنبه على ما فعل فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه

(١) وفي تاريخ الطبرى جشيش

شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له لان القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحى انك كل يوم مهزوم أو مأسور [1] لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لاجرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا الى عشائرهما مؤمنين وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى

﴿ كندة وحضرموت ﴾

كان زياد بن لبيد الانصاري عاملا على كندة وحضرموت بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً وكان قد ولي صدقات بنى عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً فطلبوا اليه استبدالها بغيرها فأبى وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العدّاء فاستغاثا بحارثة بن سراقة بن معد يكرب فأقبل الى زياد وحل عقال الناقة وبعثها وقام دونها فأمر زياد شبابا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلا يتعلقون به عليهم وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ونهد اليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا

(١) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في اول ردته وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بنى العاص ثم الى بنى أمية ثم الى بنى العباس الى عهد الواثق حيث أمر بدفعه الى صيقلي ليسقنه فتغير

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل اليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم فلما رجع الاسرى الى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم ان كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الاولى مع الاسود العنسى وانما ألجأهم الى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف

اجتمع الملوك الاربعة منهم ونزلوا المحاجر وهي احماء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرها فنزل الاشعث بن قيس محجراً والسمط بن الاسود محجراً وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة الا الشيم الهمام شُرحبيل بن السمط وابنه فانهما قالا لبنى معاوية : انه لقبيح بالاحرار التنقل انّ الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل الى القبيح ومن الحق الى الباطل اللهم انا لا نمالئ قومنا على ذلك

فلله ما أسمى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلا هذه المدارك وانما ساد المسلمون لا بكثرة وغلبوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد وعديد وانما هو برجال مثل هذين لم تضعف فى مواطن الشدة قلوبهم ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدوّ ذي شوكة فاللهم ارزق المسلمين الآن امثال أولئك الرجال وغيّر حالهم الذي انتهوا اليه بأحسن حال انك مجيب السؤال

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالا ثم انتقلا الى المسلمين ومعهما امرؤ القيس بن عابس وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما ان أشارا

على زياد بتبييت القوم وقالا له انّ اقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا اليهم وكذلك شداد من حضرموت فان لم تفعل خشينا ان تتفرق الناس عنا اليهم . فاستحسن رأيهما وأجابهما الى تبييت القوم فطرقوهم فى محاجرهم وجاؤهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم فقتلوا الملوك الاربعة وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فادركتهم لعنته وفرّ من قومهم من نجا من القتل وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالاشعث بن قيس فثار في قومه واستنقذهم وجمع الجموع فكتب زياد الى المهاجر بن أبي أمية يستحثه فلقيه الكتاب فى الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل فى سرعان الناس وقدم على زياد وسار الى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان فاقتتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هراباً الى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموه وأصلحوه وسار المهاجر فنزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون وقدم عكرمة فاشتدّ الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الامراء على نفوسهم فخرج الاشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد ان يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لهم الباب فاجابهم الى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى اختمه ففعلوا ونسي الاشعث نفسه فأُخذوا وأُرسل مع السبي الى أبي بكر

لما قدم الاشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدّد عليه النكير فلما خشى القتل قال أو تحتسب فيّ فتطلق إسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بامثالي وترد عليّ زوجتي (وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أخرها الى ان يقدم الثانية) فان فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله فحقن أبو بكر دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق

وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره

﴿ كلمة في حروب الردة ﴾

انتهت حروب الردة على ما رأيت وثاب العرب الى السكون بعد ان علموا أنّ الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الارض .

لو علم العرب ما أعد لهم بواسطة الاسلام من سعادة الدنيا والآخرة وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم الذي سيؤول اليهم والسلطان العميم الذي سيصبح بايديهم لما لعبت الاهواء برؤوسهم ، وأخذت الجاهلية الاولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه ان يلقى من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة اعراضاً . حتى يتبين لها انه الحق فترضاه ، وانه سبيل الهدى والسعادة فتقصد اليه وتتوخاه ،

تبين معنا من أخبار الردة امور جديرة بالاعتبار حرية بامعان النظر لا نحب ان يفوتنا النظر اليها وبيان ما يستنتج منها وهي

(١) ان المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ومنهم من أرتد فعلا وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنبئون الاربعة

(٢) ظهور دعوى النبوّة بين العرب حتى ادعاها اربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم الاسود العنسي في اليمن وطليحة في أسد وغطفان ومسيلمة في بني حنيفة وسجاح في اخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم ولقيط بن زرارة في عمان

(٣) انقسام معظم العرب في حروب الردة فبعضهم للاسلام وبعضهم عليه

(٤) سرعة التوفيق في انهاء حروب الردة

(٥) مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم

فاما الامر الاول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة من انها ليست على اطلاقها وانما هو اجتهاد من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ثم لما رأوا أنّ المصلحة تؤيد وقتئذٍ ما ذهب اليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى ان هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها وان بقاء من أسر من المرتدين في حالة الرق مع انهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور في الاسلام قال : انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الاعاجم فاستشار الصحابة في فداء سبايا العرب ثم وضع الفداء ورد السبايا

واما الامر الثاني وهو فشو دعوى النبوّة بين العرب فهو عندي معجزة من معجزات النبوّة وقد حملها بعضهم على ترقي أفكار العرب قبيل ظهور الاسلام ولا دليل لهم على ذلك وانما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ويستل من بين الجوانح روح الحق فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر والا فأي باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول ان فشو دعوى النبوة يومئذ منشأوه ترقي أفكار العرب مع ان هذه الدعوى انما فشت بعد ظهور الاسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لا قبيل ظهوره واذا ادعاها واحد أو اثنان قبل البعثة فلان بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لانفسهم واما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الاوثان لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة الا أهل الكتاب منهم كطيئ مثلا وهم أول من خذل مسيلمة وكان للاسلام نصيرا وللموحدين ظهيرا

والحقيقة التي يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ان دعوى النبوة انما ظهرت في العرب بعد الاسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام وطلبا للرياسة وظنا من القائمين بهذه الدعوى ان مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة مجاراة للرسول على زعمهم وحسب العاقل ان يفرق بين النبوة وبين التنبيء بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ ومنها ان النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو الى الاسلام ومات ولم يجتمع لديه من المقاتلة ما اجتمع في بضعة اشهر لمسيلمة الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين ألفا باتفاق المؤرخين ومع هذا فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الاسلام كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش وأعدوا العدة لمكافحة الاسلام فصدمهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحاهم من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ومع هذا فقد كانت كلمته هي العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لانه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوة الصحيحة والفيض الالهي العظيم الذي لا تغني عنه الجيوش الكثيفة ولا يقوم مقامه ترقي الافكار ولو انصف اولئك الناس وانعموا النظر في كثرة المتنبئين في عهد الرسالة وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانمحاق دعوتهم في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ودعوته قائمة منتشرة واتباعه في ازدياد حتى بلغوا الى هذا العهد

سدس البشر وضرب الاسلام بجرانه في معظم انحاء الارض لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوة أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ويظهر الباطل في جانب الحق ليميز بين الاثنين . ويعلم المعاند أن محمداً نبيّ الله حقاً بلامين . ولكن ما الحيلة (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وأما الامر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتصر للاسلام وقائم عليه فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين . وتعجيل الفتح المبين . وفيه دليل على ان الناس انما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لانهم لرؤسائهم تبع . ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون . فان كلمة من عديّ بن حاتم الطائي مثلا كفت لانحياز انجاد طيء وفرسانها لجانب المسلمين وقتالهم في صفوف الموحدين فان عدياً لما كان شهما يأبى النقيصة وقد سبق منه الايمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر الى قومه لما انحازوا الى طليحة الأسدي ونصحهم على الوفاد بالعهد . وعدم الخروج عن الايمان فسمعوا له واطاعوا . ولما اشار به انصاعوا . حتى قيل يومئذ (كان عديّ خير مولود في طيء واعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلقهم بكريم اخلاقه . وتمسكهم بالاسلام اقتداء به . واتباعاً لنصيحته .

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر في قومهما من تميم حتى اقتدوا بهما وأطاعوا اشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من احياء تميم . وانحازوا مع ذينك الشهمين الى المسلمين .

وأما الامر الرابع . وهو سرعة التوفيق بانهاء حروب الردة . والامر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فانهما ولا ريب من نتائج حسن

اليقين عند المجاهدين وتجردهم لنصرة الاسلام تجرد من لا يرى الحياة الا بالموت ويرجو من ثواب الشهادة في اعلاء كلمة المسلمين، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافئة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين واعزازجانب اخوانهم الموحدين ان تدك امامهم شوامخ الجبال ، لا صفوف الرجال وبستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار

ولا ينكر ما لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا انحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربى وخليج فارس شرقا وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غرباً ولم تكن غيبتهم الا كما يغيب المرتاد للمناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الايمان ،

وقد نتج عن هذا كله ان وقعت هيبة الاسلام في قلوب العرب وايقنوا انه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئه ، ولا ينجح شانئه ، فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه ،

باب

﴿ فتوحات أبي بكر ﴾

(تمهيد للفتح الاسلامي)

رأي أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا

يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة فى جسم تلك الأمة العظيمة التى جمعتها كلمة الاسلام وان يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعميما للدعوة الاسلامية وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم فما هو الآن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت احشاءها سيوف الاهواء والاوهام، وقضي على مجدها القديم ظلم ارباب السيطرة على النفوس والاجسام ، فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين (الاسلام أو الجزية أو السيف)[1] حتى اشرأبت لعدل سلطانهم اعناق الناس . ودانت لدينهم الشعوب . وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك ، وشادوا الممالك ، ومصروا الامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى ، كما يأخذون على يد الظالم

---

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة فى الاسلام هي ان لا يقبل من مشركى العرب الا الاسلام وأما اهل الكتاب فالاسلام وان أبوا فالجزية وهي مايستعان به على اصلاح شأن الأمة وان أبوا فالسيف أى الحرب وهي منتهى درجات الدعوة وانما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الافرنج في حماية المبشرين بالاساطيل والجند والعدة والعديد

وقد اختلف في المشركين من غير العرب أي المجوس هل يحاربون على الاسلام أو الجزية أم على الاسلام فقط والمشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية وأما العرب فلن يقبل منهم الا الاسلام وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الاسلام بين الامم بالاكراه وهو لم يقم الا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الاديان تفصيلا شافياً

حتى يخذى ،

اما والله لن تبلغ أمة بالظلم والقوة، وكثرة العديد والعدة، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والايغال في احشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرصون ، ولينصف الغربيون ، فانّ سلطان الظلم اذا أسرع بسيفه الى الرقاب، فلا سلطة له على النفوس، وانما تملك النفوس، بالعدل، وتلتفّ الناس على القائم بالقسطاس، السائس بالرحمة، الباسط بساط الحرية والأمن، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار ، وأنّى يجاريهم ساسة الممالك في هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين، وبئس من غلبتهم الشهوات بعدُ فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين، وقذفوا بالأمة من خالق مجدها الى وهدة الذل المهين .

أجل ان أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبنصفة المغلوبين لهم لا بالحيف . ولماثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب على أمره من مستبد قاهر الا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لاهل الاسلام وهم مكرهون ، ولإدالة دولتهم من العرب متمنون، وأيّ شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذي ينطق عليهم بالحق ولا يقول الا الصدق

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحبّ الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

واحزناه على ذلك العدل . قوم نشأوا في مهد دولتهم ونشأت في أحضانهم. ودانوا بدينها ودانت بدينهم. يغلقون في وجهها الابواب. ويظاهرون عليها العدوّ ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم . وينكس أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم . ولا من جنسهم . ولا من أهل لغتهم . هل مرقوا من الدين . وخانوا الدولة . وباعوا الوطن . وماتت فيهم طواطف العزّة .

كلاّ وانما هو العدل العدل . العدل الذي جمع بين الامير والمأمور والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم في شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والاخاء

شيء شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه . وذاقوا طعمه بعد ان لم يذوقوه . فحبب اليهم دولة المسلمين بعد اذ أصبحوا من حقيقتها على علم . وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

اللهم انك اذا حببت بسلطان الارض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة، وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن، وأردت له سعة السلطان ؛ ومكنت له في الارض كما مكنت لانصار دينك يومئذ سلطانهم، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فان رحمتك قريب منه، وأنى يشتبه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم

ورضوا عنه ،

من يصدق ان تلك القبائل البدوية التى نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعى المدنية ، تنتهى اليها فى بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا لولم ينزل اليها القرآن، وتستنير بشريعة سيد ولد عدنان،

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الاسلام . بالامس كانت هذه القبائل مشهرة سيوفها على المسلمين والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس فى محاجرها بقومهما من كندة يضربون بالسيوف فى وجوه المسلمين واليوم أحدهما الاشعث فى العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادى يا للاسلام ، والثاني في حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون فى وجه دولتهم الابواب ، ويدفعون عنه جند الروم انّ هذا لمن العجب العجاب ،

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السياسة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرص الناس على حكمهم، وأرغبهم في شرعهم ، أفليس فى هذا كله ما يكف عن الاسلام ألسنة المخرّصين ؟ ويشهد بان الفتح الاسلامى كان خيراً وبركة على الناس أجمعين

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ولم يحد أمراؤهم عن صراط القرآن، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمة للاهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون الاّ مجداً ورقياً والاسلام الا انتشاراً وتعميما ولكن هي الاخلاق اذا فسد جوهرها والاهواء اذا

انفجرت ينابيعها صارت طوفانا اذا اندفع على البشر ، لا يبقى ولا يذر ، والنعم لا تدوم الاّ بالشكر ،ولا تزول الاّ بالكفران ، وحسبنا من هذا قوله تعالى فى القرآن (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

﴿ فتح العراق ﴾

أول من حرك في نفس أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمر العراق هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني من بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقى وقومه على الاسلام وكان يغير على سواد العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري . هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيباني

والظاهر ان المثني بمجاورته لبلاد فارس وتوالي غارته على اطراف ملكهم من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبل دولتهم فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من أسلم من قومه ليغزو بهم أطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رأى ان المثني وحده لا يقوم بالمهمة التي خالجت فؤاد أبي بكر وهى نشر راية الاسلام على ارجاء العراق ثم فارس فاستدعى اليه خالد بن الوليد المخزومي من اليمامة في المحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة وأمره بالمسير الى العراق وأن يبدأه من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة وقسم من ارمينيا بعدُ وأمره ان يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضا أن لا يضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه رضي الله تعالى عنه على

منابع الثروة وعلماً بان العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة. والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك وانما هي قائمة بالفلاح فهو اولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر . يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الاقوام ويدكوا صروح أولي السيطرة الظالمين ثم يبث فيهم روح الرأفة بالفلاحين ، والمحافظة على المستضعفين ، ليذرع فى نفوسهم احترام حقوق اهل الفلاح الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم الى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم وليعلموا أنَّ أولى الناس برعاية الامير عامل يعمل بارضه ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين

وأوصاهما أيضاً ان لا يغزون معهما أحد ممن ارتدّ وذلك لضعف ثقته رضي الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ما ظهر من حرب المسلمين ولعله خشى من أن يكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبي بكر لبعد نظره في العواقب وتأنيه في الامور ومع هذا فانّ عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين الى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الاسدي وعمرو بن معديكرب والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس وأمثالهم البلاء الحسن فى فتوح الشام والعراق والاخلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح وانما قويت ثقة عمر رضى الله عنه بالعرب لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الاسلام ولأن في

توالى الجهاد شاغلا لاهل الفتنة عن الفتنة . ولعلّ ما أصاب المسلمين من بلاء التشيّع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعده لمّا استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخلدوا الى الراحة من عناء الفتح كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر والله بالحقيقة عليم

لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف وبعد مسيره أمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار . فقيل له أتمدّه برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمدّ عياض بن غنم بعبد يغوث الحميرى وكتب الى المثنىّ بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وكان مذعور بن عدىّ العجلىّ قد كتب الى أبى بكر يعلمه حاله وحال قومه من الاسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس فأمره ان ينضم الى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل يتربص في البصرة مجيء خالد ليكون وقومه معه على قتال الفرس . فحيّا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضي عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الاسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيأ الله لاهله أسباب النصر لما نصروه . وأعزّهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون فى أول بلد قصده خالد فقال بعضهم انه سار الى الأبلة (١) وقال الدينوري في الاخبار الطوال انه سار الى الحيرة وان فتح الأبلة كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان. ولعلها انتقضت فارسل

---

١ قال الدينورى في الاخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبة الخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اه

عمر عتبة لاخضاع أهلها اذ المشهور ان خالداً بلغ الحفير والكواظم عند مصب الفرات ودجلة في خليج العجم ثم عاد الى الأُبلة ففتحها عنوة وخلف عليها سويد ابن قطبة وقال له. قد عركنا هذه الاعاجم بناحيتك عركة اذلتهم لك. ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهي منازل خربة بها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها واستخلف فيها عامر بن قين من بني سعد بن بكر من بنى هوزان ثم تتبع شط الفرات فجاء بانقيا وبار وسماو آليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى ان يكون أهل آليس عيونا له ثم سار الى الحيرة فناوش أهلها الحرب فخرج اليه أياس بن قبيصة الطائي من أشراف الحيرة وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (الى الاسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له اياس مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطي الجزية فصالحهم على الجزية واختلفوا فى مقدارها فقال بعضهم انها كانت تسعين الفا وقال بعضهم مائة الف وروى البلاذري ان أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفا تكون ستين وزن سبعة. وروى الطبرى انها كانت مائة وتسعين الفا ويؤيده ماجاء في كتاب عهد خالد لاهل الحيرة على ما سترى

وأهدى أهل الحيرة هدايا الى خالد على عادتهم مع الفرس فبعث بها مع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفيء الى أبي بكر فقبل الهدايا وعدها لاهل الحيرة من الجزية تعففا عما لم يأذن به الشرع وقطعا لدابر العادات الاعجمية التي كان يحتال بها على سلب أموال الناس

هذا أول فتح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج جزيرة العرب وقد رأيت انه لم ترق فيه نقطة من الدم في غير الابلة وفيه دليل على ارتياح اهل البلاد الى حكم المسلمين وملهم من ظلم الفرس وتوقعهم

لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم وانما قوبل خالد بعد هذا بالحرب لدماء أصابها من النمر وتغلب واياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثار

ثم ان خالداً بعد ان استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قِبَل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة أخذ يتمم فتح العراق العربي فسار مصعدا جنوبا فافتتح الانبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين التمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ولما وصل الى دومة الجندل التى بعياض ابن غنم فجاءها عياض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتاحها عنوة . وكانت آخر حروب خالد في الفراض التى هي آخر تخوم العراق مما يلى الشام والجزيرة وكان كلما فتح فتحا وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه مع خبر الفتح حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء ان يلدن مثل خالد)

وسيأتي معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق فى سيرته ونورد كتبه التي كتبها الى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التى افتتحها ان شاء الله

انصرف خالد بعد وقعة الفراض الى الشام واستخلف المثنىَّ بن حارثة الشيباني على جند العراق فاقام في الحيرة يرتب المقاتلة ويذكى العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن ازدشير فظن ان غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين فجهز جيشا عظيما بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المثني في بابل شرقي الفرات والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس وكانت حربا شديدة انجلت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس فعاد الاضطراب

في المملكة الى ما كان عليه واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافا يؤذن بادالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والاوهام دون الجد والحزم (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

باب

فتوح الشام

(تمهيد)

لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للاجهاز على ممالك الفرس ورأى أبو بكر ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذي وعد المؤمنين (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) انصرفت همته الى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات التي أعدها الله للمسلمين

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية وكان سلطان الروم هناك في تقلص . ونفوذهم في اضمحلال . ومعظم ولاية الشام في أيدي العرب واليهم ترجع الامارة وعلى الملوك من بني غسان حراسة البلاد . ولم يكن لقيصر في باطن الامر على اهل الشام سوى الاتاوة . والنفوذ والسلطان انما كان للعرب الذين كانوا لا يميلون الى الروم ويودون اجلاءهم الى حيث نبت

بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذي يصاحب غالباً أواخر الدول الفاتحة الغريبة عن البلاد المخالفة لها في الجنس والعادة فلهذا ولأن الشام في الحقيقة أشبه بجزء طبيعي من جزيرة العرب كانت الاسباب متوفرة لضم هذه البلاد الى سلطان المسلمين وطرد ذلك الفاتح الغريب العابث بنظام العدل المتعدي على حقوق الملك الطبيعي والاستقرار الثابت للعرب . يضاف الى هذا ان انضواء الامة العربية الى لواء الاسلام واجتماعها على كلمة الايمان أمر لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة في الجنس واللغة التي تقضي بوحدة الدين والسلطان

وأنت ترى ان الشام بهذه المثابة حق طبيعي للمسلمين وهي لما حكمت بالاسلام انما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين حكم الجوار واللغة وان لم تكن عامة وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى بالشرق .

اذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدعون حقاً قديماً في البلاد يسمونه المسئلة الشرقية ولم يكن لاسلافهم في الشرق الا ما يكون لكل فاتح غريب من السيادة الى حين . ثم يتقلص ظله . وينكمش الى وطنه . كما انكمش الرومان الى حيث نبت بهم بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلهم (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وحبذا لو حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى الى مجالس العدل والمناقشة ، وولجوا بنا باب الانصاف في المناضلة ، اذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا في جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنها القوة تغلب كل حق وان كانت في نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها الا اذا عادل خصمه واستعلى

على عدوه وأنَّى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبي بكر واخوانه ومعاوية والخلفاء من بني عمه والمنصور واحفاده وعبد الرحمن الداخل واشبال اشباله وصلاح الدين وعزيمته والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين قضوا بعزائمهم على بقايا دولة الرومان في الشرق

ذكرى تمزق الافئدة والقلوب وحال من ضعف البصائر وغلبة شهوات النفوس قد انتهينا اليه أفقدانا كل صبر ، وسلكنا بعقول النابغين في الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم الى التخلص من شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف اسوار من شهوات الامراء وأتلاف الامة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار الشمم من نفوسها ، لا تزول الا بخلق جديد في الاسلام فقد استقلاله،وقضي حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد الاّ على جده ، يهب هبة الغافل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو وفي قول علي بن أبي طالب ما يشير الى هذا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) (١)

هذا الحق الذي يعظم وقعه في نفوس العقلاء . ويثقل سماعه على البسطاء . نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين وحكوماتهم . والنظر الى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ الانسان — وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون — ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق — واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا — ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

١ وفي الطبعة الاولى قلنا انه حديث وهو خطأ لزم اصلاحه هنا

أقدامكم — وتلك الايام نداولها بين الناس — الى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت ان لله في خلقه سنناً لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لا مهرب منه ومع هذا فانا نرجو أن تخاف ظننا الاقدار ويخلق الله لهذا الأمة مالم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على الجد اذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق الى نهايتها يصير . وانما نصر الله المسلمين في عهد أبي بكر ومن بعده بجدهم وسؤددهم على الامم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين

﴿ استدراك ﴾

ربما يظن ظان مما قدمناه في هذا التمهيد انا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية إبان الفتح وانهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها والحال ان ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة انما هي حقائق تاريخية أوردناها على وجه الاجمال لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك ما فات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول

ان قسما عظيما من سورية كان مأهولا يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها الى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة

دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى شط الفرات مأهولاً بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق

فاما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بني غسان الشهيرة فمشهور لا حاجة فيه الى البيان

وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولا بالعرب فالدليل عليه مارواه الطبرى وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد والبلاد التي مرّ عليها أثناء مجيئه من العراق الى الشام لنجدة المسلمين ومنه يستنتج انّ كل البلاد التي مرّ عليها يومئذ منذ أشرف على وادى الفرات حتى انتهى الى دمشق بلاد مأهولة بالعرب واليك البيان

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع اليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادى الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعّار وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل الى الآن كذلك فاتى أرك وهي واقعة بين تدمر والدير ومنها سار الى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية وسار منها الى القريتين (ولم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم) ومنها سار الى دمشق (عن طريق القلمون الاسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام الى العراق) فأتى خالد في طريقه على حوارين وقُصَم وكانت آخر ما فتحه من البلاد الواقعة في طريقه من شمال دمشق فقاتله اهلها وكانوا من بني مشجعة من قضاعة فظفر بهم ثم سار عنهم الى ثنية العقاب (التى تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر

الى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً الى جهة الجنوب) فأغار على بني غسان فى يوم فصحهم فقتل وغنم وبعث بالاخماس الى أبى بكر

هذا ما أثبته الطبري بشأن البلاد التي مرّ عليها خالد وفتحها أثناء مجيئه من العراق الى الشام ومنه علمتَ ان آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقي عن دمشق (قُصَم) وأهلها من العرب من بني مَشجعة وهو يدل على ان القلمون الاسفل وما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان مأهولا بالعرب من النمر وتغلب واياد وبهراء وغيرهم (١)

وكذلك القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولاً ببني غسان . والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الاسلامي فهي اذن كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية والفرات ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولاً بالعرب

اذا تقرر هذا علمت ان لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب واليهم ترجع حماية البلاد وحراستها ولم يكن للروم فيها الاّ الاسم اللهم الاّ ما كان منها واقعاً في الجهة

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب فجعل قصم آخر الفتح الى جهة دمشق . وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فاذا صح هذا ضعف أستدلالنا على ان قلمون الاسفل كان مأهولاً بالعرب

الغربية والشمالية كفلسطين والاردن وحلب وانطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم

﴿ بعث البعوث الى الشام ﴾

كان بَعْثُ أبي بكر البعوث الى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عوده من الحج وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص وقال ابن الاثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين انه عزله قبل أن يسير بايعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بتيماء رِدأً للمسلمين وأن لا يفارقها وان يدعو من حوله من العرب وان لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ثم جاءه ماهان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه فكتب الى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث الى آخر ما ذكروه من خبره

هذا ما ذكره بن الاثير وغيره وروى البلاذرى في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال

لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكلم أبا بكر في عزله وقال انه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسى لاخذ لوائه فلقيه بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبى بكر رضي الله عنه فدفعه أبو بكر الى يزيد بن أبى سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم اليه اللواء بذي المروة فمضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شُرَحْبيل اهـ

والذي يستنتج من هذه الرواية ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون رداً للمسلمين لا ليغزو مع الامراء ثم بعد مسيره كلمه بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه فدفعه الى يزيد وسيره على أثر مسير الامراء. وروى الطبري في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية وروى ايضاً من طريق آخر ان أبا بكر لما عقد الالوية للامراء عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كلمه بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض وأمر خالداً أن ينزل بتيماء وان لا يبرحها وان يدعو من حوله الى الاسلام ففعل واجتمع اليه جموع كثيرة فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب له أن اقدم ولا تحجم فسار اليهم خالد فتفرقوا فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر. أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. فسار فيمن كان معه فلقيه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده وكتب الى أبي بكر يستمده فاهتم أبو بكر لامر الشام وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الامراء فنكبه الروم فعاد الى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الامراء. وهذه الرواية توافق ما رواه ابن الاثير وتخالف رواية البلاذري وفي كلا الحالين فان يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ولما تكامل جمعهم وذلك في مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الالوية فعقد لواء لعمرو بن العاص وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاعة ووجهه الى فلسطين. وعقد لواء لشُرَحْبيل بن حسنة وكان قد وفد اليه من

العراق ووجهه الى الاردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشراف قريش ووجهه الى البلقاء وقال بعضهم الى دمشق. وعقد لابي عبيدة عامر بن عبدالله ابن الجراح الفهري ووجهه الى حمص . وكان العقد في بدء الامر لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين الفا ؟

هذا هو الجيش القليل العدة النائي الديار الذي سار على بركة الله ليغزو الروم في عقر دارهم. ويجوس خلال ديارهم . ويزعزع اركان ملكهم. وينذر بتقلص سلطانهم . وينشر راية الاسلام على ربوع الشام وأسيا الصغرى والجزيرة وارمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله في السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الاسلام ، والتعفف عما بأيدي الناس ، وانصاف المغلوب ، وحماية ماله ونفسه ، واطلاق الحرية له في عوائده ودينه ، ما دام يدفع للمسلمين جزءاً من ماله ، يستعينون به على اصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الامير والامانة في الجوار ما عليهم ، لا يضار في عرض ولا نفس ولا مال ، هذا اذا اختار البقاء على دينه ، ورضي باداء جزيته ، وأما اذا أسلم فالمسلمون كما في الحديث (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم)

ضف الى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص

وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم أجمعين ومن ورائهم مثل أبي بكر يمدهم بالرأي . ويتابع اليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبي سفيان التي تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الامم في كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الامراء

﴿ وصية أبي بكر ليزيد ﴾

اني قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك . وان أسأت عزلتك . فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك . وان أولى الناس بالله أشدهم توليا له وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا اليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد [1] فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها . واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه . واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به. ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك . وأنزلهم في ثروة عسكرك . وامنع من قبلك من محادثتهم . وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط امرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة. ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك . وأكثر مفاجأتهم

(١) يريد خالد بن سعيد

في محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها ايسرها لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجنّ فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً . ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم . ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له اهـ

﴿ ابتداء الفتوح ﴾
(بالشام)

علمنا مما سبق ان الجهاد مبنيّ على الدعوة وان المسلمين لا يبدأون أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم الى خصلة من ثلاث (الاسلام أو الجزية أو السيف) أي الحرب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل في جملة من كتب اليهم من الملوك يدعوه الى الاسلام ففي رواية انه أجابه واسلم سراً وفي رواية انه لم يجبه ولما سار الامراء وكتبوا اليه يدعونه الى خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع اليه البطارقة وكبار القواد وشاورهم في امر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه الا الحرب وكان مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم

نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم) ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ باعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الاردنّ . ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين . ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ومن قائل غير ذلك والذي قال بالاول بني قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمدّه بخالد بن الوليد ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد انتهى بانكسار الروم وبينما هم في اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومع المخبر أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة بن الجراح

مع انّ امعان الامراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الاردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك كل هذا يؤيد ان واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة اجنادين التي بُشّر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها وان المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً ويؤيد هذا

ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

وقد اتفق ابن الاثير والبلاذري على حصول وقائع للسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك وهي وقعة بصرى في حوران وداثن في فلسطين ومرج الصفر وغيرها

والظاهر من هـذه الروايات أن الروم فى ابتداء الامر لم يحفلوا بأمر المسلمين ولم يظنوا فيهم القوّة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل في احشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة وهو من سوء الرأي المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر فانّ الاستهانة بالعدوّ مهما قلّ وهن في السياسة منشأوهُ ما يصيب عقول السياسة في الدول الهرمة من فقد قوة التجارب أو الاعراض عن مصالح الملك حبا بمصالح النفوس وشهواتها

قد مهدت سياسة الروم هـذه للمسلمين ان يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين في الحروب العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد فانهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي فى فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر في الجنوب والجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة الى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو في الاردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب . ومن ورائهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات

على هذه الصفة دخلت الجيوش الاسلامية الى الشام وافتتح كل أمير مامرّ عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى اذا اخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين . وانتبهوا انتباه الغارين . فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام وُهم يومئذ حماة البلاد والي الملوك من بنى غسان ينتهى القول والعمل فاجتمع لديه منهـم ومن الروم زهاء مائة وخمسين الفا فقسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسما منهم بقيادة أحد مشاهير القواد

اجتماع الامراء في اليرموك

ووفود خالد بن الوليد عليهم

لما رأى أمراء الجيوش الاسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود كتبوا بذلك الى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم فأشار عليهم بالجلاء عن البلاد والتقهقر الى اليرموك وهونهر فى واد واقع فى الجهة الشمالية من جبل عجلون الى الجنوب الغربى من الشام وكتبوا الى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد وكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى الشام وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنىّ بن حارثة بطل العراق الشهير ولا يأخذن من فيه نجدة الاّ ويترك عند المثنىّ مثله فامتثل خالد الامر وسار بمن معـه حتى أتى تَدْمُر وهى على حافة البرية ممـا يلي وادى الفرات وموقعها الى الشمال الشرقى من دمشق على بعد ١٥٠ ميلا منها بعد ان عانى وجيشه مشقة عظيمة في الطريق وغزا من صادفه من القبائل كما سترى فى

سيرته بعدُ ثم قام من هنـاك الى ثنية العقاب ومنها الى مرج راهط الواقـع شرقي الغوطة فأغار على ارباض دمشق ثم اتجه جنوبا الى بُصرى وقاتل أهلها فظفر بهم وأرسل بالاخمـاس الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة

كان المسلمون الى ذلك الحين يراوحون العدوّ القتال ويطاولونه في النزال متساندين كل أمير على جيشه والعدوّ امامهـم بجنده الـكثيف الذي يبلغ المائة وخمسين الفاً لاينزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن امامه جند الاسلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي في الحرب بعيد النظر في ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الامراء وليس لهـم أمير يجمعهم فجمعهم اليه وخطب فيهم خطبة أنبّهم فيها على ماهم فيه من الافتراق في الامارة على ماستري ذلك في سيرته وطلب اليهم أن يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الامارة العامة كل يوم واحد وان يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا اشـارته وأمّروه فرتب الجيش ترتيباً حسناً ثم نشب القتـال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم مايؤيد قولنا فيما سبق ان الله سبحانه وتعالى كما أيّد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالأنصار أيّده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة جداً وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجـلة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة وعمرو ابنه وسـعيد بن الحرث بن قيس ابن عديّ وهو قديم الاسـلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاء ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح

لا جرم ان واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك فانها كانت آخر وقعة قضي فيها على سلطان الروم في سورية حتى لم يقم لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر واذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا انهم كانوا محور الحرب الذى دارت عليه رحاها وجُنّتها التي تلقت سهام أذاها. واليهم ينتهى الفضل في كسر شرّة الروم وتمهيد السبيل لتدويخ بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الاسلام

ليس بعجيب ان يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار وانما العجب لهذا الرهط ان ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسـة الممالك من الفرس والروم ويقضى على كثير من ممالك الارض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين .والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة . وانما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا الى العلم بالدين وامتلأت قلوبهم بنور الايمان

لا ريب ان هدى الاسلام قد نفذ منهم الى اعماق القلوب وكشف عن بصائرهم غشاء الغرة فأخرجهم من الظلمات الى النور فرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم اليه . ففازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا في الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده

ممن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب وذهبت فيها عينه وخالد بن الوليد والسمط بن الاسود الكندى وعكرمة بن أبي جهل وهو الذي قال لما اشتد الامر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط خالد

قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم[1] . ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الازور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من باع نفسه في سبيل الله وأصبح الموت أحب اليه من الحياة حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح فأتى بهما ثاني يوم الى خالد فوضع رأسيهما على فخذيه وجعل يقطر في حلقيهما الماء، ويقول . زعم ابن حنتمة يعني عمر انّا لا نستشهد

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها فتخلى الامير عن امارته والغنيّ عن ماله وملذته والشريف عن عزته والعائل عن أهله وولده التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الاسلام ، وطلباً لقهر العدوّ وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين ياحماة الاسلام ، وطلاّب الشهادة ، يشددّن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف ،

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرّضات يجاهدن العدوّ ويحرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتل للمرأة ولد فبعثت الى ساحات الحرب اباه . أو تسلّت عنه بأخيه

بينما المسلمون في ذلك اليوم في أشد حالات الحرب والصدام قدم

(١) يعني من مواطن قريش لان اسلام عكرمة كان بعد فتح مكة

البريد من المدينة واسمه محمد بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد وانما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولي الروم أدبارها

وقد اختلف المؤرخون في هل جاء الخبر بوفاة أبي بكر والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا في هل فتح شئ من الشام قبل اليرموك في خلافة أبي بكر ومما لاريب فيه ان جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم الجنوبي من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالا كما رواه البلاذري الا ان انجلاءهم بعدُ عن البلاد وتقهقرهم الى اليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوّهم لهذا عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وحار بعضهم فأوردها مشوشة وفي كلا الحالين فان الفتح الحقيقيّ للديار الشامية انما تم في زمن عمر بن الخطاب ولأبي بكر الفضل العظيم فيه لسبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح انه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد

باب

مناقب أبي بكر وأخلاقه ومآثره

ان أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله واخلاقه تمثيلا لايدع في النفس حاجة الى المزيد ماوصفته به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنه وعنها بخطبة وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه واذا أتيت بشئ

من ذكر فضائله ومناقبه فانما يكون تفصيلا لما أجملَت . وشرحاً لما أوجزَتْ فقد روي انه بلغها أن أناسا يتناولون من أبيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت

أبي مأبيَه لاتعطوه الايدي ذاك والله حصن منيف وظل مديد أنجح اذ أكديتم . وسبق اذ ونيتم . سبق الجواد اذا استولى على الامد . فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلا . يريش مملقها . ويفك عانيها . ويرأب صدعها . ويلَم شعثها . حتى حليته قلوبها . واستشرى في دينه . فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة . وقيذ الجوانح . شجى النشيج . فانصفقت عليه نسوان مكه وولدانها يسخرون منه ويستهزؤن به والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها . وفوّقت اليه سهامها . فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومرّ على سيسائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست اوتاده . ودخل الناس فيه افواجا من كل فرقة ارسالا وأشتاتا . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ماعنده فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد طنبه ونصب حبائله واجلب بخيله ورجله والقى بركه . واضطرب حبلُ الدين والاسلام . ومرج عهده . وماج اهله . وعاد مبرمه انكاثاً . وبغي الغوائل وظن رجال ان قد اكثبت اطماعهم نُهزها . ولا حين الذي يرجون . وأنا والصدّيق بين اظهرهم فقام حاسرا مشمرا . قد رفع حاشيتيه . وجمع قطريه فردّ نشر الدين على غره ولمّ شعثه بطيه وأقام اوده بثقافه . فابذعرّ النفاق بوطأته . وانتاش الدين فنعشه . فلما اراح الحق على اهله . واقر الرؤوس على كواهلها . وحقن الدماء فى اهبها . وحضرته منيته . فسد ثلمته بشقيقه فى

المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة ذاك ابن الخطاب لله أم حملت به ودرّت عليه لقد أوحدت ففنخ الكفرة وديخها . وشرّد الشرك شذر مذر وبعج الارض وبخعها فقاءت أكلها . ولفظت خبئها ترأمه ويصدعنها . وتصدّى له ويأباها . ثم وزع فيأها فيها وتركها كما صحبها فأروني ماذا ترتؤون . وأيّ يومي أبي تنقمون . أيوم اقامته اذ عدل فيكم . أم يوم ظعنه اذ نظر لكم أقول قولي هذا واستغفر الله لى ولكم [1]

﴿ سياسته في الخلافة ﴾

لم يكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأحرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدّى العرب بالقرآن ويتألفهم بالمعجزات ويملك عليهم طرق الزيغ بتوالي نزول الوحى بالدلالة على المنافقين منهم . وكشف خبايا ضمائرهم . ومع هذا فقد عانى منهم ما عاني ولقى أشد مايلقى نبيّ من قومه ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة وانتقاض العرب ما أوهن عزائمهم وفتّ في عضدهم نظر أبو بكر فرأى أنّ العرب كان يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي وهم مع حداثة عهدهم بالاسلام عريقون بالبداوة ساذجو القطرة قلّ أن يتأثر وجدانهم الا بما يتأثر به حسهم فلاسبيل الى اجتذاب قلوبهم وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام أو قواصر التقريع للاحتيال على ضمائرهم . والتوصل الى كبح جماحهم

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد اوردها ابن عبد ربه في العقد الاّ ان أيدى النساخ مسختها مسخاً فجاءت ناقصة عن هذه في بعض الجمل ومختلفة عنها في البعض فتلقابل

وان القوّة هي أحسن ما ترتاض به نفوسهم . وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم . وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأى دون كثير من الصحابة كما علمت مما مرّ في اخبار الردة فكان رأيه الصائب . وقوله الحق . وعمله الموفق وسياسته الناجعة . حتى اعترف له بالاصابة وحزم الرأى بعدُ جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان من وراء عمله في الردة سلامة الاسلام والمسلمين من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الاعداء بدليل ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة قال (والذي لا اله الا هو لولا أنّ أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقيل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبي بكر في انفاذ جيش أسامة وجيوش الردة في حديث طويل قد مضى معنا ما هو بمعناه من أخبار أبي بكر فلا حاجة لا يراده هنا

وكذلك رأيه في انفاذ جيش أسامة يدل على علوّ كعبه في السياسة وبعد نظره في مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهرة القوة . واستهان بانفاذه بخطب الردة. فنفث في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الامرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقتهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا . وردتهم عما ابتدعوا . وضرب الاسلام بينهم بجرانه . وقضى على شيطان الجهل وأعوانه

ومن حسن سياسته انه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين . فاستكانوا للاسلام . وأخلدوا الى الطاعة . ولم يرَ بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدّة معهم . رفع العقوبة عن زعمائهم . وألان القول لأمرائهم . تأليفا لقلوبهم . واستفادة من نفوذ رأيهم في أقوامهم فلما جيء له بالسمط بن الاسود الكندي أحد ملوك كندة. وعمرو بن معد يكرب

والاشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم . وامتلك ضمائرهم . فكانوا في المستقبل من انصار الاسلام الكبار . وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد واغضاؤه عن هفوته في قتل مالك بن نويرة مع الحاح عمر عليه باستدعاء خالد الى المدينة ليحاكم ويجري العقوبة عليه . ولما قال له عمر انّ سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللائمة على خالد. قال ياعمر تأوّل خالد فاخطأ فارفع لسانك عنه فاني لا أشيم سيفا سله الله . وودى مالكا وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل وأخبره الخبر واعتذر اليه فعنفه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوبا من الجند عظيم الرأي في الجهاد موفقا في الحروب فرأى أبو بكر ان رجلا هذا شأنه لما يضن به ويحرص عليه . لاسيما وانه كان يضمر أن يرمي به الفرس والروم . ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الاسلام في الممالك القاصية . لما يعهده فيه من سداد الرأى والشجاعة والتوفيق . فاكتفى بتعنيفه علما منه بانه ان أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف في تنبيه مثله الى ان لايعود الى مثلها

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم في جهاد الاعداء وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام بحسن اختيار أبي بكر له وعفوه عنه فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول والادلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوّة وذلك لحرج الموقف الذي وقف

فيه المسلمون وقتئذ واشرئباب الاعناق الى الخلاف . وتلظي نار الردة . وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف . وتربصهم الشر بالخلافة . وناهيك به موقفاً يحتاج الى الأناة والبصيرة . والصبر والعزيمة . وما زال به أبو بكر حتى بدد غيومه . ومهد للسكون والسكينة طريقه . فوافته الأمور كما شاء . وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب . ومما قاله يومئذ وهو يدل على اخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته الى درء الاخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتوليه الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف قال خطب أبو بكر فقال

(والله ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلة قط . ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية . ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيما مالي به من طاقة . ولا يد الا بتقوية الله) فقال علي والزبير ماغضبنا الا لانا أخرنا عن المشورة وانا نرى أبا بكر أحق الناس بها انه لصاحب الغار وانا لنعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي اه

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه وصاياه للقواد والامراء بالرفق بالامم المغلوبة وتجنب كل مايثير بالمحارب ثائرة الاشجان ، أو يدعو الى مس جانب الانسانية أو يخدش وجه العمران . حتى كان من ذلك ان قام ميزان الشريعة بين الامم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الاسلام على الارض . فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضووا الى لوائه ، وكانوا من أنصاره وأوليائه ،

كان جند الاعاجم من الفرس والروم اذا وطئوا ارضاً أفسدوها .

واذا ظفروا بعدو مثلوا به واستباحوا حماه . فجاء جند الاسلام يحمل الدعوة قبل الحرب في يد وأمان البلاد من امثال تلك المنكرات الخسيسة في يد أخرى . وكانوا اذا انتصروا على عدو واستباحوا حمى ملك أو أمير يحملون رؤوس البشر الى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، واعلان للفخر ، فرأى أمراء المسلمين في حرب الروم ان يعاملوهم بنفس عملهم فبعث عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام الى أبي بكر مع عقبة بن عامر فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة . ياخليفة رسول الله فانهم يصنعون ذلك بنا قال . أفيستنان بفارس والروم لايحمل الي رأس انما يكفي الكتاب والخبر اه أخرجه البيهقي

اللهم ليست المدنية بالزخارف التي يتحلى بها الغربيون الآن ومن ورائها الشهوات تهدم مايبنون ، وتضع مما يرفعون ، تنزع بالقوي اذا استعلى على الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالي أخيراً صنع أو شراً ، وعدلا أتى أو ظلماً ، يحشرون الى الغار مئات من البشر ويسدون عليهم فوهته بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروم التمدن الجديد بسائر ألوانه . (١) أو يصفون الناس صفا ، وينسفونهم بقذائف البارود نسفا (٢) أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب . ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب . (٣) وانما المدنية ماسننت لعبادك في

(١) هكذا صنع الفرنساويون بمسلمي الجزائر لما دوخوا بلادهم
(٢) هكذا صنع الانكليز لما استخضعوا ثوار الهند في ثورتهم الكبيرة
(٣) هكذا صنع جنود الدول الاوربية هذه السنة في الصين وهكذا تصنع الدول الاوربية في كل حرب الا بعضها مع بعض فربما يرفق قليلا

كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجافوا مضاجع الراحة في سبيل مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لايظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الاسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التي كانت فاشية بين الامم وهذبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين كان من وزائهم فيه حكمة أبي بكر ويقظة عمر تسدان على دنيء العادات الوثنية وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب الى نفوس المسلمين ، وتقيمان في وجهها حواجز الدين الاسلامي المبين ، وما نشب ان امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الامم بحكم الوحدة الاسلامية روميها وعربيها وعجميها وتركيها حتى أعجز الخلفاء الامر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، فقسدت الفطرة ، وامتزجت الاخلاق بالاخلاق ، ومن ثم كان معظم المصائب التي حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الاعجمية ، وفقد التربية الاسلامية ، وليس هذا محل الاسهاب وربما نأتي بالمناسبة على شيء من ذلك في هذا الكتاب

اخرج البخاري عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من احمس يقال لها زينب . فرآها لا تتكلم . فقال مالها لاتتكلم . فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمي فان هذا لايحل هذا من عمل الجاهلية : فتكلمت فقالت من انت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت ايّ المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من اي قريش ، قال انك لسؤول انا أبو بكر . قالت مابقاؤنا على هذا الامر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية . قال بقاؤكم

عليه ما استقامت أئمتكم . قالت وما الأئمة . قال أو ما كان لقومك رؤوس واشراف يأمرونهم فيطيعونهم . قالت بلى . قال فهم أولئك الناس

هذا هو الحق الذى أنطق الله به أبا بكر فحسبنا الله ونعم الوكيل وهو بحسن عافيتنا كفيل (ربنّا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل)

﴿ سياسته في الرعية ﴾

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف . ولين من غير ضعف . بطيء العقوبة غير متعجل فيها الا بقصاص واجب لهذا كان يأخذ على العمال ايغالهم في العقوبة ويأمرهم بالرفق والأناة

ذكر السيوطي ان المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة فرفع اليه امرأتان مغنيتان غنت احداها بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الاخرى بهجاء المسلمين ففعل بها مثل ذلك فكتب اليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه

بلغني الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا ما سبقتني فيه لامرتك بقتلها لان حد الانبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد . فهو محارب غادر . وأما التي تغنت بهجاء المسلمين فان كانت ممن يدعى الاسلام فأدب وتعزير دون المثلة وان كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت اليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً . فاقبل الدعة واياك والمثلة في الناس فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص اه

ومن سياسته في الرعية ان كان يحذرهم من الدخول في غمار الفتن التي تسفك فيها دماء المسلمين ويحملهم على التعفف عن المغانم والقناعة بالكفاف

فى ابان الفتوح الذى تحولت فيه كنوز الروم وفارس الى المسلمين خشية ان تحيا فيهم ملكة الطمع فتنزع بهم منازع الظلم وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون الى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد

أخرج أحمد في الزهد عن سلمان قال . أتيت أبا بكر فقلت اعهد الىّ فقال . يا سلمان اتق الله واعلم انه سيكون فتوح فلا أعرفنّ ما كان حظك منها ما جعلته في بطنك أو ألقيته على ظهرك واعلم انه من صلىّ الصلوات الخمس فانه يصبح فى ذمة الله ويمسي في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخفر الله في ذمته فيكبك الله في النار على وجهك

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

اذا أطلق لفظ الادب فاحر به والله ان يطلق على الصحابة الكرام الذين تأدبوا بآداب النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا خير أمة أخرجت للناس وأشرف قدوة في مكارم الاخلاق يقتدي بها المسلمون وناهيك بأبي بكر وصحبته لرسول الله من بدء عهد النبوّة الى آخره

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

أخرج ابن عساكر والامام احمد عن يزيد بن الاصم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت قال انت أكبر وأكرم وأنا أسن منك (١)

وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت (ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم) الآية قال أبو بكر يارسول

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الاولى دون ان ابين انه جاء في رواية اخرى عن العباس عم النبي (ص) وهو الاصح لان النبي أسن من أبى بكر وعمه العباس أسن منه

الله لو أمرتني ان اقتل نفسى لفعلت . فقال صدقت

وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها انها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

أخرج ابن عساكر عن الاصمعى قال كان أبو بكر اذا مُدح قال اللهم أنت أعلم مني بنفسي منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

أخرج احمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضى الله عنه قال : جرى بيني وبين أبى بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم فقال يا ربيعة رد علىّ مثلها حتي يكون قصاصا قلت لا أفعل . قال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لى رحم الله أبا بكر في أى شئ يستعدي عليك وهو الذى قال لك ما قال . فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثانى اثنين وهذا ذو شيبة المسلمين اياكم لا يلتفت فيرا كم تنصروني عليه فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان . فرفع الىّ رأسه فقال . ياربيعة مالك والصديق فقلت يارسول الله كان كذا وكذا فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتي يكون قصاصا

فأبيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجل لاتردّ عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر اه

لله أي وجدان هـذا الوجدان وأيّ نفس تلك النفس . بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض الا اقتصاصه منها ، وصفحه عنها ، تناهيا بالفضيلة ، واستمساكا بالادب . وشعوراً تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً يتململ منه الضمير فلا يستريح الا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتك اخلاقا تغلب على شهواتنا وتطهر من ادران الكبرياء الباطلة قلوبنا لنرى مواطن الخطأ فنتجنبها ، وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا . وتتمكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا في الارض سلطان عزنا ، ونجعل الى ملأك الاعلى مصيرنا ، انك سميع الدعاء

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بان يحمل الناس على طريقته . ويؤدبهم بأدب نفسه . مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة . وطهارة الاخلاق . والتمسك بآداب الشرع . مبالغة في النصيحة لهم . وحنانا عليهم . وقياماً مقام الوالد الرؤف بنيهم

أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر أنه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أى ينازع) جاراً له . فقال له لاتماظ جارك فانه يبقى ويذهب عنك الناس

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبينا ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله

الذي شرع لكم وهداكم به فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص . السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم فان من يطع الله وأولي الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفلح وادىّ الذي عليه من الحق . واياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . واياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حيّ وغدا ميت

وستأتي هذه الخطبة برمتها في فصل الخطب وكثير امثالها مما تلين له قلوب الجماد ، وتسترشد به الى الفضيلة عقول ذوي العناد ، وتوضح للمؤمنين سبل الهدى والرشاد ،

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

أخرج الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل الى أبي بكر فقال السلام عليك ياخليفة رسول الله . قال من بين هؤلاء اجمعين (يشير الى من كان معه من الصحابة ادباً معهم وتأديباً للقائل)

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل ان يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن

واخرج ابن عساكر ايضاً عن أبي صالح الغفارى ان عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر انت هو لعمري

هكذا التسابق الى الفضيلة والتسارع الى الخيرات وهـذا منتهى الرأفة

وغاية الغايات من التواضع وحق لأمة هكذا يكون رؤساؤها ، وبهذه الاخلاق يتخلق ساداتها ، ان تمتلك رقاب البشر ، وتسود على البدو والحضر ، وان ديناً هذا تأثيره في الاخلاق وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تمسك اهله بهديه ، واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره ، لكانوا الى هذا العهد أسعد الامم حالا ، وأعلى الناس كعباً ، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة اولى ، وبالندامة احرى ، (ولا يظلم ربك احداً)

وحسب أبي بكر من الادب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان اسأت فقوموني)

يقول ابو بكر لهذا الجمع لست بخيركم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله ابو بكر [1] ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن اخوّة الاسلام) اواه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبرّهم بالنبي وأقربهم اليه وأقدمهم صحبة له وانما هو الادب النبويّ الذي تأدبت به نفسه والتواضع الذي اشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله ، ولا يحطان من جلالة قدره ، بل يعليان مكانته في النفوس ، ويحببان

(١) قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بان تكون (من) زائده على مذهب الاخفش وقيل (ان) بمعنى نعم فيكون ابو بكر مبتدأ ومن امنّ الناس خبره وقيل اسم ان ضمير الشأن وهو نادر مع ان المكسورة كما عرف في النحو والاوجه ماذكره بعضهم انه محكي على ماهو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين عليّ فيما اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميماً الداري (شهد به ابو بكر بن ابو قحافة) الخ

به القلوب ، ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لامره ، والخضوع له ، والالتفاف حوله ، والعمل باشارته ، والذب عن حوزته .

أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ويمزقون احشاء الاسلام ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الالوهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الاعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعاباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابذ لهم ، يأخذ بأسباب الحيطة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر الى يومه وأمسه ، فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الاخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ويتزلفون اليهم بوضع الحديث ليدوسوا باقدامهم على رقاب الأمة ، ويبددوا نظام الاسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين فذكر له حديثاً وضعه يطريه فيه فانكره عليه وطرده من حضرته

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب اسباب تقهقر المسلمين الى الدين والدين يبرأ الى الله من كل مايخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقي ، كالعلم والحرية والعدل وانما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها اربابها

الى الصاق كل شيءٍ بالدين ليحاربوا باسمه كل شيءٍ خالف أهواءهم ، ونابذ أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هيَّاب من اعداء الحق ولا راغب في غير الثواب من الله والشكر من الناس يضع لنا تاريخاً يستقصى به اخبار الماضي ويتتبع مظان العلل فيكشف عن بصائر هذه الامة الغطاء ، ويزيل عن ابصارهم الغشاء، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الاسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ، وضعيفه بمتينه، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظلم ، ولله في خلقه شؤون

﴿ زهده وورعه ﴾

أعتادت اسماعنا وألفت اذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ووضعه الوضاعون انه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه اذ الزهد في الحقيقة هو التعفف عما بأيدى الناس والقناعة بالكفاف عن الفضول والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الاغيار كما سترى ذلك مبسوطا في غير هذا المحل

ومذهب الصحابة فى الزهد هو العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وليس منهم الاَّ من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال هذا مع الرضا بالقناعة وعدم الطموح الى الفضول تهذيباً لنفوسهم واقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه

مما يروي عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش أنَّ زوجته

اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشترى به • فقالت انا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به • قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيءٌ يسير فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فرده الى بيت المال • وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وروى انه لما ولى الخلافة رأى ان يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق فلقيه عمر فقال أين تريد • قال الى السوق • قال اتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين • قال فمن أين أطعم عيالي. فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا الى أبي عبيدة فقال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئاً رددته واخذت غيره • ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن : اخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له الفين فقال زيدوني فانَّ لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة

ومما يدل على شدة ورعه وانه انما قبل فرض العطاء له اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ما اخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر. قال لقد علم قومى ان حرفتى لم تكن تعجز عن مؤنة اهلى وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين

وروي عن عائشة أم المؤمنين انها دخلت على أبيها في مرضه الذى توفى فيه وطلبت اليه ان يعهد بالامر وهى حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال • يا أمه

هذا يوم يجلى لي عن غطائى واشاهد جزائى ان فرحا فدائم . وان ترحا [1] فمقيم . اني اطمت امانة هؤلاء القوم [2] حين كان النكوص اضاعة . والخذل تفريطاً . فشهيدى الله ما كان يقيلنى اياه فتعلقت [3] بصحفتهم وتعللت بدرة لقحتهم فاقمت صلاتى [4] معهم لا مختالا اشراً . ولا متكاثراً بطراً . لم اعد سدّ الجوعة وورى العورة . وقوانة القوام . حاضرى الله من طوى مممض تهفو منه الاحشاء . وتجب له المعى . [5] فاضطررت الى ذلك اضطرار المريض الى المعيف الآجن . [6] فاذا أنامت فردى اليهم صحفتهم . وعبدهم ولقحتهم . ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها اذى البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الارض كان حشوها قطع السعف المشع

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ويتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالا عنها بأمور المسلمين وقياما بوظائف الخلافة فيضطر الى اخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة الى سد الجوع وستر العورة ثم هو يؤدي للمسلمين خدمة هيهات ان تؤدى حقها الخزائن ويقابلها الشكر ، ولما يقضي واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين وهي ذلك المتاع الحقير . يأمر بردها الى المسلمين ليلقى ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر النفس خفيف الحمل الاّ من التقوى ، فارغ اليدين الاّ من الايمان ، انّ فى هذا لبلاغاً وانها لموعظة لقوم يعقلون

فاللهم ان هذه التقوى وهذا الزهد وان كان أليق بمثل أبى بكر وألصق

---

(١) وفي نسخة ان فرح فدائم وان ترح فمقيم (٢) وفي النثر المختار اني اطلعت بامامة هؤلاء القوم (٣) في النثر تبلغت (٤) وفي النثر فاقمت صلاتى معهم في ادامتهم (٥) وفي العقد ويجف له الامعاء (٦) وفي النثر اضطرار البرض الى المعتب الآجن

بمن أدرك عهد النبوّة وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين الاّ انّ فيهما عظة لو تذكرها بعدُ خلفاء المسلمين وادّرعوا منها جلباباً ليس بالصفيق فيثقل عليهم حمله . ولا بالرقيق فيتكشف عن ضمائرهم مادونه . لما زجّت بهم نزعات النفوس في ظلمات المراسم الاعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التى هدمها وكل توابعها الاسلام ونعى على أهلها عوائدهم الخسيسة القرآن) فتركتهم مثلا فى الجبارين حاشا افراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً ، فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر في تاريخ المسلمين

وهيهات لتلك النفوس الهائمة في فضاء الحياة الفانية أن ترضى لنفسها من هذا المتاع الدنيوى ما رضيه لنفسه أبو بكر . وأني للمؤرخ الناقد ان يتتبع منافذ القضاء التي أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً ما زال يعظم ويشتد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضراء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

﴿ جمعه القرآن ﴾

من مناقب أبى بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن . ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين الذين شوّشوا على الأمة في الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جرّ على الأمة من البلاء ولولم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثانى وما بعده الى تلافي هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم . والمصيبة أشد . أما القرآن فلله الحمد والمنة على انه سبحانه تكفل بحفظه فقال تعالى فيه

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمر ما ألهم من النهوض الى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل. وأما سبب جمعه فيظهر مما يلي

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال (أرسل اليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر انّ عمر أتاني فقال ان القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس واني لاخشى ان يستحرّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن قال أبو بكر. فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذى رأى عمر. قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر انك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل عليّ مما كلفني به من جمع القرآن. فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم. فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعُسُب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها)



قضاؤه

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضي بينهم قضى به وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الامر سنة قضى به فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قضى فى ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء. فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا. فان أعياه ان يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به. وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والاّ دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

مطلب

كلام على القضاء فى الاسلام

لا يخفى على من له المام بأصول الشريعة ان الاحكام القرآنية التي كانت تنزل بازاء الحوادث والسنة النبويّة التي ورد فيها حكم قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم انما هي أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الاحاطة بجزئيات الحوادث التي تتجدد في كل وقت ومكان لهذا لمّا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً الى اليمن قال له بماذا تحكم. قال بكتاب الله. قال فان لم تجد.

قال بسنة رسول الله . قال فان لم تجد . قال اجتهد برأيي وفي رواية اجتهد رأيي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله

وانت ترى من هذا ان لأبي بكر رضى الله عنه ان يجتهد برأيه في الحوادث التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب ولا سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله كان يرى ان لاينفرد بحكم في نازلة ولايقضى قضاء ليس بازائه نص صريح الا برأي جماعة من الصحابة مبالغةً في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه . واذا علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) [1] اتضح لك من جميع ماقدمناه ان هناك أموراً لاينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الالمام باطرافها

ان الاجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد وقول معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد برأيي ظاهر معناه انه يحكم بما يراه بعد بذل الجهد في تمحيص الرأى وتحري الحق واستشارة أهل الرأي وليس هناك قرينة أو شيء آخر يدل على ان معاذاً أراد بقوله اجتهد برأيي معنى غير ماذكرناه [2] وقد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص به لمعاذ لان الله سبحانه وتعالى جعل الاسلام دين اليسر لادين العسر فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم انما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لاتتعطل مصالح المسلمين ولا يكون عليهم حرج في الدين

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (٢) أي ماإصطلح عليه الاصوليون

ومن البديهى ان هذا الترخيص تشريع للاجتهاد الذي هو ادارة الاحكام على المصلحة على تمادي الزمان . وأولى من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنه ومع هذا ومع مارُخّص له به من الاجتهاد فانه رأى ورأيه الحق ان لاينفرد برأيه في الاحكام ولايقضي بقضاء مبني على الرأي الا باستشارة جمع من الصحابة واجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحريا للصواب وأخذاً بالاصلح والاحوط

اذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الاهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهاد عند الحاجة أي عند عدم وجود النص (ومنها) ان الاجتهاد بمعناه اللغوي دائر مع المصلحة والحق . مرخص لوضع الاحكام بازاء الحوادث التي لايقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) ان أبا بكر سن سنة الشورى وعدم الانفراد سواء بالرأي بوضع الحكم أو بالقضاء فيه وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنهما وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدى بهما للحديث السابق

اذا تقرر هذا علمنا ان المسلمين بما دخل على نظامهم الاجتماعى من الوهن وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام انما أتوا من قبل أنفسهم لامن قبل الدين كما يفتريه أعداؤه أو يقول به فريق من سوائم البشر الذين هاموا بمظاهر التمدن كما تهيم السائمة في منابت الكلأ فتجتر من هنا تارة وهناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب . اذ الدين لم يحص كل ماتحتاج اليه المجتمعات الاسلامية من الاحكام الجزئية في المعاملات ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الاحكام دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات

أجل قد أصيب القضاء في الاسلام بآفات عظيمة أثرت كثيراً في

الحالة الاجتماعية عند المسلمين ولكن ماذنب الاسلام وهو دين اليسر الذى دفع عن الأمة الحرج ونبها الى وجوب التوسع في القضاء بتوسع الحاجات و بما لا ينافي قاعدة الحق والعدل التي تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم التي كانت الأمة فيها على حال من سذاجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب تكاد تجعل التخاصم بين الناس في حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ولانحصار المعاملات فى دائرة لم تتعدّ طور السذاجة المذكورة من جهة أخرى . ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد وتوسعوا بالفتح وخالطوا الامم فطرأ بعد ذلك انقلاب في السياسة والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة تشعبت فيه طرق الاعمال وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعدّ طوره الأول الا بانتقاله من أيدى الخلفاء الى أيدى أشخاص آخرين هيهات لأخير خيّريهم ان يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والاخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهى اليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الانصاف ويضطرهم الى تنكب طرق الخطأ أو الجور الا ما جاء من ذلك في كتاب الله من أمر بالعدل ونهى عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى وانما يستصلح بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ونشأت على سذاجة الفطرة وأولئك هم المسلمون الاولون. وأما من انغمسوا بعد ذلك بحمأ الحضارة وافتتنوا بزخارف العالم الفاني فانهم الى سيطرة السلطان أحوج منهم الى التذكير بالقرآن لهذا جاء

في بعض الآثار (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولا بد دائما من قوّة تصاحب الشرائع فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها والى هذا وردت الاشارة في كتابه الكريم (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والاسلام بما جاء به من وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على اقامة احكام الشرع فقط ولكن غفلة الناس واهواء الحكام أضاعا مزايا الاسلام وتركا الامة منقادة لجور الرؤساء محكومة بالاهواء . لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد اذ كانت في الصدور ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للاهواء ثم تلاهم الائمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعا يسراً والاحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا في القرآن والحديث ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذى يشتمل على قسمى العبادات والمعاملات ونعمة الخدمة خدموا بها الاسلام وضبطوا بها أمور القضاء بما وصل اليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب انهم تركوا الامور على أكمل الحالات ولم يبق للناس الا ان يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه

أجل ان الامر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات لانه ليس مبنيا على شيء من الرأى وانما هو أصول ثابتة فى الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها وأما في قسم المعاملات فليس الامر كذلك الا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسئلة الواحدة ومنشأوه اجتهاد كل

فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأي فيما لا يكون بازائه نص صريح من الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأى والعلم منهم على جعل علم الفروع قائما بالتكافل خاليا من شوائب الظنون والاختلاف دائراً مع المصلحة التي تناسب كل عصر ولم يأتِ بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح او ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرا نظام القضاء فى الاسلام ماعراه من الخلل والنقص وتلاعب الاهواء

ان لنظام القضاء أثراً عظيما فى ترقي الأمم وتدنيها اذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل وحاولت حكم الأمة بالجور والاستبداد فانها أول ماتتكئ فعلى القضاء فان كان نظام القضاء قويا ثابتاً منعها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس ارواحهم واموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس

ومعاذ الله ان نريد بهذا القول رمي الأئمة بالتقصير في جانب الحاجة الاجتماعية الى التوسع في الاحكام بتوسع طرق المعاملات فان هذا فوق طوق الآحاد أو نبخسهم حقهم من الاحترام وهم لعمر الله أولى من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم بما خدموا به الشريعة وما عانوه من استنباط الاحكام وتدوينها تسهيلا لتناول الاحكام ودفعا لفوضى الرأى حتى اننا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأو وقصىّ الغاية في تتبع احكام المعاملات المدنيه أو فن الحقوق وانما هناك أمور ربما فاتهم النظر اليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالاسلام وتمكن التقوى والعدل من النفوس ولم يصلوا الى مكان النظر في الغيب

ليروا ماذا يحدث من الاقضية بعدُ للمسلمين والى أية درجة تنتهى اليه الاخلاق وتتبدل العوائد وقد فسحت تلك الامور لقادة الأمة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى فكانوا في كثير من العصور الاسلامية آفة الامن وسم الاجتماع الا من عصم ربك وهؤلاء لا يبنى عليهم حكم

وأما تلك الامور فهي أولا كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسئله الواحدة مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لاحد من الناس ان يتناول منه حكما جازماً الا بواسطة الفقهاء والمفتين وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين مايحرمه الآخر من طريق غيره (١) هذا بين علماء المذهب الواحد فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً

ثانياً أحكام العقوبات التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة كالضرب والتعذير والحبس ووضع لها الأئمة والعلماء أحكاما من طريق الرأي أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم على وجه يمنع من تحكم هوى النفوس. وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاة والمحتسبين فكان من ذلك ان تذرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والامان من بين ظهرانيهم لا سيما بعد مبالغة الخلفاء بالتحجب وترفعهم عن النظر في المظالم وانزوائهم فى زوايا القصور عن انظار الناس

والظلم على ذلك الوجه اذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها فتألف المداهنة والنفاق وتذل نفوسها لأولى السيطرة وتمنع ثروتها

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين وانت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين في عصره وكيف توسعوا بالافتاء الى ان أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الاوقاف

من الظهور خوف المصادرة فتبور عندها التجارة والصناعة وتقف حركة الاعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدن شوامخ البنيان وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الامة حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام في عصره انها لازم من لوازم الأمن على الانفس والاموال لا حرج فيها على المداهنين . وما أقبحها من حال آلت بالامة الاسلامية الى هذا المآل

ثالثاً تبادل المسئولية (١) بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها وقد وضع لها الائمة والعلماء كتبا خاصة كالاحكام السلطانية وآداب القضاة والمفتين وأشباهها الا انها لشوبها بآفة الخلاف وخلوها عن تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعيينا باتا صريحا كادت تكون بحكم المعدوم وان وجد شيء منها فليس وراءه من قوة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسئولية في تلك الكتب وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير على الصغير ومن هذا على الادنى وأنى يتيسر وجود هذه المسئولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأي للأمة في التشريع ولا لأولياء الامر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم اليهم فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه وعاملوا الامة معاملة السائمة كما تشاء الاهواء وكم جرّت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس وصبت عليهم من المصائب ما لا تحمله الجماد وليس العهد بها في المملكة العثمانية ببعيد فانّا ان لم ندرك شيئاً منها فقد ادرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل اليه لذلك العهد انحلال نظام الاختصاص

(١) المراد بالمسئولية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة

وفقد المسؤلية حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو (١)) قبل وضع القانون المعمول به الآن لرجاء من الدائن ومثل هذا وأشد لم يزل حاصلاً في بعض الممالك الاسلامية الى الآن كمملكة مراكش التي يموت بسجنها السجين دون ان يعلم بسبب سجنه أو موته السجان أو يأخذ خبره أحد من الحكام الآمر من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفي والانتقام وهذا من التناهي في الظلم الناشيء عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله

وتالله ان الاسلام ليبرأ الى الله من التصاق أمثال هذه المخازي بالمسلمين وهو انما شرع الاجتهاد في المسائل التي لا يكون بازائها نص صريح درءاً لامثال هذه المفاسد وتلافياً لكل ما عساه يحدث للأمة من الاقضية التي لم تحدث في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ورأي المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت وهكذا أئمة المذاهب انما الجأهم الى الاجتهاد في مسائل الفروع والتوسع في وضع الاحكام توسع الامة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس

(١) هذه وظيفة قديمة في الدولة وهي خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال في الاراضي الاميرية عملا بقانون الاراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة الى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث في الاراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه الآن حتى جعلت كل الاراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدمت حرية التملك والتمليك في المملكة العثمانية وأصبحت الاعيان جميعها ملكا للدولة كما هي مالكة للرقاب أيضا وهو شأن غريب من شؤون الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد

ولا جرم ان سنة الترقي والتدريج تقضي بتوفر تلك الاسباب وتعدد تلك الطرق ومن المصلحة الصالحة ان يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل ما يحدث للناس من الاقضية وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك الى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهقر الناشئ عن التضييق في نظام القضاء ولبلغت قوانينهم الشرعية الى هذا العهد مبلغاً من الترقي يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم وزعزعت أركان مجتمعهم ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لا لعلة سوى ان هذا القول وافق هوى من نفوس الامراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم فأعانوا الفقهاء على قولهم . ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم اذ الاجتهاد مبني على المصلحة والمصلحة كانت تقضي بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء الى الأمة وفي هذا غل لأيديهم عن الاستبداد ، وصد لاهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غره ، ومضى الامر لهذا العهد على وجهه . حتى بلغت بنا الحال الآن الى العمل بالقوانين الوضعية التي تمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية وأمامنا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء، ويقتلنا دونه الرؤساء فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، انك مجيب الدعاء.

ربما يتبادر الى الذهن انا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لاهل الرأي يلجه منهم من شاء في أي وقت شاء ليتلافوا حاجة القضاء في كل عصر، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الأمر، ومعاذ الله ان يخطر لنا مثل هذا في بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف، وتشوش نظام القضاء فاصبحت الاحكام عرضة لآفات الخلاف، وانما الذي نراه حاسما للعلة وافيا بالحاجة واقيا

من التمادي في فوضى التفريع هو الاستنان بسنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الاجتهاد بالمسائل التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب أو السنة ذلك بان لا يتحكم فيها رأي فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر وهكذا الى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناهٍ من القوانين كما هو شأن المسلمين بمخرّجيهم ومرجحيهم الآن بل يكون الامر في ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين في علوم الشريعة الواقفين على حالة الامة والعصر ينتدبهم عند الحاجة وليّ الامر في كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأي أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي تحدث للأمة (١) وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقي والاجتماع واذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص كذلك ينبغي لاولئك العلماء ان يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس اليه حاجة الدولة والامة من الاحكام التي تقتضيها سياسة الشعور بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الاحكام . او الحكم بالهوى فيما لا يكون بازائه نص صريح في المسائل التي تعرض للحكام .

ومن ثم يتكون من احكام الشريعة قانون شامل لاحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شيء من مثارات الخلاف يتناول منه الاحكام سائر الناس ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ما صنعته الدولة العثمانية في ترتيب مجلة الاحكام الشرعية التي أغنت الامة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز انه قال يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية في التفريع

هذا ما نراه حاسما لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريبا من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبعدُ فقوق كل ذي علم عليم والله وليّ الارشاد واليه يرجع الامر

﴿ أوّلياته ﴾

منها انه أول من سمي خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حي وأول من فرض له رعيته العطاء وأول من أسلم وقد تقدم الكلام على اسلامه وأول من جمع القرآن وأول من وضع بيت المال

﴿ باب ﴾

﴿ كتبه وخطبه ﴾

(كتبه)

(كتاب عهده للامراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أمانيّ الشيطان بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم. وان لم يجيبوه شن غارته عليهم . حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم . فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم فمن أجاب الى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله . فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل . وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به . ومن لم يجب الى داعية الله

قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى الاّ الاسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه عزّ وجلّ قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ماأفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وان لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لئلا يكونوا عيوناً . ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم . وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اه

﴿ كتابه الى المرتدين ﴾

﴿ وسيره اليهم قبل مسير الامراء لحربهم ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الاسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والهوى فاني أحمد الله اليكم الذي لا اله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . يهدي الله للحق من أجاب اليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنه من أدبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا أو كرهاً ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل

الاسلام فقال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لاشريك له فان الله بالمرصاد حيٌّ قيوم لايموت ولا تأخذه سنة ولا نوم . حافظ لأمره . منتقم من عدوه بحزبه . واني أوصيكم بتقوى الله . وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم . وان تهتدوا بهديه وان تعتصموا بدين الله عز وجل فانه من لم يهد الله ضلّ . وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهديا . ومن أضله كان ضالا (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقرّ به . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقرّ بالاسلام . وعمل به اغتراراً بالله عز وجل . وجهالة لأمره . واجابة للشيطان . وقال جل ثناؤه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوّاً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد أنفذت لكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لايقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى ان يقاتله على ذلك ولا يبقي على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل

قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام [1] فمن آمن فهو خير له . ومن تركه فلن يُعجز الله . وقد امرت رسولي ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فان اذّن المسلمون فاذّنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغي لهم اه

﴿ كتاب عهده لعمر ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان برّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه . وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امريء ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)

﴿ كتابه الى عمرو بن العاص ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) اني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله ان أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه الا ان يكون الذي أنت فيه أحب اليك

﴿ كتابه الى خالد ﴾

وكتب الى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصد الشام

(١) كل هذا مبالغة لاهل الردة بالارهاب فقط

(أما بعد) سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا. واياك ان تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجيّ من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك ان تدلّ بعمل فان الله عزّ وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء

﴿ كتابه الى أبي عبيدة في شأن الداريين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر الصديق الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الاخر من الفساد في قرى الداريين وان كانوا أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها واذا رجع اليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك

﴿ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام ﴾

مجمل تاريخ الخطابة عند العرب انها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبريز وفيها ولع، ولها في تاريخهم عظيم الاثر، وطويل الخبر، ونحن نجتزىء من ذلك بذكر ما يهم ايراده ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب أبي بكر وغيره من فصحاء الاسلام فنقول

كانت العادة عند العرب في الخطابة ان يكون الخطيب واقفاً على قدميه مشرفا على الناس لهذا كان اذا خطب خطيبهم في العراء علا نشزاً من الأرض وان لم يجد خطب على الراحلة وفي غير العراء يقف على المنبر وكان لابد للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس وتارة يخطب وفي يده القناة وللعرب في هذا أشعار كثيرة فمنها قول معن بن اوس المزني في العصا

فلا تعطى العصا الخطباء يوماً ... وقد تكفى المقادة والمقالا

ومنها قول لبيد بن ربيعة في القسي

ما ان اهاب اذا السرادق عمه ... قرع القسيّ وأرعش الرعديد

وقال جرير بن الخطفي في حملهم القناة

من للقناة اذا ماعي قائلها ... والاعنة يا عمرو بن عمار

ولما جاء الاسلام أقر كثيراً من هذه العوائد والى استعمال المسلمين المخصرة والعصا يشير بقوله كثيّر من شعراء الاسلام

اذا قرعوا المنابر ثم خطوا ... باطراف المخاصر كالقضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي الى الآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر (١)

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف الا في خطبة النكاح فانهم كانوا يخطبون وهم جلوس لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يتصعّدني كلام كما يتصعّدني خطبة النكاح، وذلك لانه كان يخطبها جالسا، وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها في مشاهدهم، ويتخيّر لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم، الا انها كانت لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية، ومعيشتهم الفطرية، ولمّا جاء الاسلام ببيانه، وضرب بينهم بجرانه، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر وبعدت مرامي العقول، فارتقى فنّ الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء

(١) عند الامام احمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ موذن رسول الله (ص) ان رسول الله كان اذا خطب في الحرب خطب على قوس واذا خطب في الجمعة خطب على عصا

يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر الذي كان أشبه بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطيّر شررها القدح

والفضل فى ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين انما هو عائد للكتاب المبين وذلك من وجوه (منها) ان القرآن وان كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون ، وبفصاحتها يتفاخرون ، الا انّ اساليبه العالية التي أعجزت فصحاءهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تخيّر الاساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت ألسنتهم من عقال الحوشية والتقعر الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم ،

حتى انهم لكانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن في كلامه شيء من آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدىّ عن عمران بن حطان انه قال : خطبت خطبة عند زياد أو قال ابن زياد فاعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى ثم انى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم ، هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن :

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضاً انهم (يعنى العرب) كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من آي القرآن فانه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع

(ومنها) ان الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم أدخل من الرقة على عواطفهم ما رق به كلامهم وكثر للمعانى المؤثرة في النفوس اختيارهم في خطبهم ومخاطباتهم

(ومنها) أن ما جا في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب البالغ حد الاعجاز فى التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن

فى أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات ، أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات ، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، مالا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك من قلوب الرجال مالا تملكه البدر والاموال ، كما صنع أبو بكر في خطبه يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين والانصار ، وصرف عن الامة تلك الامور الكبار ، وكما صنع الحجاج في أول خطبة له في أهل العراق يوم اذ قلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فانهم ما طرق مسامعهم داعي الامير الى المسجد حتى أخذوا يفدون اليه افواجا ويلتقطون من ارضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطاطأت الرقاب ، رهبة منه واجلالاً له ، كما سيمر عليك في هذا الكتاب ان شاء الله

(ومنها) انّ الاسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب ، وفّر لهم الاسباب الداعية الى التوسع في الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع في الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة واخلاقها

هكذا كان شأن الخطابة في صدر الاسلام ومبلغ تبرّز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوّة سلطانها ، وقوي برهانها ، ولكن وا أسفاه فقد بدأ يعروها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ، فأقلّوا من الظهور لعامة الأمة ، وترفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لا سيما وقد كان الخلفاء في صدر الاسلام يخطبون الناس عند طرؤ

كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين الى المسجد تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنّى لمن اتخذوها بعدُ كسروية ان يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون انّ الرأي سلطان لا يتعداهم وانّ الناس بالنسبة اليهم همل لا ينبغي لعصا القوة والجبروت ان تتخطاهم

ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ،وأشده اثارةً للعواطف ، اذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم ، وتحدق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى اليه آمالهم ، يستلينهم بالقول اذا قسوا ، ويستخضعهم به اذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فاذا استوهبهم الاموال والارواح وهبوها اليه

تالله انها لمكانة سامية انحط عنها الامراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوّة في الارواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الاجسام وأنى يضارع الروح الجسم ، ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة في الاسلام في عهد الوليد بن عبدالملك حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والامراء ، وانحط عنه القادة اما عجزاً عن الوفاء بحقه ، واما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسي رضي الله عنه وانما انحلت عرى الخطابة بعدُ لما انحلت عرى الامامة وأخذ الخلفاء يستنيبون بالصلاة

بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الامامة فاصبحت الخطب تتلى على المنابر في ايام الجمع لا لما وجدت له بالذات بل لانها اصبحت من قبيل الرسوم التي ينبغي اداؤها على أيّ حال كان ، حتى كان من ذلك ان تنوسي مع الزمان القصد الذي سنّت من أجله الخطابة في الاسلام فانقلب نفعها ضراً وخيرها شراً بمن انتهت اليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين الذين أصبحوا واحزناه ينفثون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى في العقول بعد اذ كانت تشرق منه شموس الحكمة فتنبعث أشعتها في الاقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرّج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرّق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ماتفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً . ورؤسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ترسل قوته على الناس من أنابيب الافواه ارسالا ، فتحركهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلأ بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنى لنا ان يكون. والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون

﴿ خطبه ﴾

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قويّ الحجة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه وروي عن الزبير بن بكار انه قال سمعت بعض أهل العلم يقول ، أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب

وها نحن ننقل اليك في هذا الكتاب ماوقفنا عليه من خطب أبي بكر رضي الله عنه

١

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ثم خرج وخطب الناس فقال

أشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وأشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله وأشهد أن الكتاب كما نزل. وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وان القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين، في كلام طويل ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لايموت، وانّ الله قد تقدم اليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا، وان الله قد اختار لنبيه ماعنده على ماعندكم، وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه، وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر، ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢

(خطب يوم السقيفة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس اسلاماً، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وانصارنا على العدوّ، وآويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً، فنحن الامراء وانتم

الوزراء، لاتدين العرب الا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين مامنحهم الله من فضله

٣

(وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، انّ هذا الأمر وان تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت له الاوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لاتنسى، وجراح لا تداوى، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي الاسد يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري اه

ولقد أثرت هذه الخطبة في الانصار تأثيراً بالغاً اذ تنبه لها الاوس فخافوا ان يصير الامر دونهم الى الخزرج وتنبه الخزرج فخافوا أن يصير الامر الى الاوس فتركوا جميعاً الامر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف

٤

وخطب بعد أن ولى الخلافة وهى غير خطبته التي أوردناها عند ذكر بيعته ولعلّ هذه خطبته التي خطبها بعد البيعة العامة، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

(أمّا بعد) فانى قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن، وعلمنا فعلمنا، فاعلموا أيها الناس ان أكيس الكيس التقى، واعجز العجز الفجور وانّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وانّ أضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق، أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا أحسنت فأعينونى، وان أنا زغت فقوّمونى اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم اه

﴿ كلام على الحكومة فى الاسلام ﴾

أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة وروى فى ختامها عن مالك رضى الله عنه انه قال (لا يكون أحد اماماً أبداً الا على هذا الشرط)

ومن تدبر قول الامام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة علم ان الخلافة صارت ملكا عضوضاً وسلطة قاهرة لم يتأت للمسلمين ان يقوّموا زيغ اوليائها منذ عهد بعيد جداً وان تلك الحكومة الاسلامية الاولى التي تمتع بها المسلمون زمنا ليس بكثير وعيَّن أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الانيفة حكومة ديموقراطية قلّ ان يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الامم منها ، وانما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل مذ كانوا يشعرون شعوراً واحدا بحاجة الحياة الاجتماعية ويعلمون انّ السعادة والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويُعطى مقاليد الرئاسة عليهم وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ، ويعمل للمصلحة العامة عملهم ، فاذا أحسن أعانوه ، واذا زاغ قوّموه ، ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال الى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤن الحياة الاجتماعية الا اذا تركوا مقاليد الامور الى رئيس تتجه آمالهم اليه ، ويعولون فى اسباب السعادة عليه ، فيفنى وجودهم فى وجوده ، وتضمحل ارادتهم فى ارادته ، فلا يكون الا ما يشاء لا ما يشاؤن ولا يعمل الا ما يريد لا ما يريدون ، استحالت حكومتهم من الديمقراطية الى المطلقة واصبحت الخلافة ملكا عضوضاً وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت واستأثرت بالمصالح واجتثت اصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الاسلامية، وانحطت مدارك الامة عن مقام العرفان بواجب الراعى والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة

الراحة والانتظام

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بديلا عن العدل والحرية وباتوا أضعف الامم احساساً بآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع الى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذي الحكم المطلق والحاجة الى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوّة فضلا عن بقية الأمم العظيمة الاوربية وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا الى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الارض وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذي برّح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر فى سوء المنقلب او يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال في بال

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم فى حيرة من هذا التدنى البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبهين من رجال الاسلام في حيرة من تعليل الاسباب الداعية لجمود هذه الامة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوربا فانهم ألصقوا أسباب التدني في الأمة الاسلامية بالدين بدعوى انّ المسلمين والغربيين من طينة واحدة لا فرق بين الفريقين في الخلق والتركيب يدعو الى مثل هذا التفاوت الكبير في الشعور وهو قول في الحقيقة خال عن التحقيق ، بعيد عن الصحة، اذ الاسباب الداعية لتدني المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة وهي غير الدين الذي يبرأ الى الله من جمود المسلين وأهم تلك الاسباب استحالة حب الاستقلال الى الاعتقاد بالعجز والاعتماد في سائر شؤونهم على أولياء الامر كما قدمناه والدين يبغض

اليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل

أفرط بعض الخلفاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والاشراف على أعمالهم كما كان الامر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الافراط وهذا التفريط ان فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية وانحلت عرى حكومتهم الديموقراطية فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم، وكان الضرر بالخلفاء أعظم، والندامة بهم ألزم، اذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت هممهم الى السفاسف فتوثب أمراء الاطراف على ملكهم وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الامامة الا الرسم، ولا من السلطان الا الاسم، فظلموا من حيث ظلموا، وأُخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون، ولو علموا أن سنة الخلفاء الراشدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر، ولما خالفوها أبد الدهر، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب الا نتيجة الوهن الذي دخل على الخلافة وأصاب مجموع الأمة وسببه ذلك الافراط والتفريط

أي وهن لعمر أبيك أشد على الامة وأظهر في جانب الخلافة من ان تصير كل قرية كبيرة من الممالك الاسلامية كتكريت في الجزيرة وسنجر في الشام مثلا عاصمة لملك من ملوك الطوائف ينفرد بسلطانه، ويحكم بشهواته. وينابذ جاره في الملك، ويقاتل أخاه في الدين، والامام في عاصمة الاسلام كبغداد ومصر مغلوب على أمره، محصور السلطة في قصره

ان بقاء المسلمين الى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التي كانوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عادية أجيالا لمعجزة من معجزات الدهر التي تحير الالباب وتدعو ملوك المسلمين الى النظر

والاعتبار وقياس الماضي على الحال فان مدنية المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدنية سواهم وقتهم على تفرق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال، وحفظت سيادتهم من الزوال، فان انعكست هذه القاعدة الان وأصبح التمدن الغربي على ما نرى باسطاً رواق القوة على ما عداه، راقياً فوق كل تمدن، سبقه فماذا يكون الحكم؟

انه حكم يستدر عبرات العيون، ويثير كوامن الشجون، ويطلق السنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خلق الرياء ولم تعم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون فتنادي على ملأ السامعين ان تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صوادع العبر ولم يزل دأبهم دأب آبائهم الأول ولو أصبح الحال غير الحال، وانطبقت الجبال على الجبال، أو أذن لاستقلال الامة والملك بالزوال، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين



(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فاني وليت هذا الامر وانا له كاره ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه، الا وانكم ان كلفتموني أن اعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمت فاتبعوني واذا رأيتموني زغت فقوموني واعلموا انّ لي شيطاناً يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في اشعاركم وابشاركم اه

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر وحق لمن أنزل

نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبّها بذلك الادب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والأثرة دونهم بالرأي ان يرفعه الله الى ذلك المقام الجليل الذي ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل ايامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضى الله عنه وعن الصحابه أجمعين

٦

ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه

أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌ لا يموت ، أيها الناس ان كثر أعداؤكم وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى ابلغ من نفسي عذراً ، وأقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين

٧

وجاء مال من البحرين ساوى في قسمته بين الناس فغضب الانصار فخطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

يا معشر الانصار ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بانفسنا ، لقلتم ، وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العد ، وان طال به الامد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو أن امنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت ادفأت وأظلت

٨

وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفانى ، الكثير الباقي ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة [1] فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ، ثم اعلموا عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب عنكم علمه فان استطعتم ان تنقضي الآجال وانتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله [2] فسابقوا فى مهل باعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فانهاكم ان تكونوا امثالهم ، فالوحا الوحا ثم النجاء النجاء فان وراءكم طالبا حثيثاً أمره سريعاً سيره

٩

(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضى عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحوا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة الخ

(٢) وفي راية الحاكم أيضاً (الا باذن الله)

ومن خطبه الغرّاء في الوعظ والتذكير قوله

الحمدُ للهِ ربّ العالمين احمدهُ واستعينهُ ونسأله الكرامةَ فيما بعد الموتِ فانه قد دَنى أجلي وأجلكم وأشهدُ انْ لا الهَ الاّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ أرسلهُ بالحقِ بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذرَ مَنْ كانَ حياً ويحقَ القولَ على الكافرين ، ومن يطع اللهَ ورسولَه فقد رشد ومن يَعصِهما فقد ضلّ ضلالا مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمرِ اللهِ الذي شرَعَ لكم وهداكم به ، فانّ جوامع هُدى الاسلام بعدَ كلمةِ الاخلاصِ السمعُ والطاعةُ لمن ولاه الله أمرَكم فانه مَنْ يطع اللهَ وأولي الامرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدّى الذي عليه من الحقّ ، واياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حُفظَ من اتباع الهوى والطمعِ والغضب ، واياكم والفخر وما فخرُ مَنْ خُلقَ من ترابٍ ثمّ الى التراب يعودُ ثمّ يأكلهُ الدود ثمّ هو اليوم حيٌّ وغداً ميتٌ فاعملوا يوماً بيوم وساعةً بساعةٍ وتوقوا دعاء المظلوم ، وعدّوا أنفسكم في الموتى ، واصبروا فانّ العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذرُ ينفعُ ، واعملوا والعمل يُقبلُ واحذروا ما حذّركم اللهُ من عذابهِ ، وسارعوا فيما وعدكم اللهُ منْ رحمته ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فانّ الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجي به من نجى قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلالهُ وحرامهُ وما يحب من الاعمال وما يكرهُ فاني لا آلوكم ونفسي واللهُ المستعانُ ولا حولَ ولا قوّةَ الاّ باللهِ واعلموا انكم ما أخلصتم للهِ من اعمالكم فربّكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم وما تطوّعتم به لدينكم فاجعلوهُ نوافلَ بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتُعطوا جرايتكم حينَ فقركم وحاجتكم اليها ، ثم تفكروا عبادَ اللهِ في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ما قدّموا فاقاموا عليه

وحلّوا في الشقاءِ والسعادةِ فيما بعد الموت . انّ اللهَ ليس له شريكٌ وليس بينه وبين أحدٍ من خلقه نسبٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوأً الاّ بطاعتهِ واتباعِ أمرهِ فانه لاخيرَ في خيرٍ بعده النارُ ولا شرّ في شرّ بعده الجنة اقول قولي هذا واستغفرُ اللهَ لي ولكم وصلّوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

١٠

(وخطب ايضاً فقال) الحمد لله أحمده واستعينه واستغفره وأومن به وأتوكل عليه واستهدى اللهَ بالهدى ، وأعوذُ به من الضلالةِ والردى ، ومن الشكِ والعمى ، من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً واشهدُ انّ لا الهَ الا اللهُ وحده لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يحيي ويميتُ وهو حيٌّ لايموت يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيدهِ الخيرُ وهو على كل شيءٍ قدير واشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلهِ ولو كرهُ المشركون ، الى الناس كافة رحمةً لهم وحجةً عليهم والناس حينئذ على شرّ حال في ظلماتِ الجاهليةِ دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعزّ الله الدين بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فاصبحتم بنعمته اخواناً ، وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون فأطيعوا اللهَ ورسوله فانه قال عزّ وجلّ (مَنْ يطعْ الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ومَنْ تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) اما بعد ايها الناس اني اوصيكم بتقوى الله العظيم في كلّ أمرٍ ، وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما احببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدق من الحديثِ خيرٌ ، من يكذب يفجرُ ومن يفجرُ يهلكُ واياكم والفخر وما فخرُ من خلق من الترابِ والى الترابِ يعودُ وهو اليوم حيٌّ وغداً

ميت فاعملوا وعدّوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله وقدّموا لانفسكم خيراً تجدوه محضراً فانه قال عزوجل (يومَ تجدُ كلُّ نفس ماعملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسهُ والله رؤوفٌ بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لابدّ من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها وكبيرها الا ماغفر الله انه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة الا بالله انّ الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك افضل ماصليت على احد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك اه

١١

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) ان أشقى الناس في الدنيا والاخرة الملوك فرفع الناس رؤسهم فقال

مالكم أيها الناس انكم لطعانون عجلون انّ من الملوك مَن اذا ملكَ زهدهُ الله فيما بيدهِ ورغبهُ فيما بيد غيرهِ وانتقصه شطرَ أجلهِ وأشرب قلبهُ الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء لايستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسيّ والسراب الخادع جذلُ الظاهر حزين الباطن فاذا وجبتْ نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه (١) ألا وان الفقراء هم المرحومون

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلا عن زهر الآداب (وأقل الانصار عنه عقوبة)

الا ان من آمن بالله حكمَ بكتابهِ وسنة نبيهِ صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة نبوّة ومفرق محجة وسترون بعدي ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً وأمةً شحاحا ودماً مباحا فان كان للباطلِ نزوة ولاهلِ الحقّ جولة يعفو لها الاثر ويموت لها الخبر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة وليكن الابرامُ بعد التشاور والصفقةُ بعدَ طول التناظر أيّ بلاد خرشنة (١) ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها

١٢

وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

ان الله عزّ وجل لايقبل من الاعمال الا ما أُريد به وجههُ فأريدوا الله باعمالكم ، واعلموا انّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وخطأ (٢) ظفرتم به وضرائب أدّيتموها ، وسلف قدّمتموه من أيام فانيةٍ لأُخرى باقيةٍ لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبةِ في مواطنِ الحربِ ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الارض وعمروها ؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كلا شيء الا ان الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطعَ عنهم الشهوات ، ومضوا والاعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنةُ وجوههم المعجبون بشبابهم صاروا تراباً ، وصار مافرّطوا فيه حسرةً عليهم أين الذين بنوا المدائن

(١) وفي العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة

(٢) كذا في تاريخ الطبري ولعلها حظ

وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحسُّ منهم من احد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم واخوانكم قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ماقدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . الا أن الله لاشريك له ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه سببٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوءً الاّ بطاعته واتباع أمره واعلموا انكم عبيدٌ مدينون وانّ ماعنده لا يدرك الا بطاعتهِ اما انه لاخير بخير بعده النار ولا شرّ بشرٍ بعده الجنة اه

رضي الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التي تذكر بالملوك الماضين ان يعظ نفسه ويستزيد من الورع والتقوى هذا على ماعرف به من التقى والعدل وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين والتبريز في اقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين فما اجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا في حب الذات من أولياء أمر الامة الاسلامية بعدُ بمثل هذه العظة وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسوّدوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمى اليه بسهام الاذى الاغيار ، فانا لله وانا اليه راجعون

١٣

وخطب عند ما انتدب الناس الى غزو الشام فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

الا انّ لكلّ أمرٍ جوامع فمن بلغها فهي حسبهُ ، ومن عمل لله كفاه الله .

عليكم بالجد والقَصدِ فانّ القصدَ أبلغُ ، ألا انهُ لا دينَ لاحدٍ لا ايمان لهُ ، ولا أجر لمن لا حسبةَ له ، ولا عمل لمن لا نية لهُ ، ألا وانّ في كتاب الله من الثواب على الجهاد ، لمَا ينبغي للمسلم انْ يُحبَّ انْ يُخصّ بهِ ، هي التجارةُ التي دلّ الله عليها ونجي بها من الخزْيِ ، وأُلحقَ بها الكرامةَ في الدنيا والآخرة اه

وله كلام عظيم الاهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي يقوله لعليّ بن أبي طالب حين توقف عن بيعته نرجئ ايراده الى سيرة عليّ رضي الله عنه لما ترتب عليه من كثرة الاخذ والرد بين عليّ وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ

﴿ تنبيه ﴾

اقتصاداً للوقت واشتغالا بمواد التاريخ قد أغفلت تفسير الالفاظ الغامضة التي وردت في كلام أبي بكر وعائشة وغيرهما في هذا الكتاب وانما أوردت في الهامش بعض الجمل والالفاظ التي اختلفت في بعض الروايات عن البعض الآخر تسهيلا لمن يريد مراجعة اللغة لتطبيق المعنى على اللفظ الصحيح من تلك الالفاظ

باب

﴿ مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته ﴾

(مرضه)

روى في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه انه اغتسل في يوم بارد فحم وأخرج الحاكم عن بن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم كمداً فما زال جسمه يجرى (أى ينقص) حتى مات

روي ان عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه فقالت شعراً

وكل ذي إبل يوما موردّها   وكل ذي سلب لا بدّ مسلوب

وفي رواية الطبري

وكلّ ذي إبل موروثُ   وكلّ ذي سلب مسلوبُ
وكلّ ذي غيبة يؤبُ   وغائبُ الموت لا يؤبُ

ففهمها أبو بكر فقال ليس كذلك يا ابنتاه ولكنه كما قال الله (وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِ ذلك ما كُنتَ منه تحيد) وانشدت مرة فوق رأسه أيضاً

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما ثقل على أبى بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت

يا أبت أعهد الى حامتك وأنفذ رأيك في سامتك (١) وانقل من دار جهازك الى دار مقامك انك محصور متصلٌ بقلبي لوعتُك وأرى تخاذلَ اطرافكَ وامتقاعَ لونك والى الله تعزيتي عنك ولديه ثوابُ حزني عليك. ارقأ فلا ارقأ وأبلَ فلا أبقى (٢) . فرفع رأسه اليها وقال

هذا يوم يجلى لى عن غطائى وأعاين جزائى الى آخر ما قال وقد سبق لنا ايراده فيما مر من الكتاب

﴿ استخلافه عمر ووصيته له ﴾

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ولم يثن همته عن

(١) وفي العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك
(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكي

النظر في مصلحة الأمة وخشي ان هو مات ولم يعهد لاحد بالخلافة ان تكون فتنة تضطرب لها الدهماء ، وتعظم اللأواء ، وفي القوم نفر ينتهي اليهم شرف السيادة في الجاهلية والاسلام وهم في الفضل والتقدم سواء ، ولكن لكل منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ، وعصبية تريده على الامر وان هو أباه ، فان ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرّق الرأي وتعذّر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفر اذ الشورى في الامور وان كان يراد بها تمحيص الآراء لاختيار الاصلح منها والاصوب فيها الا أن صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي الصحابة كما قلنا نفرهم في الفضل والشرف والاهلية كالحلقة المفرغة لا يدري ان طرفاها ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه

اذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعذرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف مادام فيهم عدة من ذوي الكفاءة وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين كما انها قائمة لابى بكر أيضاً في عدم تركه الامر شورى والحال ما ذكر درأً لخطر ذلك الخلاف المتوقع بين قوم هو أبصر بهم وأدرى باخلاقهم وانما نظر أبو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقفه فرأى أنه يحتاج الى رجل فيه شدة من غير عنف ولين من غير ضعف وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب الا ان الاول كان ربما يريد الامر فيرى في طريقه عقبة فيدرو اليه والثانى يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة أميل منه الى اللين لهذا لما استشار أبو بكر

الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر

لما عزم أبو بكر ان يعهد بالامر ونظر فيمن يعهد اليه فوقع اختياره على عمر جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة في عمر فسأل عبدالرحمن ابن عوف فقال اخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر الاّ وأنت أعلم به مني فقال أبو بكر وان فقال عبدالرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة قال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو فيه ثم دعا عثمان فقال اخبرني عن عمر فقال أنت أخبرنا به فقال عليّ ذلك يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر فقال اللهم علمي به انّ سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد اللهم اعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الامر أحد أقوى عليه منه ،واستشار غير هولاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم (١) ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفني ؟ أقول اللهم انى استخلفت عليهم خير أهلك . أبلغ عني ما قلت من ورائك

ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة الخ كتاب العهد وقد سبق ايراده في فصل كتب أبي بكر ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فاوصاه ما أوصاه

ومما يؤثر عن أبي بكر هذه الوصية الغراء التي أوصي بها عمر رضي

(١) روى الطبري ان الذي قال ذلك هو طلحة ابن عبيد الله

الله عنهما

﴿ وصيته لعمر ﴾

اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله انّ لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الاّ الباطل ان يكون خفيفا انّ الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيآتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ان لا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو ان لا أكون من هؤلاء وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهبا ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله اه

لما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال

اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته

وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق ان أبا بكر انما أختار للخلافة بعده عمر رضي الله عنهما ولم يتركها شورى خوفا من الفتنة وثقة بكفائته وسداً لذرائع النزاع من جهة ومن جهة ثانية علما منه بمكانة عمر من السياسة وانه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة في العيش والقناعة بالكفاف ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد اخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن بث الدعوة همتها ومع انه اختار لها خير كفؤ بشهادة كبار الصحابة كما رأيت فقد تفرس في بعض المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتي ولا يحمل ذلك منهم الا على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم

روى ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر بعد ذلك فوجده مهتما (١) فقال أصبحت بحمد الله بارئا يا خليفة رسول الله فقال

اما اني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليّ من وجعي ، اني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم من ذلك أنفه يريد أن يكون له الامر من دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألمون الاضطجاع على الصوف كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ألا وانكم أول ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالا يا هادي الطريق انما هو الفجر أو البجر (٢)

قال فقلت خفض عليك يرحمك الله فان هذا يهيضك على ما بك انما الناس في أمرك بين رجلين اما رجل رأى ما رأيت فهو معك واما رجل خالفك

(١) وفي رواية فوجده مفيقاً (٢) وفي نسخة البحر

فهو يشير عليك برأيه وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت الا الخير ولم تزل صالحا مصلحا مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا

﴿ وفاته ﴾

لما ثقل على أبي بكر المرض أوصى عائشة ان يدفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار الى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحي أحوج الى الجديد من الميت وأوصى ان تغسله امرأته اسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبد الرحمن وكتب وصيته بخمس ماله وقال : آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين: وروى الطبري ان أبا بكر لما حضرته الوفاة :قال انظروا كم انفقت منذ وليت بيت المال فاقضوه عني :فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته وأخرج الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها ان أبا بكر لما حضرته الوفاة قال ايّ يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين . قال فان مت من ليلتي فلا تنظروا بي الغد فان أحب الايام والليالي اليّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم: وتوفي أبو بكر من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته اسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعا ودفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه ان أبا بكر صلي عليه ليلا ودفن ليلا (١) وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

(١) هكذا كان دفن أبي بكر فليت شعري متى ابتدع المسلمون في الجنائز ما ابتدعوه من الاحتفال الذي يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما يرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم اللهم ان ما يفعله المسلمون الآن في مصر وبعض الممالك الاسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الاولى لا يرضاها شرعك ولم يسبق الى مثلها أحد من أصحاب نبيك

﴿ خطبة عليّ في تأبين أبي بكر ﴾

أجمع الرواة ان أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باكيا مسرعا مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول

رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاماً واخلقهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهديا وصمتاً فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس واوسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال (والذى جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللكافرين نا كبا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيما عند الله جليلا في الارض كبيراً عند المؤمنين لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قويّ والقويّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القويّ وتأخذه للضعيف فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ خطبة ابنته عائشة في تأبينه ﴾

نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الاحداث بعده فقدك ، انّ كتاب الله

عزّ وجلّ ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وانا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك

﴿ ودخل عليه عمر فقال ﴾

ياخليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً ووليتهم نصباً فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك

باب

﴿ ولده وعماله وقضاته وكتابه ﴾

(ولده)

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله واسماء أمهما قتيلة من بني عامر ابن لؤي . وعبد الرحمن وعائشة أمهما أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من بني فراس بن غنم بن كنانة . ومحمد أمه اسماء بنت عميس . وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الانصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فانه شهد يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الى خلافة أبيه وهلك في خلافته وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر وولد لعبد الله اسماعيل فهلك ولا عقب له (وأما اسماء) فهى ذات النطاقين [1] وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت

(١) ان اسماء هذه رضي الله عنها هي أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك في سيرة الحجاج

(وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وبقيت الى خلافة معاوية وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الذكاء وفصاحة اللسان وقد رأيت من كلامها فيما مرّ مايدل على قوّة عارضتها وفصاحة لسانها ولها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة وقد أوردنا منها فيما مر مادعت اليه المناسبة وفضلا عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها الله ورضى عنها

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن اسلامه ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة فأدخلته عائشة الحرم ودفنته واعتقت عنه وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله وولد له محمد وعبد الله وحفصة وروى المسعودي ان لعبد الرحمن عقباً كثيرا بدوا وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان

(واما محمد بن ابى بكر) فكان يكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش وولاه عليّ بن ابى طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك وظفر به فقتله وولد له القاسم لام ولد وكان فقيهاً فاضلا

(وأما أم كلثوم بنت أبى بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت زكريا وعائشة ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومي

﴿ عماله وقضاته وكتابه ﴾

لما ولى أبو بكر قال له أبو عبيدة انا أكفيك بيت المال وقال له عمر انا أكفيك القضاء وكان يكتب له عليّ بن أبى طالب وزيد بن ثابت وعثمان

ابن عفان وان غابوا فكان يكتب له من حضر

وكان عامله على مكة عتّاب بن أسيد ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر وقيل مات بعده وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية . وعلى حضرموت زياد بن لبيد الانصارى. وعلى خولان يعلى بن منية : وهي أمه واسم أبيه أمية: وعلى زبيد ورمع ابى موسى وعلى الجند معاذ بن جبل وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي. وبعث جرير بن عبد الله الى نجران . وعبد الله بن ثور الى جرش وعياض بن غنم . الى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وكل رجل منهم أمير على جيشه وقيل كانت الامارة العامة لخالد وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره لهذا اخترنا ان نورد سيرته ان شاء الله عقب سيرة أبي بكر لانه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيباني استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم اجمعين

﴿ باب ﴾

﴿ صفة أبي بكر ﴾

روي ابن قتيبة عن عائشة انها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين أجنأ لا يستمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الاشجع كان يصبغ بالحناء والكتم

هذا ما احببنا ايراده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع في التحقيق والتنقير وجمع شتيت

الاخبار المتفرقة وضم الاشباه والنظائر منهابعضها الى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين الآ انّا اغفلنا من سيرته أبوابا لم نرَ حاجة لايرادها في هذا الكتاب لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها ولانها ليست من خصائص التاريخ بل هي من خصائص كتب الشريعة كالاحاديث والآثار المروية عنه والاحكام الصادرة منه والاحاديث الواردة بفضله ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب السنة وارد في الصحاح وقد بقي علينا فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر وبعد ذلك نأتي على سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

جاء الاسلام قاضيا بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية فشوّه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور اشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار فتشكلت باشكالها الاخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين فاصبح أهل الكتاب اليهود منهم . بين قرائين وسامرين وربانيين وغيرهم . والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق . وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزء في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الاهواء فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم (وما أدراك مافارس والروم أعرق

الأمم في المدنية وأقصاها غاية فى التاريخ وأرهبها قوة في الارض وأمدها ظلاً عليها) اشبه بشجرة تأصلت جذورها في الارض وتسامقت فروعها في الفضاء فجاءتها ريح عاصف تعتعت أصلها وتلاعبت باغصانها فقصفتها قصفاً، وعصفت فيها عصفاً، فزوت افنانها، وتفرقت مع الريح اغصانها، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي اليه الاهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم

ودولة الفرس كذلك تفككت اعضاؤها وتجزأت وحدتها فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية (١) ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت اهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الاهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الآ أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهاديا الى الله باذنه وسراجا منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس الى دينه . دعاهم

(١) لهذه الاسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الاسلامي نحو ستة ملوك في بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الامراء والرعية قتلا (راجع تاريخ الكامل)

الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً . والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعاً ينابذ بعضها بعضاً . والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق . والى توحيد المقاصد فلا يتخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزعات النفوس . والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب الى ملوكهم الذين اليهم ينتهي أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه من أجاب وأقبل عليها من أقبل . وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا ان تلقوا هـذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعـد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون بالقناعة بالكفاف عما بأيدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز فقال تعالى فيه (كنتم خير أمـة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معـه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (انما المؤمنون اخوة) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين

يومئذ تمثيلا وتدل على مبلغ تأثير الاسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضى الله تعالى عنه وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته فرمى بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد اذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاه والتنعم المنغمسة فى حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في اخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم لا سيما وان القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه وكان جل همه منصرفا الى اقامة شعائر الدين والتأدب بآداب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف هذا مع علمه بان الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد الى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شئ عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة

حديثة عهد في الدين من قبل ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد

روى الغزالى في الاحياء ان تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم ان كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ان لا يتخاصم منهم أثنان امام القضاء في حق صدراً من خلافة أبي بكر فقد روي انّ عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضي الله عنهما بقي سنة لا يحضر عنده خصمان فى دعوى ولا يتخاصم لديه أثنان في حق

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا في مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم فقد قال المسعودي فى تاريخه انه لما قدم على أبي بكر زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ولما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤي يوما فى سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال ، فأردتم أن أكون ملكا جباراً في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع والزهد ، قال المسعودي وتواضعت الملوك ومن

ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر

ولا جرم انّ قدوة الأمم رؤساؤها وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسوّد قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه وقد بسطناها اليك على وجه الاجمال لتتذكر وتعتبر . وتتقى الله في نفسك وتزدجر . والله ولىّ الصالحين

وهذا آخر الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله عنه وارضاه ووفق ولاة امورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل . والله يعصمنا واياهم من الجهل .

﴿ خالد بن الوليد ﴾

﴿ باب ﴾

(حاله في الجاهلية)

« نسبه وأصله »

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشى المخزومى أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والاول أصح وهي بنت الحارث بن حزن الهلاليه وهى اخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم واخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وهو ابن خالة اولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة

﴿ شرفه في قومه ومكانته عندهم ﴾

تقدم معنا في صدر الكتاب ان خالد بن الوليد ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية من قريش وانه كان على الاعنة والقبة وابنا ثمة المراد من القبة والاعنة فلا حاجة للاعادة هنا لهذا كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الا مابعد الفتح من الوقائع وقد كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محبباً فيهم مقدما عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفا باصول الحرب حائزاً على صفات الجندية التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والاخذ بالشدة والتسرع الى المعاقبة لهذا لما بدر منه بعد اسلامه مابدر من التسرع في حادث مالك بن نويره قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ان سيف خالد فيه رهق وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين والاسلام يأبى الشدة و يأمر بالاناة والحلم وعدم الامعان في ايذاء المقاتلين ومع هذا فان الاسلام غير كثيراً من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

اختلف في وقت اسلام خالد فقال بعضهم انه أسلم سنة ثمان للهجرة وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الاصح فقد كان اسلامه

بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذى القعدة سنه ست وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدرى في صفر فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها:

(صحبته)

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة الى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي استشهد فيها زيد ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد أيضاً ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالا شديداً حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين

وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله وذلك انه أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الامراء فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ومن ثم سمي خالد سيف الله

وكان خالد من حين اسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وأمره يومئذ ان يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو أول يوم أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا

ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الاحابيش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة فلقيهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد ان قتل منهم ثلاثة عشر رجلا

ولما فتحت مكة واذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشدّ العرب عداوة له وايذاء لاصحابه ووقوفاً دون دعوته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب الى الاسلام وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه الى بني جذيمة داعياً لا مقاتلا فذهب فقاتلهم وقتل منهم فلما انتهى الخبر الى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال (اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والاموال ثم جاء خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ان عبد الله بن حذافة السهمي أمرني بذلك عن رسول الله

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العزّى ببطن نخلة وكان بيتاً عظيما لمضر تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم فهدمها خالد وقال

ياعزّ كفرانك لاسبحانك　　اني رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني سليم فجرح خالد فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث في جرحه فبرئ وأرسله أيضاً الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده الى بلده ، وأرسله أيضاً سنة عشر الى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران وأمره ان يدعوهم الى الاسلام فان أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الاسلام وان أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون الناس الى

الاسلام فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم اليه وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتي صورته فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم فاقبل وأقبل معه الوفد وفيهم قيس بن الحُصَين بن يزيد بن قنان ذي الغُصَّة ويزيد بن عبدالمدان ويزيد بن المحجّل وغيرهم

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح اعداء الاسلام ويحرص على رضاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له بعد من جميل الأثر في قتال اهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ما رأيت في سيرة أبي بكر ونتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الاسلام

باب

حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر

(حروبه في الردة)

{ حربه مع طليحة }

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه انه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح وكان أبو بكر بعث عدي ابن حاتم (١) الطائي قبل خالد الى طيء واتبعه خالداً وأمره ان يبدأ بطيء ومنهم

(١) هو عدي بن حاتم الجواد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الارض فأسلم وسر باكرام رسول الله له سروراً عظيما وكان له في أيام الردة أحسن الأثر رضي الله تعالى عنه

يسير الى طليحة ببزاخة ويثلث بالبطاح حيث يقيم مالك بن نويرة بقومه وان لا يبرح اذا فرغ من قوم حتى يستأذنه

سبق عديّ خالداً الى قومه ودعاهم فاجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد وأخره عنا حتى نستخرج مَن عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عديّ خالداً واخبره بالخبر فتأخر خالد وأرسلت طيء الى اخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ولما عزم خالد على قصد جديلة[1] استمهله عديّ عنهم ايضاً ولحق بهم يدعوهم الى الاسلام فاجابوه فعاد الى خالد باسلامهم ولحق بالمسلمين الف راكب منهم كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عديّ بن حاتم رضى الله تعالى عنه حتى قيل يومئذ عنه انه خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم

ولما عزم خالدبن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم الانصاري طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً واقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتا قتيلين فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيء فقالت له طي نحن نكفيك قيساً فان بني أسد حلفاونا فقال قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم فقال عديّ بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الادنى فالادنى لجاهدتهم عليه والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم فقال خالد ان جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط وقد أصاب خالد بهذا الرأي ورضي به عديّ ثم سار جيش المسلمين على تعبية الى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين وكان مع طليحة عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة فقاتلوا قتالا شديداً حتى اذا اشتدت

(١) جديله بطن من طيء

عليهم وطأة الحرب وزعزعتهم صدمات المسلمين كرّ عيينة على طليحة وسأل هل أوحي اليه بشيء ؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا ابالك فهل جاءك جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كرّ على طليحة فقال هل جاءك جبريل؟ قال نعم قال فماذا قال لك قال قال لي ان لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بني فزارة فانه كذاب فانصرفوا وانهزم الناس وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب فلما بلغه أن أسدا وغطفان قد أسلموا اسلم وبقي فى كلب حتى توفى أبو بكر رضى الله عنه واستخلف عمر فأتى اليه وبايعه ثم حضر بعدذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين وأبلى فى حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين وهيهات للباطل ان يقوم فى جانب الحق وللكذب ان يغلب على الصدق (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)

لما انهزم جند طليحة اجتمع الفلّ من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بنى فزارة فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالداً الخبر سار اليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها

﴿ حادثة مالك بن نويرة ﴾

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا فى سيرة أبي بكر

رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع بن مالك وغيرهم الا مالك بن نويرة بقي متردداً حتى اذا بلغه مجيء خالد ندم على ما فعل وفرق قومه فى البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بنى يربوع انّا دعينا الى هذا الامر فأبطأنا فلم نفلح وقد نظرت فيه فرأيت الامر يتأتى لهم بغير سياسة واذا الامر لا يسوسه الناس فاياكم ومناواة قوم قد صنع لهم فتفرقوا وادخلوا فى هذا الامر

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الانصار وقالوا قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من بزاخه أن نقيم حتى يأتينا أمره فقال خالد قد عهد اليّ أن أمضي وأنا الامير ولو لم يأت اليّ كتاب بما رأيته فرصة وكنت ان أعلمته فاتتني لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع ان نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل فأنا قاصد الى مالك ومن معي ولست أكرههم

ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن فى تعجيله بأمر مالك مالا تحمد عقباه لهذا امتنع الانصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا ان أصاب القوم خيراً حرمتموه وان أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وان يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا فان أذن القوم فكفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان أقروا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم)

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد انهم

أذنوا فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة فأمر خالد منادياً فنادى دافئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم انه أراد القتل ولم يرد الا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الازور مالكا وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال اذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك

ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر رغب عمر الى أبى بكر أن يستدعى خالداً ويقتص منه وكان عمر رضى الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر يحب الاناة وعدم التعجيل في العقوبة ولما ألح عمر على ابى بكر بشأن خالد قال يا عمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فاني لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهماً فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وأسمعه كلاما أليماً فلم يكلمه ودخل على أبي بكر وأخبره بجلية الخبر واعتذر اليه فقبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة اذا صح ان سببه سوء فهم كما تقدم فخالد غير مسؤل عن دمه هذا اذا صح انه أظهر الاسلام حين رأى جيش المسلمين الا ان تردده فى الامر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص للاسلام والا لكان تابع بقية سادات تميم بارسال الصدقة الى أبى بكر ولم يبطئ الى حين وصول جند المسلمين اليه وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به عن خالد بن الوليد رضي الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلا به من قبل خالد بن الوليد ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلمة فى تاريخه لا يسدها الا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام

﴿ حربه مع مسيلمة ﴾

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يصل اليه شرحبيل بن حسنة ولما انتهى الخبر بذلك الى أبي بكر كتب لشرحبيل بالتربص وأتبعه خالد بن الوليد بعد مجيئه الى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة وأوعب معه المهاجرين والانصار فتقدمهم الى البطاح ولما تكاملت عدتهم سار بهم الى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد على تعجيله ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء باربعين الف مقاتل وقيل بستين الفاً وخرج اليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثاراً لهم في بني عامر فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة

ثم ان مسيلمة ترك الاموال وراء ظهره وتقدم لقتال المسلمين وقام ابنه شرحبيل يحرّض بني حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه. قائلا لهم ، يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحى الطعن والضرب واشتدّ القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط حتى نزعوا الى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس وغيرها صفوف العدو وحمل خالد بالناس حتى ردوا الاعداء الى أبعد مما كانوا واشتدّ القتال وتذامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالا شديداً والمسلمون صامدون حتى قتل من أولي البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم

لما رأى خالد ما الناس فيه خشي من أن ينهزم اخلاط العرب فتختل

صفوف المسلمين ويساق معهم أهل النجدة من الانصار والمهاجرين فنادى في الناس ان امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كلّ حيّ ولنعلم من أين نؤتي . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار وحينئذ ظهر انّ القتل في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر من البوادى وعلم خالد ان الحرب لا تركد الا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز اليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركبه خالد فانهزم امامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن احسابكم ونادى مناديهم يابني حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها واغلقوا عليهم بابها

فجاء أحد أبطال المسلمين الانجاد وهو البراء بن مالك وقال يامعشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم وأقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي مولى جبير بن مطعم ورجل من الانصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الادبار فاخذهم السيف من كل جانب

كان مجاعة بن مرارة اسيراً مع خالد كما قدمنا فقال لخالد بعد انكسار بني حنيفة هلمّ الى الصلح على ماورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون الاّ النساء والصبيان ومشيخة فانية وبعض رجال ضعاف فألبسهم الحديد وأمرهم ان يشرفوا من الحصون ثم عاد الى خالد وقال له قد أبوا ان يجيزوا ماصنعت . وكان قصده بهذا ايهام خالد لاجل ان يأخذ الامان للرجال ويصالح خالدا على السبي وقد نجح بهذه الخدعة اذ رأى المسلمون ان يعودوا على ظفر بعد ان نهكهم طول اللقاء فصالحه خالد على الفضة والذهب وربع السبي وقيل نصفه وانتهى الامر

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه مالم يظهر من جيش قط واستحرّ القتل في المهاجرين والانصار يومئذ وقتل من القراء جمع وهذا مادعا أبا بكر وعمر للمبادرة الى جمع القرآن كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب أمره للمسلمين بان يمتاز الاحياء والقبائل بعضهم عن بعض لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت وقد فعلوا وشتتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوة اليقين وحسن تدبير خالد بن الوليد فرضي الله عنه وعنهم أجمعين

باب

فتحه العراق وحروبه فيه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالتوجه الى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ونحن ذاكرون هنا طرفا من أهم أخباره في حرب اهل العراق مما لم يذكر بالتفصيل من قبل فنقول

وقعة الحفير

اول وقائع خالد بن الوليد في العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز فبرز الى خالد بجيشه مقترنين بالسلاسل كي لا يفروا فطلبه خالد للبراز فبرز اليه ولم يتجاولا الا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه

أصحابه فما شغله ذلك عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فازاحوا الفرس وركبهم المسلمون فهزموهم وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة الامارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ومن عادة الفرس اذا تم شرف الانسان ان تكون قلنسوته بمائة الف

كلمة على الالقاب والرتب

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة والظاهر ان القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي من قبيل الرتب والالقاب التى أحدثت بعدُ في دول الاسلام وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الاعاجم وذلك كالمنصور والمهدى مثلا في القاب الخلفاء ونظام الملك في الوزراء وشرف الدولة وعز الدولة فى الامراء وما لا يحصى من الالقاب والنعوت التى وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال الى درجة تشمئز منها النفس ويأباها عقل الحكيم ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدول التركية والايوبية والجركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر اليهم من ديوان الخلافة ليرى كيف كانت ترص الالقاب والنعوت لامراء وملوك ما أجدهم بقول الشاعر الاندلسى الحكيم

القاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

ولا جرم ان توفر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع الى المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقيّ والشرف الذاتي ومنشأ هذا أمران (فقد التربية وانحلال الدول)

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوّة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضى

على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكب بهم طرق الفضائل فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل . ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الامور التي تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وقصاراها ضعف الأمم وتدرجها في مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوّة الدمار والفناء حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم في الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

وأما انحلال الدول فلانه يحل عرى الألفة وتتناكر به القلوب وينفضّ الناس من حول الامير لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم فيحتال لاجتذاب قلوب أفرادهم ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الالقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتغتر بمظاهر المخفخة الكاذبة نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والقاب التشريف الباطلة وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر وابتدع الخلفاء من القاب التشريف الكثيرة ما يتألفون به قلوب الناس ويجتذبون اليهم افئدة الامراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الاسلامية من طريق التقليد للاعاجم في أمور كثيرة أفسدت اخلاق الامة وأدخلت الوهن على أصول التربية الاسلامية التي تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم

من الامويين وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس في عهدها الى أعلى مراقي المجد التي لا يبلغها الا ذوو الشمم والجد الآخذون بنواصي الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاغترار بزخارف المجد الباطل حتى لقد كان الخلفاء لا يخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والالقاب بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها رسما وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهي جمهورية أمركا الشمالية التي حرم في دولتها ايجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الالقاب الكاذبة والسفاسف المضرة بالاخلاق والتربية فنشط سكان تلك المملكة العظيمة الى السعي وراء المجد الحقيقي المتأتي عن العمل والعلم حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الارض الآن ولله في خلقه شؤون وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الاول منهم العاقلون والثاني الجاهلون

﴿ وقعة الثنى وما بعدها ﴾

لما اجتمع خالد بهرمز في الحفير أرسل الثاني كتابا الى كسرى يستمده فأمده بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن فلما انتهى الجيش الى المذار لقي المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا الى الثنى وهو النهر وسار اليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبي وكان في السبي يومئذ ابو الحسن البصري الشهير وكان نصرانياً وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى ازدشير بعث اليه بجيش بقيادة الاندرز عز جله من العرب الضاحية والدهاقين فسار اليهم خالد ووضع لهم كمينا فالتقوا عند الولجة ولم تلبث ان نشبت بينهم الحرب حتى خرج

الكمين على العدو وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ومات قائدهم الاندر زغر عطشا في الفلاة

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فاستنفروا اخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم ببهمن جازويه وكان بقشيناثا وأمره بالقدوم على نصارى العرب بالليس فقدم امامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير وعرب الضاحية فسار اليهم خالد وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا للحرب فهزمهم شر هزيمة واكثر فيهم القتل والاسر

ثم بعد هذه الوقعة قصد خالد الحيرة وحمل الاثقال بالنهر ولما بلغها صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر ما فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وكتب لهم خالد كتابا بذلك

ولما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحي فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هرمز جرد على الفي ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل السرايا فمخروا دجلة الى أرض فارس وأرسل خالد كتبه الى ملك فارس ومرازبتها يدعوهم الى الاسلام وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس الى الاضطراب يولون ملكا ويعزلون آخر شأن الامم اذا انحلت رابطتها والدول اذا انتكث فتلها وأذن الله بانصرام أجلها

وبينما الفرس في شاغل الاضطراب أخذ خالد يتم فتح العراق فسار الى الانبار

وكان بها شيرزاد فخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح وخرج الى بهمن جازويه ناجيا بنفسه ثم صالح خالد من حول الانبار واستخلف عليها الزبرقان ابن بدر وسار الى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوبين بجند عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة بجمع كثيف من العرب من النمر وتغلب واياد فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور وأخذه اسيراً فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من في الحصن أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبى من فيه فكان من جملة السبي سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الاندلس بعدُ وروى بعضهم ان نصيراً عربي من أراشة من بليّ سبي في أيام أبي بكر فاعتقه بعض بني أمية فصار الى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مري

ومنها سار خالد الى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه وخالد من أسفله فخرج الجودي صاحب دومة الجندل الى خالد بطائفة من قومه وأرسل الى قتال عياض طائفة أخرى فدُحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والثني والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ثم أمر بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة وسار هو الى مكة فحج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله الى الحيرة على ما رواه المؤرخون

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي أصلى الفرس والعرب في العراق نارها وقضى على ملك الفرس اذ مهد السبيل الى تدويخ فارس وإزالة دولة الاكاسرة وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً الآ انها بلغت من الكبر عتياً ، ومن فشل السياسة مكاناً قصياً ، فجاءها جند الاسلام بادي الشباب ناعم الإهاب فأسس ملكه الجديد في تخوم بلادها لينساح في احشائها ، وينشر دعوة الاسلام في ارجائها ، ويقضي قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم في السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين)

قد كانت حروب العراق ايام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب في العراق وجند فارس على حرب المسلمين حتى لقد كان أهل العراق ايام عليّ اذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذي كان بعدها

﴿ امراء خالد وقواده ﴾

ممن كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالد بن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون الى الاسلام أو الجزية ويقاتلون من امتنع عن قبول احدى الخصلتين ، المثنى بن حارثة الشيباني وبشير بن سعد الانصاري وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحنظلة الكاتب والنسير بن دسيم ابن ثور وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو وعتيبة بن النهاس وغيرهم من أهل النجدة والباس ، والاربعة الاخيرون كانوا من أمراء الثغور

﴿ جغرافية العراق ﴾

قالوا سمي العراق عراقاً تشبيهاً له بعراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها وهو على ضفتي دجلة ويحد العراق شمالا الجزيرة وكردستان ، وشرقاً بلاد العجم وجنوباً خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الانبار الى بغداد ومن ثم على شرقي دجلة الى مصب نهر الزاب الاصغر فيها ويفصل بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممدة جنوباً من جبال كردستان

وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر بل كلّ الجزء الواقع بين دجلة والفرات وهو العراق والجزيرة كان قبل الاسلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها وكانت للعرب دولة في العراق وهي دولة المناذرة تدفع الاتاوة الى الفرس كما كان لهم دولة في الشام وهي الدولة الغسانية تدفع الاتاوة الى الروم فلما جاء الاسلام قضى على دولتي المناذرة وغسان كما قضي على دولتي الروم والفرس

﴿ باب ﴾

(سفره الى الشام وحروبه فيها)

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه ان جنود المسلمين في الشام اجتمعوا في اليرموك وأخذوا يطاولون العدو ويطاولهم وكتبوا الى أبي بكر يستمدونه فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد ان يسير بنصف الناس الى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فصدع خالد بالامر وسار في ربيع الاول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم وبعضهم قال انه سار من عين التمر ولما سار استخلف

على العراق المثنى بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحمك الله الى سلطانك فغير مقصر ولا وان)

وقد كان المثنى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا فأذن له وولاه جند العراق ثم أرسل خالداً الى العراق وأمر المثنى بالسمع والطاعة له ولما سار خالد الى الشام عادت امارة الجند الى المثنى وكان خير كفؤ لها بعد خالد بن الوليد

سار خالد بمن معه من جند الاسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم وتسعة على رواية البعض الآخر وقال بعضهم ان أبا بكر أمره ان يأخذ معه أهل النجدة فسار بخمسمائة ولعل الرواية الاولى أصح وأغار في طريقه على جمع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير فيها لفقد الماء منها وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي انك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والاثقال فقال لابد لى من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء للشبعة لخمس وان يعطش من الابل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الابل فمزجوا ما فى كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل ففعلوا ذلك أربعة أيام وفي اليوم الخامس انتهوا الى سوى فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين [1]

---

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظيمة في قديم الزمان وبينها وبين

فقاتل أهلها فظفر بهم ثم فعل مثل ذلك بحوارين

وروي الطبري انه سار منها الى قصم وقاتل بني مشجعة ثم سار الى ثنية العقاب [1] قرب دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ثم سار فأتى مرج راهط [2] فأغار على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي ارطاة وحبيب بن مسلمة الفهرى من قريش فأغارا على قرى الغوطة ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق فأخرج لهم بطريقها نزلاً وخدمةً وقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا

ثم سار خالد من دمشق الى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء) [3] فقيل انه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها وبعث باخماسها الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمالى جبل عجلون) أم في اجنادين من عمل فلسطين فقال أبو جعفر الطبري ان وقعة اجنادين كانت بعد اليرموك

دمشق الشام سبعة مراحل ويليها القريتين وهي على مرحلتين منها وقال ياقوت انها هي حوارين التي مر عليها خالد وفيه نظر

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص اه ولعلها التي تسمى الآن الثنايا

(٢) هو المرج الواقع شرقي دمشق مما يلى الغوطة

(٣) القضاء في عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء او المتصرفية التي تجمع لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية مادون الولاية التي تجمع الى رئاستها بضع متصرفيات أو ألوية

وأورد البلاذري في فتوح البلدان خبر اجنادين قبل اليرموك وقال ان وقعة اجنادين كانت في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ مع ان أكثر المؤرخين ومنهم ابن الاثير قالوا ان وقعة اليرموك كانت في سنة ١٣ وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة للاعادة وانما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من ان واقعة اليرموك كانت قبل اجنادين وفيها التقى خالد بن الوليد بالمسلمين

قال بعض المؤرخين ان خالداً لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط والظاهر ان الرواية الثانية أصح لما ذكره ابن الاثير والطبري من ان خالداً لما انتهى الى المسلمين في اليرموك وجد الامراء متساندين كل أمير على جنده فرغب اليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه واليك البيان

لما اجتمع المسلمون في اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين الفاً فيهم الف صحابي وكان الروم في مائة الف وفي رواية انهم كانوا في مائتي الف مقاتل وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لايجمعهم أمير ولا يخفى ما في هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزء القوة تجزء الامارة وتعددها ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدو عديداً وعدة وان لابد في نيل الظفر من حزم الرأي واجتماع الكلمة وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الاولى وقيل في جمادى الآخرة فأراد المسلمون الخروج اليهم متساندين فقام فيهم خالد فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

هذا يوم من أيام الله لاينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فانّ هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وانّ من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبته : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الامارة العامة وان يؤمروه عليهم في ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون انها كخرجاتهم وان الامر يطول

من هذه الرواية نعلم ان خالداً لم يكن أميراً عاماً على الجيش وانما كان أميراً على جنده فقط ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون في القتال بل لدبّر الامر لدحرهم منذ وصوله الى اليرموك

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبية الجيش تعبية لم تعب العرب مثلها قبل ذلك فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة والميسرة كذلك وعليها القعقاع ابن عمرو ويزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط خرج للعدو بأربعين كردوساً وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال وأظهر الروم من البسالة وقوة الجاش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالا عظيما امام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسان الروم فافرج لهم المسلمون وأما الرجالة فالذي نجا نجا والذي قتل قتل وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب

منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة كما أصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعاً

ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبلوا احدى الخصلتين (الاسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الامم بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة التي امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت من الامم الخاضعه لسلطان الفرس والروم بخناقها ولكن انّى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة اذا أحسوا بيد تمس جانب كبريائهم ، وتقلل من غلوائهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال في الشهوات بأعنتهم ، وما قتل الامم ، وساق النفوس الى مصارع الهلكة ، وزعزع دعائم العمران في كل زمان ، الا هذه الفئة الجائرة التي انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الاشخاص والنفوس وأذاقت الانسان أنواع الشقاء والبؤس

﴿ عزله عن الامارة ﴾

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود أي يوم اليرموك في أشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب جاء البريد من المدينة ينعي وفاة أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد امارة الجيش العامة الى أبي عبيدة بن الجراح فكتم ذلك أبو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين هذا على رواية بعض المؤرخين وعلى رواية بعضهم ان البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ومن جعل واقعة اجنادين قبل اليرموك روى مجيء البريد وهم في اجنادين والصحيح ان عزل خالد وتأمير أبي عبيدة انما جاءهم وهم على دمشق كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي

عبيدة كما ستراه مبسوطاً في خلافة عمر رضي الله عنه وروى الطبري ان أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لاهلها عهدا فامضاه له وعلى أي حال كان فان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حضر بعد امارته هذه معظم فتوح الشام متطوعاً وقال بعضهم انه حضر بعض فتوح ارمينيا أيضاً وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ولما فتح في امارة أبي عبيدة قنسرين التابعة لولاية حلب وانتهى الخبر بذلك الى عمر قال (أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني)

وأما سبب عزله فأمران الامر الاول ما كان في نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة والأمر الثاني وهو الأهم اقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مشاهده في العراق والشام وذلك لميمن نقيبته في الحروب . وشجاعته التي أرهبت القلوب . وقد علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخالج فؤاده شيء منه وخشي من اقبال الناس عليه لاسيما وان في نفس خالد من جهته ما في نفسه من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة لهذا بادر عمر رضي الله عنه الى عزله قبل ان يصل خبر توليه منصب الخلافة الى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم وهذا الذي خالج نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل أظهره اليه فقد روي انه استدعاه بعد عزله الى المدينة فعاتبه خالد فقال له عمر (ماعزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت ان تفتتن بالناس) وهذا صريح في أن عمر رضي الله عنه خشي من أن تحدث خالداً نفسه بشيء فيشق عصا المسلمين وهو نظر سديد

ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الآ أنّ خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمراء المسلمين كانوا في زمن أبي بكر وزمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وألزمهم للطاعة لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين في السياسة ورهبتهما التي حلت في القلوب وعدا هذا فان خالد بن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر فقد روى الطبري ان خالداً لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحبّ اليّ مِن عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض اليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه) والظاهر ان ماخالج فؤاد خالد من حب عمر لمّا ولى الخلافة علمه فيما بعد عمر بن الخطاب لهذا لما عزله وقال له ماعزلتك لريبة فيك كتب بذلك الى الامصار دفعاً للتهمة عنه

ومي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد وتقدر قدر خدمته للاسلام والمسلمين وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

وروي الطبري ان عمر بن الخطاب لما عزل خالداً صادره على نصف ماله وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى في سيرته لانه كان يرى ان ما يجمعونه من المال انما هو حق المسلمين فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين

﴿ باب ﴾

(حزم خالد وتوفيقه في الحرب)

قلّ ان يوجد قائد في العالم يوفق الى النصر في كل وقائعه كما وفق خالد

ابن الوليد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق والشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدّد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطئ مرماه وقد رأيت كيف فلّ جموع الروم في اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة مذ سلموا قيادهم اليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع انّ فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأى يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والاسلام كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن سفيان وأضرابهم من كماة الاسلام وقادة الجيوش العظام

وروي الطبري ان خالداً لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الاعداء ليلةً مواقفهم على الاسوار لوليمة أعدها لهم البطريق فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين الا خالد بن الوليد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولما وقف على جلية الامر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه الى السور وصعد الى أعلاه بالسلاليم وكبّر فكبّر أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانتصاره على الاعداء ونفاذ الرهبة من سطوته في القلوب وحق والله لقائد مثله ان يخلّد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الأثر أعظم بنيان

﴿ باب ﴾

(كتبه)

١

كتب الى ملوك الفرس بعد تدويخ ملكهم في العراق يدعوهم الى الاسلام كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى حلّ نظامكم . ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم الى غيركم ، والاّ كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اه

٢

وكتب الى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى فض حدتكم ، وفرّق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلموا تسلموا والاّ فاعتقدوا فىّ الذمة وأدوا الجزية والاّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اه

٣

ولما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق كان الاسقف الذى أقام له النزل يوم مروره على دمشق في اثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما وقف على السور فدعي له خالد فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له ذات يوم يا أبا سليمان ان أمركم مقبل ولى عليك عدّة فصالحني عن هذه المدينة فدعا

خالد بدواة وقرطاس فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية اه

هذا مارواه البلاذري بشأن هذا الكتاب وهو يؤيد انه كان يومئذ أميراً على جنده وانّ خبر عزله انما أتاهم وهم على دمشق وانما كتمه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح وقد روي بعض المؤرخين ان أبا عبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد ان فتحت دمشق وأُخبر خالد بالعزل

٤

وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى بنى الحارث بن كعب

(بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو (أما بعد) يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى اذا أتيتهم الاّ أقاتلهم ثلثة أيام وان أدعوهم الى الاسلام فان اسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم واني قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت فيهم ركباناً يابنى الحارث أسلموا تسلموا فاسلموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم عنه وأُعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب الىّ رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته

٥

وكتب فى صلح الحيرة كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عديّ وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيريّ بن أ كّال [1] نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها [2] وعلى المنعة فان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة وكتب فى شهر ربيع الاول من سنة اثني عشرة وشهد فلان وفلان

٦

وكتب الى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا انّ لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الاسفل والاوسط على الفي الف تقبل فى كل سنة ثم كل ذي يد سوى ماعلى بانقيا وباروسما (وفى رواية بسما) وانكم قد ارضيتموني والمسلمين وإنا قد أرضينا كم واهل البهقباذ الاسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الاوسط على اموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم شهد فلان وفلان وكتب سنة اثني عشرة في صفر اه

(١) وفي رواية جبريّ

(٢) وفي رواية وسائحاً تاركا للدنيا

﴿ [1] كلمة على الذمة أو أصل الامتيازات ﴾

اعلم ان هذه الكتب وكل ما أعطي من الصحابة من كتب العهد لاهل الذمة سواء كانوا فى العراق أو الشام أو غيرها كانت اصولا ثابتة فى معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين وعهوداً مكينة فى جباية الخراج استمر العمل بهامدة الخلفاء من بني أمية وصدراً من خلافة بني العباس حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت اصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد فى معاملة أهل الذمة وعلة ذلك كله الحديث الشريف الذي مر ممناذكره فى هذا الكتاب وقد جاء فيه (ان المسلمين يسعى بذمتهم ادناهم) بمعنى ان كل ما أعطاه أحدهم من عهد لا سبيل لنقضه بل يؤكده الآخر وهذه قاعدة من أسمى القواعد التى جاء بها الاسلام لحماية الأمم التى تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ما داموا فى عهد المسلمين وذمتهم لا يمالئون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم ما فرضوه على انفسهم ورضوا به من الجزية أو أيّ نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية وهو تناهٍ فى العدل فى حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله فى تاريخ الدول الفاتحة لا فى ذلك الزمن وما قبله ولا الآن بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها

(١) نريد بهذه الامتيازات مايسمونه امتيازات الكنائس او امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الاسلامية (وهي الذمة) لا امتيازات الاجانب فانهذه تسمى (عهداً) واهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه ايضاً قد استفحل مع الزمان امرها واستشرى شرها سيما في المملكة العثمانية التي عاث فيها الاجنبى بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لها قبل الدول العلية بعد ان كانت منحاً وعهوداً حبية وسيأتى الكلام عليها فى الاجزاء التالية ان شاء الله

الدول المتمدنة الغربية في هذا العصر ان تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ما تحكم به في بلادها وابناء جنسها وملتها وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف لا ان تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق

ولقد كان المسلمون يومئذ في إبان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم أو هيبة من عدوهم بل عملا بشرعهم واتباعاً لامر نبيهم ، وأيّ عصر من عصور الفتح كان أنفذ هيبةً وأبسط قوةً وأعظم سلطاناً وأكثر فتحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التي تكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال ان ينقض عهداً من تلك العهود الا ان خان أصحابه المسلمين

روى البلاذري في تاريخه فتوح البلدان ان عمير بن سعد (الانصاري أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد، واستشاره في أمرهم فقال عمر فاذا قدمت فخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه وأجلهم واخربها فان أبوا فانبذ اليهم وأجلهم سنة ثم اخربها

فانظر كيف انّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبى ان ينقض عهد هؤلاء القوم الذي أعطاهم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة

عليهم وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ويريهم جزاء عملهم باجلائهم عن بلادهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن لانهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ومع هذا فقد أبى عدله ودينه ان يجليهم عن بلادهم الا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود اهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها كما جاء في كتب العهود التي بأيديهم من الصحابة حتى تغير السكان ودان معظمهم بالاسلام وتنوسيت تلك الكتب وفقدت واما ما يتعلق بحماية اهل الذمة حيث كانوا وحماية اموالهم واملاكهم وحرية معتقدهم فهذه لما كانت لا تفتقر الى المحافظة على امثال تلك الكتب اذ هي قاعدة اساسية في الاسلام فقد استمر العمل بها الى الآن الا ما كان أيام ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الاسلام ولما آلت الدولة الى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية وأخصهم المرحوم السلطان محمد الفاتح بما أعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الاسلامية ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ولكن عمله ذلك كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات اذ جعلت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحي الشرق من أمثال تلك المنح حتى توسع الدول بعدُ باسمها فسموها امتيازات وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمي والمُعاهَد وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من دول الاسلام عملا بالشرع الاسلامي لا تميزاً لاهل الذمة عن المسلمين ولا رهبة من دولة من الدول وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين

الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم فما أخلق تلك الدول المتمدنة ان تعطى للمحكومين منها من المسلمين ولو جزأ مما يعطى الاسلام للمحكومين من دوله من المسيحيين ثم تطالب بعد ذلك الدول الاسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين وهيهات هيهات ان تغلب الفضيلة على الشهوات ويبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام

باب

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد ان أتم فتوحه فى العراق والشام ان يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص وفيها توفي سنة احدى وعشرين فى خلافة عمر وقال بعضهم انه توفى فى المدينة وليس يثبت ومدفنه لم يزل معروفاً يزار الى الان فى حمص وهو ضمن مسجد واقع خارج السور الى الجهة الشمالية من حمص وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حي يسمى (حي سيدي خالد) كما يسمى المسجد ايضاً مسجد سيدي خالد وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف أصحابها أقدار الرجال، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الابطال

لما حضرَتْ خالداً الوفاة قال (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدني موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت

العير فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل ارجى من لا آله الا الله وأنا متترس بها)

فلله ما أعظم هذه النفس التي استهانت فى سبيل المجد بالحياة حتى ما تطيق الموت على فراش السكون، وتأنف ان تذوق في غير مواقف الحرب كأس المنون، ولا جرم ان جسما ليس فيه موضع شبر الا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الاجسام، وتتمنى لقاء الموت فيحجم عنها في ساحات الصدام، وهذا هو السر في أن حياة الابطال العظام عزيزة طويلة، وحياة الانذال الجبناء ذليلة قصيرة.[1]

وأوصى خالد قبل وفاته الى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ولما مات اجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه فلما بلغ ذلك عمر قال (ماعليهن ان يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة) وقيل انه لم يبق امرأة من بني المغيرة الا جزت لمتها وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم الذى يحق ان تبكيه الرجال والنساء، ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء.

ولده

روي ابن قتيبة انه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا وقال في أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار ان ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة في جهات حمص تسمى بني خالد تدعى بعض مشائخها من بضع سنين انها تنتسب الى خالد بن الوليد لاغراض لامحل لذكرها هنا وهي دعوى كاذبة ليس عليها دليل اذ ولد خالد انقرضوا جميعهم في الصدر الاول كما علمت والله أعلم

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر

انتهى الجزء الاول وفيه سيرة أبي بكر ومن اشتهر فى دولته ويليه الجزء الثاني وفيه سيرة عمر ومن اشتهر فى دولته رضي الله عنهم أجمعين اه

﴿ تنبيه ورجاء ﴾

قد اخترت ان أنشر هـذا التاريخ أجزاء متوالية لفائدتين (الفـائدة الأولى) سهولة نشر الـكتاب وتعميمه (والفائدة الثانية) اطلاع القراء على الـكتاب جزأ بعد جزء حتى اذا رأى أحد منهم خطأً فى الجزء الواحد ينبهني الى اصلاحه فى الجزء الذي يليه لهذا فاني أرجو ممن يطلع على هذا الجزء من السادة العلماء والـكتاب والادباء ويرى فيه خطأً فى النقل ، أو سهواً عن حقيقة ، أو غموضاً فى قول ، أو ضعفاً في رأي ، أو ما أشبه ذلك من أغلاط قد لايسلم منها كتاب ، ولا يعصم عنها مؤرخ ، أن ينبهني اليه ، ويتفضل على ببيان وجه الخطأ فيه لابادر الى اصـلاحه فى الجزء الذي يليه ، اذ العصمة لله وحده والمرء ضعيف بنفسه قويّ بأخيه

﴿ ايضا ﴾

نفدت الطبعة الأولى من هذا الجزء فاعدت طبعه مصححاً على قدر الامكان وكان بودى التبسط فى بعض المباحث واضافة اشياء خطرت لى من سيرة أبي بكر لـكن منعني من ذلك اتصال اعداد صحف هذا الجزء بالاجزاء التي تليه الى تمام المجلد الاول فلو زدت فيه شيئاً لاختل ترتيب الفهرس كما لا يخفى وما اشد هذا التقيد على النفس

فهرست

﴿ الجزء الاول من أشهر مشاهير الاسلام ﴾

صحيفة	
١	فاتحة الكتاب
	(القسم الاول) دولة الخلفاء الراشدين
٨	أبو بكر الصديق
	(باب) حاله في الجاهلية
٩	نسبه وأصله
٩	شرفه
١١	صناعته
	مكانته عند قومه وسيرته فيهم
١٢	(باب) اسلامه وصحبته
	اسلامه
١٤	صحبته
١٦	(باب) خلافة ابى بكر
	كلام على الخلافة
٢١	بيعة أبي بكر
٢٤	انفاذه جيش أسامة
٢٧	(باب الكلام على الردة
	بحث في الردة
٣٠	قتال اهل الردة
٣٣	تسيير الجيوش الى اهل الردة
	(باب) حروب الامراء مع اهل
٣٤	الردة واخبارهم
	طليحة الاسدى
٣٥	تميم وسجاح

صحيفة	
٣٦	مالك بن نويره
٣٦	مسيلمة واهل اليمامة
٣٨	ردة اهل البحرين
٤٠	عمان ومهرة
٤١	ردة اليمن
٤٣	كندة وحضرموت
٤٧	كلمة في حروب الردة
	(باب) فتوحات ابى بكر
٤٠	تمهيد للفتح الاسلامى
٥٥	فتح العراق
	(باب) فتوح الشام
٦٠	تمهيد
٦٣	استدراك
٦٦	بعث البعوث الى الشام
٦٩	وصية ابى بكر ليزيد بن ابى سفيان
٧٠	ابتداء الفتوح بالشام
٧٣	اجتماع الامراء فى اليرموك
٧٧	(باب) مناقب ابى بكر واخلاقه ومآثره
٧٩	سياسته فى الخلافة
٨٥	سياسته في الرعية
٨٦	أدبه وتأديبه
٨٦	ادبه مع رسول الله
٨٧	ادبه مع نفسه

صحيفة

٨٧ تأديبه لنفسه

٨٨ تأديبه للمسلمين

٨٩ ادبه مع المسلمين وتواضعه لهم

٩٢ زهده وورعه

٩٥ جمعه القرآن

٩٧ قضاؤه

٩٧ (مطلب) كلام على القضاء في الاسلام

١٠٨ أولياته

١٠٨ (باب) كتبه وخطبه

كتبه

١١٢ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام

١١٧ خطبه

١٢٠ كلام على الحكومة في الاسلام

١٣١ تنبيه

(باب) مرض ابي بكر وعهده بالخلافة

١٣١ مرضه

١٣٢ استخلافه عمر ووصيته له

١٣٥ وصيته لعمر

١٣٧ وفاته

١٣٨ خطبة عليّ في تأبين ابي بكر

١٣٨ خطبة ابنته عائشة في تأبينه

١٣٩ كلام عمر في تأبينه

١٣٩ (باب) ولده وعماله وقضاته وكتابه / اولاده

١٤٠ عماله وقضاته وكتابه

صحيفة

١٤١ (باب) صفة ابي بكر

١٤٢ الحالة الاجتماعية على عهده

١٤٧ خالد بن الوليد

١٤٨ (باب) حاله في الجاهلية

١٤٧ نسبه واصله

١٤٨ شرفه في قومه ومكانته عندهم

١٤٨ (باب) اسلامه وصحبته

١٤٨ اسلامه

١٤٩ صحبته

١٥١ (باب) حروبه وفتوحاته

١٥١ حروبه في الردة / حربه مع طليحة

١٥٣ حادثة مالك بن نويرة

١٥٦ حربه مع مسيلمة

١٥٨ (باب) فتحه العراق وحروبه فيه / وقعة الحفير

١٥٩ كلمة على الالقاب والرتب

١٦١ وقعة الثني ومابعدها

١٦٤ امراء خالد وقواده

١٦٥ جغرافية العراق

١٦٥ باب سفره الى الشام وحروبه فيها

١٧٠ عزله عن الامارة

١٧٢ باب حزم خالد وتوفيقه في الحرب

١٧٤ باب كتبه

١٧٧ كلمة على الذمة او اصل الامتيازات

١٨٠ وفاته وولده

١٨١ ولده

١٨٢ تنبيه ورجاء

كتاب
اشهر مشاهير الاسلام
في
الحروب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الثاني من المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

{ وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب }

« ومن اشتهر في دولته »

(طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)
« لصاحبها اسماعيل حافظ »

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

«نسبه وأصله»

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام بن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لان هاشماً وهشاماً ابني المغيرة أخوان وهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل والحارث هكذا صححه في أسد الغابة

«شرفه وصناعته»

سبق لنا في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذي انتهى اليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة . كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين سترد سيرتهم في هذا الكتاب ومنهم عمر بن الخطاب فانه كان تاجراً وما زالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فحينئذ تركها انشغالاً عنها بمصالح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا ان شاء الله

«مكانته عند قومه وسيرته فيهم»

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشده عزيز الجانب مع انه لم يكن ذا مال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها واخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجر يرعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيي بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضحيان (اسم مكان) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحتطب أحياناً فأصبحت اضرب الناس ليس فوقي أحد الا رب العالمين ثم قال

لاشيء مما ترى الا بشاشته   يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العزيمة والرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم



باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورين بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الا أن معظمهم هاجروا الى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية والجرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعني أبا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

وأما سبب اسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ومنها ما أخرجه الحافظ

عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم انه قال . قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم . قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قال قلت وماذاك . قال أختك قد صبأت . قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى زوج أختي رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا قالت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرؤن القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم قال فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني انك صبوت قال فارفع شيئاً في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه فقالت لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الي نفسي فاذا فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الي نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ان كنتم مؤمنين) قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عز وجل ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين اما عمرو بن هشام وأما عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق وقلت لهم اخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب: قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي: قال: فما اجترأ أحد منهم ان يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم أهده قال قلت أشهد أن لا إله الا الله وانك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استخفى [1] قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلا أسلم يضرب الا رأيته [2] قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب الا أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج الي فقلت له أشعرت اني قد صبوت. قال فعلت قلت نعم. قال لا تفعل. فقلت بلى قد فعلت. قال لا تفعل فأجاف الباب دوني وتركني: قال: فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(٢) وفى رواية فلم أشأ أن ارى رجلا يضرب ويضرب الا رأيته ولا يصيبنى من ذلك شئ

اسلامك: قال: قلت نعم: قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلاً لم يكن يكتم السر فاصغ اليه وقل له فيما بينك وبينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه: قال: فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدنوت منه فاصغيت اليه فيما بيني وبينه فقلت أعلمت اني قد صبوت: فقال: ألا انّ عمر بن الخطاب قد صبأ: قال: فما زال الناس يضربوني وأضربهم فقال خالي ما هذا: قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي. فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء ان ارى احداً من المسلمين يضرب الا رأيته [1] وانا لا أضرب: قال: فقلت ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين: قال: فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع: قال: قلت جوارك عليك ردٌ: فقال: لا تفعل يا ابن اختي: قال: قلت بل هو ذاك: فقال: ما شئت: قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اهـ

وروي ان عمر لما اسلم: قال: يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: انا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس: قال: لما أسلم عمر قال المشركون قد

«١» يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان الناس وافوا رغبته ولم يحتج هو الى الضرب بنفسه

انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا أيها النبيّ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ قوي ظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت ويؤيدها شاهد العيان أيضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد اسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد ايصال الضرر والأذى اليهم فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)

ولا جرم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوّى الله به الاسلام في منبته وأعزه في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لاهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الأمم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي منّ الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين

﴿ صحبته ﴾

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل في نصرته مهجته وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين وينافح عن سيد المرسلين ويظهر من

الشدة على أعدائه والمظاهرة لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين الا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن عليّ رضي الله عنه قال : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر الا مختفياً الا عمر بن الخطاب فانه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس من أراد ان تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي : قال عليّ فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه

وأخرج عن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الاعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبغضاً لمن أبغضه لا ينفك يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضمائر الوافدين حتى اذا تفرس في أحدهم سوء نية لازمه في دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخنوع بين يديه . وروي ان عمير بن وهب الجمحي

عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على ان يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرّس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه ياعمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني أباه وهب لانه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر). قال اصدقني. قال: ماجئت الا لذلك. قال: بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يارسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً. فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه ياعمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه(١)

ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي: وقال: دعني أقتله يارسول الله: فقال: دعه ياعمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل اخبار كثيرة ايام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناواه.

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور في التواريخ فامتنع أهل مكة من الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الامور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً بالصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر: قال (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من من الأمم محدَّثون (ملهمون) فان يك في أمتي أحد فانه عمر (متفق عليه كما في المشكات) لهذا كان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فانه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فانه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب: وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا. فانزل الله تعالى واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرّم الدخول. فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضي الله عنه في صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجثمانية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضي الله عنه نافعاً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمدافعة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أي اظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال أبو سفيان هلم اليّ يا عمر فقال رسول صلى الله عليه وسلم : أئته فانظر مايقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً : قال : لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر (القول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله في جيش اميره أسامه بن زيد مولى رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضي الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته وأصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال من قال ان محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم . والقصة مشهورة أوردناها منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين فأذهلهم عن الكلام ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه



باب

﴿ خلافته ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعة أبي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الاول وانما رضي المسلمون بعهد أبي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتتجاذبها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرّس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الامر واقتداره على سدّ ذرائع الفتنة كما تفرّس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق لهم منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفاءته رجاؤهم فكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث بن مسعود

أخرج الحافظ بن عساكر عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله بن مسعود : أفرس الناس ثلاثة . الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون . والمرأة التي

تفرّست في موسى فقالت (يا أبت استأجره انّ خير من استأجرت القويّ الأمين)
وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

ثم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد الكفائة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان لقصر فهاعنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم كما بسطناه هذا في سيرة أبي بكر ومع هذا فان أبا بكر رضى الله عنه لم يقض الا بعد ان جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال : جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الامر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا تحمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم في حال الشدة وأسلسكم في حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي. لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم ولا يتحير عند البديهة قوي على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده[1] من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل[2] الساخط أمارته الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان أبا بكر انما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علما بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا لمحاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزريّ

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفي تاريخ بن عساكر وجعل الخ ولم يذكرا متعلق (لتوصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي انه دخل على عليّ بن أبي طالب في خلافته فقال: يا أمير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الاسلام : فقام (أي عليّ) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معنا في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفائة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما اتعاباً شديداً فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة»

ولقد صدق رضى الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ذينك الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الأولين وأول ما خرجوا كان خروجهم على عليّ رضى الله تعالى عنه هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله حتى أن الخوارج لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي لم تبعث في الحقيقة الا عنهم

وحسب عمر رضى الله تعالى عنه من خلافته ان يكون مثلا في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على انه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل في الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذي يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا باسمه الآثار العظيمة في كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حيٌ في التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولاً وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون في ذلك الرجل العظيم الذي أصبح في حسن السيرة مثلاً في العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأيّ عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب للاسلام جماعة يقدحون بمثل عمر بن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلالة قدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالايمان وخدمته للاسلام في صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الاسلامي وذكرى الفخر الغابر الخالد مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلتها ابن سبأ اليهودي واضرابه من أعداء الاسلام ومريدي الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرأ الى الله من نحلهم الفاسدة التي لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الأعمى والجهل يفعلان في العقول والأوهام ما لا تفعله السموم في الأجسام

باب

أول أعماله في الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضي الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال: انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود

وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور: إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد، وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح: وبعث يعلى بن أمية لأجلاء أهل نجران: فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقد مر معنا ذكره في سيرته وربما نعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام: وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها وعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وأن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وان يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء الا ما رضيه في عهده، وان تكون له الذمة والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام وافياً بعهده مؤدياً لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه اليك في هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ما لم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وغيرهم

وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقا فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبدا حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا وشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتابا على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب أمة حديثة عهد بالاسلام، وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يتدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعد من اصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذن بفقرهم على غير شعور منهم لا سيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريما باتا ولا يؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجيء الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم الى الاسلام بالتي هي أحسن

فأبوا وأعطاهم كتاب العهد المذكور إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في أمرهم الا ما وسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون أن يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لأن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مرّ معناه وبمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يعلى بن أمية باهل نجران فقال

ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم مَن أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلي منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف

وكتب لهم كتابا هذه صورته كما أوردها البلاذري في فتوح البلدان

«أما بعد فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الارض

وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن »

على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لاحد منهم مظلمة إلا أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا مرة الى عثمان رضى الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم. وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضى الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم واسلام من أسلم منهم وأحضروا كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصاناً وضعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فردّ جزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الامويّ ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف ابو العباس السفاح رفعوا اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبد العزيز

ويوسف بن عمر فردهم الى مائتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت العمال اياهم فأمر فكتُب لهم كتاب بالمائتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت مما مر مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم يرَ بداً من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وخفر الذمة إلا بسبب مشروع ولهذا لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد أن عوضهم عن المال والعقار بمثله وما زال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ووفاء بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكراه النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالاسلام ذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظّم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الاّ جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكيمة

لاتخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم لما اقتضت الضرورة باجلائهم عن أرضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع أهل عربسوس من ثغور الروم وكيف انه لما أمر باجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق أمر بأن يعوضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين وما زال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ولم يؤثر عن أحد منهم انه طرد قوماً من أرضهم أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين

غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لا ما تدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمم الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة ما لهم وعليهم ما عليهم فبالغوا في الرأفة بأهل جوارهم والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الأخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينزعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير التتار قطلوشاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام: لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من

أهل الملة ولا من اهل الذمة فاطاقهم له [1]

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما ستري بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

«واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدي به وان معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال «استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً» ورحمهم ان أم اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خاصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فأسأل الله أن يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أسأل عنه يوم القيامة»

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ علي أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض التاريخ الصحيح ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي به عامله بأهل الكتاب ترى الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يُسأل عن حقوق خلقه ويحاسَب عن عمله في رعيته . إنّ في هذا لآيات من العدل وغايات في إنصاف الرعية غير المسلمة لا يدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة من أمم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التي أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه باهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية ما زالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تنزع منهم أرض ولم يطردوا ولم يشردوا عن أوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول ما لبثوا ان دخلوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت جنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم

نقول ولا ننكر ان الحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك المغرب وانما هم حملة علوم الدين وتعصبهم الديني هو الذي جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب جزءاً لا ينفصل عن مجتمع المسلمين له ما لهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كما في وصايا الخلفاء التي رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبرو مكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس بعجيب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين كل ما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين في دينهم ويعاملهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص في لباس الاوهام والى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وأنّى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل

رب معترض يقول انا بالغنا في تعنت الأمم المسيحية والتبرئ من وصمة التعصب الذميم الذي نرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لا تتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكومتهم من اعنات رعيتها من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بمحاسنة أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء الآن دينهم الذي أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود أهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدي على حقوق الجوار هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الامم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين واقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية المتاجرة وشاركوهم في الاعمال وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين في ذمة المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستليهم اذا قسوا وانما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا بأصول شرعهم واذا نفخ في المسلمين شيء من روح التعصب على المسيحيين وجفوا اخوانهم في الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم في الدين فانما كان نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي أسعر لهيبها في المشرق خطباء الدين والسياسة في الممالك المسيحية وما تلا ذلك من

تحول قوة الغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا ممزوجاً بالاغراض السياسية مبنياً على القسوة والجبروت في مناواة دول الاسلام مع ما يضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلا اجرة ولا اثم الا الجهل الذي يزج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم ممن يخدمون ومن ثم كان المسؤل عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون أنفسهم

أجل قد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم، إنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت عن مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذمي في جورهم سواء ولقي ويلقي المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقى المسيحيون. على أن الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساسياً في نوع الحكم والحكم في معاملة الذمي في الاسلام هو ما رأيت مما مر في هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم في معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً إذ أن الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد الناس كلهم في شرعه سواء واما قوة الغلب التي أتيحت في العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة في معاملة المسلمين معاملة القوي القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول أن جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون أممها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا أن دولة فرانسا التي توسمت في هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين، ونزع الفرنساويون في الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات الجزائري في حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفطر لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية أبغض الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها القاسية لمسلمي الجاوى ويتلوهما النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنه والهرسك ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة أوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتعنتهم ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين

وأسدهن سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا انا نرى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً اذ بينا نري أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر ويغالون في حب الذات الى حد يكاد يبغض للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول فى فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه أن يدخل مكانا فيه رجل انكليزى بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا رجالا من الشرقيين ورأينا كثيراً من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التنامي فى الجبروت والاغراق فى حب الذات[1]

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادر يوم الاحد غرة ذى القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال في أفريقا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه . ارسلت لكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة فى نتال فى (بور تليزبيت) وهي ان المؤذن بينا كان واقفا على رأس منارة عالية يؤذن فلم يشعر الا وطلق ناري أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها في هويها (كذا) وقد قبض على الجانى وهيهات ان يلقي عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزياً يقتل فى وطنى بهذه الديار ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب

فأين ما تعامل به المسلمين الدول الاوربية فى هذا العصر الذى دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى ابآن مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ما عامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لا جرم أنّ الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصوّرون المسلمين فى صورة وحش ضار ان يصوروا التمدن الاوربي وأهله فى أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ما بسطناه من المقابلة بين حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ومن العار على هذه المدنية أن تصل الى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الي دركات التسفل فى الاخلاق والتنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة النفس فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لأولئك المسلمين الآن كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الامم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخاء والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم تنازع البقاء دولهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا فى نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستعباد ان هذا لشيء عجاب

يقول الاوربيون إن المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب والجفاء

والبغض لمن لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستقراء الناقص عند الباحثين وعلى الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في أوربا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً في الدين والاخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس اذ أن قوماً مضي عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم يبسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني في وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجوار وأبعدهم عن تحكم الغلب وجبروت السيادة الذي يظهر من كل فاتح عظيم

آن للاوربيين ان يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومحاسنة من أحسن اليهم وان لا يخاشنوا الا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين بما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضي جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة النظير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دولة انكلترا من اخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها جمهورية فرانسا الجائرة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم حرية لتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لا سيما في المملكة العثمانية ومن العبث ان تختط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف وحب الأثرة والجور في حكمها في المشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوّضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا مثلا لساغ للدول الاوربية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال إذ ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله وليّ الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الاسلامية فلّت جموع الروم على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواة تاريخ الفتح الاسلامي كسيف ابن عمر الأسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعدُ في سرد الوقائع المختلف في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء مادام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أوردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو ان تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

﴿ فتح دمشق ﴾

(وانحياز هرقل الى حمص)

لما انتصر المسلمون فى وقعة اليرموك كان هرقل فى أورشليم وتدجاتها لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته بموقنين بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم ما لم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين فى اليرموك فنخب قلبه وأسقط فى يده فنظر فرأى أن مقامه في أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكي العيون ويسرح القواد الى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة

وتربص هو في حمص . وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على أن هرقل كان ملكا حازما ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفره قبل حربه مع العرب بالفرس [1] لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه فى حرب المسلمين من عذر

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤ م) فاشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى (الۤمۤ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ويعني بادني الارض اذرعات وهي أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بعض وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أُبَيّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع ما بين الاربعة الى التسعة وقد جاء في تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك وحاصل ما ذكره عن هذا الحادث ادورد جبون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابروز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البزانطية » في سنة « ٦١٤ م » لاسباب لا محل لذكرها هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ولما رأى الامبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشي ان هو حارب الفرس قربها ان تسقط في ايديهم فجهز اسطولا عظيما شحنه بالمقاتلة والمؤن وخرج به في سنة « ٦٢٢ م » من القسطنطينية حتى بلغ هلسبونت « جناق قلعه »

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأففهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لاسيما وان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد وانما كان حماتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤآخذ هرقل على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكا بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد

لم يكن المسلمون يومئذٍ على ماعهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوّة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوّة عدوّهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذا الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

ومن ثم مخر الاسطول في عباب البحر الابيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لايصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود الى حدود سورية وكيلكيا «ادنه» ورتب معسكره قرب إسُس في السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس «وهو سهل الاسكندرون» وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويمرنهم للطعن والضرب ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ومازال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة «٦٢٨ م» استقر الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كسرى ازدشير بعد أن قتل أباه ابرويز فصالح هرقل على ان تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اه وجاء في تاريخ الكامل لابن الاثير مايطابق معنى ماذكره جيون وفيه زيادة تفصيل

مايصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الأسلام وتعميم دعوة القرآن. لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفُرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسُرّحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده(١) وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفَّر وهو يريد اتباع الفالّة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وانّ المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفِحل من بلاد الاردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفّر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقرّ الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي ان يبدأ به كتب اليه (أما بعد

(١) أي كي لاتقطع عليه خط المواصلة على الاصطلاح المعروف الآن في فن الحرب

فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا عنكم أهل فِحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حِمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق مَن يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شُرَحبيل وعمراً وأخلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد بن عامر الجُرشي . وعامر بن حثمة . وعمرو بن كليب من يحصُب . وعمارة بن الصعِق بن كعب . وصَيْفي بن علْبة بن شامل . وعمرو بن الحبيب بن عمرو . ولبدة (أو وليدة) بن عامر بن خثعمة . وبشر بن عصمة . وعمارة بن مخش (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفُر حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً . وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان (١) فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرَّجل شُرَحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفى رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها . فكان

(١) يعنى انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهِرَقل (هراكليوس) يومئذ بحمص فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامي والمجانيق والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وذو الكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فاشجتها الخيول التي مع ذى الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم وليمة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه ذاكية وهو معنيّ بما يليه قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فلما امسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وأثبتا الاوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلّف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبّر الذين على رأس السور فنهد (١) المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

(١) فى القاموس نهد الرجل نهض ولعدوّه صمد لهم

بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس فاقتسموا الاسلاب فكان أصحاب خالد فيها كاصحاب سائر القواد وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب حنطة من كل جريب ارض ووُقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئاً(١) وقسموا الذى الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق فسرّحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عُتْبة ومعه القعقاع بن عمرو

(١) الفيء هو ما نيل من المحارب بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره دار اسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يُصالح عليه من المال وحكمه ان يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلاً في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام] ويتبين ان ما ترمى اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبرى وقال ان فتحها كان بممالئة الاسقف الذى كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها فى أول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم فى عيد لهم وان الباب الشرقيّ ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب فى سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا فى دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذى ذكره حسان ابن ثابت فى شعره حين يقول

يسقون مَنْ وَرَدَ البُرَيْصَ عليهم بَرَدَى يصفِّق بالرحيق السلسل

ولا يخفى ما فى هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت في الاخبار أن أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذى تولّي عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر (رضى) بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبريّ فى روايته عن ابن اسحق والبلاذريّ فى تاريخه فتوح البلدان وفى هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح وفى حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم فى الصفر فى انتظار كتاب عمر بالذى ينبغي أن يبدؤا به مما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله أعلم

واما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر فى رواية الطبرى على دينار على كل رأس وجريب من الحنطة على كل جريب من الارض وعلى المقاسمة على العقار والدينار

على أن هناك مايوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح مانصه (وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين واما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على ان المسلمين اختلفوا في هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ماوجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب ابو عبيدة يستشير في الامر فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته في باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذري في فتوح البلدان مانصه «زعم الهيثم بن عدي ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدى قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا ادرى من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون» انتهى مانقله البلاذري من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لايسكن منها شيء وقدمرت صورة الكتاب في سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقى الذى يلي الباب الذي دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ومازال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بني أمية وسيأتى الكلام عليه في سيرة الوليد ان شاء الله

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبنى نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى النصارى هذا وأما الجزية فانها كانت في بادىء الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغنى بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق التى كانت أم المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الاسلامي لاسيما في عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن أبي سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامى العظيم الممتد من حدود الهند في الشرق الى شطوط الاطلانتيك في الغرب على عهد الامويين لاعاصمة سورية وحدها وسيأتي الكلام على هذا في محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون في الزمن الذى افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت في اواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال في أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت في رجب من هذه السنة ولعله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألني بعضهم عن حكاية رآها في تاريخ انكليزي وهي ان خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح اهلها على أن من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة ايام فاذا مضت وادركه المسلمون فدمه مهدور وان اهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوهم ولايخفى مافي هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لوصح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا أوفى الأمم الفاتحة بالعهد وأبعدهم عن

مثل هذا الظلم الذي يأباه دينهم وتتنزه عنه شيمهم العربية واخلاقهم الفطرية فبحثت عن هذا الخبر فيما دوّنه رواة الاخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن واضح المعروف باليعقوبي وفي تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الاثير الذي هو أوثق التواريخ فلم أجد لهذا الخبر من أثر وانما رأيته في بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين كتاريخ سورية لجرجي أفندي يني وتاريخ الوافي لامين أفندي شميل وكلا التاريخين وان كان مؤلفاهما عربيين الا أن عبارتهما تدل على أن ما في التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التي لم تغادر كبيرة ولا صغيرة الا أتت على ذكرها تفصيلا في البعض واجمالا في البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة ولعل بعض مؤرخي الاوربيين الولعين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازي والقصاصين كفتوح الشام وامثاله من الكتب التي هي أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ أو عن كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع

على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ما قاله بعض مؤرخيهم من أن المسلمين ادركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة في البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تتمكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران والناس واقفون لهم على قدم الاهبة في كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ما وراء اللاذقية وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوئ الشائنة وقد مرّ معنا في هذا التاريخ ما يدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكنون جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا في جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل فكيف بهم في الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلما أن يعرضوا لأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال ان هذا لمما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد في كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد في كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك في هذا عاقل البتة



بحث

(فى هل كانت دمشق قاعدة الغسانيين)

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تخت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا باعلامنا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه فى الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتنبئ عن سعة في الاضطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ومؤدى انتقاده على هذا الصدد ان العرب لم يكونوا مستقلاً في البادية وحوران واذ دمشق لم تكن تخت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بُصرى في حوران وانه لم يقرأ أن أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوا في المكانة التي وصفناهم بها ثمة: ونحن مع شكرنا لاحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

شأو المحققين فى التاريخ نجيبه بما يلي

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مرّ عليه من البلاد فى مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قُصَم) وقاتل فيها بني مشجعة ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذي أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جعلُ الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قُصَم) وانه قاتل فيها بني مشجعة من قضاعة على انا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت فى معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفادياً من ارتكاب الخطأ في وضع الظن موضع اليقين كما رأيت فى الجزء الماضي الا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان من أماكن العرب بدليل ان ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرّحل الى الآن والبلاد التي فيه كضُمير والقريتين وتدمر والسُخْنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التى تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر فى طرف البرية فى وسط منازل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أوديناتوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التى كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية فى أواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون فى أصله هل هو عربي أم سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موقع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنا ان هذه المدينة وماحولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالدا واقعهم فيه يوم عيدهم . وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان اشهر مدنه بصرى واشمسكين واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد ان شمالي سورية أيضاً كانت بعض مدنه أهولة بالعرب فقد جاء فيهما ان أبا عبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومضر وا هذا الحاضر لما تنخوا فدعاهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم اسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ولا يبعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصّروا غزة في الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيماً من سورية ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية أن يكون لهم من النفوذ والسلطان في البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا الا من الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة لدولة الروم الا انه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الاجناس القاطنين في سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرر هذا فلا بد أن يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لاسيما وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة وغنى لان البلاد التي هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من أخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هذا العهد واذا أضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تخت الحارث (١) الغساني فانا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول للدكتور ڤانديك سيأتي بيانه إلا أن هناك من الاخبار التاريخية ما يستنتج منه أن عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ما ذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد ابن الوليد من العراق الى الشام حيث قال مانصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكثب حتى صار الى دمشق ثم مرج راهط فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الايهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل اسلامه على آل جفنة وهم ملوك

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبرُ بنِ مارية المعمِّ المُخوَل
يسقون من وَرَدَ البَرِيصَ عليهم ... بَرَدَى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وجلق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ماقاله البلاذري في تاريخه من أنّ خالداً وأباعبيدة التقيا في دخولهما الى دمشق بالمقسلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أنّ الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكاً على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآلة بيدى قيصر الروم يصدّهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فما علاقة جبلة

بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك في المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الابيات التي سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبيل الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا في مجلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولا مراء في أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفي دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعدا هذا فاننا اذا رجحنا قول القائلين بان أصل اودينائوس التدمري الذي سبق ذكره عربي لا سرياني (والجنسين من أصل واحد) فلا يستبعد ان يكون للعرب من السلطة في الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر

وعلى عهد اودينا ثوس الذى تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وأزعجت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا فى تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية ومادام العلماء مجدون فى البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدنية فى العصور الغابرة والله أعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأي المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم فى بيسان وكانوا ثمانين الفا على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبرى فاختاروا مناجزة هؤلاء أولاً فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار بن الازور وعلى الرجل عياضا ولما انتهوا الى أبي الاعور (وقد كان بين الاردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم بثقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين فاصبحوا بين خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضاع منهم الحيلة وأفقدهم حسن التدبير لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم الى حيث يقيم العدو ببيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة عنهم فخرجوا اليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح الا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فاظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الوحل فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل الذى كانوا له كارهين فكان عونا لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص ومضى بذى الكلاع الحميرى الذى كان مرابطا بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب فى قلوب الروم فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولي حربها فسار أبو عبيدة الى حمص وسار شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وكلهم من انجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقي على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الاعور علي ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم في مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والاردن وبلغه مسير أبي عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشاً الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبي سفيان فارسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا بالجيش في مرج الروم غربي دمشق وبلغ ذلك أباعبيدة فجاء ونزل بإزاء شنس وخالد بإزاء توذر . فنازلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه في جريدة وبلغ يزيد بن أبي سفان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توزراً وشوذراً　　وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توزر وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل أمر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرُّها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني أن طعامهم (يعني المسلمين) لحوم الإبل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الا في كل يوم

بارد فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهزر من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذي علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كي لا تهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على ضمائر الشعب

﴿ ذكر بعلبك وحمص ﴾
(وسواحل دمشق)

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبي سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وأن أباعبيدة قصد حمص ولما جاء توذر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر توذر لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبي سفيان فابتدأ بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت وجلا كثيراً من أهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة وأقطعهم القطائع وانما تجرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم علي السواحل اذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندى وقدّم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباستأتي صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وأنزلها السمط بن الاسود الكندى في بني معاية والاشعث بن ميناس في السكون والمقداد في بَلِيّ وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبدالله بن مسعود فكتب اليه عمر . . ان أقم في مدينتك وادعُ أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

﴿ تحقيق خبر أجنادين واليرموك ﴾

(واختلاف المؤرخين فيها)

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك لافمن قائل ان الأولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه أمرها فيتخيل له ان الواقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة أبي بكر والأخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذا بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذوَرد جبون [1] في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب [2] فلم أعثر على ما يشفي الغليل ويزيح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا أجنادين وأما الثاني فقد قال إن ما رآه في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعروه اللبس والأشكال وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين أكثر من الارتياب في كلام الغربيين الى أن قال وهذا المبهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدثت واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانية بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في الاسم وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لولم نر أن ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك واد في طرف الغور يصب في الاردُنّ وأن أجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما أن الطبري أيضاً قال عن أجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين

وبما ان حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Emqire
(2) Arabie par M. Noel. Desvergers

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان أجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي (١) وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فانه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الاول أي قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لو لم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الامراء ووافاهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية وأما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم في سرد الوقائع على ما دونه أولئك اضطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما أن بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك بزعم انها بعد فتح حمص مع أن المرجح أن اليرموك هي الوقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل مجيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ اذ الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص انما

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا في ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في أجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها أن هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادي سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين أو بالعكس أو كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في أجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما أن تكون لخالد بن سعيد لما بعثه أبو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان أو ماهان على رواية مؤرخي العرب وودان على رواية ادورد جيبون الانكليزي واما أن تكون مع الامراء في أول دخولهم الشام لما بعثهم أبو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد بن الوليد فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ثم سار أبو عبيدة الى حمص وفتحها أرسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية اجتمعت في فلسطين فعاد أبو عبيدة والامراء الى حيث يخيم جند الروم في أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي ظنوا أن وقعة

أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ماقاله ياقوت فى معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الاول ثم قال: وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام فى أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتدهم بالبواتر
وجئنا الى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الابيات التى تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذي يرجح انها كانت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو مارواه بعض المؤرخين من ان أبا بكر بُشّر بانتصار المسلمين على الروم فى أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثانى بعد وفاة أبى بكر وانما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك

فهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث فى تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين التى قبلها وأما أجنادين الثانية وهى التى كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقى الامراء لمصادمة الجيوش العظيمة التى أرسلها اليهم هرقل واجتمعت فى فلسطين ثم فى أجنادين فقد ذكر خبرها الطبرى سنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الا أن هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التى تحف بهذه الوقعة التى حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت فى أجنادين وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن وعمالة الاردن كانت سقطت يومئذ فى أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى على سلطان دولتهم فى سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذى كان يقصدها من الأردن ومعاوية بن أبى سفيان الذي عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول أن هرقل لما جلاء عن حمص وأقام فى انطاكية أو الرُّها ووصلته الاخبار بتغلب المسلمين على جيوشه فى كل مكان ورأى أن أباعبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال وقطع طريق المواصلة والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أنزلت من يافا وعسكرت بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة وأجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك مارواه الطبرى وغيره فى شأن قيسارية وغزة وأجنادين

فلسطين وأجنادين

لما انصرف أبو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأردن قصد عمرو فلسطين وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتفرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان بأن يُدفئ ظهورهم بالرجال وان يسرح معاوية الى قيسارية (١) وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مجزز بصدم الفيقار وكان في غزة وكان مما كتبه الى معاوية (امابعد فاني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أمر به وسار معاوية الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة الف أو يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضُبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفراسي وزهير بن الحلاب الخثعمي وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما نائمان وابن علقمة يتمثل

أرّق عيني أخو جُذام ... كيف أنام وهما أمامي
اذ يرحلان والهجير طامي ... أخو خُشيم وأخو حرامي

وأما علقمة بن مجزز فحصر الفيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر الفيقار رجلا أن يقعد له بالطريق فاذا مر قتله ففطن

(١) هذا الاسم معرب قيصرية وهما ثنتان واحدة تسمى قيصرية فلسطين وهي خراب الآن وخربت على عهد الصليبيين والاخرى قيصرية فيلبس وهي بانياس على ما قاله فانديك

علقمة فقال ان معي نفراً شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الفيقار الى ذلك الرجل لا تعرض له فخرج من عنده ولم يعد وفعل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأما بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو مخيم باجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمرو شُرَحبيل وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمرو وجُنادة بن تميم المالكي مالك بن كنانة وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيما وبايلياء جنداً عظيما فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال . قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج: وكان عمر رضي الله عنه من لدن توجه امراء الشام يمد كل أمير جند ويرميه بالامداد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان بان يبعث معاوية في خيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً يأمره على قتال أهل قيسارية وقد مر ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكي الى الرملة وعليها التذارق ولما تتابعت الامداد على عمرو بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عُمارة بن أمية الضمري مدداً لابي أيوب وأقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد فحدثت أرطبون نفسه بانه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له

عمرو فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التي احتال بها علقمة على الفيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال: خدعني الرجل هذا أدهى الخلق: وبلغت عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمرو لله عمرو:

لما عرف عمرو وأخذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد أن يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا اقتتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم أرطبون في الناس وأوى الى إيلياء ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ثم أزالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التي اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك في ابيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبري في سياقها اسم ابي عبيدة وخالد وانهما حضرا بعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر في جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذي كان على حصارها هو ابو عبيدة فاذا اضيفت هذه الرواية الى ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان واليعقوبي في تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء في اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا للتشابه في الوقائع وقرب المكانين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح أن ابا عبيدة وخالداً حضرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية في اليرموك كما كانت وقعتان في اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واضح في التاريخ وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم من لا قبل لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب: وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق: وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى أن قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال: الحمد لله الذي فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اه

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فاقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين بسطناه هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف ليكون القارئ على بينة من الحقيقة والله بها عليم



﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ففتح غزة ولُدّ ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل إنّ يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبيّة ويطالب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر : فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول : إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً اذّخرت لك فرأيك : ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية (١)

وفي رواية للطبري أن أباعبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب للامراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وان يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار التنعم بادية على قواده على قرب عهدهم بالخوشنة وتخلقهم بخلق العفة والجد والقناعة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

(١) قال ياقوت : الجابية : من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصُّفّر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضاً قال الجوّاس بن القعطل

أعبد المليك ما شكرت بلادنا … فكُل في رخاء الامن ما أنت آكلُ
بجابية الجولان لولا ابن بحدل … هلكت ولم ينطق لقومك قائل

بها وقال : سَرْعَ ما لُفتُم عن رأيكم اياي تستقبلون بهذا الزي وانما شبعتم مذ سنتين سَرْعَ ما ندّت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم : فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة (١) وأن علينا السلاح : قال : فنعم اذن : وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ماشأنكم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم واذا هم أهل ايلياء

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخذون لا محالة وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة للمسلمين ان لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومقر الانبياء والظاهر انهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرمهم منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شئ وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنّة لمن بعدهم في معاملة أولئك المعاهدين لا يحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو الروع أخذ بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فطلبوا من الامراء حضوره بنفسه ولما بلغهم وصول أمير المؤمنين

(١) قال في القاموس اليلامعة ما يلمع من السلاح كالبيضة

الى الجابية أوفدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء، وأن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيّزها والرملة وحيّزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً سترد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل عَلْقَمَة بن حكيم على الرملة وأحوازها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مُجزِّز على إيلياء وأحوازها وأنزله إيلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضمّ عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافقا عمر (رض) راكباً فقبلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محتضنهما

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما تم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج[1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال: ارقبوا لي كعباً) فلما أتي به قال له: أين ترى ان نجعل المصلى: فقال: الى الصخرة: فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك: فقال: أحببت أن أباشره بقدمي: فقال: قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة: فجعل قبلته صدره

(١) يضطرب ويتمايل

ثم قام الى كُناسة[1] قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس في زمان بني اسرائيل وقال: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصلها وحثا في فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة[2] في كل شيء فقال: ما هذا: فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره: فقال: عليّ به: فأتي به فسأله عن سبب تكبيره فقال يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبيّ منذ خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلاً من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم أن يظهر كعب الاحبار سروره ويكبّر لمصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيليّ الاصل يعلم سوء ما لاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذي منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبد لهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لاهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا وأنى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود في سورية يتمنون إدالة دولة الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيلياء جاءه يهوديّ من يهود دمشق وقال له: يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) الكناسة الزبالة ويراد ببيت المقدس الهيكل الذي بني على الصخرة وقد كان الروم من زمان بني اسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وُسّع بعدُ (٢) جثا أي جلس على ركبتيه وحثا من حثا التراب يحثوه ويحثيه ومعناه ان عمر حثا التراب في ذيل ثوبه والرعة بالكسر كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة أو سوؤها وهو ضد والتحرّج أي التنطع ولعله هو الاقرب للمراد من قوله يكره سؤ الرعة

﴿ لا وثنية فى الاسلام ﴾

رأيت ما قاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لا نحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما اولع بالتفريط فى كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة فى أعلى عليين او يهبط بها الى مقر الشرور فى اسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهي مستقيم ولم يشوه وجه الشرائع ولم يدع لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجل اولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا فى طرف التفريط مارقا من كل دين منكراً لكل نحلة هائما في المادة التي يتناولها حسه وينكر ما فوقها عقله يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالبا بخياله ما يظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأول ما يلاقيه فى طلبه يعلق بقلبه ويظنه منتجع عقله والغاية التى يطلبها فى سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيغلو فى عبادته غلو المادي في مادته حتى يساويه من طرف الافراط بالتوجه تارة للاقمار واخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقتاً للارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل فى المادة قريب من متناول الحس .

فكأن العقل الانساني في حال الايمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك الحس ولا يذعن الى ما فوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الالهية ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلو عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود الى نحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض ويعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين الا اصيب اهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الارواح تارة وأخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحا الى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة اليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال فى كتابه الكريم (الله لا آله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الآلهية دين التوحيد بالله والايمان بانه تعالى خالق الكون وما فيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل فى المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها اليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وهذا من الاغراق فى الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر أرباب الاديان مما لا محل لبسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد باي أثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس للتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله فى القلب وتمكين الاعتقاد بان الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر فى الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ينجي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه أعراض منها تنمو وتعظم فى النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي فى السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأ بنا فى الفجر (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) « ولئلاف قريش » فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال : ماهذا : قالوا : هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض :

فلو كان أولئك المصلون يومئذ فى مرتبة عمر فى العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيماً له كما استشعر به عمر رضى الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم أن أعظم الناس فهماً للاسلام وعلماً بغوامض الدين ووقوفاً على مقاصد النبوة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجماً كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا اسر شريعته وأدركوا مرامي غرضه وقلدوه فى أعماله وأقواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فتفوقوا على غيرهم فى العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء من هم فى المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ما هو التوحيد الذي أرشد اليه الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بجعل المصلى الى الصخرة : لقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك[1] فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة : وقد مر الخبر فى الفصل السابق نقلا عن الطبرى ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون

تقدم معنا كيف تدرج العرب الى الوثنية حتى أنسوا بلمس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وأن أصول التوحيد عند أرباب الاديان كلها أفسدت تدريجاً كما حصل فى دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن أن له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري بهذا اللفظ ولعلها اليك عنى

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتعدى المظهر الأول الى غيره ويتدرج في أطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة أو لها صلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمي اليها بل من أولاها بالاهتمام وأجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتاً صالحا لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح تعظيم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا فقد أخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب مواضع الزلل ومواقع الخطل وسوء الفهم

والله ولي الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماه واللاذقية وقنسرين ﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص الى إيلياء أي سنة (١٥) وقيل إنه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندي أن هذا الاصح

سار أبو عبيدة الى معرة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً وبعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بأن أمر الجند أن يحفروا أسرابا في الارض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما جن عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم فلما أصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرحهم فلم يرعهم الا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على أن يتراجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد

ثم أخذ عبادة تمم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبي عبيدة ففتح جبلة وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥هـ) او سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فانه لما وصل الى حاضر قنسرين زحف اليه القائد ميناس بجيش الروم فاقتتلوا اقتتالاً عظيما وقتل ميناس فاما الروم فماتوا على دمه وأما أهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فاسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا فى خلافة المهدي العباسي

ولما فرغ من حاضر قنسرين [1] فتحصن أهلها منه فقال: انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا فنظروا فى أمرهم وما لقى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت أمامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا ايداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار الذين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة التي لا تنفصم عروتها والطريق التي لا يضل سالكها الا اذا انحرف عنها وزاغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرُّها (أورفا) فى الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها فى يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا فى غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بنى بُسيْس التوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها

من قبل قرقيسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عُقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القوّاد الى أماكنهم دون حرب . ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال : أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني. [1] وقد كان عزله كما مر فى سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال : اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأنبح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابيّ وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً فى أيدي المسلمين فأفلت فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم : فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون بذمتهم [2] الا بثمن ولا يدخلون الا بسلام .·. يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه : فقال هرقل: لئن صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدمي هاتين :

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين وقد ذكرناه في سيرة خالد (٢) يعنى من أهل البلاد التي دخل أهلها في ذمتهم

هذه الصفات السامية التي قلّ أن تجتمع في فاتح من الفاتحين هي التي مهّدت لأولئك الابطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لا عددهم القليل وعدّتهم الضعيفة بإزاء عدة الروم والفرس وعديدهم وضخامة ملكهم ومناعة حوزتهم ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظلّ سلطانه فيئس من عود ملكه في الشام وما يليها اليه فوقف لما باءَ عنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليكِ السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم ويا ليته لا يولد ما أحلى فعله وأمرّ عاقبته على الروم :

وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد :

(فتح حلب وانطاكية وغيرها)

بعد أن تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غَنم الفهري فوجد أهلها متحضين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم أبو عُبيدة أنفذ صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحداً من المقاتلة بحلب وان أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم وبينا أبو عبيدة في حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندي فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وسار الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب وكان لحاضر قنّسرين يجمع أصنافاً من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك وحاولوا بُعَيد وفاة الرشيد العباسيّ الاستيلاء على حلب فاستنجد أهل حلب مَن حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل اهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد ابو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من فالّة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا بجيش منهم الى مهروبة على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقي أبو عبيدة هذا الجيش ففضه وألجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً وجريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري ففتحاها على الصلح الأول . ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من ايلياء عمرو بن العاص ففتحها وممن قال هذا البلاذري في فتوح البلدان وما نخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانتها وتفوّقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأي يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضى الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والى الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبو عبيدة بعد فراغه من أمر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرّق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قنسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم وأخضعهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسيّر عياضا وحبيبا فى جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً وأسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وضمّ اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى أطراف أسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قِبَل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسيّر جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الى اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والاّ فربما يكون أخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به أهلها بعدو وينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم مالم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخالد ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً فقد روى الطبري أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان (القرشية) في جولة . وقال البلاذريّ : وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول : عضدوا الغلفان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالاً شداداً وصادموا اعداءً استماتت في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً وإقداما وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم فى الوقائع الأولى التى حدثت فى اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها وعدا هذا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها فى الشرق والغرب وسار أبو عبيدة عن انطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها مَن استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية فى سنة (١٧هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا ننصر وكان أبو عبيدة فى حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا أبا عبيدة فى حمص فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة وأشار غيره بالكتابة الى عمر ومطاولة هرقل ريثما يأتى منه الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين الفاً على مارواه الطبرى وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبى وقاص فى العراق ان أباعبيدة قد أحيط به ولزم حصنه فبُثَّ المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص وكان عمر أعد فى كل مصر قدر أمن الخيل لكون ان كان وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبدالله بن عُتبان وسهيل بن عدى وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قَرقيسياء والآخر الرقة والثالث نُصَيبين والرابع حرّان والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممداً لأبى عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امداد هرقل فدب الفشل فى جنوده وراسل طائفةٌ من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لايحب الغلبة الا بفل صفوف الاعداء ومناجزتهم فى الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا انى فى سلطان غيرى ماباليت أأقللتم أم أكثرتم أو أقمتم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فانفشوا (١) كما انفش أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لابى عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لاتتكلم فقال: قد عرفت الذى

(١) يقال انفش الرجل أي فتر وكسل

كان من رأيى فلم تسمع من كلامى : قال: فتكلم فانى أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعنى الروم) وبالعدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له مابعده أما من حيى منكم فانه يصفو له ملكه وقراره وأما من مات منكم فانها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يُكَرّهَنّ اليكم الموت أمرٌ قد اقترفه أحدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فاني أشهد وليس أوان الكذب أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة :

وكأنما كان فى الناس عقل (١) نشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وأبو عبيدة فى القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا فى مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم فى هذه الحادثة مارأيت مما لايظن بقوم مثلهم حديثى عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال

لاتنكلوا (٢) ولا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم احدثكم بهذا الحديث !

وتوافى اليه آخر أهل الكوفة فى ثالث يوم من يوم الوقعة فكتب المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا منه الحكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) قال في القاموس نكل نَكَصَ وجَبُن

في ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

(وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس)

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من آياته العظمى في الترغيب والترهيب مالو أحسن استعماله ووضع في موضعه لكفى لازعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثا للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذى أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس في مدارج الاستباحة طمعاً في عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منها داع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات (١): على ذلك الاساس بني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ما جاء منه في الحديث النبوي فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالافراط في الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم في

(١) لنا بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شيء منه في محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل مالم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيد يكفي لمحو كل ما يقترفه في يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهي فساد أخلاقه وشرور نفسه وماذا ينفعه القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ أخذ الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه يضاف اليه الاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له في مواضعه التي أرادها الشارع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لرأوا كيف أنهم كانوا يقللون من رواية الحديث الا للخاصة أو ما تعلق منه بالاحكام حتى بلغ بعمر رضي الله عنه ان كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سترى بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كثرت

الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه فى الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم يسمعه منه أحد من الصحابة أو سمعه بعض الخاصة فرأى هذا الامين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوهن فى نفوسهم أو جبن أصابهم كلا وانما هو لرهبة الخالق التى تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لا يتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لا يبقى منهم أحد يحدث به أو يلابس نفسه أثر منه لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشي من ان يعلق فى نفوسهم شيء منه مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

(لا تتكلوا ولا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص فى اليقين من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط فى المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والتفقه فى الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب الغلو معهم فى الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلابس عقولهم من القوة والضعف وأنى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ المقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولهذا نهى فى عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلى عصره من العصور

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الاندلسى فى كتابه جامع بيان العلم (١) وفضله فى باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم: قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا: فقال: انكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضوا وأنا شريككم : فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اهـ

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن تخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك : ثم قال بعد ذلك أيضاً : ان نهيه عن الاكثار وأمره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً أن يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلّت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الاكثار فلهذا أمرهم عمر من الاقلال من الرواية اهـ

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان وأخوه معاوية وحبيب بن مسلمة الفهري وعياض بن غنم الفهري وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الا الاخير فانه حليف بني زهرة من قريش وأما غير هؤلاء ممن ليسوا من قريش فهم ذو الكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو (1) والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مجزز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العكي

(1) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووفدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكية وقبلها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش والمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء في كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة في هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان جزء طبيعي منها عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه أن قسماً عظيماً منه كان مأهولاً بالعرب من مضر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية أكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها وذوي علاقة تجارية بسكانها

﴿ خلاصة جغرافية ﴾

(ونظرة اجتماعية)

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديماً وحديثاً مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجبايته كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالاً ولاية أذنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقاً الفرات

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين (١) والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ق ٠م الى سنة (٦٣٣م) حيث ابتدأ الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (١٧هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صورا حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد

حمص والقسم الثانى دمشق والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتي الكلام على هذا بالتفصيل في غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت في هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة في هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقى الدول وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الاسلامى دولة لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن الرومانى العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الدينى والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرّق جامعتهم المليـة ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠م) كان أمر المجادلات الدينية في أشده فخاض الامبراطور نفسه في غماره واشتغل بالامور الدينية تاركا أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب دولته ومن ثمَّ ظهر الوهن في الدولة في أتم مظاهره فغزتها دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يزايل بكرسيه الامبراطوري القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لولم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مرّ من هذا الكتاب

ولا ريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكب ذاك الملك المريض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لاسيما وانها كانت حديثة عهد بمعارك الفرس التي لم يكن مضى عليها لحين الفتح الا بضع عشرة سنة: إذن فهذه البلاد لم تكن لما دوّخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلاّ ان استعدادها الطبيعي لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية الغابرة تكفل برقيّ أهلها في مراقي السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هذه البلاد من الرقيّ على عهد الخلفاء الراشدين والامويين في صدر الاسلام لِما أنّ أخبار تلك العصور انتهت الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به في ذلك العصر إلا ان هناك من الادلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقي في أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الجباية ورفع عن الرعية العسف وخففت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحرية توفرت لهم أسباب الراحة ونشطوا من عقال الخمول فهبوا للاخذ بأسباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البلاد كانوا ايصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدراً من خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهود التي بأيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السَّرَف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة في عهد الامويين على ترقي العمران في البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعهم)
٢٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد في عصور تقهقرها أكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها في العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها أكثر من جبايتها في صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهي الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم في الرعية يضاف اليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتأسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل والمنقطعين وترتيبها في الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجئ للزمنى والمجذمين وأمره ببناء الفنادق للمسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته أي الوليد بأصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة وإطلاق الخلفاء لحرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ودواعي الترقي والعمران يدلنا على رقي البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران التي لم يتمتع بها هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها تداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين الله أعلم بما أصاب في غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وفعلهم في البلاد وأهلها الافعال الكبار وتلى ذلك هجوم تيمورلنك عليها في أواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل وأجلى عن دمشق خاصة أهل العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها ذماء الحياة وأعان أهلها على تحمل المصائب فلم تنحط الى الدرجة التي تفقد معها أصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتمود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضا اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضا لوجود أثره الذي ينبئ عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كأقمشة اللابس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو الغزلية والالاجا والجامدية وغيرها وكاقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديما بالدامسقو الى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر اليها الا منقوشة بالدهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاما لا يظهر منه أن النقوش انما هي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة النشا في دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات لم تزل لهذا العهد تصنع كميات عظيمة من النشا الا انه قل تصديره الى الخارج بسبب مزاحمة

النشا الافرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا أنها ساذجة لم تترق الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً ناتئة أو مجوفة وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الناتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نر أثراً يشبههما الى أواخر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن اتقان البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بني في العام الماضي محراب للجامع الأموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذي أقيم في جانبه وعلى نمطه أيضاً

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومعاملها موجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنّب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الندرة في بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً ناتئة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية

وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها فهذه الصنائع الباقية الى الآن في سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقي هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقياً عظيماً خصوصاً في القرن التاسع والعاشر الى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة ضنّ آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ومات فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض الى اليوم عند الدمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها الى قيشان المحرفة عن قاشان بلد في فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً في أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية في القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقي خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشرة سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الأثرية الفرنساوية في مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة في عهد الفاطميين والجراكسة [١] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لي الماني وعليها اسم العامل بالعربية إلا أني لم أعثر في القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره في مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفساء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهي من أنفس الصنائع التي وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الاموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفساء على أشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والازهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفساء إلا قليلاً منها في الحائط المقابل للمنبر في الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمالي في الحرم الخارجي فأما ما كان منها على الحائط الداخلي فقد تناثر بعضه في الحريق الذي حدث منذ بضع سنين وأما ما كان

(١) راجع مذكرات البعثة الاثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفوليتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفساء إما عمداً عن جهل بقيمته الأثرية وإما اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح. والظاهر أن صناعة الفسيفساء استمرت في الشام الى ما بعد القرن السابع بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق إلا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيفساء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها تاماً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمرقند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سورية الا أنها منحطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الأثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الافرنجية التي من نوعها الى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتياً يقول إن الصالحية منذ أربعين سنة فصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الأثواب البيض من القطن المغزول بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في نعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك أسواق دمشق وكل سوق منها لأرباب

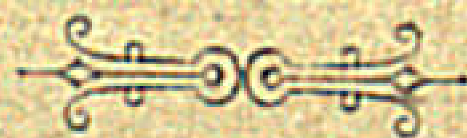
صناعة مخصوصة كسوق الشماعين واللبادين والغلاينية (١) والخراطين وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتية والقبارين وغير ذلك من الاسواق التي لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس وعهد طامس اللهم الا العلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ويُذهب بعضها وبعضها يُلوّن بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ما هو موجود في منزل أسعد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهياً جميلاً كأنما صنع بالامس. والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التي لم يمض عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ما تحتاج اليه من النفقات التي لا تحتملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذي ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرأ عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صناع الغلايين التي يستعمل بها التبغ

الزاهية تخالف أصل الصنعة إلا أنه جاء جميلاً وافياً بالغرض لا عيب فيه

هذا ما أردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقي أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما أنها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير وينزع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم ذماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مضاجع الآلام وتساورهم الهموم الجسام ولا سبيل لهم الى إصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رُموا بالخيانة واذا صدقوا اخرجوا في عرف الجهلاء من عهد الامانة وهي حالة يا ربّاه تؤذن بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت الوجدان فأنقذنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرةً في الآخرين واُلعوبة في أيدي الغربيين انك مجيب الدعاء



باب

فتح العراق وفارس

(إنتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الامرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق واما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهربراز الذي أدى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد (يعنى الشق الغربى الذي هو العراق العربى) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها اه

وقام عمر (رض) فى الناس فقال

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة (١) ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كلِّه) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون اه

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وثنى سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمّر عليهم رجلا من المهاجرين والانصار فأبى وقال إن من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمّر أبا عبيد على الجيش وقال له: إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيَّن فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف (٢) ولم يمنعني أن أؤمّر سليطا إلا سرعته الى الحرب وفى التسرع الى الحرب ضَياع إلا عن بيان والله لولا سرعته لأمّرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى أو أوائل جمادي الثانية سنة (١٣هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عديّ بن النجار والمثنى بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثنى الى الحيرة وكان استقرأمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت اليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد أن يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى ذلك فضمّ اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فسار بهم الى خفّان ونزلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من سار من الدهاقين جابان في فرات

(١) النجعة طلب الكلأ (أي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

بادَقْلَى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فانهزم أهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أسر جابان أسره مَطَر بن فضة التيمي فخدعه جابان بأن وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلَّى عنه فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه انه الملك وأشاروا عليه بقتله فقال: اني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم: فقالوا انه الملك وانه هو الذي حاربنا: قال وان كان لا أغدر فتركه

أنظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذي ملك ناصية عدوّه الذي غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوة حتى باتوا ألبا على بعضهم وحربا على أنفسهم يمزقهم الاعداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه انفرادا باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوّح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت أخلاق الامراء وتفشى الجهل في قصور العظماء وتنوسيت أصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا من جزائك العادل ما لقيناه من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاخاء وننبذ من كانوا اسبب التقاطع والشحناء ونجدّد عهد التآلف ونتمسك باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيّم قائدها نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قِبَل رستم فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقّاطية فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغُلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرّح القوّاد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فرُّوخ وفرَوَنداذ المثنّى بن حارثة وطلبا منه الجزاء والذمة عن عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفروانداذ جاءاه بآنية فيها انواع أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك: قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله: قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون: فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسعُ الجند فردّه وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الاندرزغر بمثل ما جاء به فروخ وفروانداذ: فقال لهم أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم: قالوا لا: فردّه وقال لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مما يأكل أوساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يعملون وبمثل هذه الاخلاق يمتازون وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفيء المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم

وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوهم فيه غلوّ الجاهل بخوافيه اذ فاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر وأن الانسان اذا أفسدت الحضارة نحيزته وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه استحال تقويم أودنفسه وإرجاعه عن غلوائه والاقلال من أثرته وكبريائه والاخذ على أيدي قادته وزعمائه ما لم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الأثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رض) وبلغ بعمر بن الخطاب (رض) بغضه بداء حب الأثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر أن كان يحصي مال عماله قبل أن يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقتناهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى التنعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتابا طويلا مما جاء فيه قوله

أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت

تعلم انك تأكل وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرز بهم هذه البلاد. فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً الا دخل النار الخ

فأين هذا الخليفة في مشربه القويم ومذهبه المستقيم في تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السَرَف في أموال العباد ممن يربّي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم في أموال الناس بل ويحكّمهم في رقاب الرعية ويدني فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات: ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا اصبغ أديم الارض بنجيع الانسان وتبدّل الاشرار بالاخيار وذلك أمر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدّم المثنّى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجالينوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين فوجه بهمن جاذويه ورد الجالينوس معه فاقبل بهمن جاذويه ومعه راية كسرى (دِرَفشْ كابيان) وكانت من جلود النمر[1] وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمرحة على

---

[1] لهذه الراية قصة عجيبة جاءت في أخبار الفرس وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته في الظلم الى حد لا يطاق فقام من رعيته يوما رجل حداد خامل بين قومه عظيم في نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذي يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى في الناس من لا يطيق الظلم فليتبعني فاتبعه عامة الناس فقتلوا ذاك الملك ورجال دولته وأسس ذلك الحداد الدولة الكسروية=

ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول اشاراتهم وترك الرأى وقال لايكونوا أجرأ على الموت منا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من أبي عبيد رضى الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدران عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لامر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثنى بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقى المثنى في جمع قليل . ولما انتهى الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب فقال: عباد الله اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة:

واذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى في الكتاب

= فاتخذ ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوها من جلود النمر وسموها درفش كابيان وكانوا لايخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والانصار جزعاً شديداً ولما رأى عمر رضى الله عنه جزعهم قال : لاتجزعوا يامعشر المسلمين انا فئتكم انما انحزتم الي: وبلغ الجزع بمعاذ القاريء احد بني النجار أن كان اذا قرأ هذه الاية بكي فيقول له عمر: لاتبك يامعاذ انا فئتك وانما انحزت الي : وذلك تخفيفاً لروعه ودفعاً لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدها تمسكاً بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضى عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثنى ومن بقى معه من الجند القليل جاء الفرس ماشغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا اقسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المثنى من جمع القبائل التى حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أوزاعاً متفرقين في قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بني عبد ابن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد الا رمى به المثنى وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما لقومه ياعشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى مايرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا لهم عمر بخير وأمر على بني كنانة غالب بن عبد الله وعلى الازد عرفجة بن هرثمة

وسرحهم نخرج هذا فى قومه وهذا فى قومه حتى قدما على المثنى

وقدم على عمر (رض) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثنى الجشمي جشم سعد فأمره على بنى سعد وسرحه وجاء اليه ربعي فى اناس من بنى حنظلة فأمره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى ابن حارثة جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران وأخبراها انهما اتفقا على أن يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده فى محل يدعى البويب على شاطئ الفرات لاخر وكانت الجنود اليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممداً فى أناس من نصارى النمر وقدم عبدالله بن كليب التغلبي المعروف بمردى الفهر فى أناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا الى جند المسلمين ولله ما أفعل الجامعة القومية فى النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاءوهم من قبل نهر بنى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثنى للمسلمين ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن أبى رهم وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النسير وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتي مهران الآزادبه مرزبان الحيرة ومردان شاه ثم

خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم [1] ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ولكلهم يقول انى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء الا وهو يسرنى لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لا سيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقيبة فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبّر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثنى كلما رأى خللا فى صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأ كم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه انس بن هلال ومردى الفهر وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته واضطربت صفوف الاعاجم ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذي أظهر من البراعة والشجاعة فى هذه الوقعة ما يخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فاني غير عائد (يعنى الى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا ولا تقتدوا بى ايها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغى احراج احد الا من

(١) حضضهم كحضهم اى حثهم وأحماهم عليه كما في القاموس

لايقوى على امتناع: هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وانابته للحق رضى الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا جرحوا فى هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال والله انه ليهوّن عليّ وجدى (أي اسفه وحزنه) أن شهدوا البويب. اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا. وأن كان فى الشهادة كفارة لتجوّز الذنوب

وكان اشد الناس بلاء فى هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابى عبيد لاستحيائهم من الفرار فى تلك الوقعة ولما انهزم الفرس فى البويب انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهد واقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبرى ان المثنى وعصمة وجرير أصابوا فى أيام البويب غنما ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بُقيلة فلما رُفعوا (أي ظهروا) للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد فقال عمرو ابتهاجاً بهن: هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش. وبشّروهن بالفتح: وكان على الخيل التى اتتهم بالنزُل (الضيافة) النُسير فأقام فى خيله حامية لهم

ولاجرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهن وامكان دفعهن العدو والمفاجئ لما تركوهن فى الفلاة بلا حامية وتقدموا الى حرب الفرس وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات فى اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن فى القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضنهن

ذكر الطبري فى معرض كلامه على فتح ميسان انّ المغيرة سار الى أهل ميسان وخلّف الاثقال فلقي العدوّ دون دجلة فقالت أزدة بنت الحارث بن كلدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنّا معهم (أي عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خُمُرهنّ رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا انّ مدداً أتى المسلمين فانهزموا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية فى الجراءة ونهاية فى الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن فى مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب أدورد جبون فى تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التى أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن: إن هؤلاء النساء اللاتى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتى اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أيّ انسان يريدها بسوء

ولقد صدق فيما قال والا فما كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال فى معامع الحرب والقتال ومن البديهى أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال فى الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء فى صدر الاسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب فى هذا العصر أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويعطوها حقوق الرجال والاّ فالكلام عبث لا يجدى والموقف حرج ينبغي للخروج منه اناة

وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب في قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الامم وأشد خطرا على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب المالك وتشعث بناء الدولة وقلّ ما انتهت الدول في أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دولة الفرس أصيبت في أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز في أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجلا على استخلاص بواقي الخراج فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت انظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى بابل ومنعهم من التصرف فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحس بضعف نفسه أصابه وسواس أفضى الى ان أمر بقتل اخوته وكانوا سبعة عشر أخا ذوي مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم ابنه ازدشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادرجسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية ازدشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يد القوة وطمع في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل ازدشير فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث في الملك الا أربعين يوما وقتله أشياع ازدشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت وخطبها والي خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده الى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى في الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش الاكاسرة دب في عامة الشعب الفارسي دبيب الشعور بحرج الموقف الذي وقفت فيه دولتهم وأحسوا بالخطر الذي جره عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق فأقبل رجالهم وذووا الرأي منهم الى الفيرزان ورستم وقالوا لهما : لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما ان يقركما فارس على هذا الرأي وان تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن (يعنون البلاد التي احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو

لنبدأنّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت ووالله ما جرّ علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء لقد فرّقتم بين أهل فارس وثبّطتموهم عن عدوّهم ولولا أنّ في قتلكم هلاكنا لعجّلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنّكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبّها من غفلتهما وخشيا هلاكهما فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت أمه غيّبته هناك وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة الّا انه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين

﴿ استعداد مثنى ﴾
(ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق)

لمّا بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهزهم لحرب المسلمين كتب الى عمر (رض) وبيناهو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه . (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً الّا أجلبتموه فان جاء طائعاً والّا حشرتموه . احملوا العرب على الجدّ اذا جدّ العجم فلتلقوا جدّهم بجدّكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربيّ والتدبير فنزل بذي قار وفرّق الجند على خط واحد من الجُلّ وشَراف الى غُضَيّ [1] حيال البصرى فكانوا في أمواه العراق من أولها الى آخرها مسالح [2] بعضهم ينظر الى بعض ويغيث بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة الى شَرافٍ والجلّ أي من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر في أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون بشيء مما يريد وكانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال العامة سِرْ وسِرْ بنا معك فقال استعدّوا وأعدّوا فاني سائر الّا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

---

(١) في معجم البلدان جُلّ موضع بالبادية على اجادة طريق القادسية الى زُبالة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بينها وبين الرّمانتين وشراف بين واقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغضيّ تصغير الفضاماء لعامر بن ربيعة وقيل جبال البصرة (٢) جماعة المسلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ماؤهم على أن يبعث رجلاً من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان لذى يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون والا أعاد رجلاً آخر وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله

﴿ الحكم النيابيّ في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدولة هي أعظم دول الارض رهبة لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والا كان الخطر على المسلمين عظيماً والامر جللاً لا بعد اذ هيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد أن لا يفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم أرغب وبخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره. وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع عليّ وطلحة رضى الله عنهما لان الأول استخلفه عمر على المدينة والثانى كان على مقدمة الجيش فرأى أن لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال

أما بعد ان الله عزّ وجلّ قد جمع على الاسلام أهله فألّف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحقّ على المسلمين ان يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوى الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . يا أيها الناس انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من قدّمت ومن خلفت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا الرأي الأول كما ذكرنا

لعمرك أيّ ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضى واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الامر فانه تبع لذوى الرأي منهم » فجعل نفسه تبعاً لذوي الرأي وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابيّ الذي تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به أبو بكر وعمر رضىً به واخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في أمر دنياهم الا ان هذا الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء واخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقى الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمان لهذا لم يستمر الا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم الفطري للحرية يقتضيان استمرار الحكم النيابيّ في الدول العربية وانما أرغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية مذ قامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاعجمية وخالط خلفاؤها الاعاجم من الفرس والروم ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة في الرعية وسلطانها القاهر الذى هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل لا المحكوم منهما والنفس تتلوّن أحياناً بألوان البيئة وتتبدّل أخلاقها بتبدّل المنشأ

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم لوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط فى السيادة حتى بلغ بعبد الملك بن مروان أن خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من راجعه فى أمره فقد تعرض للقتل مع أن عصر بنى مروان هو العصر الذى كان يرجى به استثمار البذور الديموقراطية التى بذرها الخلفاء الراشدون لاستغلاظ شأن الاسلام يومئذ وتفرغ الناس الى النظر فى الشؤون الادارية بعد انتهاء كبهم فى الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح وما نخال الباعث للأمة العربية على الانقلاب لشهوات الملوك من بنى مروان الا ذلك المزيج الذى تألف منه جسم المجتمع الاسلامي يومئذ وأخصهم الموالى من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر وفى الحقيقة فقد غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها فى فارس والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم يغنهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لانمائه فى عصر الحضارة الاسلامية واجتناء ثمراته الشهية فبسطوا ايد القوة وتبسطوا فى الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط فى بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع الجبروت وهدموا ركن الشورى اذ مطمح نظر الشعوب ومناط سعادة الناس الحرية والعدل ومتى كان هذان أساس الحكم فى دولة من الدول فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من وراء ذلك غرض الا الذود عنها والذب عن حوزتها ذوداً عن حوضهم وذباً عن راحة مجتمعهم

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح فى حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً فى دولتهم وهل يلجئ الناس الى التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة لجملوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التى وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا اليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم محفوظة فى مؤلفات القوم والذى أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الاصول الادارية وغيرها عن الروم والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الامور التى لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التى عاناها غيرهم من الأمم التى سبقتهم فى الحضارة لو أخلصوا النية ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا للدول الاسلام أساساً ثابتاً فى نوع الحكم لا يتأتى لاية دولة اسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله البتة لاسباب عديدة أهمها إلصاق الفقهاء بعد كل شئ بالدين وحظرهم على الأمة العمل بأى أمر نافع الا ما سبق للصحابة والتابعين وكان عندهم كالتنزيل لا يحيد

عنه أحد من المسلمين ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الأخرى كما انتفع الاوربيون من المسلمين فى كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه فى محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني : أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبلُ وبعدُ فانه ان يُهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تُهزم فى أنف الأمر خشيتُ أن لا يكبّر المسلمون وان لا يشهدوا أن لا إله الا الله أبداً :

ونعم هذا الرأي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اذ أن المسلمين يومئذ كانوا أحوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل فى الجزيرة والفتنة لم تركد فلو أصيب عمر بشيء لصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لان هيبة عمر وعزيمته واناة أبي بكر قبله وروّيته مهدت لمن جاء بعدها السبيل ومكنت للاسلام والمسلمين السلطان فى الارض

بينا المسلمون فى المشورة وافى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص وكان عامله على صدقات هوازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس وهم الف فارس فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته : قال فمن : الاسد عادياً : قال من هو : قالوا سعد : فانتهى الى قولهم فأرسل اليه فقدم عليه فأمّره على حرب العراق وانتدب معه الناس فكان أهل اليمن ينزعون الى الشام وكانت مضر تنزع الى

العراق فقال عمر (أي لأهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مُضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمّر عمر سعداً رضى الله عنهما أوصاه فقال

يا سعد سعد بني وهيب لا يغرنّك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عزّ وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبتَ عنها حبِط عملك وكنت من الخاسرين

ثم لما أراد أن يسرّحه دعاه فقال

اني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلّص منه الا الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر . فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين فى طاعته واجتناب معصيته وانما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء . منها السر ومنها العلانية . فأما العلانية فان يكون حامده وذامّه فى الحق سواء . وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد فى التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وإن الله اذا أحب عبداً حبّبه واذا أبغض عبداً بغّضه .

فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السَّراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حُمَيْضَةُ بن النعمان البارقى وشداد بن ضَمْعَج الحضرمي وعمرو بن معدى كرب على مَذْحج ويزيد ابن الحارث الصُّدائى وبشر بن عبد الله الهلالي وشُرَحبيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضى الله عنه الى الأَعوَص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وان ينهوا شؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتى الخطبة فى باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زَرُود من أرض العرب مما يلى العراق وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الأشعث بن قيس فى ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذى شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم اليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ولما رحل سعد عن زورد كتب اليه عمر (رض) : أن ابعث الى فُرْج[1] الهند رجلاً ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شيء أتاك من تلك التخوم : فبعث المغيرة بن شُعْبَة فى خمسمائة فكان بحيال الأبلة من أرض العرب ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ . ولما بلغ سعد شراف نزل وكتب بمنزله الى عمر بن الخطاب (رض)

(١) هو الثغر وموضع المخافة والأبلة هى التى كانت ثغر العراق يومئذ لقربها من مصب الفرات فى خليج فارس

فكتب اليه عمر : اذا جاءك كتابى هذا فعشّر الناس وعرّف عليهم[1] وأمّر على أجنادهم وعبّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة فى خيله واكتب اليّ بالذى يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعبّاهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش فى هذا العصر وسنأتي على تفصيل الخبر عن هذا فى غير هذا المحل ان شاء الله ورضى الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً فى أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوّة العدوّ ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعدّ سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في غضون ذلك المعنّى بن حارثة أخو المثنى وزوجته خَصَفه التيمية بوفاة المثنى ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوّه من أهل فارس اذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عُقْر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلى أرض العرب ولما انتهى الى سعد رأى المثنّى ووصيته ترحّم عليه وأمّر أخاه المعنّى على عمله وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثنى على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر الماضية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه فيه الا خالد بن الوليد وكان منذ وفوده على أبى بكر في أول خلافته يهوّن عليه أمر الفرس حتى

(١) قال فى القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس

ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوّخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أبا عبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالرأي والوقوع في التهلكة ومازال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويحقق أمله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثل وصية المثنى

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه بأن لا يقاتل الفرس الا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالامانة والصبر والثبات وان يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة الكتاب في كتبه ان شاء الله

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعذيب الهجانات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه يوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعمن يلي أمر الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يفي بأمان من يؤمّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهمها وظنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانا رأينا أن نأتي به هنا للضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

إني قد ألقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه (١) باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فاجروا له ذلك مجرى الامان واياكم والضحك . والوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اه

﴿ كلمة في التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين ﴾

هذا الكتاب يدلنا على أمرين الامر الاول أن الرأفة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة في هذا العصر وحدها بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الامم وحسبك من ذلك أن من شرط الاستئمان في الحروب القانونية عند الامم المتمدنة لهذا العهد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو أن مجرد الاشارة ولو

(١) قال في القاموس لاعبه أي لعب معه والقرف بالتحريك من المقارفة والقراف المخالطة

نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرّص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامى منشؤه اما الغيظ والضغينة واما سوء الفهم المتأتي عن تشويش التاريخ الاسلامى وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وما ذلك الا لتجنب مؤرخى الاسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم فى أخبار الحروب الاسلاميّة دون الذرائع العامية التى ترقت بها الامة فى الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى أن المدنية الاسلامية التى طبقت شهرتها الافاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها الى الان أشبه فى الغموض بمدنية الامم البائدة التي ينقب الباحثون فى تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها الغابر بل بلغ بغموض تاريخنا وإغماض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان أحدنا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك سبيلا هذا فيما قرب عهده من العصور فما بالك بالقديم والا فأين هو لعمر أبيك التاريخ الذي يفصل لنا أخبار السلف التى تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم وصنائعهم وعوائدهم وأزيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء والسياسة والجندية وأصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقي هذه الامة وحالتها الاجتماعية التى أدهشت أهل المغرب أيام الحروب الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط فى العمران والقيام على شؤون

الادارة والحرب ما لم يخطر لهم فى بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً فى ثنايا الاخبار وربما ألمّ بعض المؤرخين بشئ من ذلك كالخطيب فى تاريخ بغداد والمسعودي فى تاريخه الكبير الا أننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة فى تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفى الغليل

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامى في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا جرم ان يظن الجاهل والعدو أن الامة الاسلامية انما وجدت لازعاج العالم بالحرب والقتال وان تتشوش الحقائق المندمجة فى أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما فى عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودوّنت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر وأضافوا اليها ما تمس اليه الحاجة التابعة لترقى الدول والزمان لما وجد الاعداء سبيلا للقدح فى الفتح الاسلامى وكذلك لو عني المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية فى عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذا العهد منوالا تنسج عليه الامة او منبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات والتوثق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هو آت

﴿ خبر القادسية وغيرها ﴾

لما انتهى سعد الى عذيب الهجانات قدّم أمامه زُهرة بن الحوِيّة الى

القادسية [1] وجاء على أثره بعد أن ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس فأخذ يبث السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لاشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولّى رُستَم بن الفرّخزاد الارمني حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

أما بعد لا يُكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفَلَجاً [2] عليهم واكتب اليّ في كل يوم

وأما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة الف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام أو الجزية وهم النعمان ابن مقرّن وبُسْر بن أبي رهم وحَمَلَة بن جُويّة الكناني وحَنظلة بن الربيع التميميّ وفرات بن حيّان العجليّ وعديّ بن سهيل والمغيرة بن زُرارة بن النبّاش وعطارد ابن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسّان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمثنّى بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ليزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فحبسوا ثم جمع

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والنصر

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فادخلوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل سيرد معنا في سيرة سعد بن وقاص (رض) ولمّا لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأي الا أنه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين الى أن قُتل حروب شديدة انتهت بفلّ جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا اشهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى فالّة القادسية في بابل فأرسل اليهم زُهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي بُهُرَسير [1] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن ما لا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سواديّ الا آمن واغتبط بملك الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وان سعداً ليصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحها وفرّ كسرى من حلوان الى الري وقيل

(١) المدائن هي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسميها الافرنج اكتازيفون

الى اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعد في المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه فى غضونها تكريت والموصل ثم تحوّل الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره في محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

(كيف يكون الاستعمار)

انّ من الاصول السديدة فى الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون هـذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً نمو بنمائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسّط أهل المملكة فى العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم مالم يجده فيما لو نضب معين ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم وقلّ أن تراعى الدول الفاتحة هـذا الاصل السديد والمرمى البعيد فى الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التي أخـذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطرق الاكراه التدريجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغنى منها وطنهم على زعمهم ولم نعهد في هـذا العصر دولة من الدول المتمدنة الاوربيـة تراعى حفظ الاصل فى الثروة لأهله فى المستعمرات الافريقية والاسيوية الاّ دولة انكلترا فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة وأخفهن وطأة على الرعية مع أنّ دعوى التمدن العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البلاد المفتتحة كما هي مرعية في الممالك الاوربيـة وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تمحى عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء في ديار المدنيـة وليت جهلة الكتاب من الافرنج الذين يرمون الفتح الاسلامي وأهله بوصمة التخريب

والتدمير ويسمونهم بسمات البـداوة يبحثون فى التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدنة في وضع أساس العدالة وحفظ اصول الثروة لأهلها فى الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب إنما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله فى الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكفّ يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروة الافراد وخصب الارض وجـدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتملون في ارضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك ما رواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبدالله بن هبيرة أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبدالرحمن ان شريك بن أبي سمى العطيفي أتى الى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) أفتأذن لى بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك : فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب الى عمر بن الخطاب يخبره انّ شريك بن سمى العطيفي زرع بارض مصر : فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الىّ به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكا: فقال شريك لعمرو قتلتني ياعمرو فقال له عمرو أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج من غير كتاب ولك عهد

اللهّ ان أجمل بدي في يده (يعني انه لايهرب) فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال : تؤمنني يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلملك شريك بن سمى : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لاجعلنك نكالاً لمن خلفك : قال أو تقبل مني ماقبل الله من العباد : قال او تفعل : قال نعم : فكتب الى عمرو أن شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لما افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فانا افتتحناه عنوة بسيوفنا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته إن تفاسدوا بينكم في المياه : قال: فاقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال او كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شئ وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

وبلغ من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ان أحد بني الحارث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يفتلي (١) فيها خيله فكتب الى أبي موسى الاشعري ان أبا عبد الله سألني أرضاً على شاطئ دجلة يفتلي فيها خيله فان

(١) في القاموس فلا الصبي والمهر فلواً وفلاء عزله عن الرضاع او فطمه كافلاه وافتلاه ·

كانت في غير أرض الجزية ولا يجز إليها ماء الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة في ولايته كتاباً غير هذا وهو بمعناه كما تراه في محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق في العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها في هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج في العراق فهو انه لما أزال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان الا انه خوفاً من اجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتفرز أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصارى الى العراق العربي وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومذروعها فجعلا على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفي رواية لابي يوسف انه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج ابو يوسف والبلاذري عن الشعبي ان عثمان ابن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أي ستة وثلاثين مليوناً) وفي رواية انه استثنى النخيل وفي رواية ان عمر الغى النخل في ولاية المغيرة بن شعبة على العراق

(١) في القاموس الجريب اسم لمكيال وللمزرعة واما مساحته فقد ذكر الطبري في تاريخه ان المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولا وستين عرضاً قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة فى العراق .

وبلغ خراج العراق فى ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافى التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافى بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخصاً فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا فى هذا العدد متوسط الجزية الذى هو أربعة وعشرين درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتى ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافى فيكون مجموع الجباية فى العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليوناً درهماً ومائتى ألف درهم [1] كانت تنفق فى اعطيات الجند وارزاق المسلمين مما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التى احتفرها عمر فى العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد ابن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي فى مناقب عمر عن عمر بن ميمون

ورأيت في مناقب عمر للامام ابي الفرج بن الجوزي ان جباية العراق العربي المعروف بالسواد والعراق العجمى المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليوناً (واق) قال والواق درهم ودانقين ونصف هذا ماقاله ابن الجوزي واما الدانق فقد كان كل درهم اربعة دوانق وهو الدرهم البغلي واما الدرهم الطبري فقد كان ثمانية دوانق وقيل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض مالا تطيق : قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى أحد بعدي أبداً فما أتت عليه الا رابعة الا أصيب وروى أبو يوسف فى الخراج ان عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب مافيه ظلم مسلم ولا معاهد: وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان مايسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب اذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح واصلا لنمو نمائه ثروة الدولة وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهي قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الارضين فى العراق والشام أبى الا ابقائها بايدي اهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا برأى وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً فى كتاب الخراج لابي يوسف وقال اني قد وجدت حجة الله تعالى فى كتابه وتلى الآيات التى نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي ما أفاء الله على رسوله) الى ان قال بعد ذكر ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والانصار (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) وقال لهم عمر (رض) هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (أي بعد من ذكروا فى الآيات) فقد صار هذا الفيء بينهم جميعا فكيف

نقسمه لهؤلاء (يعني الفاتحين) وندع من تخلف من بعدهم بغير قسم فاجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك المخالفون وتم الامران تبقي الارضين بيد اهلها لتكون مادة يستمد منها اهلها والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل واساسه المتين

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان واليا على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ماغلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أباموسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم ولى عملها حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يباري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستولى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء ان يباري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيشا عدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلى والسوار بن همام وعلى الجميع خليد بن المنذر بن ساوى فحملهم في البحر الى فارس فخرجوا الى اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهربذ فما عتم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يا لتميم اجمعوا النزول ... وكاد جيش عمر يزول
وكلكم يعلم ما أقول

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدو مدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير اليه من الهلاك في تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك ان ينضم بمن معه الى سعد بن أبي وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عتبة بن غزوان والي البصرة بالخبر وأمره ان يندب الناس الى نصرتهم قبل ان يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا في اثني عشر الفا على البغال يجنبون الخيل كي لا يفنيها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك وساحل (أي مشى على الساحل) أبو سبرة والمسالح في الاهواز وهم

رد، له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصرهو وجنوده الليوث البواسل فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج فالتقواهم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأي عمر وأخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لاهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فابى ان يعفيه وعزم عليه ان يرجعن الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فاثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رُهْم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ماجرى مما سيأتي في محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أباموسى الاشعري

﴿ خبر الهرمزان ﴾
﴿ وفتح الاهواز وتُستَر والسوس وغيرها ﴾

كان الهُرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز [1] وتولى أمرها وأخذ يغير على

(١) الاهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص هنا ماذكره في شأنها ياقوت في معجمه وهو

الاهواز جمع هوز وفي قول جمع خوز فهي على القول الاول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشي يحوزه حوزاً اذا حصله وملكه والحوز في الارضين ان يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحوز.

أهل ميسان فتقلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأمده بنعيم بن مُقرّن ونعيم بن مسعود وأمرهما ان يأتيا اعلى ميسان ودستميسان ووجه عتبة سُلمى بن القين وحَرْملة بن مُرَيطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم على المعاضدة وان يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم غالب الوائلي وكُلَيب بن وائل ونَعيم ونُعيم وبلغ ذلك الهرمزان فَسُقِطَ في يده فانهزم فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ماشاؤا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأي مالا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا الى عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وماغلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يُرَدّ عليهم وجعل سُلمى بن القين على مناذر مسلّحةً وأمرُها الى غالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها الى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر ووفد اليه وفداً منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا واوفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم فكلهم قال : اما العامة فانت صاحبها ولم يبق الا خواص أنفسنا : فطلبوا لانفسهم الا الاحنف بن قيس فانه تكلم فاغرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه عمر اليها وقال : هذا الغلام سيد أهل البصرة ! ثم كتب الى عتبة بن غزوان فيه بان يسمع منه

على القول الثاني الاخواز مواضع في خوزستان . وموقع الاهواز بين البصرة وفارس وكورها اي اقسامها سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتُستر وجنديسابور وسوس وسُرَّق ونهر تيرى ومناذر وكان خراجها ثلاثين ألف ألف (٣٠ مليون) درهم وكانت الفرس تقسط عليها خمسين ألف ألف وعاصمة هذا القسم هرمزدار سابور او سوق الاهواز

ويشرب برأيه ! وقيل بل احتبسه عنده في المدينة وسيأتي الكلام على هذا في سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر ردّ سلمى وحرملة وغالباً وكليباً الى مناذر ونهر تيرى فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا غالباً وكليباً محقّين والهرمزان مبطلا فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضا ومنع ما قبله واستعان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدّهم عمر بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر الى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الاهواز وأقام بها واتسقت له بلاد سوق الاهواز الى تستر ووضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزء بن معاوية في أثر الهرمزان بأمر عمر فانتهى الى قرية الشغر وأعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دورق (وهي مدينة سرّق) وفيها قوم لا يطيقون منعها فاخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجزاء والمنعة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص بن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبري في غضون هذا الخبر ان جزء بن معاوية استأذن عمر (رض) في عمران البلاد فاذن له فشق الانهار وعمّر الموات : وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فانهم ما وطئوا أرضاً الا عمروها وأنصفوا أهلها في الحكم والمعاشرة والجوار

وأما الهرمزان فاقام في رامهرمز وطلب الصلح فصولح على ما لم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان غار عليه اكراد فارس منعوه وكان ذلك في سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أي جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرّضه على العصيان وحرّض أهل الاهواز عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصرة فكتب عمر الى سعد أن ابعث الى الاهواز بعثاً كثيفا مع النعمان بن مقرّن وعجّل وابعث سويد بن مقرّن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له : وكتب بمثل ذلك الى أبي موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرّح الى الاهواز جنداً كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبي سبرة ابن أبي رهم فخرج النعمان في أهل الكوفة فاخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهر تيرى فجازها ثم جاز سوق الاهواز وخلّف حرقوصا وسلمى وحرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدّة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم بتستر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فامدّهم بأبي موسى والظاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم شهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز في غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزأة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من

أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينة فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرّ الى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج أبو سبرة فى أثر الفلّ الى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر فكتب عمر برد أبي موسى الى البصرة وان يسير زرّ بن عبد الله بن كليب الى جندى سابور وأمّر على جند البصرة المقترِب الاسود بن ربيعة أحد بنى ربيعة بن مالك

ثم ان أبا سبرة أوفد الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً فى ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس فى المسجد غيره: فقال الهرمزان أين عمر: فقالوا: هو ذا: فقال أين حرسه وحجابه: قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغى ان يكون نبياً: فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان: قالوا نعم: فتأمله وتأمل ما عليه وقال: الحمد لله الذى اذل بالاسلام هذا وأشياعه يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ثم قال هيه يا هرمزان كيف

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله: فقال يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا: فقال عمر انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

هذا هو القول الحق الذى لا مراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الاّ التفرق وما مهد للمسلمين سبيل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوّة والوئام هذا على اعراقهم فى البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا فى مناحي العمران لما تطرّق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن سلِّط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الاعداء وتناسوا أيا رباه روابط الاخاء التى ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعدُ فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وأفقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير فى النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرّقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية التى تمزقها الاعداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها فى حماها المتغلبون وهي مستغرقة فى بحران الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لا تلتمس لها مخرجا من هذا الضيق ولا تفتأ تعبد رؤساءها الذين

قذفوابها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به فى قدح غليظ فقال لومت عطشاً لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه : فأكفأه فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لى في الماء انما أردت ان أستأمن به فقال له عمر : انى قاتلك : قال : قد آمنتنى : فقال كذبت : فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته : قال ويحك يا أنس انا أؤمن قاتل مجزأة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك : قال : قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه : وقال له من حضر مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله ولا أنخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء الي هذا الحد والله أعلم

خشي عمر رضى الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم فى فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى : فقالوا لا مانعلم الا وفاء وحسن ملكة : قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس : فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون الا ما كان من الأحنف بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين أنا أخبرك انك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى

أيدينا وإن ملك فارس حي بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت انا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسيح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشا : فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الامر عن حقه ونظر فى حوائجهم وسرحهم . وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند فتحرك فى نفسه أن يأذن بالانسياح بعد ان كان متوقفا فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطانهم

قدمنا ان أبا سبرة ذهب فى أثر المنهزمين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه فى ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلمت ودخلت فى حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم : قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم فى ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها وقد غلبوا على مارأيتم وليس يلقون جنداً الا فلوه ولا ينزلون بحصن الا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك . قال فليكفنى كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فانى أرى ان ندخل فى دينهم . وانما أمرهم بان يكفوه الجند تلافيا لما عساه يحدث منهم

فيما لو أسلم أشرافهم فلبّى الرؤساء أمره ثم وجّهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى فى عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له : انا قد رغبنا فى دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء (١) ويعقد لنا الامير الذى هو فوقك بذلك : فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا : قالوا لا نرضى : فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه ان أعطهم ماسألوه ورأى منهم مرة تقصيراً فى الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه ان ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء وأكثر شئ أخذه العرب : ففرض لمائة منهم فى ألفين ولستة منهم فى ألفين وخمسمائة فقال الشاعر

ولما رأى الفاروق حسنَ بلائهم وكان بما يأتى من الأمر أبصرا
فسنّ لهم ألفين فرضاً وقد رأى ثلاثمئينَ فرض عكٍ وحميرا

وفى هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضى الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتى من قبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذى أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضى الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

﴿ خبر جندى سابور ﴾

(وأمان عبد امضاه جيش المسلمين)

روى الطبري ان أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ولعله باشرف العطاء أى اعلاه أو بالاشراف من أهل العطاء. والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية وسيأتي الكلام عليه فى هذا الكتاب

جندى سابور وزرّ بن عبد الله بن كليب محاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث أهلها فحار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان ما لكم : قالوا رميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا : فقال المسلمون ما فعلنا : فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا : فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم : فقالوا انما هو عبد : فقالوا انا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدّل فان شئتم فاغدروا : فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم انّ الله عظّم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا مادمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم : فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم يعلم هذا العبد من اخلاق أولئك الفاتحين السامية انهم يجيزون أمانه وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه بالامان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتتبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤنة التهجم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب فى أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور

(الانسياح فى بلاد فارس)

أشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح (١) الجيوش الاسلامية فى بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس وقد انتهى

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى رأي الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعدّ لذلك العدة وقسم الجيوش وأمّر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أباموسى الاشعريّ ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة أي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه وبعث بألوية من ولّى مع سهيل بن عديّ حليف بني عبد الاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس: ولواء ازدشير خرّه وسابور الى مُجاشِع بن مسعود السلميّ: ولواء إصطَخر الى عثمان بن العاص الثقفيّ: ولواء فسا ودار بجرد الى سارية بن زنيم الكنانيّ: ولواء كرمان مع سهيل بن عديّ: ولواء سِجستان الى عاصم بن عمر: ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبيّ: فخرجوا في سنة (١٧ هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكُوَر فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدّهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة: فأمدّ سهيل بن عديّ بعبد الله بن عبد الله بن عِتبان: وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النَّضر وبعبد الله بن أبي عقيل وبربعيّ بن عامر وبابن امّ غزال: وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعيّ: وأمدّ الحكم بن عُمَير بشهاب بن المُخارق المازنيّ

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس سنين أعني الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية بلوخستان أي السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند واحسن الفتح فتح خراسان: فاما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا نرجئ الكلام عليه الى سيرة الأحنف بن قيس: واما فتح نهاوند فنذكر طرفاً

من خبره هنا لأهميته ولكثرة ما عاناه المسلمون في هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدّة العدوّ وعدّته فنقول نقلا عما رواه الطبري في تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذي هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش في نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا الجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى ما وبذان حلوان كتب بذلك الى سعد بن أبي وقاص وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم في الامر فمنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى ان يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفّان (رض) فانه قام فقال (١) بعد ان تشهد أرى يا أمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرتَ بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضي بهم البحث لاختلافهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه أحدهم رأي الآخر ولا يتطاول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الأدب والرزانة فان قبل كان بها والا فلغيره أن يقول ما يشاء

وعندك . قل في نفسك ماقد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر . يا أمير المؤمنين انك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فاشهد برأيك وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال

ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فتكلموا : فقام علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال

أما بعد يا أمير المؤمنين فانك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم . (٢) وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم . وانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك الارض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مدداً لهم . ان الاعاجم ان ينظروا اليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك . واما ماذكرت من مسير القوم فان الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره . واما ماذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى

(١) يريد لا تبالي بنفسك اذا أصيب العرب بشيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره الصحابة ورأوا لزوم اعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على المسلمين (٢) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم يسيرون الى الشام حيث لا يبقى الا النساء والاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر :

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن علي الارض من أطرافها واكنافها ولئن نظرت الي الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر غداً واجعلوه عراقياً : قالوا أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة وأنت أعلم بأهل العراق : فقال أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنة اذا لقيها غداً : فقيل من يا أمير المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن المزني ! فقالوا هو لها :

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمدهم بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت أحب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال . واليك كتاب النعمان الى أمير المؤمنين ومنه ترى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم

أما بعد ان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزني نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند

فكتب اليه عمر أن ائت الناس بنهاوند فانى قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه فاني قد كتبت الى أهل الكوفة ان يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمّع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقي بالنعمان فتكون له امارة الجيش وكتب الى سلمى بن القين وحرملة بن مُريطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمى وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر انّ معك حد العرب ورجالهم فى الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم فى العلم بالحرب واستعن بهم وأشرب برأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولّهم شيئاً

ويعنى بالعمرين عمرو بن معدى كرب الزبيديّ وعمرو بن أبى سُلمى العنزيّ وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من زعماء العرب فى حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضى الله عنه كان لا يرى تأمير احد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم فى إبان الفتح والحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين فى البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن أبي سلمى وطليحة الأسدى

لاستكشاف حال العدو فخاف عمرو التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بان ليس بينه وبين نهاوند شئ يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرُزان وآخر اسمه بهمن جاذَويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة

وكذلك وافى أهل نهاوند كل مَن غاب عن القادسية والايام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أُريد بناء فُسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فُسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حُذَيفة بن اليمان وعُقبة بن عمرو والمُغيرة بن شُعبة وبَشير بن الخَصاصية وحَنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهَوْبَر وربعيّ بن عامر وعامر بن مَطَر وجرير بن عبد الله الحِمْيَريّ والأقرع بن عبد الله الحميريّ وجرير بن عبد الله البَجَليّ والاشعث بن قيس الكنديّ وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حُجْر فلم يُرَ بناء فُسطاط بالعراق كهؤلاء وفى هذا دليل على حسن الرابطة التى جعلها الاسلام بين اشراف العرب وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم فى ذلك سجال وفى يوم الجمعة لجأ الفرس الى خنادقهم وحصرهم المسلمون فاقاموا عليهم ماشاء الله والاعاجم لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأى والنجدة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسديّ ان يبعث النعمان خيلا تفاجئ الاعداء فى خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجرّدة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما أخرجوا انكص ومازال يتأخر ناكصا شبه المنهزم حتى اقترب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبية فاخذ يمر على الصفوف ويحرّض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط وسال الدم فى أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين فى الزلق وزلق فرس النعمان فى الدماء فصرعه وتناول الراية نُعَيم ابن مقرّن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا فى الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرّن وقدّم القعقاع قدامه فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع فى أثره وأخذه ولما بلغ الفل همذان جاءت خيل المسلمين فى آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خُسْروشنوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبي وان لا يؤتى المسلمون من قِبَلهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فاقبل كل من كان هرب واطمأن الناس

وقتل فى وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال ان ممن قتل يومئذ طليحة الأسديّ وعمرو بن معدى كرب الزبيديّ ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وجمعوا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١) وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فاعطاه حذيفة ذلك فأخرج له تلك الذخيرة فى سفطين (٢) وهي جوهر ثمين

(١) امين المال والغنائم (٢) قال في القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اه قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو مايسميه الشاميون الآن العدل أو الكيس وما يسميه المصريون الزكيبة

كان أعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ورفع ما بقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طُرَيف بن سهم أخو بنى ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبار نهاوند فلما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلّت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القوّاد يحزن حزنا شديداً اذا أصيب أحد منهم

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت فى المسجد وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسَّفَطين وأخبره خبرهما وان الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر: يامليكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه: فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة ملايين)

هذه هي العفة التي قلّ أن تكون فى بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال للهرمزان ان عمر ليس بنبي ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقاً ان هذه الاخلاق أخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها والا فاي حرج على عمر رضى الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقاً بأخلاق النبوّة المحمدية مخلصاً لله فى السر والعلانية ليس له رغبة فى غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغناهم وراحتهم فرضى الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسماها ومن للأمة بعمر ثانٍ

يرداخراها الى أولاها ويبذل نفسه في سبيل سعادتها

ثم لما جيء بسبي نهاوند الى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقي منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي: وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعدُ فنسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الامان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الامان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم لا يُغيَّرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة [1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقرَوْا (أضافوا) جنود المسلمين من مرَّ بهم فآوى اليهم يوماً وليلةً ونصحوا. فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة. شهد القعقاع بن عمرو ونُعيم بن مقرّن وكتب في المحرم سنة ١٩

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود أهل الذمه عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على أنفسهم للذمي " المنعة أي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب ومن كل من أراده بسوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح وهذه هي العلة في انّ الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ من أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ومما يستنبط من هذا الكتاب انّ العرب لما أمعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا باصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الأمم التجارية والحربية اجبارياً على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض ابن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لانا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لا سيما اذا أضفنا اليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رأيت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذى عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان أحد ابطال المسلمين وهو سماك بن عُبيد العبسي أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم منّ عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تابعاً لعامل الكوفة فاختبر اخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال

يامعشر أهل الكوفة أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع . بخل وخب (أي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز :

وانما أحببت ايراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضى الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضى الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفي هذا من المشقة ما ربما يبطئ بنا كثيراً في ابراز هذا التاريخ على أن الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل أحياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

﴿ فتح الجزيرة ﴾

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يدي عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عياض بن غنم [1] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنا ذكرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وأن عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بان يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو سعد وقيل أبو سعيد وابو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة بالشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلا شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لانه كان يطعم الناس زاده فاذا نفد نحر لهم جمله وكان اسلامه قبل الحديبية رضي الله عنه وارضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابيـة شخص للسلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الامراء فطلب أبو عبيـدة من عمر رضى الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة فى طاعون عمواس سـنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنّسرين وأضاف اليه الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسي وسـعيد بن عامر بن حذيم الجمَحِيّ وصفوان بن المعطّل السلمى ويقال وخالد بن الوليد والاصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفى هل سار من قبل سعد وهو فى العراق أم من قبـل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرها (أورفا) ونصيبين وحرّان وسـميساط وسـنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب [1] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجازها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ فولى عمر مكانه سـعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الا قليلا حتى مات فولى عمر عمير بن سـعد بن شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أباه سعد

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم اهـ وهو المقصود بقولهم أدرب أى دخل الدرب

يوم القادسية

ففتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الخابور ويصب فى الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ الناوسة وآلوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو ما فوق الانبار فلما اجتمع عمير وسـعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضى الله عنه أعطى كتباً فى الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم معنا فى أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران فى عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة اصلاح الطرق والجسور وها نحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرُّها وهو بنصه عن فتوح البلدان

(بسم الله الرحمن الرحيم) هـذا كتاب من عياض بن غنْم لاسقف الرُّها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا اليّ عن كل رجل ديناراً ومُدَّي قمح فانتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيداً

باب

فتح مصر وبرقة

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً فى فتحها لانه جاءها مرة فى الجاهليـة ورأى من ثروة اهلها وسهولة أمرها ما أطمعه فى فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية في سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهوّن عليه أمر مصر ورغب اليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الامر لان جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهّز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر وسيأتي الكلام على هذا في سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا يدافع الا دفاعاً خفيفاً ثم الى بُلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده بأربعة آلاف آخرين وكتب اليه اني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف . الزبير بن العوام . والمقداد ابن الاسود . وعُبادة بن الصامت . ومسلمة بن مخلد . واعلم ان معك اثني عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر الفاً من قلة :

كان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودّون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين أهلها ومازال والياً عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد رأينا ان نرجئ تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه اهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب : اما بعد فانا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين افريقيا [1] تسعة ايام فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل : فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهري وعاد وسنذكر ذلك في سيرته ببيان أطول ان شاء الله :

انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

باب

تعبية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفننهم في أساليب الحرب ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر انّ الجغرافيين سموا القارة كلها بهذا الاسم بعدُ من قبيل تسمية الكل باسم الجزء

اعلم انّ العرب أمة حربية قلّ أن يماثلها فى ذلك العصر شعب من الشعوب فى الشجاعة والاقدام والتعوّد على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلّم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الاّ انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أى آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم فى الحضارة وعراقتهم فى الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس فى واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لمّا دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا فى قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوّة رائدهم فى كل مكان

فمن ذلك انهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون فى داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم رداءً أى مدداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدوّ من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعند مسير الجيش الى اصطخر لانقاذ العلاء حيث قامت المسالح من البصرة الى الاهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لا يحاصرون مدينة ما لم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت فى فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وبعث عَلْقَمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبى سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدأون العدو بالقتال فى أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك فى عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون أن يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم ما دون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر انما تأتّى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم واضعاف قوّتهم فى هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم فى اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أرادها مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً: ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد فى فتح دمشق واستعمال التأني والحيلة فى الحرب توصلا للفتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الارطبون بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على ما لم يقف عليه بواسطة الرسل

وكما صنع عبادة بن الصامت فى فتح اللاذقية باظهاره القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك فأدربت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فاسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش وبين الردء الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لا سيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد فى الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من أعاظم قواد الجيوش فى العالم هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم فى المهالك والتريث فى الحرب والتبصر فى أمور القتال الى غير ذلك مما مر بيانه فى هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

وأما تعبية العرب للجيوش فى إبان الفتح الذي مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق منا ذكره فى هذا الكتاب من تعبيتهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة في تعبية الجيوش التي تشبه بها من كل الوجوه تعبية الجيوش فى هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو فصاروا فى الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون فى المراتب فمنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبية كامير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الميرالايات الآن) ويليهم امراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وامراء الاعشار (الجاويش) والنقباء ولعلهم رؤساء المائة وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذي يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضي وأمير الاقباض أى الذي ينتهي اليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان

والكاتب والاطباء لمداواة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه انّ خالدا بن الوليد عبّى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعبّ العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عدي على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش وأما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميري والسمط بن الاسود الكندي وضرار بن الازور الاسدي وجارية بن عبدالله الأشجعي واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حباً بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء والقاص (١) أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قباث أشيم الكناني وكان على الاقباض عبدالله بن مسعود وكان القارىء المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك وأما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري انّ سعد بن أبي وقاص قدر

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصه ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه بأخبارهم

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمّر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجالا كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم: قال الطبري وكذلك كانت الى ان فرض العطاء: وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشّر الناس وأمّر على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل في الاسلام وولّى الحرب رجالا فولّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجالها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فأما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبدالله بن قتادة بن الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب: واستعمل على الميمنة عبدالله بن المعتم: واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره في ذلك في سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمري على الساقة وسوّاد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الاسدي وعلى الركبان عبدالله بن ذي السهمين الخثعمي فكان أمراء التعبية يلون الامير (أي بعده في المرتبة) والذين يلون أمراء التعبية أمراء الاعشار والذين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل: قال الطبري وبعث عمر الاطبة (١) وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم (٢) ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجري والكاتب زياد بن أبي سفيان

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اي الذي يدعو الى دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم مواضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نخال ان تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق[1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها فى حروبهم معهم كما رأيت ذلك فى الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما انهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ فى قلوب الأمم كما رأيت ذلك فى أخبار الفتح يضاف اليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة واقامة المسالح فى الاطراف التى يأتى من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالاخبار وشحن الاماكن المخوفة بالجنود واقامة الحراس على المناظير التي توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التى يقبل منها العدو . وبالجملة صرفه العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز علي المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك فى هذا الكتاب . ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الأخروي الذى كان يحبب اليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء : وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش

(٣) الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان كما في القاموس

ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

كل هذه من الاسباب التى رجحت جانب المسلمين علي جانب الاعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذي وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم علي كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهرمزان وهو : انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا : وحسبك فى مهاجمة الأمة العربية لدولتي الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل في أحشاء المملكتين القديمتين فى آن واحد ومهابتهم التي خامرت النفوس دليلا يؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهدا يشهد بفضل الاسلام الذى جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التى ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع : هذا وأما أصول التجنيد فى عهد عمر (رض) وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وانما نجتزئ عنه بما يأتى

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الاسلام الآ انه من فروض الكفاية التى اذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة بنى التجنيد فى الاسلام فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جنديا له حظ فى الفيء والغنائم واستمر ذلك فى ولده الى ماشاء الله ولا يؤخذ من هذا أن الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضاً اجبارية وللخليفة اذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى بين الناس في قسمة الفيء ويضرب في المغانم للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وسهم له وللراجل سهم ولا يفضل الخيل

بعضها على بعض وبقى الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أى الى سنة (١٥) حيث دوّن عمر الدواوين وفرض العطاء كما ستري في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة الفئ بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبرى ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى ان أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلثة لاف ثلثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ومن ولى الايام قبل القادسية (أى الحروب التى كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لاهل البلاء (أى الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هى الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوّى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل للصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت اعطيات الجند في ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) الديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضى الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضي الظروف والاحوال كما ستري بعد. وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوّى بين الجنود الاعاجم من الفرس والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم في طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما ميز بعضهم أحياناً في العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسى وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك في خبر فتح تستر والسوس

وكانت أصول اعطاء العطاء لاهله على ما في رواية ابن جرير الطبرى هكذا يدفع العطاء الي أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله في دورهم : ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفئ وحكمه سيأتى في باب آثاره في الخلافة ان شاء الله

باب

(علائق عمر مع الملوك)

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفى رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد في بلاده وتدوخ ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذى انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثانى المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الاول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١هـ) وتولى الملك ابنه المذكور في هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رض) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثانى فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يومئذ بين الفريقين ان كانت تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة

وانّ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر وردّه الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال وأما الطبري فذكر ان امّ كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبريّ بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله . فكتب اليه أحبّ للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها . الى أن قال بعد ان أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما . وبعثت امّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحفاش من احفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد الى عمر أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لام كلثوم . فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال ورد على امّ كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل ان مسالمته خير من مناواته ففعل وكان من الناعمين

باب

(أهم الاحداث في عصره)

أهم الاحداث في خلافة عمر رضي الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فاما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبري انه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكاً ذريعاً ومات به في الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس انّ هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس أنّ عمر خرج في تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سَرْغ وافاه أمراء الاجناد في الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أنّ رجلاً هبط وادياً له عدوتان (ضفتان) احداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذا أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندي من هذا علم : فقال عمر فانت عندنا الامين المصدق فماذا عندك : قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم [١]

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم أن طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي أصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصاً اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الى هذا ملل القوم من الحرب واخلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرمادة فسمي بذلك لريح كانت تسفي تراباً كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى أن لا يأكل سمناً ولا عسلاً حتى يحيى الناس ويكون واياهم

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

سواء بالخصب والجدب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً عكة سمن ووطب [١] من لبن فاشتراهما غلام لعمر باربعين درهماً ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهماً فقال عمر تصدق بهما فاني أكره ان آكل اسرافاً وقال كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يصبني ما أصابهم وكتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام الى المدينة وبعث أمير الشام باربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا انه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لان عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذي توفي به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا ارسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وانما كان فتح مصر بعد الطاعون اذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذي دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم انما هو عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الاثير ان عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وانما أرسل الطعام في البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر وسنستقصي الخبر عن ذلك في سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا معه العباس رضي الله عنهما ففرج الله على الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال فسقت الارض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة والحديث

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن أي وعاؤه

الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لانحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء في كتب المحدثين

باب

﴿ آثاره فى الخلافة ﴾

(كتابة التاريخ الهجرى)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك فى الاسلام الى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال فى الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أى يوم نكتب التاريخ فأشار عليه علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التى كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء [1] وأما المغانم والفئ فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفئ في الاسلام ووجوه صرفه التي أبانها

يحوج أخماسها التى يبعث بها الى المدينة الى صرف العناية فى ترتيب الشؤون الادراية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم وانما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون فى الفتح وانتشروا

الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنها تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لامحل لبسطها هنا وهي ليست كالفئ من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمي الله عز وجلّ في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقدذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لايقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين: في كلام طويل يرجع اليه من شاء في كتاب الخراج وانما نقول هنا ان الأمة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن وأيّ شريعة في العالم تقضي على الامة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأيّ شريعة في العالم تأخذ من الاغنياء قسماً من مالهم لتشتري به الارقاء وتجعلهم أحراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فانا لله وانا اليه راجعون

في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفئ من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قِبَل لهم باحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديوانا وجنّدوا جنداً [1] فدوّن ديواناً وجنّد جنداً : فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطيّة كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كُتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسببه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

عن أحد كتاب الروم أمراً ساءه فأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله ان يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله له الى العربية هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زادان فرّوخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردان شاه بن زادان مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة سترد في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تختلج في جسمها فتدير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتّاب الغريبة عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وانما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران اذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الامر كما لم يروا مانعاً في الدين يمنعهم من مباراة الأمم في أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس . ومن البلاء ان ألصق بعض الفقهاء بعدُ كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرّموا على الأمة العمل بأي شيء نافع ما دام

لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمحلاً . ولو كان الدين يضيق على هذه الامة الى الحد الذي توهمه أولئك الفقهاء لما قلد عمر رضى الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية نحو ذلك واذا قيل ان عمر رضى الله عنه مجتهد له أن يفعل ما يرى فيه المصلحة وعلى والأمة أن تعمل فكيف ساغ مثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغي لاحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه .

اللهم ان طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقي في مراقي الكمال وشأن الامم هذا شأن الأفراد في إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذ الله أن يرضى الاسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب وانما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شئ بصبغة الدين جعلنا نحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد أن الأخذ بأي سبب نافع من أسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين حتي بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله

تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق اليكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الاصول العلمية والاختبارات الفنية فخشي السلطان ان هو لم يأخذ باصول الجندية

الجديدة ولم يبارِ بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الاوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة اذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهالي المورة للثورة فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية والعسكرية وإلغاء الجندية الينيجرية ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الينيجرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير الدولة العثمانية للزوال وهو شمم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك الا فيما ندر اذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداء عن حياتهم الشخصية ولا جرم فان لكثير من أفراد هذه الاسرة العثمانية كثيراً من الايادى البيضاء على الامة وكل امرئ يذكر بفعله وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج ومازالوا يكافحونه مع الينيجرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود وكان قصاراها إهراق سيول من الدماء أنفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله ماضي عزيمته إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيجرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لا جرم أنها كانت ذهبت لا قدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلا في الغابرين ولو سئل ساعتئذ عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاجابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدولة العثمانية حرسها الله قد قدّت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ما جعلها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الأمة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الاسلامية كدولة مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ما كانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدولة الى أسباب المنعة والقوة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الأمة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الاسلام حالا وأعظمهن قوة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الاوربية في الممالك الاخرى ذريعة لمد يدها الى الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سلطانا عظيم النفس عالي الهمة محبا للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته في إعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الجناب ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء فان عمر أمر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين والنساء والاطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش: وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال عُدّةً لكون إن كان: فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي بل أعدّ لهم ما أمرنا الله ورسوله. طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم:

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر الا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون خصّ الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفيء كله أي خصصوا لهذا قدرا مخصوصا من الفيء يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار انه فيء أخذوه بسيوفهم اذ كانوا كلهم جنودا محاربين فالحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضا واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الاموال وادخارها في بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك هذا بقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لان هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفةٍ وشرهٍ وامساك وبذل

وأما الكلام على الفئ الذى هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وماهو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة فى الفائدة نقول هنا إنّ الفئ هو كل ماصالح عليه العدو بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة الا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم انّ الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفئ أى وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع مايعرف الآن (بالبودچه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة فقد روى الطبريّ فى تاريخه عن ابن عباس قال: لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعلي على ان يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) يعني من الخمس (فلله وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القسم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الاية ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الاربعة الاخماس على ماقسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثني وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً: بقوله تعالى: (انما غنمتم من شئ فأنّ لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعليّ وعمل به المسلمون بعدُ هذا ماذكره الطبرى وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

وأما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحي الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

﴿ ترتيب العمال ﴾

(وتقسيم الولايات)

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام وكان الامراء من علمنا مما تقدم فى محله فجعل امارة مايفتح من الشام الى أبي عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبي سفيان وامارة الأردنّ لشرحبيل بن حسنة وامارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه الاّ ان الامارة العامة كانت لابى عبيدة فالمخابرة والصلح وكل مايتعلق بامور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أباعبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولي جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردنّ كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته ايلياء والآخر حاضرته الرملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون ارزاقهم منها جنداً فبدلاً من ان يقولوا ولاية قنسرية مثلا يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كُوَر وروى الطبرى فى أخبار سنة (١٧هـ) ان عمر لما جاء الشام فى هذه السنة رتب الشواتي والصوائف

(أى الجنود التى تغزو فى الصيف والجنود التي تغزو فى الشتاء) وسدّ فروج الشام ومسالحها [1] وأخذ يدور بهاو استعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كلّ كورة (أى على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق اوغيرها)

وجعل أباعبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان وعلى الاردنّ معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مجَزّز وعلى الاهراء [2] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر فى فتوح البلدان أن معاوية كتب الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [3] واتخاذ المواقيد لها

---

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفئ

(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناطيز هى قباب مبنية على رؤس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند مايرون اقبال العدوّ من جهتهم فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أوالثغر أو المسالحة فى زمن قليل فيسرعون لامداد الجهة التي أقبل منها العدوّ ولم تزل آثارها قائمة الى الآن فى كثير من انحاء سورية وقد شاهدت بنفسى المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماه الى مافوق ومعظم الموجود من بقاياها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجراكسة التي شيدوها فى أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناء عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عُتْبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعرى وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عمالة عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد مابين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلي فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضي بين الناس كما رأيت فى باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي الغنائم فاذا افتتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض فى حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره وقد مربيان ذلك فى غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى ان ذلك الترتيب هو غاية فى اصابة الغرض وبعد النظر فى تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر وربما نحا عمر (رض) فى بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ ساذجاً ثم ترقّى بترقي المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البغلية وهى دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨ هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وجملها فى أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي فى النقود الاسلامية الا ان عمر (رض) لم يضرب الدينار وانما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك فى سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله: وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شئ بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولا الى الوقوف على نسبة حقيقية لاجور العمال بالدرهم فى صدر الاسلام ليقاس عليها مثالها فى هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثالها فى هذا العصر وكل ماقيل من هذا القبيل اذا لم يبن على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شئ لان الدرهم من الفضة دنئ القيمة الآن اذ ربما ساوى كل أربعين درهما باعتبار الوزن دينارا والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكا و ١٦ فرنكا وهذه القيمة ربما كانت فى بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفى بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال الى الثمانية من ذوى المهن لا ما يسمونه العامل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان تكون قيمتهما الاعتبارية فى صدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أغلى وربما كان الدينار أجرة عشرين عاملا أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم الا من تحقيق عمل العامل فى ذلك الوقت وعسانا نتوفق الى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية فى خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التى بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهى أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على مايقال من وضع الفرس والذى رتبه دارا ملك الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما نأتي على شئ من تفصيل خبره فى غير هذا المحل

ثم استعمل فى الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية وبني العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد فى الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل معاوية اذ قد جاء ذكره كثيرا فى سيرته ومنه مامر فى فصل علائقه مع الملوك عند ماقال عن الرسول الذى أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفى مناقب عمر للامام ابن الجوزي أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه ألا ان بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه فى الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أنّ أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن علي الوجه الذى كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه فى عصر الامويين والعباسيين وانما هو بدىء ساذج ثم ترقى بترقى الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصّرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عُتْبة بن غزوان بامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان فى مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصّرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبى وقاص وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق فى الكوفة والبصرة فارسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه فى البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وكتب الى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان فى المدينتين أخلوا بذلك الاصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا فى البناء فى الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه وانما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق فى البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد فى مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

(التوسعة فى المسجدين)

فى سنة (١٧ هـ) حج عمر (رض) فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم فى بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التى على الطريق بين مكة والمدينة فى ان يبنوا منازل فى هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم انّ ابن السبيل أحق بالظل والماء . وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

(جملة مآثر)

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدرّ عليها الارزاق : عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به وفى بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا بالطريق بين الشام والحجاز. (ومنها) انه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التى وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر فى عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها فى سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمى (ومنها) ما تقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا فى سيرة سعد ابن أبي وقاص رضى الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما نأتي على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله فى غير هذا الباب ان شاء الله

باب

(أخلاقه ومناقبه)

سياسته وعدله

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الامة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقوفهم على حقائق الدين وإشراب قلوبهم حب الايمان والفريق الآخر الذين لم تمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا ينتزعه الا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبي بكر خوف النزوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ولو لم يقابل شدته اغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما انه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الاسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه الا انه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر

ما يوازي الضرر الذي كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك في أوائل خلافة عمر (رض) وانما خف ضرر تلك الفتن بعد لان الاسلام كان ملأ أكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بامور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذي استحال ان تدك أساسه عواصف الفتن في خلافة عثمان وعليّ ومعاوية رضي الله عنهم وانما كان الفضل في هذا لعمر بن الخطاب الذي أخذ على الأمة سبيل النزوع الي الجاهلية الأولى ودفعها في غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها وربّاها على الخضوع لأولى الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل انّ علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيونا حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء [1] ويا ويح العامل الذي تبدر منه بادرة أذى لاحد من

(١) هكذا حال الدول عند ما تبدأ في سلم الصعود ومتى انقلبت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأسا على عقب فجعل الامراء العيون على الرعية لا على العمال ليكونوا عونا للولاة على الرعية كما هي الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لا يستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى أوغل الولاة في الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتشر أمر الدول الاسلامية في الشرق والغرب واختل الملك وقوي عليها العدو ويا ويح من تبدر منه بادرة شكوى من هذا الخطب فانه للحال يزج به في ظلمات السجون أو ينفى من الارض وهذا ما جعل الامم الاوربية لهذا العهد تتسلط على الممالك الاسلامية وترمي المسلمين بوصمة العجز عن ادارة شؤون الحكومات

الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لا يشعر فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقادله الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمر بن مرة قال : لقى رجلا من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك ظلم . قال لا . قال فزادني الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبدالله بن جبير انه سمع عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلّم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر : فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني : وأخرج بن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر : فاين المخرج وقام يبكى يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك : والظاهر ان عمر رضى الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الامم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود ولقد شافهني مرةً أحد علماء الالمان بكلام من هذا القبيل علمت منه مرتبتنا في نظر العالم المتمدن بين الامم وكنت والله لا أعلم اننا انتهينا في نظرهم الى هذا الحد فانّا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا ما رواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال : كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب فى ان يلين لهم فانه قد أخافهم حتى أخاف الابكار فى خدورهن : فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال : يا عبد الرحمن انى لا أجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتق : والذى زاد عمر هيبة فى النفوس انه كان لا يراعى فى الحق كبيراً ولا يمالئ شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضى به الضرورة السياسية وهذا فيما لا يُمَس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الايهم ملك غسان فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره أعرابيّ من بنى فزارة فضربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له امّا ان ترضيه وامّا ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرّقون بين الملك والسوقة : قال لا قد جمع بينكما الاسلام : فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفرّ بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية واقادتهم حتي من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ومن بدائع أخباره فى انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله فى حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم : قال عذت معاذاً : قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين : فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر أين المصريّ خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصريّ ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً : قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى (يعنى) المصرى

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علّم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا أمير الآ دون الشريعة حتى نفسه رضى الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الاّ كواحد من الناس فقد جاء فى كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبَىّ بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحَكَم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى فجلس بين يديه فادعى أبيّ وأنكر عمر فقال زيد لأبي أعف لامير المؤمنين من اليمين وما كنت لاسألها لاحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لا حلم أحب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يُعطى الظفر فى أمره والذل فى الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية وخلا : هذا فقد كان رضى الله عنه حريصا على ان لا يشكى منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنكب طرق الخطأ أو الجور حتى بلغ به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير انّ عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترّخصت فى بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قوّمناك تقويم القِدْح (وهو السهم المعوج قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيباً الآ عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الادمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله يديل بين بردين أى يلبس قميصا ويخليه ويلبس غيره (وذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوما فقال . أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

الآ انني لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لا خطبة . وأنت ترى من هذه الاخبار الى أيّه درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم انهم انما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية التى ما تقيد بها قوم الا ضربتهم بالهلاك وسوّدت عليهم الامم كما سوّدت الغربيين الآن على مائتى مليون من المسلمين اتخذوا رؤساءهم أولياء من دون الله فقذفوا بهم الى هوّة الدمار وأقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار .

وفى كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبديّ قال قال عمر بن الخطاب أيها

الرعية إنّ لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيء أحب الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيء أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الاعمال وان لهم ماتكنه السرائر ماجاء في كنز العمال أيضاً من حديث عتبة بن مسعود قال. سمعت عمر بن الخطاب يقول . انّ ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانّ الوحي قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته . ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة . وانما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيها لهم الى انه مراقب لاعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مجاشع قال . قال عمر بن الخطاب القوة في العمل ان لاتؤخر عمل اليوم لغد . والامانة ان لاتخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه .

وهكذا رضي الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤف يواليهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوي والعدل والتألف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشاً فانه كان لاينام لهم على أمر ولايدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أنّ عمر قال لناس من قريش بلغني انكم

تتخذون مجالس لايجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله انّ هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهم ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي واحسوا مني ولا ادري بأينا يكون الكون وقد اعلم انّ لهم قبيلاً منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الا بعض القواد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به كرهه للايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال: كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فاذا نحن براكب: قال عمر أرى هذا يطلبنا: فجاء الرجل فبكى: قال ماشأنك ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الا ان تكون قتلت نفساً فتقتل بها وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم: قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وانّ أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لاتجالسوه ولاتؤاكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث، اما ان اتخذ سيفاً فاضرب به أبا موسى. واما ان آتيك فتحولني الى الشام فانهم لايعرفونني . واما ان الحق

بالعدوفاً كل معهم واشرب . فبكى عمر وقال مايسرني انك فعلت وانّ لعمر كذا وكذا واني كنت لاشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ماصورته

سلام عليك أمّا بعد فانّ فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله اني ان عدت لاسوّدن وجهك ولأطوفنّ بك في الناس فان أردت ان تعلم حق ماأقول فعد . فأمر الناس ان يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أى أركبه) واعطاه مائتى درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه باهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شئ عنهم يستدعى ذوى امانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال معهم ومن ذلك مارواه الطبرى في تاريخه ان عمر (رض) كتب الى أمير البصرة ان يبعث له جماعة من ذوى الرأي والبصيرة فارسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فاجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل مايؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ماجاء في كنز العمال انّ عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ماأنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال مايصلحه

ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بان لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه انه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرّقني أن لاخليل ألاعبه
فلولا حذار الله لاشئ مثله لزُحزح من هذا السرير جوانبُه

فكتب عمر الى عماله ان لايغيب أحد بالغزو . ونعم الرأى

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألاَ لايجلدنَّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته انه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من ان يدنسه بالولاية فقد اخرج ابن سعد عن عمران بن عبدالله قال : قال أُبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لاتستعملني : قال اكره ان تدنس دينك

ومنهم من لا يستعمله خشية ان يحمله على رقاب الناس أو خشية ان تحدثه نفسه بالامارة اذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرّسه فيهم من التطلع الى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبدالله بن عباس أنّ عمر أرسل اليه فقال يا ابن عباس انّ عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت ان تكون منهم وفي نفسي منك شئ لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل قال لن أعمل حتيّ تخبرني بالذي في نفسك . قال وماتريد الى ذلك . قال أريده فان كان شئ أخافه على نفسي خشيتُ منه عليها الذي خشيتَ وان كنت بريئاً من مثله علمت اني لستَ من أهله فقبلت عملك هنالك فانّي قلّما رأيت أو ظننت شيئاً الا عاينته : فقال يا ابن عباس اني خشيت ان يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم :

اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركهم : قال (اي ابن عباس) والله قد رأيتُ من ذلك فلم تراه فعل ذلك: قال (أي عمر) والله ما أدري أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بدّ من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك قال: (أي ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشر عليّ ! قلت اني أرى ان تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع في البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الأول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد في أرضيهم ويضيقوا عليهم في معيشتهم والامر الثاني كي لا يألف الجند الاعمال في الارض في إبان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لامة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كي تبقى الارض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتهدم مادة القوة عن الدولة الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال ما يكفي لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد ، وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه في غير ما محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة باهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفي باب اجلاء عمر لاهل نجران وستري في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع اهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حاثّاً للعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بختم رقاب اهل الذمة من الفرس بالرصاص والثاني تقدمه الى العمال ان لا يحدث النصارى في امصار المسلمين (اي التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على انّ هذين الخبرين وما شابههما قد وهّن روايتها اهل الحديث وحفاظه وقالوا إنهما موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما بالالفاظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف . ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ما هو الباعث لفريق الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يا أيها الناس انّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين او الجاهلين ان يدسوا ما شاؤا في الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه وانما جرّ بلاء التشيع ونفث روح التفرق وانسى المسلمين اصول التألف والتحابب حتى بين أنفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والأخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وانما داعي الي نقلها توهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله بارشادهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية لا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الذمي في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه اهل الكتاب على الاسلام كما أمر باكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) او عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بمصر مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل جوارهم من الكتابيين بشيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بهدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين واهل الكتاب لا سيما والمحذور الذي كان يدور في خلد الصحابة ويخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال اسبابه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الآجاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذي يأمر أهله بمباشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم ايذائهم في حال من الاحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يضعون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام

﴿ أخباره مع عماله ﴾
﴿ ووصاياه لهم ﴾

كان رضي الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مَسلَمة قاصاً أي محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا اشتكى أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا في السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مفتر فيذهب ويجمع اليه الناس في المسجد وربما طاف عليهم في أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاوند في أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أي ابن أبي وقاص) أقوام وألّبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دهَم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدي في نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الامر وقد استعد لكم من استعد وأيمُ الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (يعني الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مَسلَمة والناس في الاستعداد للاعاجم والاعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمّال الذي يقتص آثار

من شكي زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاود فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه فى السر وليست المسئلة فى السر من شأنهم اذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الا قالوا لا نعلم الا خيراً ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : الا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً الى ان قال الطبري وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسمهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبدالله بن عبدالله بن عتبان فأقره

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل فى أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتى على شيء منها فى سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق عماله فى المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف أخرج ابن جرير الطبرى عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضى الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً فى أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك فى الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

وبلغه مرة ان حرقوصاً عامله على الاهواز نزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغنى انك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمرى الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فاللهم ان خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخافه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبرى عن أبي عمران الجوني قال كتب عمر الى أبي موسى : انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف فى الحكم وفى القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون اليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي روايه ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه : قال إي والذي نفس عمر بيده اذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم اياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبري ان عمر كان يقول في عماله : اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني : ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضي الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بأمر لا يصله

---

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

خبره لهذا عزم قُبيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم : فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند همك اذا هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذا قسمت : فجعل سلمان يبكي فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت الا اداوة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لا تفل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه : قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا : فقال عمر عليّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ماتنقمون منه : قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار : فقال ماتقول ياسعيد : فقال ياأمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فاعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج اليهم : قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم في الشهر لا يخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يفلّ فراستي فيكم ياأهل حمص فاستوصوا به خيراً . ثم ان عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها الى من يأتينا أحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صرراً ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ماتكونين اليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضي الله عنه فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق سلوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانوا عادلين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بنى دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادّعى الناس عليه مالم يقل وقالوا قال سعد سكّن عني الصويت وبلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرّحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتي سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أرسل لهذا الشأن وبعث لينظر من هو فاعرفه أرسل اليه رسولاً بأن أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت :

فحلف له سعد ماقال الذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى اذا دنا من المدينة فني زاده فتبلغ بلحاء الشجر فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه : فقال عمر ان أكمل الرجال رأياً من اذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره محمد بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق ممن روى

عليه وأبلغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم يشيّعهم فاذا أراد أن يرجع قال: اني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم (١) ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه اليّ: ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها (٢) فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها جوّدوا القرآن: (وفي رواية) وأقلّوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال ففى المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال. كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان ابن نَضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال.

ألا هل أتى الحسناء انّ حليلَها ... بميسان يُسْقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها

لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدّم

فلما بلغ عمر قوله قال. نعم والله انه ليسوؤني من لقيه فليخبره انى قد عزلته: فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيأ مما قلت ولكن كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت. وفي رواية عن عثمان الحزامي عن أبيه قال

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جمر تجميراً جمعه والقوم على الأمر تجمعوا الى ان قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطَّول لا اله الا هو اليه المصير. أما بعد فقد بلغنى قولك

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدّم

وايم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصى اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عُتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه. قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيّره في بيت المال.

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر. وكان خالد بن الوليد أميراً على قنّسرين من قِبَلِ أبي عبيدة لا من قبل عمر ففي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجيز فدعا البريد وكتب معه الى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قَلَنْسُوَتَهُ حتى يعلمهم من أين أجاز الاشعث أمِن ماله أم مِن اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم انها من اصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال واُضمم اليك عمله. فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى اكثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال انّ أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ماتقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة اني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت انّ ذلك يروعك. ثم انّ خالداً رجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودّعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في أمري غير مُجمِل [1] يا عمر فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الانفال والسهمان ما زاد على الستين الفاً فلك فقوّم عمر عُروضه [2] فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال يا خالد والله انك عليّ لكريم وانك اليّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شئ . ثم انّ عمر كتب الى الامصار اني لم أعزل خالداً عن سُخْطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويُبتلوا به فأحببت ان يعلموا انّ الله هو الصانع وان لا يكونوا بعَرض [3] فتنة . ويقال انه عوّضه عما أخذه منه وكتب الى الناس: وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً وردّ أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بدّ أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعلّ الحامل

(١) مجمل من أجمل في الطلب أتأد واعتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أنّ هذا المال حق المسلمين فينبغى له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذى لا اله الاّ هو (قالها ثلاثاً) ما من أحد الاّ له في هذا المال حق أُعطيه أو مُنِعَه وما أحد أحقّ به من أحد الاّ عبد مملوك وما أنا فيه الاّ كأحدهم ولكنّا على منازلنا من كتاب الله وقَسْمِنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقِدَمُه في الاسلام والرجل وغَنَاؤه (كفايته) في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتينّ الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا أنّ من الاغراض التي ترمي اليها جعل الاموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك الاّ أنّ بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرق في انّ المسلمين يعتبرون هذا الحق في ثمرة رأس المال وهي الفضول وانّ الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم اليه الافراط والغلوّ كما شرحنا ذلك في كتابنا تنبيه الافهام . وبالله لو علم اولئك الناس أنّ الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وانّ أهله باتوا لا يعرفون شيأ من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربما نبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله أساسا للسعادة التى ينشدونها للانام واكتفوا فى بث دعوتهم مؤنة المقاومة التى يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿ كلمة فى الحرية والطاعة ﴾

(أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية ﴾

أخذت على نفسى أن لا أغفل فى هذا الكتاب خبراً يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم أردفه ببيان مفيد لاسيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغى ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذى هو أهم حادث فى تاريخ الحرية العربية فى الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل فى صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع امامها قوى الكون البشرى الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألاَ وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه فى كل حق من حقوق الانسانية التى سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تتحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر فى سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب لياكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه

ربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس لارادة النفس على مايعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما أن التفريط بالحرية طرف للرذيلة كذلك الافراط فيها أيضا وفى كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقد لفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فأمّا القيد النفسي فهو إمّا الزاجر الديني وإمّا الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففى مطاوعة الارادة للزاجر النفسيّ مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أُرشد اليها وحُثّ عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاغراق فى الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خُلُقٌ تأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط نشأ مايسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا أشتاتاً في التجزؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس وليس ثمة وازع يضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفزعون عند الحاجة الى العصبية بان تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصداً للغارة أو جلباً للمغنم ومع ما في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وفقد الرابطة القانونية فانهم كانوا به ولِعين وعليه

حريصين لانه نتيجة مغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد. ولما جاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة في الاسلام وهو أبو بكر (رض) في احدى خطبه التي مرّ ذكرها في الجزء الأول « أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحضاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » أن يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت البداوة أصلاً في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يضم أشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغني عن العصبية مع استبقاء ما ألفوه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضى بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة اوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الآلهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتنحل وشتان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تني أو تنحل وتهوي بالدولة الى حضيض الاضمحلال وتعاجلها بالانحلال

لمّا علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فألفوا اطاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه بأمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صل) فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ما سأله حتى أجاب فأعاد قلنسوته الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولاتنا (يعني عمر) ونفخم موالينا (١) « يعني خالداً » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي أسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين هذا على ما عرف به من علو النفس

(١) المولى يطلق على السيد وعلى العبد

وإباء الضيم

أسكته أمران الأول علمه أنه لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على أمره بل هو حر في أنّ يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر (رض) ولولا أن يعلم خالد أن له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها الا الحق لاستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلاً على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة الا انّ يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لشبه الضمائر وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً فخطب فيهم خطبة في شأن العطاء : رواها ابن الجوزي في المناقب : قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (بن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سله رسول الله «صل» ووضعت أمراً نصبه رسول الله «صل» وقطعت رحماً وحسدت بن العم

فقال عمر (رض) انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك .

ثم نزل ولم يزد على ان ردّ عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية ما يقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنانه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك ما دام لا أمر يومئذ للقوة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بفريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعليّ رضي الله عنه قولهم المشهور « لا حكم الا الله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الامر الى فنائهم كما سترى بعد

اذا تم هذا علمنا انّ حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وانّ الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدها مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وفلّ جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ومذ اختلط العرب بالاعاجم وابذعرّوا في أطراف البلاد وتفرقوا على قلتهم في الممالك وضعفت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً اذ لا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الأمة أفئدة تهوي الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقي الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت أعضاءها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الاوربية فى مضمار المنافسة الحيوية ولكن يالحرقة الفؤاد قومنا فى واد والغربيون فى واد

(حضه الناس على الكسب)

الانسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس فى الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق فى الطلب والاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق فى الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي أمضى واذ كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ما جاء فى كنز العمال عن معاوية بن قرة قال : لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون : فقال كذبتم ما أنتم متوكلون انما المتوكل رجل ألقى حبه فى الارض وتوكل على الله . وفي المناقب لابي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى علي ومعي رزيمة لي فقال ماهذا معك فقلت رزيمة لي أقوم فى هذا السوق فاشتري وأبيع فقال يامعشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامارة

وفيه عن حواب التيمي قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يامعشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال: قال عمر رضي الله عنه من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

(١) تصغير رزمة وهى الكارة من الثياب

وفيه عن الاكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدكم الى مهنة

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً فان أخطأه خيره لم يخطئه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني انّ عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتىً فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد : قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم انّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وانّ الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جلّ وعلا (فاذا قُضيتِ الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وفيه : قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حَسَبُ الرجل ماله وكَرَمُهُ دينه ومروأته خُلُقه

﴿ نهيه عن التنطع ﴾
(وتحذيره من الابتداع)

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى العبادة وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع لهذا لما انتشر الاسلام في أنحاء الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعي قال . قدم أبو مهدية الاعرابيّ من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضؤن بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة

وانما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاغراق بالتهكم على تنطع الاعاجم لانهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكونوا في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم انّ التنطع أمر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع انّ الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من الدين

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التهجد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشي عمر أن يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسعٌ في التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له ياهذا ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضرب به بخفقته وجعل يقول كل يادهر كل يادهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطعوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم ياأمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر . فقال له . مسلمة (هكذا) أمرك بهذا

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال . أما والله لولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال : اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الاثر يوافق ما تقدمناه في فصل (لاوثنية في الاسلام)

وليت عمر يأتى في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجميز في مصر والميس والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحتها فلان الصالح وتلك لمسها فلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال : ياامير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب : قال أمن كتاب الله : قل لا فدعا بالدرة فجعل يضرب بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى : وان كنت من قبله لمن الغافلين : ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم اه

(ادبه وتأديبه)

(أدبه مع رسول الله)

تقدم معنا فى باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغنى عن الاسهاب فى هذا الباب وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال فى ذلك اليوم (من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفى هذا) والقصة طويلة مر معنا فى

هذا الكتاب ملخصها

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني: وعن سفيان بن عيينة قال: قال عمر بن الخطاب أحب الناس اليَّ من رفع اليَّ عيوبي. وأخرج الطبريّ عن سلمان انّ عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر: ولَشدَّ ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأباها الاسلام وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

(تأديبه لنفسه)

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة التي قيل فيها «لَدِرة عمر أهيب من سيوفكم» ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

اخرج الحافظ عز الدين الجزريّ في أسد الغابة عن أبي غنية يحيي بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميميّ قال: قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر ابن الخطاب فلقيه رجل فقال ياأمير المؤمنين انطلق معي فاعذنى على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه: فقال: تَدعُون امير المؤمنين وهو معرض لكم حتي اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعذني اعذني: قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال « اي عمر » عليَّ الرجل « اي ردوه عليَّ » فألقى اليه المخفقة. وقال امتثل « اي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك: قال ليس هكذا اما ان تدعها الله ارادة ما عنده او تدعها الي فاعلم ذلك: قال ادعها لله: قال « اي الاحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته: قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلَمة عن أبيه قال: مرّ عمر بن الخطاب « رض » في السوق ومعه الدِرّة فخفقني بها خفقةً فاصاب طرف ثوبي فقال أمِطْ عن الطريق فلمّا كان في العام المقبل لقيني فقال. ياسلمة تريد الحج. فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فاعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انّها بالمخفقة التي خفقتك. قلت ياأمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا ما نسيتها:

هذه هي الفضيلة وذلك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وانما قصد تنبيهه الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدِرّته حد التنبيه الي إماطة الضرر عن الطريق فاين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا ايد القوّة بعدُ على الناس وتحكموا فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع: وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوّة ان كان إذا أراد تنبيههم الى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكونوا قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: انى نهيت الناس عن كذا وكذا وانّ الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الاّ اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

ورُوي عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبث ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبّله. فقال الاسديّ: أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبّلتُ ولداً قط: قال عمر فانت والله بالناس أقلّ رحمةً هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً: فرد عهده

جوزي هذا العامل بالعزل والابعاد بتاتاً عن العمل «التوظف» لكلمة قالها لعمر (رض) أحسّ منها عمر بغلاظة فؤاده فخشي إن هو عهد اليه بالعمل ان يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله: فهل كان الامراء والسلاطين من بعده

بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء انما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفاً كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفاً كعطف المرضع على الطفل

أجلْ كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيّبون الذين ساسوا وعمروا وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضّت على المسلمين فقضت على ما شيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وَأفسدَتْ اخلاقها وذهبت بعلومها وطامنت من اشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلّتها ذلاًّ ها نحن اولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل انسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلنا أموات يحسبنا العالم المتمدن من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتّى ونفوسنا خامدة الاّ عن السفاسف وخُطانا قاصرة الا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضي بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء قلت

ومن ينم عن شؤونٍ كلّها خطر ... فليس يخطىءُ مَنْ ينعيه للناس

ومن تأديبه لاشراف قريش وقهره انفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الجوزى عن الحسن قال حضر باب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرؤوس. وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج اذن عمر فاذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك. فقال أبو سفيان لم أرَ كاليوم قط يأذن

لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا. فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله أرى الذى في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ذعيَ القوم ودُعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة وتُركتم. وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مَسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أوستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه: ومن علم ماهي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش فى رقاب الناس علم فضل الاسلام فى تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب ؛ ومن أخباره فى التأديب مانقله فى العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك : قال انا : قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الامم لا بالغطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ماأخرجه الطبريّ فى تاريخه عن الحسن قال : قال عمر اذا كنت فى منزلة تَسعُني وتَعجِز الناس فوالله ماتلك لى بمنزلة حتّي أكون أسوة للناس

هذا الخليفة العظيم الذى دوّخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الامم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وأفريقيا الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه انّ هذا لهو العدل الذى ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عدّه المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى اننا لنفخر به على ملوك الارض فرضى الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ماأخرجه الطبريّ عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطريّ يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم انّ كعب الاحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين ! فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفى المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شئ فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ماقال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط. بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير ان عمر (رض) كان أيام القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ويتنسمها ثم يرجع الى أهله فلما لقيه البشير سأله من أين فاخبره فقال يا عبد الله حدثنى قال هزم الله العدوّ : وعمر يخب معه

ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فهلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا ان عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده نخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتى اذا دنا منها تنحى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين : قال أمامكم يعني نفسه وذهبوا الى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم أمامكم : وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى ان الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب : فقال هذا والله القوي الامين

وفي كنز العمال عن الفضل بن عميرة ان الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز (١) بعباءة يهنأ (٢) بعيراً من إبل الصدقة فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا ابن فلانة وأي عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا الخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن يعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها الجدير به ان يقال هذا ملاك كريم لا ملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فنسأل الله له الرحمة والرضوان كما نسأله لانفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤآل

﴿ اهتمامه بأمور الرعية ﴾

(وعسسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقدهم بنفسه ويهتم بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته وبلغ ذلك به ان كان لا ينام عنهم بالليل كما

(١) ملتف (٢) يطلي

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره في خدمة الرعية سواء اذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من أمر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها الا انّ الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبريّ في تاريخه عن بكر بن عبد الله المُزَنيّ : قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت أدخل فدخل ثم قال هل من شئ فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلي : فقال له تجوّز أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال : ماجاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين : قال رُفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم : فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر المْ أنهَ عن المصابيح بعد النوم : فانطلقا فاذاهم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلمّا أصبح أرسل اليه فقال يافلان كنت وأصحابك البارحة على شراب : قال وما علّمك يا أمير المؤمنين : قال شئ شهدته : قال أولم يَنْهَكَ الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الجريد

وأخرج عن زيد بن أسلَم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنّا بِصِرار اذا نار تُؤَرّث (تتقد) فقال : يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا : فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء وكره أن يقول يا أصحاب النار : قالت وعليك السلام : قال أأدنو : قالت ادن بخير أو دع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع قال وأيّ شئ في هذه القدر : قالت ما أسكتهم به حتى يناموا .·. الله بيننا وبين عمر .·. قال أي رحمك الله مايدري عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا : فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فاخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك : فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فالقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرّي عليّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال ابغني شيئاً : فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الامر من أمير المؤمنين : فيقول قولي خيراً انك اذا جئتِ أمير المؤمنين وجدتِني هناك ان شاء الله ثم تنحّى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع : فجعلت أقول انّ لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال : يا أسلم انّ الجوع أسهرهم وأبكاهم فاحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام أبي الفرج ابن الجوزي عن أنس بن مالك قال : بينا عمر يعس المدينة اذ مرّ برَحبةٍ من رحابها فاذا هو بيت من شعر لم يكن

بالامس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعدا فدنا منه فسلم عليه ثم قال من الرجل: فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله: فقال ماهذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال عليّ ذاك ماهو قال امرأة تمخض قال هل عندها احد: قال لا قال (اي انس) فانطلق حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لك في اجرٍ ساقه الله اليك: قالت وماهو: قال امرأة عربية تمخض ليس عندها احد: قالت نعم ان شئت: قال فخذي معك مايصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب: قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له أوقد لي ناراً ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته: ياأمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام: فلما سمع (أي الرجل) ياأمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أي لام كلثوم) أشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضى الله عنه فاخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال كل ويحك فانك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غد فائتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازه وأعطاه

لله أيّ نفس طاهرة بارة هذه النفس وأيّ حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان وأيّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بافراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة التساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فانّ الجبروت ملكة في نفوس الملوك لايمحوها الاّ الرغبة في الله كرغبة عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الاّ من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي تاجراً وانما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجارة لما ولي امر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الاجير وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال: جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون انه يحل لي من هذا المال فاكثر القوم وعلي رضى الله عنه ساكت: فقال ياعليّ ماتقول: قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر غيره: فقال القول ماقال علي بن أبي طالب

واخرجا عن اسلم قال: قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال: فقال ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فاتوا ابنته حفصة وأمروها ان تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولاتذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوءت وجوههم أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأيّ الطعام ناله عندك ارفع . قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة (١) فجعلناها هشة (٢) دسمة فأكل منها وتطعّم استطابة لها . قال فأيّ مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (٣) قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغيهم عني انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالترجية واني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالترجية (٤) وانما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزود زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العري وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة . وفي المناقب أيضا عن أبي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة احداهن بادم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب أبطأ على

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلّغ بكذا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم في احتباسه وقال انما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوبا هو الين من ثوبك هذا وأكلت طعاما هو الين وأطيب من طعامك فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال اني سأخاصمك الى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش . فما زال يذكرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة في الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسط كي لا ينغمسوا في النعيم ويسترسلوا في الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتا عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذي كتبه الى أبي عبيدة ابن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته في منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه في حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في أسباب الرفاه فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت احدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا احب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتعففه طريق النبوّة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجه للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت أصول معيشته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوّة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقتضي بتلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بقبول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعده هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في ذاتها بمانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستئثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كلها لا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغا يدهش عقول الباحثين وما نظن الا ان أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتتباين بتباين صفة الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية يأخذون منها ما شاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عنيد وقلّما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الا فنى زادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتي في هذا الكتاب وأمامنا من دول أوروبا فيكفي فيه ان يقال ان الامبراطور شارلكان الذي قام في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد في بيوت الاموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك في عصره ما لا يدخل تحت حساب حتى اذا أحسّ بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت أمواله وانهاكه قوى رعيته أنزوى في دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الاوربية ظل الاسبانيول واندك أساس ما ابتناه شارلكان لنفسه من الملك الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والامبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منه بنسبة حاله فى المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء فى صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة فى الامم اذا دب دبيبها فى جسمها ونبهت دورة الدم فى عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور انّ يد الحاكم متى أطلقت فى بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو أراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأى سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً أو مملكته غنية وأقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان فى عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق فى مصر من الخلل العظيم فى سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها فى الوجوه التى لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل فى الحكومة والجندي فى الثكنة لا يتناولان مرتبهما الا كل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثروتها ومع ما حملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولمّا أحسّ بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ فى تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه فى السياسة وحنكته في الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن امارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولمّا ولي الامارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبى الدول صاحبات الشأن فى المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثَمّ ظهرت فى الحكومة علائم الاصلاح وبدت فى الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث فى مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية فى البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية فى نمو وجباية البلاد فى ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفا ونيفاً من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا وأما واضع بيت المال فى الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر فى سيرته وانما كان ساذجاً تحشر اليه الاموال من الفئ والصدقة ثم توزع فى اماكنها المشروعة وعلى الوجوه التى أمر بها الله فى الكتاب الكريم الذى وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد فى ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضى الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفئ والخراج وازدادت الجباية ضبطاً لامور بيت المال وتقييداً للنفقات وانما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذى

يضبط فيه الحساب ثم مازال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الائمة والفقهاء بعد في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابي يوسف ومايشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الآن أمر بيوت الاموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثرها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره وتسعير السوق ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الازقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على مايظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق : وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقيا عجيبا حتى كانت من اهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء شيخ الاسلام ابن

تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الائمة والمؤذنين وإلزامهم باداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ماقاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصها ومايستفيده المتولي بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اه

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لهم حتى انا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجا آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف اوماهو بمعناه ومثلها للاوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والي الحسبة او المحتسب على تعبير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش الا انا لم نقف على التاريخ الذي الغي فيه اسم المحتسب ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر باوسع من هذا ان شاء الله

اما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمالا ويقول حملت جملك مالا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لاتقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي انه كان يأمر بالمثاعب (١) والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد انّ عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرها فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما أن ترفع في السعر واما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال انّ الذي قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وانما هو شيء أردت به الخير لاهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعي في السنن)

وله اخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلاً عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضي ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا الا لبعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له أن يتولاها بنفسه

(١) مسايل الماء كما في النهاية

وأن ينيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوي والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقصد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك ابن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال : من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق : قال كيف تقضي : قال أقضي بكتاب الله : قال فاذا جاءك ماليس في كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله : قال فاذا جاءك ماليس في سنة رسول الله : قال اجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي : قال أحسنت : وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك أن أفتي بعلم وان أقضي بحكم . وأسئلك العدل في الغضب والرضى : قال فسار الرجل ماشاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر : فقال ما رجوعك : قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب : فقال مع أيهما كنت : قال مع القمر : قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا وانما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضي الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضى الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس. وأما كلامه في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شريح القاضي ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الامرين شئت. ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم. وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيراً لك اه (من كنز العمال)

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة فلم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

﴿ كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم

اذا أدلي اليك[1] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس[2] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك[3] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم عندما يتلجلج[4] في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[5] في ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم اياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

---

(١) رفع لك الامر وجيء به اليك (٢) اعدل وساو (٣) الحيف الجور والظلم كما في القاموس (٤) التلجلج التردد في الكلام كما في القاموس (٥) هو المتهم بسبب قرابته أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضى الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس وقد ساعده تفرسه فى الناس على وضع الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه حتى أخذ بنواصى الناس واستكانت له النفوس رغبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمائرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت فى قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا: فقال فيم انتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم: انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب: قالوا صدقت: قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب فى آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى مافى هذا الكلام من المغامز خلا مافيه من الاستخفاف بقوة العرب وانما أدرك ماخامر نفوسهم من أخبار الردة فاراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذى تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وسيق بها العرب الى ماسبقوا اليه ودخلوا مع قريش الى حيث دخلوا كما هو معروف فى

التاريخ وسنشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تجيء في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كان يتفرسه فى وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار وياويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ماحدث فى خلافة عثمان ومابعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم فى اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه انه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته لاسيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة الا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما تزاحموا على الخلافة بعد لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته أو سابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها . أي كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا الذي دعا الارتياحهم

جميعاً الخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد قال : قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان يبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملاً كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له : يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم :

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولاً من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية ، وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم: على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استقر في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى عليه وسلم (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فتوهموا أن يسلبهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال : ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة : قلت لا أدري : قال لكنني أدري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وان أفضل النصيبين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نبذ من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما اخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضي الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً لا خليتم عنها فأكلت من نبت الارض : فقلنا يا أمير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى أمير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قوي المسجد وفي يده مشاقص (١) وهو يقول من يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأتي به فقال من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار : انا يا أمير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا أمير المؤمنين : قال ائتني به وبما اجتمع له من الاجر : فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اغز وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلاً للعمل فاعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والنصل الطويل او سهم فيه ذلك يرمى به الوحش

ابنة لي كنت وأدتها (١) في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم افأخبرهم بالذي كان : فقال عمر (رض) اتعمد الى ماستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار انكحها نكاح العفيفة المسلمة .

ومن اخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتي عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وُجد صبي مولود ملقى موضع القتيل فأتي به عمر فقال ظفرت بدم القتيل ان شاء الله فدفع الصبي الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي بعثتني اليك تبعثي الصبي لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل الى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره : فقال يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من أعرف

(١) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء وكانت عادة الوأد عند العرب في الجاهلية فلما جاء الاسلام أبطلها

الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد أحببت أن أدخل اليها فازيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كلّ من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معها أحد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : انّ عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها اماً وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه ان تضيع وقد أحببت أن اضمها اليك حتى ارجع من سفري . فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم امرت به فالقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك : فقال عمر صدقتِ بارك الله فيكِ ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿فنون شتى من أخباره﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاغنانا وأخشانا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدى عليه فقال : اللهم اني لا أحل لهم اشعارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كلّ من ظلمه أميره فلا

أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يخدع

في كنز العمال عن طاوس انّ عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما عليّ قالوا نعم. قال لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا

وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية الى الامام ما أدّى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر الاّ رجل فيه أربع خلال اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في غير سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما اظن ان خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يا راعي الغنم فاجابه الراعي : فقال له اني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فانّ كل راع مسؤول عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فانّ الشهوات غلابة ومحبة الذات خلابة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب انّ عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا

الامر بعدي فليعلم ان سيريده عنه البعيد والقريب وأيم الله ما كنت الاّ أقاتل الناس عن نفسي قتالا

وأخرج ابن الجوزى في المناقب عن يحيي بن جعدة قال : قال عمر لولا اني أسير في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لاحببت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال: قال عمر والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين انّ بينهما فرقاً قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الاّ حقاً ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولاً كانوا اوشباناً

وفيه عن الاوزاعي قال: بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها تؤذي أمواتكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم . انها تنهى عن الصبر الذي أمر الله به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال : ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجيء به ويقول ادعُ لي فانك لم تذنب بعدُ : وفيه عن محمد قال: كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن أبي امامة بن سهل قال : كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر

وأما في هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ومنها تعلم فنون الكيمياء لاجل عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيات أي علم صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوّة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على أهلها (ومن الغريب) ان يقوم متدستين بعض علماء المسلمين فى مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال أهون هذه العلوم فى أصول التعليم فى الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مباراة الامم فى مضمار الحياة والقوّة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبريّ عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنّا نعد المقرض بخيلا وانما هي المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار فى يده : أشقى الولاة من شقيت به رعيته : أعقل الناس أعذرهم للناس : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفا : مُرْ ذوى القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا : قلمّا أدبر شيء فأقبل : أشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القويّ : من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عديّ بن حاتم على عمر فسلّم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين انا

عديّ بن حاتم فقال : ما أعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ أنكروا وأقبلت اذ أدبروا (عنه أيضا)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب: وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك أحدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال : قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون فى الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الاخلاق الحسنة فاتق عثرات الاشياء :

وفى المناقب عن عبيد أمّ كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته (١) ولكن من أدّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة فى ترك خلطاء السوء : وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال: حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله فى بيان فضيلة الكسب ماذكره فى المناقب عن عطاء قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحْلٍ (هو قتب الجمل) أسعى فى الارض أبتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبّ اليّ من ان أموت غازياً (كلمة اجمالية فى أخلاقه)

هذا ما أحببنا ايراده من مناقب عمر (رض) وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

(١) صوت صلاته فى الليل

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قلّ ان تجتمع فى عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الامر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها

ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ما روى ان معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلا فى قضيته عارياً من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا جافٍ للغريب :

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأني في الامور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها فى خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلا أو رجالا من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

برجالها فنحن لا نبالغ اذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم واذا كان هناك مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الامم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وأنا أضع له خدي في التراب اعترافا بالحق وإقرارا بفضل ذوي الفضل من رجال العالم

نعم ان من مشهوري الرجال رجالا أسسوا ملكا عريضا أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك مالم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جبارا غير ظالم كريما غير مسرف عادلا لا عن ضعف شجاعا غير متهور قنوعا غير شره زاهدا بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلا ما نظن ان أوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لا سيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضا من أخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها يد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه :

فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الاحمر) الى المدينة وأول من احتبس صدقة (١) في الاسلام وأول من أعال الفرائض (٢) وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال أيدك الله (وقاله له أيضا) وأول من اتخذ الدرة وأول من استقضى القضاة في الامصار وأول من مصر الامصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب اولا من خليفة أبي بكر او من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرة الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث اليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على امير المؤمنين فقال عمرو انتما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال ما بدا لك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه أول من ضرب النقود في الاسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل واول من أقام واليا للحسبة وأول من شق الترع واقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجند في الثغور وسمى الاجناد واول من أمر بالعناية بالمناظير وأول من عين شخصا مخصوصا لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق

(١) أي وقف وقفا (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان تزيد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن سلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ماسواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك لا تقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده(١) لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سريّة الا في كثف من الناس واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فاغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبرى ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهى بنصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجرّاح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذى لا يفنى ويفنى سواه الذى استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل انى أرجو لكم النصر واياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك وأله عنها قلبك واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

(١) تختبره

٢

وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرّني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأى أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأى فيضعف رأيك ويعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين قبّث الخيل في السهل والسعة واكففها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صالحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اه

٣

وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بانه لايريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ماوهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معيناً لطيفاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم ويريحون الابدان النصبة في قتال من كفر بالله وماقولك انك تنظر أمري الذي آمرك به ان تدخل

(١) يتوسعون ويتنعمون

الدروب خلف العدو فانت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والذي قبله في حقائق الاخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرته (٣) ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه ينصحه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى أبي موسى الاشعري يوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان للناس نفرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

(١) قوله حصيف العقدة اى محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة
(٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحنق على جرته اى لا يحقد على رعيته وفلان لا يحنق على جرته اى لا يكتم سراً

وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلا رجلا واذا كانت بين القبائل نائرة (١) وتداعوا آل فلان فانما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو يا آل ضبة واني والله ما اعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا والصق بغيلان بن خرشة من بينهم وعُد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر امرهم بنفسك فانما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك ياعبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم يكن لها همة الا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردًّا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى ابي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . اياك والاحتجاب واذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجرئ قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)

٨

(كتابه لاهل ايلياء « القدس »)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن

١ قوله نائرة أى عداوة وقوله يفيئوا أى يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا اى يخافوا ويفزعوا واذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان (٢) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصدَ حصَادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبرى)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص من حيّزها ولا ملِلها ولا من صُلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره (عن الطبرى)

١٠

« كتب الى سعد في اليوم الذي يرتحل فيه من شراف »

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيب الهجانات وعذيب القوارس وشرّق بالناس وغرّب بهم « عن الطبرى »

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحِسبة ومن غفل فليُحدثهما «٣» والصبرَ الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجر على قدر الحسبة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لاحول ولا قوة الا بالله . واكتب اليَّ اين بلغك جمعُهم ومن

«١» وفي رواية واللصوص وهو الظاهر «٢» هكذا في الاصل «٣» هكذا في الاصل والاحداث الابداء فليحرر

رأسُهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلّة علمي بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوّكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارْجُه ولا تدل بشئ واعلم ان الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الامر بما لا خُلْف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

« وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه »

اما بعد فسِرْ من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوداً لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الآن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وانهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدَر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك انغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها اجرأ وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

١٢

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فأقم مكانك حتى ينفض الله عدوك واعلم ان لها

«١» كؤوده اى صعبه وفيوضه اي مياهه الفائضة والدآدا جمع دأداء وهو الفضاء الواسع وتوافقوا اى تلاقوا : غيضاً من فيض أي قليلا من كثير : النقب الطريق يكون في الجبل والنقب وجمعها انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا أنقاب القناطر التي على الانهار : والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران او المدن والفضاء لان المدر هي المدن والحجر هي نقا الرمل وقوله انغضتهم اى حركتهم

مابعدها فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله (الطبري)

١٣

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر ابن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فانا عهدناك وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب (١) له القلوب وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون (٢) له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نحدث ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة احمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانه لاحول ولاقوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذراني ماحذرت به الامم قبلنا وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب كتبتما تزعمان ان امر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض لاصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبتما تعوذاني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلاغنى

(١) تخاف (٢) اى اذلاء صاغرون

بي عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في غضون أخباره وكتب أخرى كتبها الى عمرو بن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائدة ان نرجئ ذكرها الى سيرة عمرو بن العاص لان ايرادها في سيرته أنسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة ستري في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملاً بأمر كتابهم وهدى نبيهم ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون أن النصيحة به أحرى وله أولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة أن لايغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو : فذ الأمة الاسلامية وفخر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أي تقويم السهم المعوج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أومس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما انصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله ياعمر وقوله للمعترض دعه فلا خير فيكم اذ لم تقولوها ولاخير فينا اذ لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لايستثني منه أمير ولاصغير بل الأمير أولى بان ينصح ويستنصح بسبب ماوسد اليه من أمور الملك التي ليس من طوق الآحاد

القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الأثرة وأطاعوا هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور أن الامارة مرتبة لاينبغي لها أن تكون الا في مصاف الملائكة المقربين أو الانبياء المعصومين وحبذا لو تحقق هذا التصور لانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذى يهربون منه والتعاون الذى يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه أودى بدولة بني مروان في ابان شبابها كما أودى بكثير من اضرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي تتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتنبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها أثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل وتم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وأبي عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرتهم انظار الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت فى هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الاوربية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسوّدتهم لهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة أرباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة فى الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبيرة والجاوى والقريم وبخارى وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الإسلامية

ليس بعجيب أن يصير المسلمون فى أسر الدول المتغلبة ويتقاص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم فى المناصحة والقيام على الحق ما ذكر ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والاخلاق بفريق كبير منهم ان صاروا يعدون الناصح بالمعروف

خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١)

ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بأن يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت فاستقم كما أمرت وهو من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الاغراق فى الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واجلبوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بانواع الزور وتقرب بماله واهله ودمه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان اغضب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لاوازع من النفس ينهاه ولا فضيلة تلوى عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والأعمال سنأتي على بيانها فى محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتي والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطئ الرذيلة اقدام الفجار

باب

خطبه

اوردنا عند ذكر استخلافه اول خطبة خطبها ورأينا في رواية اخرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

١ اخرج هذا الحديث في اسد الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل

اخرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذه الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لاتخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

ايها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني او ينهاني عن امر فاكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رغبه ولينه فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بلينه الا ان يتقدم الي فاكف والا اقدمت فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد . ثم صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لاتسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ماقد عرفت وما اصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الاول على الظالم والمتعدي والاخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم واني بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لأهل العفاف وأهل الكفاف ان كان بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه الى من أحبه منكم فينظر فيما بيني وبينه : فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم ١

(١) تصرفت تصرفا طفيفا ببعض الالفاظ الواردة بهذه الخطبة لان الناسخ الذي نسخ لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشة والمتشابهة لسقامة خط التاريخ

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر يوم تعرضون على الله لاتخفى منكم خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصية الله «١» ألاَ واني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يُطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الاّ خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا وما لكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليّ أن لا أجبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الاّ من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني الاّ في حقه : ولكم عليّ أن لا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم : ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم (أحبسكم) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الأمل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك

«١» يعني بذي الحق نفسه وهو الحق والسلطة الذي لا يتعدى ما أمر الله من العدل الى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبي بكر « رض » في إحدى خطبه اطيعوني ما أطعت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها للحق والعدل والزمها الشرعة الانصاف مع الرعية

منكم فليتق الله ربه وليصبر: يا أيها الناس ان الله عظّم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فادروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوّكم: أيها الناس اني أشهدكم على أمراء الامصار اني لم أبعثهم الاّ ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اه

هذه الخطبة من أجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الى غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه

٥

﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وُلّيتُ عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهمّاً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإنّ عمر أصبح لايثق بقوّة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عزّ وجلّ برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبري)

٦

﴿ وخطب فقال ﴾

انّ الله عز وجل قد ولاّني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم واني أسئل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به وان يغيّر لذي وليتُ من خلافتكم من خلُقي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم أن عمر تغيّر منذ ولي: اعقِل الحق من نفسي وأتقدّم وأبين لكم أمري فأيّما

رجل كانت له حاجة أو ظُلِمَ مَظْلَمَةً أو عتب علينا في خلق فَليُؤْذِنّي «١» فانما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم وحُرماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا اليّ فانه ليس بيني وبين أحد من الناس هَوادة «٢» وأنا حبيب اليّ صلاحكم عزيز عليّ عَتَبُكم وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله وأهل بلدٍ لازَرْعَ فيه ولا ضَرْعَ الا ما جاء الله به اليه وان الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيه ومُطّلِع على ما بحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أَكِلُه الى أحد ولا أستطيع ما بعُد منه الاّ بالامناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتي الى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

٧

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطَمَع فقرٌ وان بعض اليأس غِنًى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وأنتم مؤجّلون في دارِ غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي فمن أسرّ شيئاً أُخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أُخذ بعلانيته فأظهِروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه مَن أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حَسَناً واعلموا انّ بعض الشُّحّ شُعْبة من النفاق (فأنفِقوا خيراً لِأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحون) أيها الناس أطيبوا مَثْواكم وأصلِحوا أموركم واتقوا الله ربكم ولا تُلبسوا نساءكم القَباطيّ فانه ان لم يَشِف فانه يَصِفُ «٣» أيها الناس اني لوددتُ أن أنجُوَ كفافاً لا لي ولا عليّ واني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمَلَ بالحق فيكم ان شاء الله وأن لايبقى أحد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقُّه ونصيبُه من مال الله ولا يُعمِل اليه نفسَه ولم ينْصُب «٤» اليه يوماً وأصلِحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليلٌ في رِفق خير من كثير في عُنْف والقتل حتفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر والشهيدُ

«١» أي فليعلمني وهي من آذنه بالامر أي أعلمه به «٢» الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل «٣» القباطي أثواب مشهورة وشف رق فحكى ما تحته ويصف لعله من الوصف أو من التواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض «٤» ولا يعمل اليه نفسه أي لا يجهد نفسه اليه أي يأتيه بلا طلب . ولم ينصب أي لم يتعب

من احتسب نفسه واذا أراد أحدكم بعيراً فليعمد الى الطويل العظيم فليضرب به بعصاه فان وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه نخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً ان يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ (١) عَلَيْكُمْ نعمه ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَحَمَلَكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت الى امرئٍ خاصة الا لو قسم ماوصل اليه منها بين الناس كلهم اتعبهم شكرها وفدحهم (٢) حقها الا بعون الله مع الايمان بالله ورسوله فانتم مستخلفون في الارض قاهرون لاهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا أمتان أمة مستعيدة للاسلام وأهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم (٣) عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٤) يلجئون اليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش (٥) واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور باذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى ان يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها الا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا اله الا هو الذي أبلانا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة الى مرضاته واذكروا

(١) أفاض (٢) اثقلهم «٣» قوله يجزون أي يعطون الجزية : وكدائحهم أي سعيهم أو مكاسبهم: ورشح الجباه عرقها (٤) حصن وملجأ (٥) رفاغة العيش سعته وخصبه

عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى فان الله عز وجل قال لموسى (أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ الى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) وقال لمحمد صلعم (واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الارض) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاكم (١) به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره قبله اما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الا ما عرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فانه لا شيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر امن للغير ونماء للنعمة واستجاب للزيادة : هذا لله علي من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به . وان للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحا فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً واكتف بما يكفيه من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذله الحق غير متعتع (٢) (تاريخ الطبري)

(١) استشلاه دعاه ليحيه من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعتعه أي تلته وحركه بعنف أو أكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال ·

قد بلغني ان فلانا منكم يقول لو مات عمر بايعت فلانا فلا يغترّن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتة الا وانها كانت كذلك الاّ انّ الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمه وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابى بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكر لنا الذى صنع القوم فقالا اين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لاتقربوهم واقضوا امركم يامعشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم · فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذاهم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله وقال (امّا بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان تختزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زوّرت مقالة اعجبتني أردت ان اقولها بين يدى أبي بكر وقد كنت اداري منه بعض الجد وهو كان احلم مني وأوقر فقال ابو بكر على رِسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم مني والله ماترك من كلمة أعجبتني فى تزويرى الاقالها في بداهته وافضل حتى سكتُ فقال

اما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحيّ من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين ايهما شئتم · فأخذ بيدى وبيد أبي عبيده بن الجراح فلم أكره مما قال غيرها وكان والله ان أقدم فتضرب عنقي لايقربني ذلك من ثم احب الى من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدافة الجيش يدفون نحو العدو : والاختزال : الاقتطاع وتحضنوننا تكفوننا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يامعشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الانصار أما والله ماوجدنا فيما حضرنا امراً هو اوفق من مبايعة ابي بكر · خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على مالانرضى واما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لابد منه وما الطمع فيما لايرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من اصله وقد مضت قبلنا اصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله انما الناس فى هذه الدنيا اغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفي كل اكلة غصص لاينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وانتم اعوان الحتوف على انفسكم فأين المهرب مما هو كائن وانما يتقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر جنبة الجانب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى عليّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده ألا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه باعمالكم فاناّ كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحى وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما أقول لكم الا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيرا واثنينا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مريء وان

«١» في أساس البلاغة وخرجوا ان النضال وهم يتناضلون وينتضلون : ومعناه يترامون ويتبارون «٢» قوله أقدعوا أي كفوا وقوله نفس طلعة تكثر التطلع الى الشيء

الباطل خفيف وبي، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل مخترم (١) وأجل منتقض وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءًا فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغني يأخذك بمالا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعذرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند أوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعدان حمدالله وأثنى عليه ألا اني قدوُليتُ عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاَّني الله من أمركم ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ماالديكم فجنَّدنا لكم الجنود وهيئنا لكم الفروج وبوّأناكم ووسّعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمَّينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم فمن عَلِمَ عِلْمَ شئ ينبغي العمل به فبلّغناه نعمَلْ به ان شاء الله ولا قوة الا بالله (تاريخ الطبري)

﴿ باب ﴾

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبه شكا اليه ارتفاع الخراج الذى ضرب به عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

(١) مخترم اي منتقص وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيراً وعزم أن يلقى المغيرة فى تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام: قال ومايدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة : قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قدفني أجلك : قال وعمر لايحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا مازال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المِسوَر بن مَخرَمة

وروى فى أسد الغابة عن أبي رافع انَّ أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ماطلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر ان يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لاتضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجاءه (طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه وجاءه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة

وفى رواية ان أحد المسلمين ألقى على أبي لؤلؤة برنساليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه مأخوذ انتحر بخنجره: وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدَّم فصلِّ بالناس : فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعلي وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء قوموا فتشاوروا وليصلِّ بالناس صهيب: ثم قال لابي طلحة الانصاري يا أباطلحة ان الله أعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم: وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد أنبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملإ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شكَّ ان القول ما قال لي كعب
وما بي حذارُ الموت اني لميّتٌ ولكن حذار الذنب يتبعهُ الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانيا من اهل الحيرة أتى به سعد بن ابي وقاص ليعلم الناس الكتابة وقتل الهرمزان وان سبب قتله للاثنين الاخيرين ان عبد الرحمن بن ابي بكر قال غداة قتل عمر : رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لاقتلن رجالا ممن شرك في دم ابي يعرّض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيبا فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى اخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن ابي وقاص واخذه وحبسه في داره

هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن امعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيرا الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤآمرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذي اختلقه ابو لؤلؤة تحته اسباب اهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان اباهريرة كان واقفا على امر هذه المؤآمرة فانذر عمر بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل كما انه ليس لابي هريرة ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لابي هريرة يد في هذه المؤآمرة الا

انه علمها واراد ان يعرض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيراً له ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لا نعلمه الا ان عمر رضى الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدد عليه فى السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر فى بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذى يحكى انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الارض متوسداً الحصا فقال: لله انت عدلت فأمنت فنمت. ولكن قدر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء فى المدينة فى مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض وتثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل ابى لؤلؤة والهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغي ان يحسن بهم الظن الا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين، ويألفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم فى الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الاعاجم فى المدينة فلا ندرى لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج فى المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج احداً جرت عليه المواسى فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احداً فغلبتمونى: فربما كان على علم وبينة مما يبطنون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه مادام قائماً فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة: قال الصنع: قال نعم: قال قاتله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ وأما هو رضى الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ماهو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعدها فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ففعل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفى المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا بطبيب ينظر فى جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بنى معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب ياأمير المؤمنين اعهد: فقال عمر صدقنى أخو بنى معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك: فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد: قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدِدْنَا أنْ زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس: قال لئن لم يكن عليَّ اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أنجي نفسى وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه. وأشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول والقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها. وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما: ثم بكى وبكى الناس معه: فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك: قال (أي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت: قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما ليحب الله حبا لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو انك عهدت الى عبد الله فانه له أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال: بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت اني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا عليّ: ثم راحوا فقالوا يا امير المؤمنين لو عهدت فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق واشار الى عليّ بن ابي طالب ثم رأيت ان لا أتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من اهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم واليا فأحسنوا وازرته (اي معاونته) في حديث طويل سيأتي معناما هو بمعناه في قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضى الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه يا عبد الله بن عمر انظر ما عليّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً قال ان وفى له مال آل عمر فأدّوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه: فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرت به اليوم على نفسي: فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء: قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب قد أذنت: قال الحمد لله ما كان شيء أهم اليّ من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك عليّ وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصلِّ بالناس صهيب

قال في أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد انه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر واحد وعشرين يوماً قال : وقال عثمان بن محمد الاخنسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الاقوال في عمره

(وصيته لمن يخلفه)

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع الي عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الاولين : الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى : المفلحون : ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا في الامر . واوصيه بذمة (١) الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (اى يحميهم) اهـ

(١) وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضى بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له مالهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد أن فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط في العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذي بذره في المسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفي عمر أكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلا قد فرع (١) الناس كأنه على دابة وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق (٢) تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس : وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبد الله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون . وعبيد الله (وهو الذى قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية . وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر . وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب . ومجبر واسمه عبد الرحمن . وأبو شحمة (وهو الذى حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبد الرحمن . وبنات أخر

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبد الله وعبيد الله وعاصم ومجبر وعقب مجبر هذا بادوا ولم يبق منهم أحد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أى السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعى . وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى وعلى الكوفة المغيرة ابن شُعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان . وعلى حمص عُمَير بن سعد وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبي العاص الثقفي وعماله فى الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له مُعَيقيب أيضاً وعلى بيت ماله عبد الله بن أرقم وحاجبه يرفا مولاه

باب

(الحالة الاجتماعية على عهده)

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبي بكر رضي الله عنهما اذ

توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرّق والجهل بأمور الدولة والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الامة بقوّة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهي تتقدم فى داخل بلادها وتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت فى تلك الممالك جزور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التى كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها ايد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتى فى الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دمائهم حب الحرية حتى ما يطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفثوا فى روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم فى أيدى الغالبين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا يحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لما أهين رجل مصرى من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ولم يعد الا بعد ان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده فى غير هذا المحل وما نعلم ان قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها فى ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل وهو حال ما أهناه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هذه الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشرو الشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا يبارونهم فى مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم فى الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما هو موجود فى الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اجحاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتخوشن في المأكل والملبس والتوسط في العيش والقصد فى الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت فى باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بعد اذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي اشغال العرب في الحرب وزجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري فى الكتاب عدد ٦٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم فى انحاء الممالك وتعجلهم فى ذلك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها فى الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره فى هذا المقام . ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التى ربما يمر معنا ذكرها فى هذا الكتاب ومع هذا فاذا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح فى إبان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لا سيما وانه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل أيديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الاقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباءً لحكمهم أو تظلماً من سياستهم مع حداثة عهدهم في الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخطبهم الحضارة الا خطى قليلة الى الامام فكانوا وسطاً في المعيشة في كل الامور وذلك لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي ويحملهم على التوسط في العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعري الذي يقول له فيه : بلغني انه فشت لك ولاهلك هيئة في المطعم والملبس : وينصحه بالتزام القصد . وتأنيبه لسعد بن أبي وقاص على أن سمى داره في البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذوناً الخ ماجاء في باب سياسته مع العمال وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبي عبيدة بن الجراح الذي يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي فيدلك عليه مارواه عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولاً وأشهراً ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك . وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتى في المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غير ولا شك من أخلاقهم والان من طباعهم وزاد في معارفهم ولا يعقل ان قوماً كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستمداد عظيم في قوى المدارك كمن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بها أهل الامصار في ذلك العصر وفي كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقاً وأسد عملاً على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضي الله عنه الذي دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ماجاء به القرآن من آيات الحث والترغيب في أسباب الظهور على الأمم يدلك على هذا مارواه الطبري في أخبار القادسية ان رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا وفيه دليل جلي ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واغراقهم في الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام وانكفأوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فالاخلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلذذ بجني ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الا من السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعي الا وراء الرتب والالقاب التي أضحكت علينا الأمم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الى هوة العدم : والغربيون يثمون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً الا في تهاتر ولا يحسون منا حركة الا الى تدابر قد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسعي الى المجد وهي حالة يا لله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الأمة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه واني لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ما اخطأه قلمي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لا غرض لي أرمي اليه سواه ولا أرغب في هذه الحياة الا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك ما أتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ الي خطأي ونبهني الى غلطي لأصلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي ما رأيته من قومي في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي ودافعاً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب اذ كل شيء سهل بعد رضى قومي عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي رجاء عظيما في تحقيق أمنيتي التي قصاراها تنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية في أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال في النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة وينهض بها الى تناول المجد من قمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قراء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الآن لما انتهيت من سيرة عمر رضى الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي قدرناه له ولو أضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعنا الوفاء

بشرط بيع الاجزاء بثمن هين وخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لاسيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت ان أصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال فى خلافة عمر رضى الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسؤول

﴿ كلمة للجرائد ﴾
(وشكر للمنتقدين)

التمست فى الجزء الماضى من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على مافي ذلك الجزء من خطأ ربما بدر به القلم لاصلحه فى هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئتا الى هذا العهد فطلبت اليّ الأولى ان أوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقصى منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامى لاتوسع فى بيان العلل والاسباب التى أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفى الحقيقة فان هذا الامر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التى كتبت عن العرب والروم فى ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادورد جيبون الانكليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيهما وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة فى مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات ونبذ القانون وتجاذب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التى أودت بحياة القوم السياسية الا أن الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة فى حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً فى جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على انّ الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين فى عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفى المؤرخ أن يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت فى هذا الجزء جهد المستطاع فى تتبع العلل السياسية والاجتماعية التى دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولتى الفرس والروم يومئذ ولم أدع خبراً من الاخبار الا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخيه لأمثل ذلك العصر فى صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا فوق كل ذى علم عليم وللمقتطف فى تنبيهى الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاما آخر من كتابي وسألنى بياناً عمن هو المسؤل عن بعض الحوادث التاريخية التى جرت فى بعض أنحاء القطر السورى فى منتصف القرن الماضى والجواب عن هذا لا علاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي فى محله ان شاء الله

وأما مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي فى الجزء الماضى أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامى حاضرة بنى غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلا مخصوصاً فى هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لغير اسدائها شكرى ومشاركتها فى أجرى لانها كانت السبب فى استقصائي الادلة

التاريخية التي اذا لم تفد في بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية في انتقاد الكتاب وتتبع ما فيه من الخطأ أذن والله لزادتني انبعاثاً لتحقيق الاخبار وبسط الافكار ونبهتني الى ما ربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخية في بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يتحرك عضو منه الا بالاستعانة باخيه فما بال مجلاتنا التي هي عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا يفيض من كنوزها على المؤلفين الا قول أحسن وأجاد ألعلها تجهل ان مدرسة الامة العامة هي الكتب والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتعهدها بالنظر والبحث فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير او شر وحق او باطل

اولعلها تجهل ان معظم البلاء الذي حل بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأوه الكتب التي شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعاً للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العلماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء فلا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سر باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد علي بعض الادباء إغفالي تفسير الالفاظ اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضي على اني لم أغفلها الا اقتصاداً للوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول مفهوماً بقرينة المجاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم أيضاً الى غلطات مطبعية غير ما صححته في آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء

وانتقد علي بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو اذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية ما يغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء في تاريخه الا لكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضي وفيه دليل على أن وجوب التعظيم انما هو في القلب لا في اللسان والمؤرخ في الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الا اني رمزت اليه بحرفي (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا: ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وضمير كل انسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان فكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام وأسسوا ذلك الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الاحاديث فى هذا الكتاب ولم أذكر أسماء المخرجين اكتفاء بالعزو الى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة المخرج الذى ذكر فى الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التي جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضى الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية بمصر



فهرست

﴿ الجزء الثانى من اشهر مشاهير الاسلام ﴾

صحيفه

عمر بن الخطاب
١٥٨ (باب) حاله في الجاهلية — نسبه وأصله وشرفه وصنعته
١٨٦ مكانته عند قومه وسيرته فيهم
١٨٧ (باب) اسلامه وصحبته
١٩١ صحبته
١٩٦ (باب) خلافته
١٩٩ (باب) أول أعماله في الخلافة
٢٠٠ اجلاء أهل نجران
٢٠٤ حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم الأوربيين في المسلمين
٢١٦ (باب) فتوح الشام
٢١٧ فتح دمشق — بحث في الردة
٢٢٦ بطلان خبر
٢٢٩ بحث فى هل كانت دمشق قاعدة الغسانيين
٢٣٥ وقعة فحل
٢٣٦ بيسان وطبرية
٢٣٧ مروج الروم
٢٣٨ ذكر بعلبك وحمص وسواحل دمشق
٢٣٩ تحقيق خبر اجنادين واليرموك واختلاف المؤرخين فيهما
٢٤٥ فلسطين واجنادين
٢٤٩ فتح بيت المقدس
٢٥٣ لاوثنية فى الاسلام
٢٥٨ فتح حماة واللاذقية وقنسرين
٢٥٩ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية
٢٦١ فتح حلب وانطاكية وغيرها
٢٦٣ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين
٢٦٧ ما كل حديث تحدث به العامة — وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس
٢٧١ القواد الذين حضروا فتوح الشام
٢٧٢ خلاصة جغرافية ونظرة اجتماعية
٢٨٥ باب فتح العراق وفارس — انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها
٢٨٧ موعظة
٢٨٨ عود الى خبر أبي عبيد — موعظة أخرى
٢٩٠ عود الى خبر أبي عبيد
٢٩٥ شجاعة النساء المسلمات
٢٩٧ عود الى خبر المثنى — كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح

صحيفه

٢٩٩ استعداد مثنى ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق
٣٠١ الحكم النيابي في الاسلام
٣٠٥ عود الى خبر الشورى
٣٠٦ وصية عمر لسعد
٣٠٧ مسير سعد
٣١٠ كلمة فى التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين
٣١٢ خبر القادسية وغيرها
٣١٥ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج
٣١٥ كيف يكون الاستعمار
٣٢١ { عود الى خبر الفتح
غزوة فارس من البحرين }
٣٢٣ { خبر الهرمزان
فتح الاهواز وتستر والسوس وغيرها }
٣٣١ { خبر جندي سابور
وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين }
٣٣٢ الانسياح فى بلاد فارس
٣٣٤ خبر نهاوند
٣٤٤ (باب) فتح الجزيرة
٣٤٦ (باب) فتح مصر وبرقة
٣٤٨ { (باب) تعبئة الجيوش وبراعة القواد
وديوان الجيش }
٣٥٨ باب علائق عمر مع الملوك
٣٦٠ باب أهم الاحداث فى عصره
٣٦٣ باب آثاره فى الخلافة

صحيفه

٣٦٣ { كتابة التاريخ الهجرى
تدوين الدواوين وفرض العطاء }
٣٧٢ ترتيب العمال وتقسيم الولايات
٣٧٤ ضرب النقود
٣٧٦ وضع البريد
٣٧٧ { تمصير البصرة والكوفة
التوسعة في المسجدين }
٣٧٨ جملة مآثر
٣٧٩ باب أخلاقه ومناقبه وسياسته وعدله
٣٨٩ نظرة فى بعض الاخبار المتعلقة بأهل الذمة
٣٩٢ أخباره مع عماله ووصاياه لهم
٤٠٣ كلمة في الحرية والطاعة أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية
٤٠٩ حضه الناس على الكسب
٤١١ نهيه عن التنطع وتحذيره من الابتداع
٤١٤ { أدبه وتأديبه
أدبه مع رسول الله }
٤١٥ { أدبه مع نفسه
تأديبه لنفسه }
٤١٧ تأديبه للمسلمين
٤١٩ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم
٤٢٢ { اهتمامه بأمور الرعية
وعسه بالليل }
٤٢٦ ورعه وزهده
٤٢٩ كلمة في بيت المال
٤٣٣ حسبته

صحيفة

٤٣٥ قضاؤه
٤٣٧ كتابه الى شريح القاضي وكتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري
٤٣٩ فراسته وذكاؤه
٤٤٢ نبذ من فنون أقواله وأخباره
٤٤٥ فنون شتى من أخباره
٤٥١ أولياته
٤٥٣ (باب) كتبه وفيه ثلاثة عشر كتابا
٤٦٢ (باب) خطبه وفيه أربع عشرة خطبة

صحيفة

٤٧١ (باب) مقتل عمر
٤٧٩ وصيته لمن يخلفه
٤٨٠ صفته
٤٨١ { (باب) ولده وعماله
(باب) الحالة الاجتماعية على عهده }
٤٨٨ اعتذار
٤٨٩ كلمة للجرائد وشكر للمنتقدين
٤٩٣ تنبيه

﴿ تمت الفهرست ﴾



﴿ اصلاح الغلط الواقع في الجزء الاول والجزء الثاني ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨	١٧	ونحملهم علىً	وتحملهم على
٢٠	٩	واحبار	واخبار
٢٥	٧	مسايح	مسالح
٢٨	١٦	عقلا	عقالا
٤٧	١٤	للحقية	للحقيقة
٥٦	١٠	العالمين	العاملين
٦١	٤	بنطام	بنظام
..	١٣	طائقة	طائفة
٧٤	١٠	فجمهم اليه	فجمعهم اليه
٧٦	١	قاتلت مع النبي	قاتات النبي
٨٣	٦	برأسى	بزأس
..	١٦	السالمة	المسالمة
١٠١	١٣	اشتعلوا	اشتغلوا
١٠٤	عدد الصحيفة	١٤٠	١٠٤
١٠٤	٤	عصرة	عصره
١٠٥	٧	ليبره	ليبرأ
١٠٦	٤	طرء على المسلمين ماطرء	طرأ على المسلمين ماطرأ
١٠٧	١٩	للفوضى	الفوضى
١١٢	٨	لااله اب هو	لااله الاهو
١١٩	١٦	بجيركم	بخيركم
١٢٠	٤	وأمعن فيا	وأمعن النظر فيا
...	١٤	الشور	الشورى
١٢٦	٦	بتقوى والاعتصام	بتقوى الله والاعتصام

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٧	٣	شر بعد الجنة	شر بعده الجنة
١٣٠	٦	واتباعه أمره	واتباع أمره
١٣٢	١١	دخات عليله	دخلت عليه
..	١٩	ولم يثنى	ولم يثن
١٣٨	٨	صدفت	صدقت
١٤٠	٨	مع المسلمين	مع المشركين
١٤٣	١	فى المدينة	فى المدنية
١٥١	١٨	وجلسه	وأجلسه
١٥٣	١٥	على الباظل	على الباطل
١٥٤	٢٠	جاءته الحيل	جاءته الخيل
١٥٥	١	منايا	مناذياً
..	١٦	الى أبي بكرد	الى أبي بكر
١٦٨	١٣	في اليرمون	في اليرموك
١٧١	١٦	بعزله	الى عزله
١٧٩	١٩	المعاهد	والمعاهد
١٨٥	١٦	انشغالاعنها	اشتغالاعنها
١٦٦	١١	بضحيان	بضجفان
١٩٠	١٢	على لحق	على الحق
١٩٤	٧	المشكات	المشكاة
..	٨	ببانا	بياناً
..	١٧	والجثمانية	والجسمانية
١٩٦	٦	عن بيعه	عن بيعته
..	١٤	الكفائة	الكفاءة
١٩٩	١٥	يقعلان فى العقول	يفعلان فى العقول
٢٠١	٣	وشترط عليم	واشترط عليهم
..	١١	يتدينون	يدينون
٢٠٥	١٦	لخيانم	لخيانتهم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
..	٢٠	أو نتزعها	أوانتزعها
٢٠٨	٥	غير المسالمة	غير المسلمة
٢١٠	٢٢	أسعر لهيها	أسعر لهيبها
٢١١	١	قوة لغلب	قوة الغلب
٢١٢	٦	إذنّ	إذن
٢١٥	١١	لذي يظهر	الذي يظهر
..	١٣	لاسلا	الاسلام
٢١٦	١٢	إن ترضى	أن ترضى
٢١٨	١٥	فطفرت الرو	فظفرت الروم
..	١٦	الحدبية	الحديبية
..	٢١	ابروز	ابرويز
٢٢٤	٢	بمائة	بمالأة
٢٢٦	١٠	المملك	الملك
٢٢٩	٢٠	وليسوفي	وليسوافي
٢٣١	١٢	ولا ببعد	ولايبعد
٢٣٣	٧	بالمفلاط	بالمقلاط
٢٣٤	١٣	المتوفي سنة	المتوفى سنة
٢٣٥	٦	دؤجات المدينة	درجات المدنية
٢٣٦	١٥	المسابين	المسلمين
٢٣٨	٤	هذا المزر	هذا الهذر
٢٤٥	١٦	وأخو حرامي	وأخو حرام
..	١٨	فأمر الفيقار جالا	فأمر الفيقار رجلا
٢٤٦	٧	عمر بن العاص	عمرو بن العاص
..	١١	عم تنفرج	عمّ تنفرج
٢٥٩	٥	قنسرين فحمص	قنسرين سار الى حاضر حلب فحمص
٢٦٣	٣	وبلغ أبو عبيدة	وبلغ أبا عبيدة
٢٦٦	١٧	ولا نزهدا	ولا تزهدوا

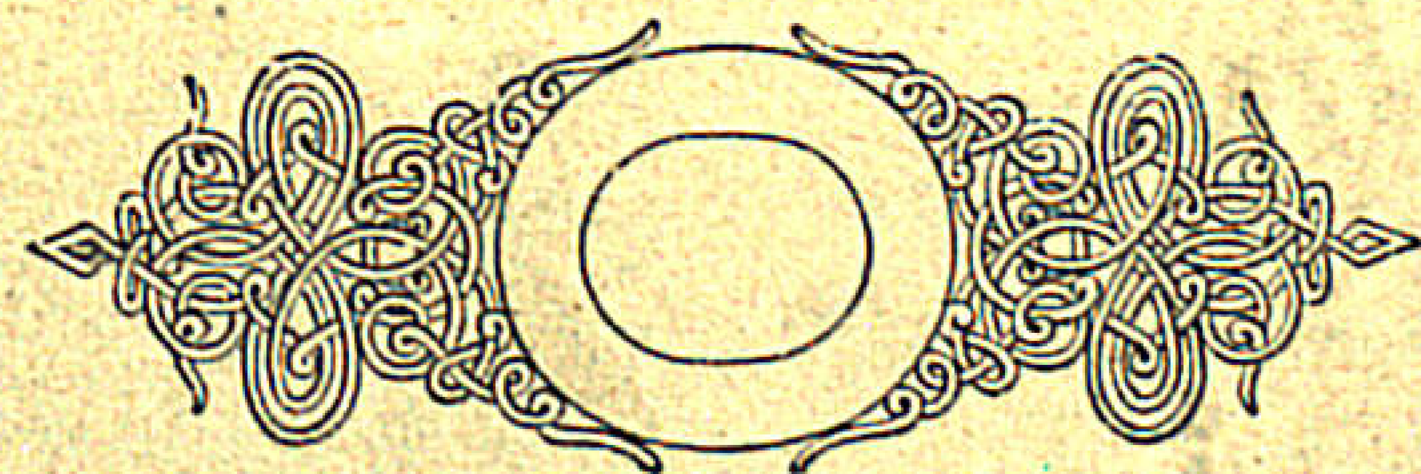
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٧٣	١٠	كان عهد الرومانيين	كان على عهد الرومانيين
٢٧٦	٧	وتوابعهم	وتوابعها
٢٧٧	٧	تداول	وتداول
٢٧٩	٣	تترقى	تترق
٢٨٣	١١	موجود	موجود
٢٨٤	٢	ماأدنا	ماأردنا
٢٨٨	١١	والذمةعن عن	والذمة عن
٢٩٠	١٧	جلود لغمر .. تزل بالمرحة	جلود الغمر .. تزل بالمروحة
٢٩٣	١١	الفرات لاخر	الفرات الآخر
٢٩٥	١١	وجرير	وجريراً
٢٩٥	١٨	بشجاعة نسأهن	بشجاعة نسائهم
..	٢١	ويضمن	ويضمدن
٢٩٩	١٢	استعداد مثنى	استعداد المثنى
٣٠٠	١٨	على اجادة	على جادة
..	٢٠	تصغير الفضا	تصغير الفضا
٣٠٢	١٥	جاحة الزمان	حاجة
٣٠٣	١	بحكم لوسط	بحكم الوسط
..	٦	انهما كمهم	انهما كهم
٣٠٥	١٩	الاسد	قالوا الاسد
٣٠٨	٢	وجهم	وجههم
٣١٥	٢٠	نمحى عن	نمحو عن
٣١٨	٨	احجاف	اجحاف
٣١٩	٨	خمسين ألف شخصاً	خمسين ألف شخص
...	١٠	أربعة وعشرين	أربعة وعشرون
...	١٣	مليوناً درها	مليون درهم
٣٢٠	١٠	ثرولة	ثروة
...	١٢	إبقائها	إبقاءها

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
...	٢٠	للدين	للذين
..	٢١	جاد	جاء
٣٢١	٨	سرافة	سراقة
٣٢٣	٩	أن بعفيه	أن يعفيه
٣٢٤	١٠	لا برُّ دعايهم	لا يرد عليهم
...	١٥	لم يبق	لم يبق
٣٢٥	١١	واتسقت لة	واتسقت له
٣٣٨	٧	وهر السرادق	وهو السرادق
٣٣٩	٩	فاردكه	فأدركه
٣٤٤	٩	فتح الجزيزة	فتح الجزيرة
٣٤٩	٦	بعمضها	بعضها
...	١٨	رداءً	رداءً
٣٥٣	١٠	بن جهل	بن أبي جهل
٣٥٧	٦	لاف ثالثة	آلاف ثلثة
٣٥٨	٦	أيادى العرب	أيدي العرب
٣٦٤	٤	تشرح لك	نشرح لك
...	٢١	فقرائها ومواسنهم	فقرائها ومواساتهم
...	٢٣	سعادة الحياة	سعادة الحياة
٣٦٥	١	فى المالك	في الممالك
٣٦٦	٥	فقدقمطها	فقد قطعها
...	٢٠	مبارات	مباراة
٣٦٧	٤	نحو ذلك	ونحو ذلك
...	٥	والأمة ... مثل	والأمة..لمثل
٣٧٢	١٤	حز من الجزيرة	جزء من الجزيرة
٣٧٩	٨	قلوبهم لاسلام	قلوبهم الاسلام
٣٨١	٤	لقي رجلا	القي رجل
..	١٤	بن عساكر	ابن عساكر

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٣	٣	امهلهم	أمهلتهم
٣٨٦	١٠	حذيفة بن ليمان	حذيفة بن اليمان
٣٨٩	١١	اطراح لا مه	اطراح لأمة
...	١٥	ولا تجد من الما ل	ولا تجد من المال
٣٩١	٢	بارشارهم	بارشادهم
٣٩٢	٩	وهومن	وهو
٣٩٣	٢	اليعوث ...نهاود	البعوث ...نهاوند
...	١٧	بن جرير	ابن جرير
٣٩٥	١٨	ورى الطبرى	وروى الطبري
	٨	فتفتنوها	فتفتنوها
٣٩٩	٩	واقلو من الرواية	وأقلوا من الرواية
	١١	بن الجوزي	ابن الجوزي
	١٥	المنهدم	المتهدم
٤٠٠	١١	الاشمت	الاشعث
٤٠١	١٥	نحفت	نخفت
٤٠٢	١٥	الآ نَ	الآنَ
...	١٦	فرق	فرقاً
٤٠٤	١١	بهاحق	بها حق
٤٠٥	٥	أطيعو الله	أطيعوا الله
...	٢١	تستندد	تستند
٤٠٦	١٧	فاعاده	فاعاد
٤٠٧	١٧	بن عم خالد	ابن عم خالد
...	٢٠	بن العم	ابن العم
٤٠٨	١٢	لاحكم الا الله	لاحكم الا الله
٤٠٩	٩	مرتية	مرتبة
٤١٩	١١	لمساواة	المساواة
٤٣١	٩	يتفشى الخليل	يتفشى الخلل

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٩	٩	عمر يقول	عمر يقول
٤٥٦	٢٣	ولامن صايهم	ولامن صلبهم
٤٥٧	٢٦	٢٠، هكذ	٣٠، هكذا
٤٥٨	٢٤	ينفض الله	يفض الله
٤٦٢	٣	نقد بارز	فقد بارز
٤٦٦	٨	احمل	اجمل
٤٧٠	٢٥	يتناناضلون	يتناضلون
...	٢٦	نفس ظامة	نفس طلعة
٤٧٥	٤	وعربهم	وعريهم
٤٧٨	١٠	عمر ابن	عمر بن
٤٨٢	١٣	جزور	جذور
٤٩١	٩	والبحت	والبحث

وردت لفظة الاردن في هذا الكتاب بتشديد الراء تارة وتشديد النون اخرى والصواب تشديد النون فليتنبه



﴿ملحق للخطأ والصواب﴾

قد وقع في هذا الجزء اغلاط أخرى غير الاغلاط المبينة في فهرست الخطأ والصواب لم اطلع عليها الا بعد تمام طبع الكتاب لاني لم أنف على طبع قسم كبير منه لانحراف ألم بصحتي واضطرني الى السفر ومنها انه جاء في صحيفة ٣٥٣ سطر ١٤ اسم أشيم وصوابه بن أشيم وفي الصحيفة ٣٦٧ سطر ٤ نحو وصوابه ونحو وفي الصحيفة نفسها سطر ٥ مثل والصواب لمثل وفي الصحيفة ٤٢٩ سطر ١٦ وتقتفي والصواب وتقفي وفي الصحيفة نفسها سطر ١٧ بقبول وصوابها بفضول وفي الصحيفة ٤٣١ سطر ٣ منه والصواب منها وفي الصحيفة ٤٣٦ سطر فقصد والصواب فقد وجاء في الصحيفة ٤٣٧ جملة طويلة بعد كتابه الى شريح القاضي أولها وأما أقضيته الخ الجملة وليس هذا محلها بل هي في ختام هذا الفصل بعد كتاب أبي موسى الاشعري وفي الصحيفة ٤٤٢ سطر ١٢ جملة لم يتوقف عن جمع كلة الأمة وصوابها يتوقف لجمع كلمة الامة وفي الصحيفة ٤٤٩ سطر ٩ أم والصواب بن أم في الصحيفة نفسها آخر سطر ١٨ عنوان فصل مخصوص لم يجعل وحده بين سطرين وسقط من الفهرس فلينتبه اليه وفي صحيفة ٤٥٣ سطر ١ سامه والصواب مسامة وفي الصحيفة ٤٥٨ سطر ٢٤ ينفض وصححت في الفهرس يفض وصوابها ينغض بالغين وفي الصحيفة ٤٦٤ سطر ٦ للعوض والصواب للعرض وفي الصحيفة نفسها ٢٤ وهو الحق والساطة وصوابه وهو الحق الذي تعين به حد السلطة العليا الخ وفي الصحيفة ٤٦٥ سطر ٤ ولا تحمدوهم والصواب ولا تجمروهم وفي الصحيفة نفسها سطر ٢٣ لذي والصواب الذي وفي الصحيفة ٤٦٧ سطر ١٥ مستعيدة والصواب مستعبدة وفي الصحيفة ٤٧٠ سطر ٢٥ وخرجوا ان والصواب وخرجوا الى وفي الصحيفة ٤٧٢ سطر ٣ رأى والصواب أرى وفي الصحيفة نفسها سطر ١٨ وجاءه والصواب ووجأه بهمزة فوق الالف وفي الصحيفة ٤٧٨ سطر ١٢ ولأوثرت والصواب ولأوثرن والصحيفة ٤٨١ سطر ٦ الدير والصواب الدبر والصحيفة ٤٨٤ في سطر ١٣ لفظ عنهم وهو زائد لامحل له وفي الصحيفة ٤٩١ سطر ١٧ سر والصواب سردواهم غلط جاء في هذا الجزء في الصحيفة ٤٧٤ سطر ١٨ وما بعده وهو اسم ابي هريرة بدل كعب الاحبار وهو سهو يدركه القارئ مما قبله وانما جاني عليه تشتت الخاطر وألم المرض ولم ينتبه من وقف على طبع الكتاب له ليصلحه لما اني لم أعد نظري عليه حال الطبع لتغيبي خارج القطر فأرجو كل من وقعت بيده نسخة من هذا الكتاب ان يصلحه بقلمه بان يضع اسم كعب الاحبار بدل اسم ابي هريرة وله الفضل . وقد جاء في الفهرست فصل بعنوان بحث في الردة وهو حشو من الطباع اذ ليس في هذا الجزء فصل بهذا العنوان وانما هو في الجزء الاول فليتنبه اليه ومتى نفدت نسخ هذين الجزءين فسنعيد طبعهما بأحسن اتقان ان شاء الله

كتاب

اشهر مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

تأليف

رفيق بك العظم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب

« رضي الله عنه »

(طبع بمطبعة « المنار » بشارع درب الجماميز بمصر)

(سنة ١٣٢١ هـ)

أبو عبيدة بن الجراح

(باب)

حاله فى الجاهلية

(نسبه وأصله)

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن أُهيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة اشتهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الامة وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض : وروى ابن عساكر ان أمه أُميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزّى بن عامرة بن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وأدركت أمه الاسلام وأسلمت : وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن سعد : قال فى الطبقة الاولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ـ وهم آخر بطون قريش ـ أبو عبيدة بن الجراح

(سيرته في قومه ومكانته عندهم)

كان أبو عبيدة محترما فى قومه مستشارا فيهم معروفا بالرأي والدهاء وكان يقال كما روى ابن عساكر فى تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ولم نقف على زيادة تفصيل من سيرته فى الجاهلية فنحن نكتفي عن ذلك بسيرته فى الاسلام فان فيها ما يغني وهي المطلوب فى كتابنا هذا



باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

أبو عبيدة قديم الاسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانتزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية مذ دعاهم داعي الحق الى التوحيد . واستبان لهم طريق الخلاص من ربقة التقليد . فقد أخرج الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سليمة بن عبد الاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فاسلموا فى ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم وقبل ان يدعو فيها . وكان اسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين

صحبته

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله فى اسلامه فكان قوياً فى دينه صادقاً فى صحبته متفانياً فى حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الامة أخرج الحافظ الجزري فى أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وانّ اميننا ايتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » : وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول (ص) الا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص لله في سره وعلانيته ولقد كان يغبطه على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضي الله عنه وعنهم أجمعين أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران الى النبي صلى

الله عليه وسلم فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينا : فقال: «لابعثن اليكم أمينا حق أمين»: فاستشرف لها الناس (أي تطلعوا) فبعث أبا عبيدة بن الجراح

وفي رواية جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ابعث معنا أمينا حق أمين فقال رسول الله «نبعث معكما رجلا أمينا حق أمين فاستشرف لها أصحاب محمد قال «قم يا أبا عبيدة»

وانما نال أبو عبيدة هذه الحظوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وعظيم حبه وطاعته له ومن أعظم مايؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزري في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه ان أبا عبيدة لما كان يبدر يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة فانزل الله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم) الآية

هذا غاية ما يؤثر من صدق ايمان أصحاب نبي بنبيهم واشراب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم ان الاسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو عن صفحات القلوب حتى صورة الآباء اذا لم تشاكل بطهارة الايمان الابناء

لا جرم ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الامة الا لعلمه بصدق ايمانه وكمال يقينه لهذا روي انه صلى الله عليه وسلم انه طعن في خاصرة أبي عبيدة وقال : ان ههنا خويصرة مؤمنة: رواه ابن عساكر عن جابر . وروي عن موسى بن عقبة قال: قال أبو بكر الصديق: سمعت رسول (ص) قال لابي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالهن لي

أحب الي من حمر النعم: قالوا وماهن ياخليفة رسول الله (١) قال كنا جلوسا عند رسول الله فقام أبو عبيدة فأتبعه رسول الله بصره ثم أقبل علينا فقال: «ان ههنا لكتفين مؤمنتين» (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن اننا كنا في شئ كرهنا ان يسمعه فسكت ساعة لايتكلم ثم قال: «مامن أصحابي الا وقد كنت قائلا فيه لا بد الا أبا عبيدة» (٣) وقدم علينا وفد نجران فقالوا: يامحمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه: فقال «والذي بعثني بالحق لارسلن معكم القوي الامين» قال أبو بكر: فما تعرضت للامارة غيرها فرفعت رأسي لأريه نفسي «فقال قم يا أبا عبيدة» فبعثه معهم: وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن ثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله من المغفر يومئذ فانتزعت ثنيتاه فحسنتا فاه وصار أهتما فما رؤي قط أحسن منه هتما

وبالجملة قد صحب أبو عبيدة (رض) النبي خير صحبة وكان كما روى المحدثون من علية أصحابه وأعاظم المقربين منه ولاقى من قريش في صحبته مالاقاه أهل الهجرة وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر الى المدينة وكان ملازما لرسول الله شديد التمسك باوامره حريصا على رضاه فتخلق باخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالاسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ولو بقي حيا لولي الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الاخلاق والتقوى والعدل فقد أخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب انه قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت أمين الله

وأمين رسوله

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الاثر فى فتوح الشام مابسطناه للقارئ فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وماسنتلوه عليه مجملا فيما يلي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

حروبه وفتوحاته

(بالشام)

علمنا مماتقدم فى الجزء الاول والثاني ان أبا بكر رضي الله عنه سلم أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها الى الشام وأمره بقصد حمص وانه ولي قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضي الله عنه وعزل عن امارة الجيش خالد بن الوليد وقد اختلف المؤرخون فى هل ولي الامارة وهو فى اليرموك أو على دمشق وذكرنا في الجزء الثاني رأينا فى هذا الخلاف فلا حاجة هنا للمزيد وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه فى الشام وفتوحه فيه وانما أحببنا ان نوردهنا مجمل فتوحه لعلاقة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحاً ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الامراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن امداد دمشق كما ذكر فى محله من الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق وبعد فتح دمشق استخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ثم سار الى

فحل من أرض الاردن وفل هناك جيوش الروم وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحاها على صلح دمشق ثم بعد ان وجه يزيد بن أبي سفيان الى سواحل دمشق سار الى حمص عن طريق بعلبك وقدّم اليها السمط ابن الاسود الكندي وقدّم خالدا الى البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ثم ذهب الي حمص ففتحها أيضا ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص كما مر الخبر عن هذا وعن خلاف المؤرخين فيه فى الجزء الثاني ثم سار الى حماه فصالحه أهلها ثم سار الى حلب وقدم خالدا الى قنسرين وعبادة بن الصامت الى اللاذقية ثم ترك حصار حلب وسار الى حاضرها ففتحه ثم صار الى انطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب اليه عمر بالرجوع الى حلب واتمام الفتح فعاد وفتحها ثم رجع الى انطاكية فحاصرها وفتحها صلحا ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت الفرات شرقا واسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ورتب فيها المرابطة والجيوش ونظم شؤون البلاد وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والاناة والرفق حتى بات سلطان المسلمين أحب اليهم من سلطان الروم فكانوا عونا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب وانما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للامارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الامراء والعمال الذين كان يوليهم أمور البلاد ويوسد اليهم قيادة الجيوش ومن لنا بمثلهم ومثله فى هذا العصر بل وفى كل عصر

كلمة في العمال

اعلم ان عمران الممالك وترقي الدول يتوقف على أمرين عظيمين هما صبغة الحكومة وأمانة الرجال فالحكومة اذا كانت ذات صبغة دستورية أي حكومة مقيدة برأي الامة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الامانة فى رجالها على الخيانة والعدل على الظلم . وانما تغلب الامانة الخيانة فى رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم اذ الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والعجز يخفيه وانما يمنع النفوس ان تنزع منازع الظلم مانع القوة وهو هيمنة الشعب القانونية هذا فى الحكومات الشورية واما فى الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم أحد أمرين : اما الزاجر النفسي وهو الشعور الديني الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من باريء النفوس : واما سيطرة السلطان وهذه لاتكون فى الحكومات المطلقة الآ من أمير مستبد عادل اذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير

ومما لامشاحة فيه ان الحكومة الاسلامية فى مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مرّ من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما انها لم تخلو من صبغة استبدادية وكيف ما كان حالها فقد علمنا ان العمّال احوج ما يكونون الى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنتظم شؤون المملكة وسواء قدّرنا انّ هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة أو من قوة السلطة القانونية أو مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة أي قوة الهيمنة الشرعية ومانع الدين على ان

ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويبسط بواسطتهم للرعية بساط الطمأنينة والعدل لتتمهد للمسلمين سبل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الاسلام ويتفيئوا ظلال السكون ويتبسطوا فى مناحي العمران فما كان يختار للحكم والامارة الا أحد رجلين رجل له دين يردعه، أو رجل عنده خوف يمنعه، وكلا الرجلين بالاضافة الى غرض الرعية والامام واحد.

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الامين والقائد العظيم من الاناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لايتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته كما لم يتساهل مع غيره أيضا ممن هو في طبقته فى الورع أو من دونه فيه وذلك قياماً على أوامر الشريعة واداء لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضى الله والرعية .

روى ابن عساكر ان عمر بن الخطاب أرسل الى أبي عبيدة باربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار وقال للرسول انظر مايصنع فقسمها أبو عبيدة ثم أرسل بمثلها الى مُعاذ فقسمها معاذ الآ شيئا قالت له امرأته : نحتاج اليه فلما أخبر الرسول عمر قال الحمد لله الذي جعل فى الاسلام من يصنع هذا.

هكذا كان عمر يمتحن حتى أتقى عماله وأرفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس واحكام الشرع لهذا بلغ العدل في عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الارض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل في عمله وظلم فى حكمه بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الاسلام متمتعة بالراحة آخذة فى طريق الصعود

الى قمم السعادة الاجتماعية، والحياة المدنية، آمنة من شرور الفتن التي يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ومن تصفح تاريخ الاسلام ووقف على أخبار دوله لايرى سببا لاختلال أمر دولة قط الا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك فى الاخذ على أيديهم اما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة شأن كل الدول أيضا لادول الاسلام وحدها . وانا لنعجب من غلو بعض المؤرخين في ذم الحجاج بن يوسف الثقفي عامل دولة بني مروان على العراق وانما يحوج الى الحجاج من هو مثل الحجاج اذا العامل الخائن اذا أفسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته يثير فى نفوسها ثائرة البغضاء على الدولة ويحفظ عليها قلوب الامة فتستعصي على الحاكم ويخرج امتلاك ازمتها عن طوق الدولة الا باستعمال مثل الحجاج قوي الشكيمة قليل الرأفة هذا فى الدول المطلقة كدولة الامويين وأما فى الدول المقيدة فقلّ ان يكون شيء من هذا وذاك وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يغني عن استعمال القوة والانسان اسير الاحسان . وغاية مايرمي اليه الطمأنية والامان وحسبك شاهدا على هذا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي لما نحا فى الحكم والامارة منحى عمر بن الخطاب من حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتقاء أخيار الناس للولايات تألف قلوب الامة واستلس قياد الرعية بعد ان انفضوا من حول بني مروان ثم لم يلبث ان عاد المروانيون بعده الى سيرتهم الاولى حتى ضعف أمرهم وغلبوا على ملكهم لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك الا من نتائج اطلاق يد العمال وامعان هؤلاء فى الجور . هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الامويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل

بحيث لايخرج عليهم خارج إباء لحكمهم أو تظلما منهم وانما ذكرنا بني مروان مثالا فى الدول التي أصابها الضعف وقضى عليها سوء الادارة وجور العمال بالانحلال كما انا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد معنا من أخبار الدول في الغابر ، وعظة يتعظ بها الحاضر ، وانا والله أصبحنا فى عصر أحوج مانحتاج اليه فيه معرفة العلل التي تمكنت من جسم الدول الاسلامية فأودت بحياتها الاستقلالية الى مايعلم ويشاهد ورحم الله امرأ اتعظ واعتبر، وقوما أثر في نفوسهم توالى العبر ،

﴿ باب ﴾

﴿ اخلاقه وسيرته ﴾

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة وممن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق باخلاقه فكان متواضعا زاهدا تقيًا عاقلا رزينا لين الجانب مخفوض الجناح عالما بالشرع ذا دربة فى أمور الحرب نصوحا فى خدمة المسلمين وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انه أمين هذه الامة : ومثله مارواه ابن عساكر فى تاريخه عن عمر ابن الخطاب انه قال يوما لجلسائه: تمنوا فتمنوا: فقال عمر بن الخطاب: لكني أتمنى بيتا ممتلئا رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت(١) الاسلام : فقال ذلك الذي أردت: وأخرج عن عبد الله بن عمر انه قال: ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها اخلاقا (٢) وأثبتها جنانا (٣) ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك . أبو بكر الصديق وعثمان ابن عفان . وأبو عبيدة بن الجراح

(١) أي ما نقصته حقه (٢) عقولا (٣) قلبا

وها نحن اولاء ننقل اليك شيئاً من سيرته واخلاقه ليكون فيها موعظة وذكرى لقوم يتفكرون فمنها (في الزهد والتواضع) ما أخرجه الجزري في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه امراء الاجناد وعظماء أهل الارض فقال عمر: أين أخي ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يأتيك الآن : قال فجاء على ناقة مخطومة (١) بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس انصرفوا عنا فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته الا سيفه وترسه فقال عمر: لو اتخذت متاعاً أو قال شيئا : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ان هذا سيبلغنا المقيل

وفي رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر ان عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة اذهب بنا الى منزلك : قال : وما تصنع عندي ما تريد الا ان تعصر عينيك علي : قال فدخل منزله فلم ير شيئا : قال أين متاعك لا أرى الا لبدا وصحفة وشنا (٢) وأنت أمير أعندك طعام: فقام أبو عبيدة الى جونه (٣) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر فقال له أبو عبيدة قد قلت لك انك ستعصر عينيك علي يا أمير المؤمنين يكفيك ما يبلغك المقيل: قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة

(ومن كريم اخلاقه وجميل تواضعه) ما رواه ابن عساكر عن قتادة قال: قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى الا وددت اني في مسلاخه (٤)

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القربة (٣) جونه أي سلته (٤) أي في جلده

هكذا كان امراء الامة وأئمتها لا يرون لانفسهم فضلا على فرد من أفراد المسلمين الا بالتقوى كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الاسلام وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس تهذيبا لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة فلا يزيدهم هذا التواضع الا شرفاً وعلواً وامتلاكاً لافئدة الناس وأخذاً على شكائم أرباب العتو والجبروت حتى دانت لهم الأمم واعتلوا بدولتهم على كل الدول ومذ أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الامراء واستعمال القوة والعنف ديدن أولي السلطة انقلب بدولهم الحال الى شر مآل مما سيأتي بيانه مجملا أو مفصلاً في هذا الكتاب ان شاء الله

اذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السلطة فيها ولي الولاية لا لدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الامة ورجاء رضى الله كأبي عبيدة بن الجراح الذي مات في ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سيفه وترسه ولم يك في بيته ما يأكل الا كسيرات من الخبز فالى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك اخلاق عمالها ؛ انها ولا مراء في الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها، ونشرت على الارض اعلام نصرتها، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط لغير خالق العباد، وناطقا في ارجاء الارض ينطق بغير الضاد، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز في الارض مقامها (وتلك الايام نداولها بين الناس)

(ومن اخلاقه في الادب ولين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن

موسى بن عقبة انّ عمرو بن العاص لما كان فى غزوة ذات السلاسل فى مشارف الشام وخاف من جانبه الذي هو به بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فندب رسول الله المهاجرين والانصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب فى سراة من المهاجرين وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وأمدّ بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : انا أميركم وأنا أرسلت الى رسول الله استمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين : فقال عمرو انما أنتم مدد أمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلا حسن الخلق لين الشيمة متبعا لامر رسول الله (ص) وعهده : قال : تعلم ياعمرو انّ آخر ماعهد اليّ رسول الله أن قال اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وانك ان عصيتني لاطيعنك: فسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو بن العاص

لاجرم ان أبا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهدا بالدنيا لايعبأ بالرياسة لشرفها ولايرغب فى الامارة لذاتها بل لما فيها من الثواب في خدمة الاسلام والمسلمين. واما عمرو بن العاص فقد كان حريصا على الامارة راغبا بالدنيا والآخرة يحب الظهور ويميل الى اتيان الاعمال الكبار ليكون كبيرا عند الناس جامعا بين الاجرين أجر الاولى وأجر الآخرة كما سترى ذلك مبسوطا في سيرته ان شاء الله

ومن أدبه أيضا ما أخرجه ابن عساكر عن أبي البختري قال : قال عمر لأبي عبيدة (أي يوم السقيفه) هلم أبايعك فاني سمعت رسول الله يقول انك أمين هذه الامة : فقال أبو عبيدة كيف أصلي بين يدي رجل أمَرَهُ رسول الله ان يؤمنا حين قبض: يعني أبا بكر الصديق:

وأخرج أيضا عن جابر قال : كنت فى الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق: قال أبو عبيدة صلى بالناس فانت أحق اتيتني تمدني: قال ما كنت لاصلي قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح

(ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) ما رواه بن عساكر عن أبي الحسن عمران انّ أبا عبيدة بن الجراح كان يسير فى العسكر فيقول: ألا رب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه ، وهو لها عدوّ مهين، ادرأوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات فلو انّ أحدكم عمل من السيئات مابينه وبين السماء ثم عمل حسنةً لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن:

ربما تبادر الى ذهن القاري انّ أبا عبيدة يتغالى في الترغيب بقوله للمسلمين فلو انّ أحدكم الخ الحديث وليس الامر كذلك اذ هو يريد بتلك السيئات سيئآت الجاهلية لانه انما يخاطب قوما حديثي عهد بالاسلام فكأنما هو يريد ان يعظم لهم شأن الاسلام وانه يمحو ما قبله من سيئات الجاهلية اذا عمل أحدهم بما أمر به من اتيان الحسنات والا فلو أراد غير ذلك لكان ترغيبه الى هذا الحد غلوّا واغراقاً يتبرأ عن مثله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأيت فى فصل (لاوثنية في الاسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً في الترغيب. وكم أودى سوء الفهم لمثل هذه الاحاديث والاخبار الى تشويش عظيم في أفكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمغالاة فى الترغيب الى مدارج الاباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين انما كان منشأوه سوء الفهم

﴿ تنبيه ﴾

قد أغفلنا باب الكتب هنا لانّا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لاهل الذمة قد مرّ مثالها في هذا الكتاب للفاتحين اللهم الاّ كتاباً كتبه الى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل وقد مرت صورته في سيرة عمر وكتاباً آخر أورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله اليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخوص الى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسلمين بالشام وهذا نص الكتاب

اني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم واني قد علمت حاجة أمير المؤمنين التي عرضت لك وانك تستبقي من ليس بباق فاذا أتاك كتابي هذا فخلني من عزمتك وأذن لي في الجلوس

وقد أورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن أبي موسى الاشعري كان بودنا ايراده في سيرة أبي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر ان ابن الاثير وهّن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة

﴿ باب ﴾

(وفاته)

قلنا في باب الاحداث على عهد عمر انّ من أهمها طاعون عمواس وعمواس بين الرملة وبيت المقدس وهي على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في ستة وثلاثين ألفا من المسلمين فلم يبق منهم الا ستة آلاف رجل ومات به كثير من الاعلام منهم أبو

عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وقد اختلف في مكان وفاة أبي عبيدة فمن قائل انه في بيسان ومن قائل انه في عمواس ومن قائل انه في الاردنّ ففي أسد الغابة عن عروة بن رويم انّ أبا عبيدة انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس فادركه أجله بفحل فتوفي بها. وكذا في رواية ابن عساكر عن ابن رُويم وزاد عليها انه أوصى قبل وفاته بقوله

اقرأوا أمير المؤمنين السلام واعلموه انه لم يبق من أمانتي شيء الاّ وقد قمت به وأدّيته اليه الاّ ابنة خارجة نكحت في يوم بقي من عدتها لم أكن قضيت فيها بحكومة. وقد كان بعث اليّ بمائة دينار فردوها اليه : فقالوا ان في قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها اليه وادفنوني من غربي نهر الأُردنّ الى الارض المقدسة ثم قال ادفنوني حيث قضيت فاني أتخوف ان يكون سنة (اى بعده)

وفي رواية له أيضا عن سعيد المقبري قال : لمّا طعن أبو عبيدة ابن الجرّاح بالاردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال

﴿ وصيته ﴾

إني موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا وانصحوا لامرائكم ولا تغشوهم ولا تُلهِكُم الدنيا فانّ امرأً لو عمر ألف حول ما كان له بدّ من ان يصير الى مصرعي هذا الذي ترون . انّ الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون . وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله ، يامعاذ بن جبل صلّ بالناس : ومات فقام معاذ في الناس فقال

﴿ خطبة معاذ ﴾

بعد وفاة أبي عبيدة

يا أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فان عبدا لا يلقى الله تائبا من ذنبه الا كان حقا على الله ان يغفر له : من كان عليه دين فليقضه فانّ العبد مرتهن بدينه : ومن أصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) اخاه فليلقه فليصالحه ولا ينبغي لمسلم ان يهجر أخاه أكثر من ثلاث : والدينِ العظيم انكم أيها المسلمون فجعتم برجل ماأزعم اني رأيت عبدا أبرّ صدرا ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حبا للعامة ولا أنصح للعامة منه. فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اه

ومن تبصر فى وصية أبي عبيدة وخطبة معاذ رضي الله عنهما علم ان المسلمين انما سادوا يومئذ على الامم . بمثل هذه المناصحة وبتلك الاخلاق البارة ولانهم كانوا دائبين على التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصي بالحق أميرهم مأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصي بالحق والتناصح بالمعروف ان يسوّدهم الله على الامم كما سوّد أولئك القوم البررة النصحاء الذين خلدوا للمسلمين فخرا كاد يمحوه عن صفحات الزمان أقوام عطل من الفضيلة بعيدون عن فهم القرآن مستغرقون فى سبات الوساوس والاوهام سريعة خطاهم الى التدلي بطيئة عن الصعود لايوافق نداء المنادي منهم قلوباً واعيةً ولا آذانا مصغية لهذا قد أخنى عليهم الزمان فهم يسبونه ظلما وينسبون تقهقرهم اليه جهلا وما الزمان الا آية العبر ومستودع اسرار الأمم ومظهر سنن الله فى الخلق فهو مرشد

العاقل ومردي الجاهل وان فى هذا لبلاغا لقوم يعقلون

روى ابن عساكر ان أبا عبيدة شهد بدرا وهو ابن احدى وأربعين سنة ومات فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكتم وفي رواية انه مات ولم يعقب وفى رواية أخرى انه أعقب وانقرض عقبه رحمه الله ورضي عنه وجزاه وسائر الصحابة الكرام عن أمتهم خير الجزاء

ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل فتوفي بعده في الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص فارتفع بالناس الى الجبال فانكشف عنهم المرض

كلمة في القبور

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كالنواويس والاهرام وما شاكلهما من معالم الوثنية الأولى وانما نريد الوقوف بفكرة القارئ عند اختلاف المؤرخين فى مكان قبر أبي عبيدة كاختلافهم فى تعيين كثير من قبور رجلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم وتحلوا بتلك الشيم الشماء وبلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها أحد من الاولين ولا الآخرين . وقد بسط المؤرخون أخبار أولئك الرجال العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة فى فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا فى النفوس حاجة للاستزادة ونعم ماخدموا به الامة والدين

انّ القارئ اذا وقف بفكره عند هذا الامر وقفة المتأمل لا يلبث ان يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء أمكنتها عن نظر نقلة الاخبار ومدوني الآثار على جلالة قدر أصحابها وشهرتهم

التي طبقت الآفاق وملأت النفوس اعظاماً لقدرهم واكباراً لجلائل أعمالهم وثناء عليهم وتكريما لذكر أسمائهم وشكراً لآلائهم واعترافا بجميلهم واقرارا بفضيلة سبقهم بالايمان ونشرهم دعوة القرآن

لا جرم ان القارئ أقل ماتحدثه به النفس عند التأمل في هذا الامر ان أولئك الرجال ينبغي ان تعلم قبورهم بالتعيين، وتشاد عليها القباب العاليات ذات الاساطين، اذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الايمان وصحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام فلما أتوه من كبار الاعمال، التي تعجز عنها أعاظم الرجال، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين، ودرست اجداثهم التي تضم أكابر الصحابة والتابعين، حتى اختلف في تعيين أمكنتها أرباب السير، وعفا من أكثرها الاثر، الا ماعلموه بعدُ بالحدس والتخمين، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين، مع ان المشاهد عند المسلمين صرف العناية الى قبور الاموات بما بلغ الغاية بالتأنق في رفعها وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الامراء الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر فى الاسلام، والمتمشيخة والدجالين الذين كان أكثرهم يجهل أحكام الايمان، ولا نسبة بينهم وبين اولئك الرجال العظام كأبي عبيدة بن الجراح واخوانه من كبار الصحابة الكرام الذين تلقوا الدين غضا طريا، وبلغوا بالتقوى والفضيلة مكانا قصيا،

والجواب عن هذا ان الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم باقل تقديراً لقدر الرجال وتعظيما لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الابطال وأخيار الامة الا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الاموات وتعظيم الرفات لتحققهم النهي الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة

التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ومحو آثار التعظيم للرفات، او العكوف على قبور الاموات، ويرون انَّ خير القبور الدوارس وانَّ أشرف الذكر فى أشرف الاعمال. لهذا اختفت عمن أتى بعد جيلهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين الا ماندر ثم اختلف نقلة الاخبار في تعيين امكنتها باختلاف الرواة وتضارب ظنون الناقلين. ولو كان فى صدر الاسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الاموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ولما غابت عنا الى الآن قبور اولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجلة والمتمشيخين التي ابتدعها بعد العصور الاولى مبتدعة المسلمين وخالفوا فعل الصحابة والتابعين. حتى باتت اكثر هذه القباب تمثل هيا كل الاقدمين وتعيد سيرة الوثنية باقبح انواعها وأبعد منازعها عن الحق. وأقربها من الشرك. ولو اعتبر المسلمون بعدُ باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الاسلام لما اجترأوا على اقامة القباب على القبور وتعظيم الاموات تعظيما يأباه العقل والشرع وخالفوا فى هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدّوا الينا أمانة نبيهم فاضعناها وأسرار شريعته فعبثنا بها: واليك مارواه فى شأن القبور مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الاسدي قال: قال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله (ص) أن لا أدع تمثالا الاّ طمسته ولا قبراً مشرفا الا سويته: وفي صحيحة أيضا عن ثمامة بن شُفَيّ قال: كنا مع فَضالة بن عبيد بارض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي. ثم قال سمعت رسول الله (ص) يأمر بتسويتها (١)

(١) الاحاديث الواردة بالنهي عن تشييد القبور وتعظيمها ولعن من يتخذها

هكذا بلغونا الدين وادّوا الينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تأكيداً لعهد الامانة بدأوا بكل ماأمرهم به الرسول بأنفسهم لنستن بسنتهم ونهتدي بهدي نبيهم ولكن قصرت عقولنا عن ادراك معنى تلك الجزئيات. وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الالهي والامر النبوي القاضي بعدم تشييد القبور اتقاء التدرج فى مدارج الوثنية. فلم نحفل بتلك الحكمة وتحكّمنا بعقولنا القاصرة بالشرع فحكمنا بجواز تشييد القبور استحبابا لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقا فى الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد اذ مازلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا زفاتها بالنذور والقربات ووقعنا من ثم فيما لاجله أمرنا الشارع بطمس القبور كل هذا ونحن لانزال فى غفلة عن حكمة الشرع نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين

انتهى ماأحببنا ايراده من سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه وها نحن أولاء نشرع بسيرة سعد بن أبي وقّاص الذي هو من مشاهير الدولة العمرية فنقول



مساجد ويقصدها بالنذور كثيرة قد استقصى الكلام عليها كثير من الأئمة المصلحين كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وامثالهما فلتراجع في مظانها من كتب القوم كالواسطة واغاثة اللهفان وغيرها

سعد بن أبي وقاص

باب

حاله في الجاهلية

نسبه وأصله

سعد بن أبي وقّاص واسم أبي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب (كما فى أسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي الزهري يكنى أبا اسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس

مكانته عند قومه
(وصناعته)

كانت صناعة سعد بن أبي وقاص كما تقدم في صدر الجزء الاول بري النبل. وأما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم نقف على شيء منها الا ان مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه فانه كان قبل الهجرة غنيا موسرا ويستدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روي في الصحاح والسنن) عن سعد انه شكى في مكة مرضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قد بلغ مني الوجع ماترى وأنا ذو مال ولا يرثني الا ابنة أفأوصي بثلثي مالي: قال لا: قال فبالشطر قال لا: ثم قال «الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا أجرت عليها»



باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

سعد بن أبي وقاص من السابقين الاولين الى الاسلام الذين وافقت دعوة التوحيـد منهم قلوبا واعيـة فبادروا لقبولها مبادرة الظمآن للماء . والعليل للدواء . والنفس الحساسـة من طبعها تتململ من الشرك وتتألم من عبادة الاوثان وانما هي تترقب نورا ينقشع عنه ظلام الوثنية ومعينا يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركيـة. وتتوصل لاطراح الآصار الجاهلية . وسعد رضي الله عنه لم يلبث ان طرق سمعه داعي السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة فى الاسلام

روي ابن عساكر في تاريخه وابن الاثير في أسـد الغابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت أبي يقول : رأيت فى المنام قبل ان أسـلم بثلاث كأني فى ظلمة لا ابصر شيئا اذ أضاء لي قمر فاتبعتـه فكأني انظر الى من سبقني الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى عليّ بن أبي طالب والى أبي بكر وكأني أسألهم متى انتهيتم الى هاهنا قالوا السـاعة : وبلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته فى شعب اجياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمني أحـد الأ هم : وروى ابن عساكر ان سعدا أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة

ليس العجب من مبادرة سعد الى الاسلام بعد ان استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبائل الوثنية وانما العجب من هـذا الدين الذي مادخل قلبا الا تمكن منه تمكن الروح من الجسم .

ورسخ فيه رسوخ الاطواد فاستحال ان تدكه العواصف أو تسطو عليه الاغراض شأنه مع المسلمين الاولين ومن بعدهم الى هذا اليوم . وان مانال الصحابة من الاذى وماعانوا من أنواع الشدائد فى سبيل تمسكهم بعروة الاسلام الوثقى والتفافهم على صاحب الشريعة الغرا لما تنوء به الجبال ومع هـذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع . ولم يمنعهم عن المضي في سبيل الهدى والرشاد مانع . ومن هـذا القبيل ماروى عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هـذه الآية فيّ (وانْ جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلاتُطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) قال كنت رجلا براً بأمي فلما أسلمتُ قالت: ياسعد ماهذا الدين الذي أحدثت لتدعنّ دينك أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيّر بي : فقال لاتفعلي ياأمت فاني لاأدع ديني : قال فمكثت يوما وليلة لاتأكل فاصبحتْ وقد جهدتْ فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني هذا الشيء : فلما رأت ذلك أكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : أخرجه ابن الاثير فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن أبي عثمان النهدي : وفى أسد الغابة عن ابن اسـحاق : قال كان أصحاب رسول الله (ص) اذا صلوا ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينا سعد بن أبي وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله (ص) فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه فكان أول دم أهريق فى الاسلام : وللصحابة الاولين من مثل هـذا اخبار كثيرة تدل على صبرهم على المكاره وتحملهم ضروب الاهانة من المشركين استمساكا

بحبل الاسلام ووفاء بعهد الايمان وايقانا بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

(صحبته)

كان سعد بن أبي وقاص من خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صحبة مخلص فى ايمانه وجاهد بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه اذ شهد معه المشاهد كلها وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث وكان ممن ثبت معه يوم أحد وقاتل دونه قتال الابطال . وروي عن الزهري انه قال: رمى سعد يوم أحد ألف سهم: وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه اذ قال له « ارم فداك أبي وأمي ارم أيها الغلام الحزوّر » (١) : رواه فى أسد الغابة عن علي بن أبي طالب (رض)

وعابه يوما بنو أسد فى الكوفة فقال راداً عليهم : اني لاول العرب رمي بسهم فى سبيل الله والله ان كنّا لنغزو مع رسول الله (ص) مالنا طعام الا السمر وورق الحبلة حتى ان كان أحدنا ليضع كما تضع العنز (وفى رواية الشاة) مابنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرني (٢) على الدين لقد خسرت اذًا وضلّ عملي : رواه ابن عساكر وابن الاثير عن قيس بن أبي حازم: ومن أجمل مايؤثر عنه فى صحبته مارواه ابن عساكر عن عبد الله بن

---

(١) الغلام الحزوّر أي القويّ (٢) قوله السمر وورق الحبلة كلاهما شجر وقيل ان الاول هو شجر الطلح والثاني نبات يشبه اللوبياء. وقوله كما تضع الشاة أى كما ترعي يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام أن كانوا يرعون ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله مابنا خلط الخلْط والخلِط بسكون اللام وكسرها التملق وقوله تعزرني من العزر وهو اللوم او التوقيف على باب الدين واحكامه كما فى القاموس

عامر بن ربيعة انّ عائشة قالت : سهر رسول الله مقْدَمهُ المدينة ليلةً فقال «ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة» فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال « من هـذا » فقالوا : سـعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله (ص) «ماجاء بك» فقال سعد وقع فى نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه : فدعا له رسول الله : قالت فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه في نومه

وهذا يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر في تلك الليلة بخطر على النبي (ص) كما شعر النبي بذلك أيضا فبادر ليحرسه بنفسه ويقيه أذى عدوّ شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون فى خدمته ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته واعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء

وقد كان من حب رسول الله لسعد أن دعا له ان يسدد رميته ويجيب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المحدثون كثيراً من الاخبار فيمن أصابته دعوة سعد رضي الله عنه

باب

حروبه وفتوحاته

قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قريش وكماتهم لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس أن أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه: انه الاسد عاديا: كما رأيت في خبر مسير سعد الى العراق فى الجزء الثاني فانتهى عمر الى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الاسلامية فى حرب

الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى الى شَراف وهناك عشّر الناس وأمّر على أجنادهم وعبّاهم وفرق المسالح في الاطراف وسد الفروج المخيفة ولما أتم لكل شيء عدته ارتحل الى القادسية وهي المكان الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد مرّ تفصيل الخبر عن مسير سعد الى القادسية في سيرة عمر ونشير هنا الى ما كان بعد وصوله القادسية من أخباره مع الفرس فنقول

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) الى كسرى يزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا ان أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا

علم يزدجرد من وقائع العرب الاولى مع جيوشه التي دحرت في العراق ايام خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ان العرب بعد الاسلام ليسوا العرب قبله وان القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الابل أصبحوا من رعاة الامم وقادة الفتح فلا ينفع معهم الا الجد ولا يقاومون الا ببذل الجهد في اعداد العديد والعدة فاستدعى اليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب الرأي فيها وقال له اني أريد اني أوجهك في هذا الوجه فانت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله

كان رستم صاحب رأي ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى ان مقامه مع كسرى لتدبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه ضنًّا بها عن مواقف الخطر. فرغب الى يزدجرد استبقاءه في عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأي وكان مما قاله له يومئذ: ان العرب لا تزال

تهاب العجم مالم تضربهم بي ولعلّ الدولة أن تثبت بي اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر، والاناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا:

فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال: قد اضطرني تضييع الرأي الى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك في نفسك وملكك دعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك والا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بداً صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فإني لا أزال مرجواً في أهل فارس مالم أهزم: فأبى الا ان يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط: وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر فكتب اليه ان يستعين بالله ولا يجزع وان يرسل الى يزدجرد أولاً يدعوه الى الاسلام كما مر الخبر عن هذا في سيرة عمر رضي الله عنه: فارسل سعد نفراً من أهل الرأي منهم النعمان بن مقرّن وبُسر بن أبي رُهْم وحَملة بن حويّة وحنظلة بن الربيع وفرات بن حيان وعدي بن سهيل وعطارد بن حاجب والمغيرة بن زرارة بن النباش الاسدي والاشعث بن قيس والحرث ابن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنّى ابن حارثة دعاة. فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد فحبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم واحضر الترجمان وقال له سلهم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا؛ أمن أجل انّا

تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال:

انّ الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة الا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر ان نبتديء الى من خالفه من العرب . فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ماجاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا ان نبتديءُ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف. فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسّن الحسن. وقبّح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرّ منه. الجزية . فان أبيتم فالمناجزة (الحرب) فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على ان تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وان بذلتم الجزي قبلنا ومنعنا كم والاّ قاتلنا كم :-

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لفكر ولا دين يرى انّ أصول الدعوة الى الأسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الامم بلا إجبار ولا اكراه الا مايصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها وإظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر الا بقوة أهله. والانسان أكثر مايخضع للحس دون الوجدان الاّ من اطرّح رداء التقليد، واطلق عقله من قيود الاوهام، فوضع كل مايرد عليه موضع المحاكة والنقد، وهؤلاء عددهم قليل، فى كل أمة وجيل

لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان فأجابه بجواب فظ يظهر

فيه امتهانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم بعد ان كانوا من أفقر الشعوب وأدناهم وأجهلهم : فأجابه المغيرة بن زرارة بان ماوصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق الا انه قد كان ذلك قبل الاسلام وأما بعده فالحال صار غير الحال. ثم دعاه الى مادعاه اليه النعمان من قبول الاسلام. أو يدفع الجزية عن يد وهو صاغر. أو السيف . فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وقال ارجعوا الى صاحبكم وأعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بانفسكم بأشد مما نالكم من سابور : فتقدّم عاصم ابن عمرو وقال أنا سيد هؤلاء وحمل التراب على عاتقه وخرج الى سعد وقال أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم

قال يزدجرد لرستم بعد ان فارقه الوفد ما كنت أرى انّ في العرب مثل هؤلاء . ما أنتم باحسن جوابا منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمرا ليدركُنّهُ أو ليموتنّ عليه. على اني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه : فقال رستم أيها الملك انه أعقلهم وتطير من ذلك

والعجيب فى هذا الخبر ان يعتقد يزدجرد ان القوم وعدوا أمرا هم مدركوه ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتهانه لهم واحتقار أمرهم وهذا بلاريب من الخرق في الرأي والتناهي فى الكبرياء الباطلة وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك ويحدث قومه به : ولاجرم ان أكثر مامهد للمسلمين يومئذ طريق الفتح والغلبة على الامم هو استصغار شأنهم من ملوك الارض

وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الامة البدوية قبل الاسلام من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة على انه كان فى مظاهرهم واخلاقهم بعد الاسلام ما يكفي لاعتبار أعدائهم بتغير أحوالهم وينذر بعلو شأنهم على من سواهم ولله فى هذا شأن هو بالغه

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الاطراف ومناوشة مسالح الفرس وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس فى فى أربعين ألفا وخرج هو فى ستين الفا وجعل على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران وكتب الى أخيه البنذوان فى مرمة الحصون واعداد العدة ثم سار فنزل بكوثي وأتي له هناك برجل من المسلمين فقال له ماجاء بكم وماذا تطلبون: فقال جئنا نطاب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم ان أبيتم ان تسلموا: قال رستم فان قتلتم قبل ذلك: قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ماوعده فنحن على يقين: فقال رستم قد وضعنا أذن فى أيديكم: فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس انما تحاول القدر: فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعاث جيشه في النواحي وغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهل برس الى رستم: فقال يامعشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا الا أعمالنا. والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم. ان الله كان ينصركم على العدوّ ويمكّن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان. فاذا تغيرتم فلا أرى الله الاّ مغيراً مابكم وما أنا بآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم: ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه

وأنت ترى من هذه الحكاية الى أية درجة بلغ فساد النظام وفشو مرض الظلم والفوضى فى أمة الفرس يومئذ ولا تثريب على عرب العراق اذا أعطو بأيديهم الى المسلمين الذين رأوا منهم من حسن الاخلاق والمحافظة على الحقوق والقيام على العدل مالم يُرَ من فاتح قبلهم قط

اقام رستم بالعراق دون القادسية نحو أربعة أشهر ولا يكون بينه وبين المسلمين حرب الاّ بعض المناوشات التي كانت تقع بين بعض جنوده وسرايا المسلمين ثم عزم بعد هذه المطاولة على قصد سعد وهو بالقادسية فسار وقدم امامه الجالينوس وكان يطاول المسلمين رجاء ان يضجروا بمكانهم فينصرفوا الاّ ان الملك استعجله وانهضه: وكان عمر (رض) كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضا فأعد للمطاولة عدتها فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى أعتدوا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الابيض

دعوة المسلمين الى الآخاء والمساواة وما نشأ عنها

لما اصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ولما هاله مارأى من جمعهم مع ماخامر فوآده من قبل من الخوف منهم أرسل الى زهرة ابن الحوية وهو من سادات بني تميم فوافقه فأراده على ان يصالحه ويجعل له جعلا على ان ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك بل يقول له كنتم

جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم: ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة : ليس أمرنا كامر أولئك . انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه : فقال لرسوله اني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لايرغب عنه احد الا ذل . ولا يعتصم به أحد الا عز : فقال رستم: ماهو ؟ قال: اما عموده الذي لايصلح الا به فشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله : قال وأي شيء أيضا قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وام: قال ما أحسن هذا ! ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال أي والله : قال صدقتني أما ان أهل فارس منذ ولي ازدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم : فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا:

من تأمل في هذه المحاورة علم ان دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الاخاء والمساواة واعتاق الطبقات الدنيا من رق العبودية لاسيما في الامم القديمة التي كانت دولها عريقة في الاستبداد واشراف ممالكها مستعبدين للشعب كان أصعب شيء على الامراء والملوك قبول هذه الدعوة لما يتوقعونه بعدها من وجوب كف يد القهر والقوة التي هم باسطوها على الناس لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الاسلام

ويزجون بالعامة في غمار الحروب لادفعا عن الدولة بل منعا عن الخير واستئثارا بالسلطة وتشبثا باسم السيادة المطلقة على الشعب بدليل ماسمعت من هذه المحاورة وما نتلوه عليك من تتمة ماكان من الخبر عن رستم فانه بعد ان سمع ماسمع من زهرة أحب ان يسمع اشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ماسمع لعلهم ينزعون الى اطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ليكونوا جميعا اخوة في الدين سواء امام العقل والعدل : فدعا رجال فارس وذاكرهم في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك لهذا أرسل الى سعد ان ابعث لنا رجلا نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم اليهم فقال له ربعي بن عامر متى نأتهم جميعا يروا انا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل : فارسله وحده فسار اليهم في أبسط زي من اللباس والعدة واقتحم بفرسه بساط رستم ونمارقه ثم دنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على البسط والنمارق فسئل ماجاء بكم؟ فدعاهم الى الدين أو الجزية أو الحرب وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهله لينظر وقومه في هذا الامر فامهله ثلاثا فقال له : وهل انت سيد قومك ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم : فخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من كلام هذا الرجل؟ ترغيبا لهم في اجابة دعوة الاسلام : فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكلب اما ترى الى ثيابه ؟ فقال ويحكم لاتنظروا الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم :

ولعل رستم استمال امراءه بعد ذهاب ربعي بن عامر أو أراد تردد

رسل المسلمين عليه رجاء اقتناع قومه منهم فلما كان من الغد ارسل الى سعد بن أبي وقاص ان أبعث الينا ذلك الرجل : فبعث اليهم حُذيفة بن محصن فاقبل في نحو زي سابقه ووقف على رستم راكبا قال : انزل: فأبى فقال له ماجاء بك ولماذا لم يجيء الاول ؟ : قال : انّ أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء : ثم سأله رستم عما جاء بهم فأجابه مثل الاول فصرفه ثم بعث من الغد ان أبعثوا الينا رجلا : فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره فاقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (مرمى سهم) لايوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها «أقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انّا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم «أي تساوونهم بانفسكم والخطاب كما لايخفى للامراء» كما نتواسى فكان أحسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، واني لم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول :

قال المغيرة ماقال على ملأ الناس بين جندي وأمير وهو يسمع بصوته الجهوري كل الناس فسرى كلامه في الرؤس كما تسرى الشرارة الكهربائية في الاسلاك وانتفض لها القوم كما ينتفض العصفور بلله القطر

ماذا كان بعد هذه الهزة الكهربائية . والدعوة الاسلامية ؟ كان انّ السفلة هبوا هبوب المستيقظين من سبات عميق فنادوا : صدق والله العربي

فيما قال : واما لدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اوّلينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة : ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أي أشراف البلاد وسادة الامة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم كما رأيت من قول أولئك الدهاقين الاّ ان أصروا على الحرب ورفض مادعاهم اليه المسلمون فافضى ذلك الى زوال دولتهم وذهاب ملكهم وانما حال بينهم وبين الاسلام واستبقاء مالكهم في أيدي ملوكهم حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التي أرادهم على تركها المسلمون وعيّرهم بها المغيرة وسابقوه . وكم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمر من الممالك وليس اشأم على البشر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل في رجالها حب الاستبداد وبسط يد القهر على طبقات المحكومين ، واستمحل فيها شأن الاشراف فكانوا أربابا والرعية مربوبين ، تساق بأيديهم الى حيث تلاقي الحتوف وتعاني أنواع الشقاء

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشراف الفرس وغيرهم من الامم القديمة فجاء الاسلام يدعو الى الحرية وان البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وانما أمر الشعوب في الامم القديمة الى أشرافهم كما رأيت فهم لامرائهم تبع ولذوي السيطرة عليهم مقلدون قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة اولئك الجبارين ، فلن تصل اليهم دعوة الاسلام الى المساواة في الحقوق والاخاء في الدين ، وعدم التفاضل الاّ بالعلم ، الاّ بارهاب قادتهم ، وقهر سادتهم ، فهل يؤخذ على الاسلام وهذا شأنه في اسعاد البشر ان جعل أساس الدعوة الموعظة وحياطتها

القوة ، لا والله ان فى هذا لمنتهى الحكمة بالاضافة الى اخلاق تلك الامم وحياتهم التي هي ذل محض ولّده طول الصبر على الضيم والرضوخ لسيطرة الامراء الجائرة وسلطانهم القاهر حتى أصبح ملكة من ملكات النفوس تظهر حيناوتختفي آخر واليك الدليل

دعا المسلمون رجال الفرس الى مادعوهم اليه فأبوا واستكبروا ومنشأ الاباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية والخوف من محو آية التفاضل أو النهوض بالسفلة الى مقام الحرية لذي يلحقهم بالاشراف ويقضي على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال فزجوا بالعامة فى غمار الحرب والحتوا بدولتهم الهلاك : لهذا اذا نظرنا الى الدعوة الاسلامية يومئذ نجد انه قد نشأ عنها امران عظيمان ـ أمر ظهر أثره فى الحال ، وأمر ظهر أثره في الاستقبال ،

فأما الامر الذي ظهر أثره فى الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للاسلام ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم خوفا من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل أيدي الاشراف حتى كان من ذلك توقف انتشار الاسلام بالدعوة الا بعد حمايتها بالقوة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحوا آثار الوثنية من البلاد : .

وأمّا الامر الذي ظهر أثره فى الاستقبال فهو ان الرضوخ لسيطرة الاشراف لما صار ملكة فى نفوس الاعاجم كانوا لها أطوع ، واليها أميل ، ولما بسطت عليهم دولة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الاسلام اغتبطوا حينا بسلطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب فى الشرق والغرب وتفرقت عصبيتهم في أنحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهراني الاعاجم وأفضوا

الى هؤلاء بأمور الملك وشاركوهم في شؤون الدولة بحكم الوحدة الاسلامية والجامعة الملية ، نزع الاعاجم الى سيرتهم الاولى ونبض فيهم عرق القوّة فتحزبوا احزابا تناويء الدولة العربية وتحاول هدم أركان حكومتهم الديموقراطية واستبدالها بحكومة الاشراف الارسطوقراطية ولم يروا اعون لهم على هـذه البغية الا الدعوة لآل البيت النبوي الشريف فبثوا منهم الدعاة فى الآفاق الاسلامية يدعون لآل البيت فى السر تارة والعلانية أخرى حتى تمكنوا من كبد الدولة المراونية واوغروا عليها صدور الامة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية فكان ماكان من تتبع هؤلاء لاهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين فتألبوا على قلب دولتهم مرارا عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الامور لانصارها من الاعاجم الذين لم يلبثوا الا جيلا أو بعض جيل حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعماؤهم ملك العباسيين العريض فأعادوا سيرة الاشراف الاولى لافبح ماكانت عليه من قبل فى سوء الاحدوثة والايغال فى الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس وسنلم بشيء من هذا البحث فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

وقائع القادسية

دعا رستم قومه الى مسالمة المسلمين بعد كلام طويل جرى بينه وبين المغيرة فأبوا عليه وأراد سعد ان يباشر الحرب انذاراً للقوم آخر مرة فأرسل ثلاثة من ذوي الرأي الى رستم يدعونه وقومه الى الاسلام: فقالوا له ان أميرنا يدعوك الى ماهو خير لنا ولك ، والعافية ان تقبل

مادعاك اليه ونرجع الى ارضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك وليس بيننا وبين ان تغبط بهذا الامر الآ ان تدخل فيه

هذه كانت آخر دعواهم له ان يقبل الاسلام ويحتفظ بدولته ومَلكِه ومُلكِه ويبقى فى أرضه ويرجعون الى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعليهم لايضارون فى ملكهم ولايمس جانب سلطانهم ولهم مع ذلك الحماية والدفع من المسلمين. ان هذا لغاية لانصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا فى حمأة الوثنية واستناموا لزعماء الجور . لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة مجاراةً لزعماء الامة وقادة الجيش ودهاقين البلاد فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وانذر المسلمين بالحرب وهو فى باطن الامر لايريدها ولم يتقدم لها الا مكرها عليها عالما بمصير قومه بعدها فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعدا : أتعبر الينا أم نعبر اليك ؟ فأجابه ان اعبر وارسل سعد الى المسلمين ان يقفوا مواقفهم ويأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا وعبر اليهم الفرس من العتيق وجعل رستم بينه وبين يزدجرد بريدا ينقل الخبر بالصوت أي وضع رجالا في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث اذا نادى الواحد يسمعه الآخر فيصل الخبر الي يزدجرد فى أقرب وقت

كان بسعد يومئذ مرض عرق النسا وقروح فى أليتيه لايستطيع الركوب فبقي على سطح القصر وهو مكب على وجهه فى صدره وسادة يشرف على الناس والصف فى أصل حائطه فعابه بعض الناس بذلك وذكره فى شعره وقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره　　وسعدٌ بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة　　ونسوة سعدٍ ليس فيهن أيّم

فبلغت أبياته سعدا فقال اللهم ان كان هذا كاذبا وقال الذي قال رياء وسمعة فاقطع عني لسانه ثم نزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من ذوي الرأي والنجدة منهم المغيرة بن شعبة وطليحة الأسدي وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وأمر سعد الناس بقراءة سورة الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم : فلما كبر سعد الثالثة خرج أهل النجدات فانشبوا القتال ودارت رحى الحرب واعتور الطعن والضرب وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها . وأرسل سعد الى بني أسد ورئيسهم طليحة ان دافعوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد فى كتائبها فباشروا الفيلة وقام الاشعث ابن قيس فى بني كندة فحرضهم على القتال فلما رأى الفرس مايلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحى الحرب

تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فارسل سعد الى عاصم بن عمرو التميمي ان يكفيه وقومه شر الفيـلة فتقدم عاصم بجماعة من شجعان قومه ورماتهم فقطعوا وضن الفيلة فعوت وفرت برجالها ونفس عن أسد فردوا جنود فارس عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هـدأة من الليـل ثم رجع الفريقان وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم - وهو يوم أرماث - بلاء عظيما

لما أصبح القوم في اليوم الثاني - وهو يوم اغواث - وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم واما القتلى فدفنوا هنالك و بيناهم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعها القعقاع ابن عمرو الذي قال عنه أبو بكر : لا يهزم جيش، فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب الى أبي عبيدة بارسال أهل العراق الى العراق كما تقدم في سيرته فارسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أخي سعد ويعرف بالمرقال وكان القعقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هـذا اليوم وهو يوم أغواث فعهد الى أصحابه وهم الف ان يتقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة . ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع ثم خرج وهو ينادي ياثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وطلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القعقاع ثم خرج البنذوان والفيرزان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان أحـد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ثم مازال يتبارز الاقران حتى انتصف النهار فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم فكان من حسن مكايد القعقاع ان بات تلك الليـلة يسرب أصحابه الى المكان الذى فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان أقبل هاشم (يعني ببقية الجيش الآتي من الشام) فذاك والا جـددتم للناس رجاء وجـداً وأصبحوا على مواقفهم فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبّر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى اليهم هاشم بن عتبـة بن أبي وقاص فأُخبر بما صنع القعقاع فعبّى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم حتى اذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم الى العتيق وكان الفرس باتوا يعملون توابيتهم ويعدون فيلتهم واقبلت الرجالة تحميها ان تقطع وضنها فلم تنفر الخيـل منهم كما كانت بالامس لان الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها وكان يوم عماس شديدا على العرب والفرس وقاتل فيـه القعقاع وعمرو بن معـد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو واضرابهم من انجاد المسلمين قتالا شديدا وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها وما زل القتال دائرة رحاه حتى أمسوا فلما امسى الناس اشتـد القتال وكانت ليلة الهرير وكان الفرس لا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير اذن سعد وكان اول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقـد أذنت له ان لم يستأذني: ثم ان سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الاولى تقدمت أسد ولله در أسد على حسن بلائها في هذه الحرب

فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم: ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وامراء الاعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ولما كبر سعد الثالثة تلاحق الناس بعضهم ببعض وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالا بعد ما صلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتمى الناس (اي انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الاعلون وان المسلمين هم الظافرون وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائدا ... اربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الاساودا ... حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا

وأصبح الناس من تلك الليلة التي تسمى ليلة الهرير وهم حسرى لم يغمضوا اجفانهم فسار القعقاع فى الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ولا هؤلاء (يعنون الفرس) أجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فأخرا وثبتا حيث انتهيا وانفرج القلب وركب عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم فهوت فى العتيق وانتهى القعقاع ومن معه الي السرير وقد قام عنه

رستم وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ونادى الي الي قتلت رستم فأطاف به الناس وانهزم قلب الفرس فقام الجالينوس على الروم ونادى الفرس الى العبور واما المقترنون بالسلاسل فتهافتوا كلهم فى العتيق وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كابيان وهو العلم الاكبر الذي كان للفرس (مر خبره في سيرة أبي بكر) فعوض منه ثلاثين ألفا ونفل سعد سلب رستم لقاتله هلال

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة واما من قتل من الفرس فعدد كبير يبالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرة الفرس وفل حدهم وتشتت جندهم ودخول الوهن على نفوسهم كما كان ذلك مع الروم فى وقعة اليرموك . والغريب فى هذا ان عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشاكل عدة الفرس العريقين في المدنية الماهرين فى الصناعات لاسيما فى الادوات الحربية حتى لقد روى المؤرخون ان الفرس كانوا يشبهون سهام العرب بالمغازل فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال: حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) نعني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا:

وقد غنم المسلمون فى القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ولما جمعت الاسلاب والاموال جمع شيء لم يجمع قبله مثله وأمر سعد القعقاع وشرحبيل بن السمط باتباع الفارين وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم فى ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وامعنوا فيمن لحقوه قتلا وأسرا ورؤي

شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسرى من الفرس وهو دليل على ما أصاب القوم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتال المسلمين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان

رأي سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحويّة وليس له ان يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك فكتب الى عمر في ذلك فأخذ عليه عمر استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب اليه : تعمد الى مثل زهرة وقد صلّى (سبق) بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حر بك ما بقي تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة : ونعم ما فعل عمر رضى الله عنه فقد انصف الرجل من جهة ونبه سعداً من جهة ثانية الى وجوب تألف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكا لقلوبهم وتقديرا لقدر خدمتهم

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية ما رأوا من ظفر المسلمين وهالهم أمر الاسلام استأمن قسم عظم منهم على ان يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جند شهانشاد (ولعلهم من الحرس الملكي) استأمنوا على ان ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الذي سألوه وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف : نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان وهي اذا صحت تدل على جواز استخدام الذميّ في الجند الاسلامي اذا طلب ذلك ولا يعترض هنا ان الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين فان عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها فقد روى البلاذري أيضا عن جعفر

ابن محمد عن أبيه قال كان للمهاجرين مجلس في المسجد «للمشاورة» فكان عمر يجلس معهم ويحدثهم عن ما ينتهي اليه من أمر الآفاق « ليستشيرهم في الامور » : فقال يوماً ما أدري كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله (ص) انه قال «سنوا بهم (أي بالمجوس) سنة أهل الكتاب »

ومن هذا الحديث نعلم ان المجوس في المعاملة الشرعية كأهل الكتاب لهذا عاملهم عمر رضي الله عنه معاملة أهل الكتاب

﴿ فتح المدائن ﴾

عاصمة الاكاسرة

انّ وقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيدا للوصول الى عاصمة الاكاسرة التي كانت أم البلاد الفارسية ومعقل الاسرة الكسروية لهذا كان ما كان من سعد في القادسية من طول التأني والتريث في أمر الحرب وأخذ العدة ومطاولة العدوّ حتى أضجر رستم من طول المكث وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليائس من الظفر بعد ان رأى ما رأى من ثبات العرب ورزانتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب: ولما انتهى أمر القادسية الى ما انتهى اليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وان يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفاً وان يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لايام بقين من شوال سنة خمس عشرة وقدم امامه عبد الله بن المعتم

وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط فلقيهم في برس جمع من الفرس فهزمهم المسلمون ففروا الى بابل وفيها فلة القادسية ولما هزموا اقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فارسل زهرة الى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال بن أخيه واتبعهم هو ببقية الجيش فنزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون وكان فيهم عدة من القواد الكبار منهم النخيرخان والهرمزان ومهران فانطلق هؤلاء القواد كل الى جهة فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من الفرس في كوثي فهزموهم ثم ارتحلوا الى بهرشير وهي المدائن الغربية فلما وصلها المسلمون ورأوا الايوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى . هذا ماوعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة وكان نزولهم عليها في ذي الحجة سنة خمس عشرة وانما كانوا يكبرون لتحقق وعد رسول الله لهم بملك كسرى : والذي أخذ بافئدة العرب فاستكانوا للدعوة واخلصوا للاسلام النية وتفانوا في سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك انما هو تحقق وعد النبي (ص) لهم بمصير ملك فارس والروم اليهم حتى ان هذا الامر كان من أعظم البواعث على اخلاص كثير من المنافقين وحسن اسلامهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من اعوان الاسلام وقادة الفتح بعدُ : ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين

نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو شهرين وهم يرمون العدو بالمجانيق ويدبون اليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل

عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقا حتى ضيقوا على أهلها الحصار وباتوا في ضنك شديد فأكلوا الكلاب والسنانير وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم وبالنهاية غادروا المدينة وقطعوا الى المدينة الثانية فاخذها سعد وأنزل المسلمين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة

أقام سعد في بهرشير اياماً من صفر وهو يفكر في كيفية العبور الى المدينة الثانية التي فيها ايوان كسرى فأتاه علج فدله على مخاضة تخاض الى صلب الفرس فأبى وتردد عن ذلك لان النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد فجاءه آخر وحرضه على العبور وقال ان بقيت ثلاثة أيام فان يزدجرد يذهب بكل شيء في المدائن فهيجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون ان تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأي ان تجاهدوا العدو قبل ان تحصدكم الدنيا . ألا اني قد عزمت على قطع هذا النهر اليهم :

فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس الى العبور وقال: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فقدمهم عاصم بستين فارسا على الخيل الذكور والاناث ليكون أساس لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة

فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطّعنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها. أذن للناس بالاقتحام وتلاحق الناس فى دجلة حتى اذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والالطاف شيئا كثيرا مع ماكانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم وذكر المؤرخون عما وجد فى بيت المال مقدارا فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف الف الف الف وقد نقل هذا العدد ابن الاثير عن الطبري والطبري أعقل من ان لايحكّم العقل في ايراد مثل هذا العدد وانما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس اذ وجود ثلاثة آلاف ألف أي ثلاثة آلاف مليون بلا تكرير ثلاثة مرات أمر يستبعده العقل فكيف به لو كرر وقد رأينا كثيرا من أمثال هذه الروايات الكاذبة فى التاريخ وانما يظهر كذبها بقليل من التبصر والامعان ومعظمها ناشئ عن التحريف في النقل والمسخ فى النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً الا حامية القصر الابيض وهؤلاء استأمنوا فى الحال ودخل سعد الايوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ولم يغير مافيه من التماثيل وانه ليصلي بالناس والتماثيل قائمة فيه: وقرأ سعد يوم دخوله الايوان « كم تركوا من جنات وعيون وزرع » الآية

وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه

وناهيك بذخائر الاكاسرة. وقسم الفيء على الجند فاصاب الفارس اثني عشر ألفا وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالاخماس الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال: انّ قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له عليّ رضي الله عنه انك عففت فعفت الرعية

ولا جرم فانه مع اقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ وامتلاء ايديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس اليهم كانوا على جانب من عزة النفس والامانة والتعفف قل ماصدر عن جيش من جيوش الفاتحين وخذ لك مثلا على ذلك ان رجلا من المسلمين أقبل يومئذ بحق (علبه) الى صاحب الاقباض فقال ومن معه: ما رأينا مثل هذا مايعدله (يماثله) عندنا ولا مايقاربه: فقالوا: هل أخذت منه شيئا ؟ فقال: والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من أنت ؟ فقال والله لاأخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه : فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله ان الجيش لذو امانة ولولا ماسبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت منهم هناة ماأحسبها من هؤلاء :

وقال جابر بن عبد الله : والذي لااله الا هو ماطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كامانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح

الى هذا الحد بلغت العفة والامانة من المسلمين يومئذ وانما كان الباعث لهم على ذلك أمور منها جدة الدين والاخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ماحصل واعتباره انه نعمة عظمى بالنسبة لما كانوا عليه

قبل الاسلام من شظف العيش وضنك الحياة يضاف الى هذا سذاجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية حتى لقد روي ان بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ملحا وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الامانة والاخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب حتى اثنى الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب :

لما أستتم لسعد فتح المدائن واستقرّ به المقام أرسل في أثر المنهزمين زهرة بن الحوية الى النهروان وأتاه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على الجزية ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى اذ هذا صار فيئا للمسلمين

ثم سيّر جيشا عليه عبدالله بن المعتم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمرو والخلاف بين المؤرخين في فتح الموصل هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ أم كان علي يد عبد الله بن المعتم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ والارجح ان فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص وفتح عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم لان عياضا تولى فتح الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة عمر في اخبار فتح الجزيرة فليراجع

وسيّر سعد جيشا الى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة القادسية ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى وكان كسرى قد فرّ منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء فنزلها القعقاع في جند من

الامناء والحمراء (أي متطوعة الاعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبقي القعقاع فيها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا. ويظهر من هذا ان المسلمين لما توسعوا في الفتح اضطروا بحكم الضرورة الى مشاركة الاعاجم في الامور الحربية والادارية بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الاعاجم ثم تسليمه ولايتها الى الي قباذ أيضا. على ان مشاركة الاعاجم في أمور الفتح وتدبير شؤون البلاد يومئذ من أحسن مارمت اليه سياسة المسلمين لان القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجميلة فيكونون عونا للمسلمين في تدويخ البلاد وتدبير أمور السياسة ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الاعاجم كانت من ممهدات الفتح وأسباب سرعة انتشار الاسلام ورفع اعلامه في أقاصي البلاد اذ تسامح الفاتح وملاينته لاهل البلاد وتخصيصهم بشيء من السلطة من أعظم الاسباب الممهدة سبيل الظفر للفاتحين

أتم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما عهد اليه من فتح المدائن وفل جيش الفرس في القادسية وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم فانحدرت من شاهق مجدها المتأثل فيما بعد الى هاوية الخراب حيث قامت مقامها في تلك الاصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبعث أشعة التمدن الاسلامي العظيم

وإذا نظرت الى البلاد رأيتها   تشقى كما تشقى البلاد وتسعد

على انّ ماضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم تضمه المدائن في عهد الدولة الساسانية . والفضل في هذا لسعد واضرابه من اقيال الصحابة السابقين ورجال خلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين

باب

تخطيط الكوفة

وامارته عليها

اقام سعد بالمدائن بعد الفتح فأضر بالعرب وخامتها وكان أوفد منهم بخبر الفتح وفداً الى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم عن السبب فأخبروه انه وخومة البلاد فكتب الى سعد أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني و بينكم فيه بحر ولا جسر: فارسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الانبار فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة وسار حذيفة فى شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة (و كل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها فصليا ودعوا ان تكون منزل ثبات ورجعا الى سعد بالخبر فكتب سعد الى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم ان يستخلفا على جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة فى المحرم سنة (١٧ هـ) وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر وقيل أكثر فلما نزلها كتب الى عمر ، فكتب اليه بالبناء على الوجه الذي تقدم فى سيرة عمر (رض) وأقام سعد واليا على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف وكان حسن الامارة كثير التتبع لاحوال الرعية منصفا بين المسلمين شديدا على المعتدين : وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال فوفد عليه مرة عمرو بن معد يكرب الزبيدي فسأله عنه فقال : متواضع فى خبائه، عربي في نمرته، أسد فى تاموره، (عرينه) يعدل فى القضية، ويقسم

بالسوية، ويبعد فى السرية، ويعطف علينا عطف الام البرة وينقل الينا حقنا نقل الذرة ،

الا أن أهل الكوفة لما أخلدوا الى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد ويظهر التحزب وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لادلالهم بالفتح وطول معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص وألبوا عليه وكان أكثرهم من بني أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح بن سنان الاسدي . وكان مما عابوه عليه انه لا يحسن الصلاة . فبعث عمر محمد ابن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس فى نهاوند فسأل عن سيرته فى الكوفة فكلهم قال خيرا سوى من مالأ الجراح فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأ ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عبس فسألهم فقال أسامة بن قتادة : اللهم انه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل فى القضية، ولا يغزو فى السرية : فقال سعد: اللهم ان كان قالها رياء وكذبا وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فاصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد على أولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح اذ قطع بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضى الله عنه ليغتاله بساباط

وخرج محمد بسعد وبهم معه الى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر : فقال كيف تصلي يا سعد : قال اطيل الاولين وأخفف الاخريين: فقال هكذا الظن بك يا أبا اسحق : ثم ان عمر دفعاً للفتنة فى وقت يريد به تجهيز الجيوش لنهاوند حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل سعدا وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأراده عمر على الامارة مرة ثانية فأبى وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون اني لا أحسن أصلي : ولما طعن عمر أوصى الخليفة بعده ان يؤمر

سعدا فأعاده عثمان رضي الله عنـه الى الكوفه ثم عزله لانه اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضا وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيرا ولا تلعن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة فاعتزل في منزله في العقيق قرب المدينة : وقدمنا ان عمر رضى الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميرا من قبله على الكوفـة شاطره ماله فقال له سعد لقد هممت قال عمر : بأن تدعو علي ؟ قال : نعم قال : اذاً لاتجدني بدعاء ربي شقيا

باب

نبذ من اخباره

واعتزاله الفتنة

(صدقه في الحديث) كان سعد رضي الله عنه صادق الحديث صادق الرواية لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد عن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مسح على الخفين وانّ عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : اذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنـه غيره : وفي رواية : فلا تبتغي وراء حديثه شيئا .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث ان كان يضن بالرواية خوف التحريف ونقل مالم يقل في رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد الى مكة فما سمعته يحدث حديثا عن رسول الله (ص)

حتى رجعنا الى المدينة : وروى عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستعجم فقيل له في ذلك فقال اني أكره ان أحدثكم حديثا فتجعلوه مائة حديث :

ومن البديهي ان سعدا ماقال هذا القول الا لأنه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ومنهم عمر وأبو عبيـدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ووضع الحديث ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما في أيام الفتن العظمى التي ثار ثائرها بين المسلمين عـذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والنهي عنه الا ماتعلق منه بالاحكام وحسب الأمة ماأصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الاحاديث التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتعزيز جانبه ولو لم يكن من البلاء الا ما دخل في نفوس العامة ووقر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لكفى ذلك وهنا على الامة وهونا على الامة وهونا لها الترك عامتها التذرع بالاسباب عند حلول كل حادث جلل اعتمادا على ظهور ذلك المنتظر وطالما تظاهر أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة باكاذيبهم المفتراة ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة الا زيادة في البلاء وسفكا للدماء وتفريقا بين الامة وتشتيتا للكلمة ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الاخبار المفتراة ويزدجر عن غي النفس واضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الاخبار . وما أصاب الامة من جرائها شاهد عدل يشهد بأنهم لم يريدوا بها للاسلام خيرا . ومن كان هذا شأنه فاحرى به ان لايحشر مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدي وماجرت من المصائب على الامة نرجئه لمحل آخر

وكلام أعم منه يجول فى الضمير ويحجم عنه اللسان أدبا مع أسلافنا الغابرين وتفاديا من تهجم الجاهلين

(ومن محاسن أقواله) مارواه ابن عساكر عن المدائني قال : قال سعد لابنه: اذا طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فانه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال :

(ومن جميل خلق سعد) مارواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد فقال: مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا :

وما أخلق باهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين والاخذ على أيدي المغتابين كما صنع سعد رضي الله عنه اذ ليس أفسد للقلوب وأفصم لعرى التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الافراد من الغيبة والنميمة، وشر الناس الذين هم شرٌّ على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائبون على الوشاية. ومن أراد ان يعلم مصير الاقوام الذين يتفشى بينهم هذا الداء العضال والمرض القتال مرض الوشاية فليطلق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الاسلامية ليرى من تباغض الافراد وتناكر القلوب وتداعي أركان العمران وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والاخاء الجنسي والديني مالا دليل على سوء مغبة النميمة أعظم منه

واعلم انه وان كان أكثر مايؤثر على حياة الامم ويبعث على زوال الدول هو فساد الاخلاق عامة الا أن لفعل هذا الخلق « أي خلق النميمة والسعاية » خاصة أثرا قبيحا فى الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد

الاخلاق وفقد التربية لانه اذا فشا في قوم فأكثر ماينزع اليه الامراء توصلا بزعمهم الى اكتناه كنه القلوب ووقوفا على ضمائر الرعية وهيهات ان يجدوا وسيطا لنقل أخبار الناس اليهم الا من انغمس فى حمأة الشر واطّرح رداء الحياء وغلب عليه حب الشهرة وفقد المروءة وتجرد عن الفضيلة فيسعى فى التفريق بين الامير والمأمور والحاكم والمحكوم لزلفى يريدها ودناءة يتوخاها وفى هذا من المضرة مالا يخفى على أعمى فضلا عن البصير اذ كلمة سوء واحدة تلقى لسلطان جائر مثلا تكفي لهدم ملك كبير، واستشراء شر عظيم، وقيام فتن عمياء، تضطرب لها الدهماء، كما سيمر عليك مفصلا فى محله من هذا الكتاب ان شاء الله

(ومن أخباره فى القادسية) ما رواه صاحب الاغاني ان عمر بن الخطاب كتب اليه ان فض ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن فأتاه عمرو بن معد يكرب فقال له : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ فقال اني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن : قال مالك في هذا المال نصيب : وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : مامعك من كتاب الله؟ قال بسم الله الرحمن الرحيم. فضحك القوم منه ولم يعطه شيئا فقال عمرو في ذلك :

اذا قُتلنا ولا يبكي لنا أحدٌ   قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوية من طعن له نفذٌ   ولا سوية اذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسية ناقتي   وسعدُ بنُ وقاص عليّ أميرُ
وسعد أمير شرّه دون خيرهِ   وخير أمير بالعراقِ جريرُ
وعنـد أمير المؤمنين نوافل   وعنـد المثنّى فضة وحريرُ

تذكّر هداك الله وقعَ سيوفنا ... بباب قُديسٍ والمكرّ عسيرُ
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير
اذا ما فرغنا من قراع كتيبة ... دلفنا لاخرى كالجبال تسيرُ
ترى القومَ فيها أجمعين كأنهم ... جمال بأحمال لهنّ زفيرُ

فكتب سعد الى عمر رضي الله عنه بما قال لهما وما ردّا عليه وبالقصيدتين فكتب اليه ان أعطهما على بلائهما . فاعطى كل واحد منهما الفي درهم

﴿ اعتزاله الفتنة ﴾

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلي وطلحة ومعاوية والزبير التي تحزّب فيها المسلمون احزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها عقل الحكيم حائرا بين الاقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها وبين الاحجام عنها والقاء اخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى في ثناياها . لالانها أول بادرة بدرت فى الملك وفتنة ظهرت فى الدول كلاّ ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود احزاب ينصرون النازع الى الملك واعوان يتبعون القوّة أو يناضلون عن صاحب الحق فى كل قوم وعصر . وانما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية فى الدول اذ مادامت شؤون البشر لاتستقيم الا بالوازع والمجتمعات لاتقوم الا بحاكم يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها فالخلاف على رئاسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه

فى كل أمة وجيل وتنازع البقاء فى الملك أمر طبيعي كما هو فى كل الاشياء كما سنفيض فى هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة وانما اجتزأنا عنه بهذه المقدمة تمهيدا لما سيتلوه من الكلام فى غير هذا المحل ان شاء الله

رأى سعد بن أبي وقاص ان الامة انقسمت فى أمر الخلافة الى احزاب كل حزب يرى ان صاحبه على حق، وانه بالخلافة أحق، وان الامر لاينقضي الا بالمغالبة بين النفر المتطامين الى الخلافة وهذا يجر الى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب وان فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوم ملوم فيها وليس فى طوقه رتق فتق فتقه الطموح الى الخلافة وسد ثلمة اندفع منها تيار الامة فلم يسعه الا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى ينجلي الغبار وتنتهي الامور الى حدها، ويعود السيف الى غمده ، فاعتزل خارج المدينة وأمر ان لايخبروه بشيء حتى يجتمع الناس على امام

واعلم انّ سعداً من الحقيقين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر وقد كان له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها لا عن ضعف بل عن حب للسلامة وتجنب للانغماس فى الدماء يدلك عليه ان ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا ان يدعو الى نفسه وقال له ابن أخيه ان مائة الف سيف تريده على الخلافة فأبى

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم انّ هاشما قال له : ان ههنا مائة الف سيف يرونك انك أحق الناس بهذا الامر : فقال أزيد من مائة الف سيف سيفاً واحداً اذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئا واذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده الى علي بن أبي طالب فكان فى أصحابه وقاتل معه

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد انه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال: أي بني أفي الفتنة تأمرني ان أكون رأسا لا والله حتى أعطى سيفاً ان ضربت به مسلما نبا عنه وان ضربت به كافرا قتله

وانما يريد بهذا انه يعلم ان المتقاتلين جميعهم من أهل الاسلام وانه من صدق ايمان الجميع الظاهر وليس له ان يعلم السرائر ليقاتل الباغي بسيفه فاذا قتله فلا يأثم ولا يلام

ولما اشتد الامر على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعانى من شيعته ماعاناه من أعدائه قام على منبر الكوفة فقال: قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتموني: فقام اليه فتى آدم فقال: انك والله مانهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا فلما كان منها ماتكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقال علي: وما أنت وهذا قبحك الله والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلا فلما ظهرت الفتنة نجمت فيها نجوم قرن الماعز: ثم التفت الى الناس فقال يغبط سعدا وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة: لله منزل نزله سعد وابن عمر لئن كان ذنبا انه لصغير مغفور وان كان حسنا انه لعظيم مشكور، (أخرجه ابن عساكر)

وأمّا معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة وكانهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض، وكان كتب الى سعد بن أبي وقاص ماصورته:

سلام عليك اما بعد فانّ أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين اثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الامر ونظيراك في الاسلام وخفت لذلك أم المؤمنين

فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا وانما نريد ان نردها شورى بين المسلمين والسلام:

فأجابه سعد بماصورته:

أما بعد فإنّ عمر لم يدخل في الشورى الا من تحل له الخلافة فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه الا باجتماعنا عليه غير انّ عليّا كان فيه مافينا ولم يكن فينا مافيه ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو بأقصى اليمن. وهذا الامر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره. وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما. والله يغفر لام المؤمنين ماأتت: وفي هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين ما يعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم وتبرأه بتاتا من أمرهم. وروي انه كتب اليه أبيات شعر ولعلها كانت جوابا لكتاب آخر كتبه اليه وهي

معاوي دواؤك الداء العياء   وليس لما تجيء به دواءُ
أيدعوني أبو حسن عليّ   فلم أردد عليه مايشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيرا   تميز به العداوة والولاء
أتطمع في الذي أعيا عليّا   على ماقد طمعتَ به العفاء
ليوم منه خيرٌ منك حيّاً   وميتا أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الابيات ان قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما لكنه رأى الحياد أسلم فلزمه واعتزل بحيث لايكون له ولا عليه وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال: ما بكيت من الدهر الا ثلاثة أيام يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويوم قتل عثمان. واليوم ابكي على الحق فعلى الحق السلام: رواه ابن عساكر)

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال له أين كنت فى هذا الامر ؟ فقال: انما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسيرون فاصابتهم ظلمة فقالوا : أخ أخ : فقال معاوية مافى كتاب الله : أخ أخ : ولكن فى كتاب الله « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بَغَتْ احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تَفِيْءَ الى أمر الله » فبايعه سعد وما سأله شيئاً الا أعطاه (أخرجه ابن عساكر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر وربما جاء معنا فى غير هذا المحل ان شاء الله

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال له : السلام عليك أيها الملك : فضحك معاوية وقال ما كان عليك ياأبا اسحق لو قلت: ياأمير المؤمنين ؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكا والله ماأحب اني وليتها بما وليتها به : يريد انه وليها بالسيف لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له «أيها الملك» استخفافا بشأن الملك وتعظيماً للخلافة التي ذهبت مع الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

باب

وفاته وصفته وولده

اجمع أهل الاخبار على ان سعدا رضى الله عنه اعتزل بعد الفتنة فى منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال : كفنوني فيها لاني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي عليّ وانما كنت أخبأها لهذا :

ولما مات حمل من العقيق على اعناق الرجال حتى أتى به المسجد فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان ابن الحكم وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين . وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة وأما على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته ابن ثلاث وثمانين سنة . وهو آخر العشرة الكرام موتا وترك سعد ثروة حسنة لانه كان غنيا. قيل انه ترك مائتين وخمسين الف درهم : وعن بنته عائشة انه أرسل مرة الى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم

صفته

قال الواقدي قالت عائشة بنت سعد كان أبي رجلا قصيرا دحداحا غليظا ذا هامة شثن الاصابع (١)

ولده

قال ابن قتيبة . ولد سعد عمر : ومحمد : وعامر : وموسى : ومصعب وعائشة : وغيرهم : فأما عمر فقتله المختار بن عبيد لانه كان أميرا على الجيش الذي حارب الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتله : وأما محمد فخرج مع الاشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً : وأما عامر فكان يروى عنه الحديث ومات سنة أربع ومائة : وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث ومائة وقد روي عنه الحديث : وممن أعقب من أولاده عمر : ومحمد : وموسى

(١) قوله دحداحا أي قصير أو قوله شثن الاصابع أى خشنها

انتهى ماأردنا ايراده من سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
ويليه عمرو بن العاص وهوآخرمن نذكرسيرته من أشهرمشاهير الرجال فى دولة عمربن الخطاب رضي الله عنه

عمرو بن العاص

باب

(حاله فى الجاهلية)

— نسبه وأصله —

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي وكنيته أبو عبد الله وقيل : أبومحمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عترة (وقيل عنزة) وأخوه لامه عمرو بن أثاثة العدوي . وعقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري: وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكهة بن المغيرة. ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت الى العاص بن وائل فولدت له فانجبت فان كان جعل لك شيء فخذه (١)

(صناعته ومكانته في قومه)

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا فى صدر الجزء الاول جزاراً ثم كان يختلف بالتجارة الى الشام ومصر ويقال ان سبب توجه فكره لفتح مصر هو ذهابه مرةً الى الاسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها واما مكانته عند

(١) كان عمرو بن العاص يعيّر بأمه لانها كانت سبية لهذا قال للسائل ماقال

قومه فقد كانت عالية لشهرته بالدهاء والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب فى الجاهلية وقالوا ان دهاتهم فى الاسلام عمرو بن العاص . والمغيرة بن شعبة. وقيس بن سعد بن عبادة . وأخباره فى الدهاء كثيرة ستأتي فيمايلي من سيرته ان شاء الله

باب

اسلامه وصحبته

اسلامه

تأخر اسلام عمرو بن العاص الى ماقبل فتح مكة بستة أشهر أي سنة ثمان من الهجرة وأما سبب اسلامه فان قريشا أرسلته الى النجاشي فى طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له ياعمرو؟ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله انه لرسول الله حقا ؛ قال: انت تقول ذلك : قال أي والله فأطعني فخرج من عنده مهاجرا الى النبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي « ص » وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشي يكيد أصحاب رسول الله عنده وكانت له منه ناحية فقال له : ياعمرو تكلمني فى رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران قال : وكذلك هو أيها الملك؟ قال نعم : قال فانا أبايعك له . فبايعه له على الاسلام ثم قدم مكة فلقي خالد بن الوليد فقال :مارأيك قد استقام الميسم والرجل نبي : قال خالد: وأنا أريده (وقد كان

خالد علي أهبة المهاجرة اليـه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : فخرجوا فقدموا على النبي « ص » قال محمد بن سـلام قال ابان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لاستدبر أمرهما فبايعا على ان لهما ماتقدم من ذنوبهما . فاضمرت على ان أبايعه على ماتقدم وما تأخر فلما أخذت بيده بايعته على ماتقدم ونـسيت ماتأخر

وفى رواية له أيضا عن الحافظ أبي نعيم ان أصحاب عمرو لما بلغهم اسلامه أخذوه فغموه فافلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي اسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه :

وبالجملة فان عمرو بن العاص أسلم بعد طول اناة وبعد ان تحققت لديه نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع الى الاسلام بعد اذ ظهرت كلمة أصحابه ظهورا لايخفى على من له قلب أو القى السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام» رواه ابن عساكر فى تاريخه

واعـلم انما أبطأ بعمرو وأضرابه من قريش عن الاسـلام التقليـد والاستمساك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة فى النفوس لاينزعها الا أحد أمرين اماطول المعالجة والصبر، واما القوة والقهر، وهي ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس فلاتصل اليه الاّ بعد عناء شديد، واحجام طويل، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذى تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام وانما أبطأبهم عن قبول

الاسلام تسلط العوائد واستحكام ملكة التقليد يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ماأبطأ بك عن الاسـلام وأنت أنت في عقلك : فقال انّا كنا في قوم لهم علينا تقـدم وبين توازن حلومهم الجبال ماسلكوا فجاً فتبعناهم الا وجدناه سهلا فلما أنكروا على النبي «ص» أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا فى أمر النبي «ص» وتدبرناه فاذا الامر بين فوقع فى قلبي الاسلام فعرفت قريش ذلك فى ابطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا الي فتى منهم فقال : أبا عبد الله ان القوم قد ظنوا بك الميل الى محمد: فقلت له: ياابن اخي ان كنت تحب ان تعلم ماعندي فموعدك الظل من حرا : فالتقينا هناك فقلت اني أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم : قال اللهم بك نحن : فقلت أفنحن أوسع معاشا وأعظم ملكا أم فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع فى نفسي انّ مايقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن في الآخرة باحسانه والمسيء باسائته . هذا ياابن أخي الذي وقع فى نفسي ولا خير في التمادي فى الباطل : وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاولين : فقال له عمرو وما أعجبـك ياعمر من رجـل قلبه بيد غيره لايستقر التخاص منـه الا الى ماأراد الذي هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحبته

ان عمرو بن العاص وان كان ممن تأخر اسلامهم الا انه كان حسن الصحبة محبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد روي عنه انه قال ماعدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقته باسلامهما وكفاءتهما فى أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم فى مصر والشام بعدُ

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيسا على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك فى غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها فى سيرة أبي عبيدة لما نازعه ثمة على الامارة . وقد أظهر فى هذه الغزوة من الكفاءة وحسن المكيدة ماحمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى ابن عساكر عن اسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن العاص ان رسول الله بعثه الى ذات السلاسل فسأله أصحابه ان يأذن لهم ان يوقدوا النار ليلا لبرد أصابهم فمنعهم . فكلموا أبا بكر ان يكلمه فى ذلك فاتاه . فقال لابي بكر لايوقد أحد منهم نارا الا ألقيته فيها : فلقوا العدوّ فهزموهم فأرادوا ان يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش الى رسول الله شكوه اليه فقال : يارسول الله اني كرهت ان آذن لهم ان يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم : وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم (أي للعدو) مدد فيعطفوا عليهم : قال فاحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان واليا على الصدقة وان يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فآمنوا وكان الذي ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندى وكان الملك منهما جيفر فاسلما وخليا

بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الاغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيما هناك حتى أتاه نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبي بكر مختوما وفيه : ان لايحل عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لايعقل عقالا عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاثم خرج على القوم فاعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطرمت نار الردة شخص الى المدينه ومرّ منصرفه من عمان بمسلمة فدعاه الى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله انك لتعلم اني أعلم انك كذاب : ثم انصرف فمر بقرة بن هبيرة وقال له قرة : انّ العرب لاتطيب لكم نفسا بالاتاوة : فأجابه جوابا يدل على بعد نظره وقوة جنانه اذ أظهر استهانته بردة العرب وهدد قرة بالحرب احتقارا لشأن العرب واظهاراً للجلد الذي هو أنفع شيءٍ للمسلمين فى مثل موقفهم ذلك وقد مرّ الخبر عن ذلك فى سيرة أبي بكر رضي الله عنه

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعا فى اسلامه وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وسترى فيما يلي ان شاء الله : الا انه أخذ عليه دخوله فى غمار الفتنة العظمى وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي فى محله ان شاء الله



باب

حروبه وفتوحاته

فتح مصر وبرقة

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية والفتح الذي فتحه في فلسطين لما كان أميرا على جيش من جيوش المسلمين ثمة فلم نرَ حاجة لاعادة ذكر ذلك وانما نأتي هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب لانفراده بهذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم مآثر ذلك الرجل الكبير في الاسلام فنقول

كان عمرو بن العاص محباً للامارة طامعاً للعلا ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الاعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات يدلك عليه اقدامه على دخول مصر بجيش قليل وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (ان عمرا لجريء الجنان وفيه اقدام وحب للامارة فاخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والامارة أو في دخوله غمار الفتنة علم انه رجل قلّ ان تنجب بمثله الامهات لولا طمع فيه ربما أوخذ احيانا عليه . على انه لم يكن طمعه في دنيات الامور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأي قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدويخ ملك الفراعنة بجيش يقل عن الاربعة آلاف مقاتل يريد ان يقهر به أمة كان يربو عددها عن العشرة ملايين وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها

ان الذي أطمع عمراً بمصر ذهابه اليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات أرضها ولكن اقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل انه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام ان دولة الروم دالت وقواها خارت وان الله موف وعده للمسلمين قلّوا أو كثروا وان جدة الدين والدولة ونزوع العرب الي الفتح وتكاتفهم على اعلاء شأن الاسلام فرصة لا ينبغي للعاقل تركها واستمهال عزيمة النفس في انتهازها فاقتحم البلاد اقتحام الواثق بالنصر العارف بأساليب الحرب المعتمد على كفاءة جند المسلمين الواقف على شؤن البلاد فافتتحها من أدناها الى أقصاها ورفع اعلام الاسلام على ربوعها فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر

قلنا فيما سبق ان سبب رغبة عمرو في فتح مصر هو دخوله اليها في الجاهلية ووقوفه من أحوالها على ما يجب . وقد نقل المقريزي عن ابن عبد الحكم في سبب دخول عمرو الى مصر ما خلاصته ان عمراً قدم الى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش فاذاهم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح. وكان عمرو يرعى إبله وإبل اصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم، فبينا عمرو يرعى ابله اذ مرّ به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها. فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمرو : ماهذه ؟ فاخبره عمرو

انه رماها فقتلها . فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية : وسأله عما أقدمه هذه البلاد فاخبره انه قدم مع أصحابه للتجارة فرغب اليه ان يصحبه الى الاسكندرية ليكافئه على عمله فأبى وما زال به حتى قبل ان يصحبه الى الاسكندرية بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعهده معه وانطلق الى أصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظروني ولكم عليّ ان أشاطركم على النصف مما آخذ : وأخذ منهم معه واحدا يأنس به فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه . ومضى الى الاسكندرية فنظر الى كثرة مافيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيداً عظيما يجتمع فيه أشرافهم في ملعب مشهور ولهم كرة من ذهب يترامون بها فمن وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ماوصفها به من مضى منهم وكان الشماس ألبس عمراً ثوب ديباج وأجلسه مع القوم فى ذلك المجلس حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الاّ هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا؟ هذا مالا يكون أبدا : ثم ان الشماس وفى بما وعد به عمراً وجمع له من أهل المدينة الفي دينار وأصحبه برسول ودليل فانطلق عمرو الى أصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو الى مصر فى الجاهلية وسواء صحت هذه الحكاية اولم تصح فانه ليس فيها شيء من الغرابة الاقولهم

عن الكرة ان القوم اختبروا أمرها واعتقدوا ان من وقعت فى كمه هذه الكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل او ان بعض الامارات التي يتناولها الاشراف كامارة الجيش مثلا كانت لاتعطى الا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخوا العرب فى النقل : وبالجملة فالذى أثار في نفس عمرو الرغبة فى فتح مصر هو ماسبق له من دخولها والوقوف على أحوالها وأحوال اهلها يضاف اليه ماغرز فى نفسه من حب الامارة والاقدام على جلائل الامور كما قال عنه عثمان رضى الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر فى سيرة عمر بن الخطاب (رض) عن كيفية مسير عمرو الى مصر وكان أول موضع قوتل فيه الفرما (١) قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه : وقيل انه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وانّ ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة جدا . وفى رواية ان فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتنيس ثم تقدم عمرو ولا يدافع الاّ بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها

(١) اختلف المؤرخون فى موقع الفرما فمنهم من قال انها كانت على البحر الرومي ومنهم من قال انها على بحيرة تنيس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه والمرجح انها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقريزي عن يحيى بن عثمان قال كنت مرابطا في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله . ويظهر من رواية ابن خرداذبه في الممالك والمسالك ان بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط اربعة وعشرون ميلا

حصارا شديدا ونقل المقريزي عن الواقدي ان المقوقس زوج ابنته ارمانوسه من قسطنطين ابن هرقل وجهزها بأموالها وحشمها لتسير اليه حتى يبني عليها في مدينة قيسارية (من سورية) فخرجت الى بلبيس واقامت بها وأرسل أبوها جندا الى حدود الشام كي لا يتركوا أحدا من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة ان يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب في قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بلبيس حاصرها حصارا شديدا وقاتل من بها وقتل منهم زهاء الف فارس وانهزم من بقي الى المقوقس وأخذت ارمانوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمي فسر بقدومها . وكان هذا العمل من عمرو عملا جميلا يدل على حسن سياسة وبعد نظر

ثم ان عمرا سار من بلبيس الى بابل اوباب ليون وهو حصن كان بناه الفرس ايام تملكهم لمصر وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة او الفسطاط ويقابله على ضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الاعيرج وكان المقوقس مع الحامية أيضا وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فمنهم من قال الاعيرج ومنهم من قال الارطبون ومنهم من قال المقوقس ومنهم من قال ان المقوقس كان في الاسكندرية كما اختلفوا في أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري والذي ظهر لي ان الاعيرج والارطبون قائدان لان احدهما وهو الارطبون كان على جيوش الروم

في بيت المقدس وفر الى مصر لما أخذها المسلمون

وأما المقوقس فهو أمير مصر بلا ريب من قبل الروم وكان قصدي استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جلية أمره لكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب انكليزي الفه حديثا أحد علماء الانكليز وهو الدكتور بطلر في تحقيق من هو المقوقس اغنانا عن معاناة البحث وخلاصة حكم المؤلف في هذا الكتاب على ماجاء في المقتطف ان المقوقس كان واليا وبطريركا على مصر من قبل الامبراطور هرقل وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذا لا يكون الا لمن بيده قوة السلطة الدينية على ان القرائن التي تحتف اخبار المقوقس مع القبط ومخابراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريركا نافذ الكلمة في القبط . وكلمة صاحب القبط التي جاءت في تواريخ العرب ومخابرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعوته وقومه الى الاسلام كافية لتأييد ماذهب اليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لا يخلو من فائدة فليراجعه من أحب

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم ولما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمده بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم رجل مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد . وقيل ان الرابع كان خارجة ابن حذافة وكان عمرو يومئذ في عدة قليلة فكان يفرق أصحابه ليرى العدو انهم أكثر مما هم وقيل ان الزبير جاءه بأثني عشر الف مقاتل : ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم

اقبلا يسيرا فلم يلبث الزبير ان ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر أخذه وابطأ الفتح وكان الزبير رضي الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : اني أهب نفسي لله أرجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما على جانب الحصن ثم صعد فأمرهم اذا سمعوا تكبيرة ان يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من ان ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم ان العرب اقتحموا جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط الى الجزيرة (أي جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك

وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه كما رأيت لهذا ينكر بعضهم الفضل لعمرو بن العاص فى فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر لان فتح البلاد كلها انما كان بحسن قيادة عمرو ودربته ولم يكن عمرو باقل شجاعة من الزبير أيضا رضي الله عنهما وعن كل رجال الفتح فان لكل منهم فضيلة فى عمل وخدمة جليلة للاسلام

رأى المقوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم وعلى انهم لا يزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير اليهم البلاد فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث الى عمرو يقول : انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل (وكان

الوقت وقت الفيضان) وانما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على ما نحب وتحبون وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم

ولما أتت الرسل الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين ثم ردهم وارسل معهم للمقوقس يقول :

انه ليس بيننا وبينكم الا احدى خصال ثلاث اما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم .فالجزية وأما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا و بينكم وهو خير الحاكمين

علمنا ان عمراً حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه لعلمه ان سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم واتعاظهم وتسليمهم بالايدي للمسلمين وقد أصاب عمرو بهذا الامر المرمى ولم يخطيء فى الظن اذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا :

«رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة. والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم .وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم. ولا السيد منهم من العبد. واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد. يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم»:

هذه الاخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من اقدار القوم وملأت منهم قلوب الاعداء وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصدوه فكانت الشعوب لاتلبث ان ترى سيرتهم وتسمع باخلاقهم فتعطيهم أيدي

الطاعة وتترك اليهم مقاليد الامور توخيا للسلامة ورضى بسيادة قوم ذلك حالهم وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لوان هؤلاء استقبلوا الجبال لازالوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم تغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقووا على الخروج من موضعهم . ثم ارسل الى عمرو ان يبعث اليه من يكلمه بشأن الصلح فبعث عبادة بن الصامت : وقيل بل طلب منه الاجتماع به وكان مما بعث به اليه قوله:

اني لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت الي بها . فأبى ذلك من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي أن أفتات عليهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم ورجعوا الى قولي فاعطني امانا اجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه :

فاستشار عمرو أصحابه وكانو عرفوا جانب الضعف من القبط وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بان لايجيبه الى الصلح وكان عمرو ينزع اليه ويعرف فائدته فاخبرهم بعهد عمر اليه في ان من اجابة الى خصلة من الثلاث يصالحه : ثم اجتمع عمرو بالمقوقس واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر اعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر

من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وان لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم في شيء منها فشرط ذلك كله على القبط خاصة . وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار « اثنى عشر مليون »

هكذا نقل المقريزي رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية في سياق خبر الصلح مع المقوقس وفي هذا نظر لايخفى على بصير اذ أن الذي يظهر من سياق الاخبار ان صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين لان من البلاد ما أخذ عنوة بعد عقد الصلح . وعلي تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل ان يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين مع ان البالغين الحلم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم ان يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليون . وهو بعيد عن الصواب . لاسيما وقد جاء في بعض الروايات ان جزية مصر وخراجها معاً بلغا على عهد عمرو بن العاص الفي ألف دينار « مليوني دينار » . ومنها مارواه البلاذري في فتوح البلدان عن يزيد بن أبي حبيب قال : جبى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفي ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح « في خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : ان اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها : قال: ذلك لانكم أعجفتموها :

والفرق بين هذه الرواية والرواية الاولى عظيم كما ترى على انه جاء

في بعض الروايات أيضا ان الذى جباه عمرو هو اثنى عشر مليوناً والذي جباه ابن أبي سرح أربعة عشر مليونا. وكما يضطرب الفكر فى مقدار تلك الجزية يضطرب أيضا فى قولهم ان الصلح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط فى أسفل مصر وأعلاها واحصوا بالايمان المؤكدة مع ان هذا منقوض بالبداهة التي تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقريزي فى فتح الاسكندرية . ان عمرو بن العاص انما صالح المقوقس لما فتح الاسكندرية وهكذا قال الطبري وابن خلدون وهو الاقرب للتوفيق بين تلك الروايات إذ ما نخال وقوع هذا الاحصاء سواء صح عدده أو لم يصح الا بعد فتح الاسكندرية وبقية البلاد واجراء الجميع مجرى الصلح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب في انه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم وروى البلاذري ان قرى من مصر قاتلت فوقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة : وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج الى تمحيص وربما نعود اليه في الكلام على حالة مصر الاجتماعية ان شاء الله (١)

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه شرط المقوقس للروم على ان يُخيَّروا بين الرضى بما رضي به القبط. وبين اللحاق ببلاد الروم. وكتب

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذي أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا فى باب أخباره فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس فى كتاب العهد على أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا العهد أي اذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح : وبهذا انحل الاشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الاحصاء

المقوقس الى ملك الروم بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم في الاسكندرية وغيرها فاعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم الى الاسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس بيده ويد القبط للمسلمين مع انه يوناني الاصل وأكثر الروم وقتئذ أبوا ان يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين فى كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بعثهم لاتمام فتح البلاد

والذى يظهر للمتأمل فى أخبار فتح بابليون ان نظام الدفاع فى البلاد المصرية كان مختلا جدا اذ ان عمرو بن العاص كان قليل الجند ولا يسعه ترك حامية من جنده فى البلاد التى افتتحها في دخوله الى مصر لتحفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام فهو بالضرورة جاء بكل جيشه الى بابليون واصبح في قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك في سورية لانكفأوا عليه من اطراف البلاد وحاصروه في مستقره حصاراً لامناص له بعده من الموت أو التسليم ولعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس وكان عمال الاطراف كل واحد منهم مستبدا على الآخر يعد أسباب الحيطة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الامر من أهم الاسباب التي دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والامان للقبط كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضا ـ منها نفور القبط من سلطة الكنيسة الشرقية وتأففهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة

التخلص من الرضوخ لسيادتهم بعد ان دوخوا الشام وازعجوا دولة الروم وقهروا الامبراطور هرقل وكسرى يزدجرد يدلك على هذا اجتهاد المقوقس في منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم في سورية خوفاً من ان يفت ذلك في عضدهم ويدخل الوهن والفزع على نفوسهم

ومنها وهو الاهم تواتر الاخبار عن حسن سيرة المسلمين في البلاد التي افتتحوها واطلاقهم لاهلها حرية الفكر والدين وعدم مسهم بشيء من الاذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك في هذا الكتاب

وهذا مادعا البطريرك بنيامين الى ممالأة عمرو وتحريضه القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ومحتمل أيضا ان تكون مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لانه من أصل مصري وكان ميالا للاستقلال منذ دخول الفرس الى مصر كما يقول جبون لولم يوهن هذا الرأي اجماع أكثر المؤرخين على أنه من أصل يوناني وجبون يقول انه كان من أشراف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على ان الدكتور بطلر يرى ان نفوذه على القبط انما كان كبيراً لانه كان والياً وبطريركا معاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم

لما بعث الامبراطور الى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده وأعلمهم انه لم يصالح المسلمين الا صوناً لمصلحة البلاد بسبب ماعرف عنهم من القوة والشجاعة وماسبق لهم من قهر الامبراطور وجيوشه في سورية وما شاهده بنفسه من اخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم أني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه واني لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولي

ورأيي وتتمنون لو كنتم أطعتموني وذلك اني رأيت وعاينت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم ان يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة : ثم اقبل المقوقس الى عمرو فقال له: ان الملك قد كره مافعلت وعجزني وكتب الي والى جماعة الروم ان لانرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أوتظفر بهم . ولم أكن لاخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقدتهم . وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال ـ لاتنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني مالزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ماعاقدتك عليه فهم متمون لك على ماتحب ، وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيدا فانهم أهل ذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت ان تأمرهم ان يدفنوني بجسر الاسكندرية :

فأنعم عليه عمرو بذلك وأجابه الى ماطلب على ان يضمنوا له الجسرين ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية فتم له ذلك وصارت القبط له أعوانا كما جاء في الحديث

وأنت ترى ان هذا الكلام يوهم ان الصلح تم مع كل القبط في أعلا مصر وأسفلها مع ان عمرا تمم بعد فتح بابليون فتح البلاد التي لم تذعن بالطاعة كما أشرنا اليه قبل فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على امراء الروم بعدم التسليم والطاعة ومحاربة المسلمين أم كان الذين

دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التي في البلاد . واليك بقية أخبار الفتح فمحّصها ان شئت

روى البلاذري ان عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله ابن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط . ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى الفيوم والاشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . ووجه عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهلة . وبنا . وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر الى سائر قرى أسفل الارض ففعل مثل ذلك . فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج

وذكر المقريزي ان الذي بعثه عمرو الى دمياط هو المقداد بن الاسود وان الذي بعثه الى الفيوم هو ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفيّ فاما أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان على دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاءه المقداد قاتله وقتل ابنه فانهزم وعاد الى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل حكيم عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به أحد الاّ هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشدّ من جيوش الشام ولا أعز وأمنع . وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأي ان نعقد مع القوم صلحا ننال به الأمن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالاً من المقوقس :

هذه النصيحه ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهي نافعة لو وجدت من الهاموك اذنا صاغية ولكنها لم تجد لانه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله وشرّ الاخلاق الحمق والتسرع . وكان للرجل ابن عاقل أيضا اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضا اذا أصرّ على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ولما علم الهاموك بما وقع سُقط في يده واستأمن للمقداد فتسلم المقداد البلد وجاءه شطا وأسلم ثم لكي يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوّهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس (١) وكان عليها رجل من العرب المتنصرة يقال له أبو ثور فبرز اليهم في نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد

قدمنا ان الامبراطور كتب الى من بالاسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب وبعث بالعدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر انحسار النيل ليتمكن من الخروج ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الاسواق

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة أميال منها وقد اطنب بذكرها المقريزي وذكر انه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة ما لا يوجد في بلد من مصر وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ولم تزل تنيس عامرة حتى خربها الملك الكامل في سنة أربع وعشرين وستمائة (لمهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خرابا ولم يبق منها الا رسومها في وسط البحيرة

وأقاموا له الجسور وفاء بالمعاهـدة التي تمت بينهـم وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستعدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجنـد بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو متوجها الى الاسكندرية فلم ير أحـداً حتى بلغ مريوط فلقي فيها طائفـة من الروم فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة ايام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوما وكان عبدالله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيره فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد:

أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

ثم رجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو: هو ابني حقاً. وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن . فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة :

والذي أحسبه ان القبط انما ألجأهم الى الانحياز للمسلمين انهـم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الامبراطور هرقل خافوا ان ينتقم منهم ومن المقوقس اذا هو ظفر بالمسلمين فكانوا عونا لهؤلاء تخلصا من سيادة الروم وتفاديا من الوقوع ثانية في شرك الامبراطور وان ينالهم منهم أذى على ممالأتهم للمسلمين

اهتم الامبراطور هرقل لمهاجمة العرب للاسـكندرية وحصارهم لها وخاف من تقلص ظل سلطانه منها كما تقلص عن سورية فعزم على الشخوص

بنفسه الى الاسكندريه وبينا هو يتجهز للسفر فاجأه المنون وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع انه توفي سنة (٦٤١ م) وهي توافق سنة (٢١ هـ) فلعل وفاته كانت في الحصار الثاني للاسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية واقتحموا الحصن فجاشت عليهم الروم وقاتلوهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً لا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقت عليهم الابواب وهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد واثنان آخران فالتجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية ان يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم رومي هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وان غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم الى أصحابكم . فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته ، وأراد عمرو ان يبارزه فمنعه مسلمة وقال ماهذا ؟ تخطئ مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ، مكانك !! وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك . فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومي ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدري الروم ان أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا .

وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرامي فاقتحمه

عمرو كلاماً يؤذيه فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم اخلاق مسلمة ما رأى استحيي عمرو منه وقال له استغفرلي ماكنت قلت لك فاستغفر له . وقال عمرو ما أفحشت قط الاثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ومامنهن مرة الا ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ووالله اني لارجو ان لاأعود الى الرابعة

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو ويلومه على الابطاء ويحذره من ان يحدث المسلمون في اخلاقهم مايبطئ بهم في الفتح وأمره ان يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية ويقدم الاربعة القواد الذين ارسل له معهم المدد وهم الزبير والمقداد ومسلمة وعبادة في صدر الجيش ويصدم بهم العدو صدمة واحدة : فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ماأمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك

وتتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل الى الفسطاط فبلغه نكث الروم في الاسكندرية وقدوم مراكب تحمل العدة والرجال وانهم قتلوا الحامية فعاد الى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصرهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن بسامة طلب من عمرو ان يؤمنه على ارضه وماله ففعل ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو الى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب وارسل عمرو بخبر الفتح الى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ثم كتب اليه يصف له حال المدينة وعمرانها وان المسلمين يطلبون قسمتها

بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بان يجعل الاسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عونا لهم على عدوهم . ففعل وتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية وكان لايغفلها ويكثف مرابطتها خوفا من الروم

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الاسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك مما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الاسكندرية وأما ماذكره الافرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جبون فانه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها مانقله عن يوتيخوس المؤرخ القبطي ان العرب حاربوا على اسوار الاسكندرية كالاسود وانهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهر وقتل ٢٣ الفا من المسلمين . على انا لانسلم له بهذه الرواية لان جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ

تحقيق الكلام في حريق مكتبة (الاسكندرية)

لغط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها واحرقها وهو خبر مختلق لااصل له من الصحة واغرب مافيه من الاغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته ان قالوا ان عمرو بن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الاربعة آلاف حمام التي ذكروا انها كانت

موجودة في الاسكندرية وانها كفتها ستة شهر . لو ان ذلك الاخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لكل حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) لبلغ عدد المجلدات التي أحرقت ٧٢ مليون مجلد فأي مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب وأي عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً على ان المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الاسلامي وان الذي بقي منها نقل بعضه امبراطرة الرومان الى القسطنطينية وما بقي احرقه لامبراطور تيودورس لما امر بحرق الهياكل الوثنية في الاسكندرية وأيد هذا الرأي سديو في تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب

والذي يدلك على اختلاق هذا الخبر انه لم يرد في تواريخ المتقدمين من اهل الاخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون اخبار الفتح وهي موجودة بين ايدينا الا تاريخ الكندي وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ومع ذلك فقد نقل عنهما المقريزي والسيوطي اخبار الفتح ولم يأت في تلك الاخبار ذكر لمكتبة الاسكندرية البتة . بل اغرب من ذلك ان يوتيخوس الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة . وهذه كتب المحدثين التي أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة وانما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج الملطي مع انه لم يرد في تاريخ احد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها . على ان الخبر على ما فيه من الغرابة والاغراق في الباطل الذي يكذب بعضه

بعضا قد صار عند علماء البحث مفروغا منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو بن العاص وانما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ ابي الفرج. وانا زيادة في البيان ودفعاً للريبة ننقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول

افرد جبون في تاريخه (سقوط الامبراطورية الرومانية) فصلا مخصوصاً بحث فيه عن حرق مكتبة الاسكندرية ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله: «بعدما نُقل كتاب أبي الفرج الى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة لكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضياع كثير من العلم والادب فيها واما انا (يعني نفسه) فاني شديد الميل الى انكار الحقيقة والنتيجة» يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر انه كان فيها شيء من العلم والادب

وجاء في ذلك الفصل ايضا قوله

والاريب ان هذه الرواية يكتبها رجل من اطراف مادي (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر واقدمهما يوتيخوس الذي كتب تاريخ الاسكندرية في القرن السادس

وجاء في ذلك الفصل ايضا : ان تعاليم الاسلام تخالف هذه الرواية لان تعاليمه ان الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لا يجوز احرقها واما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فانه يجوز الانتفاع بها

ويقول في خاتمة ذلك الفصل: اذا كان ما أحرق من هذه المكتبة في الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين واصحاب الطبيعة

الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر:

هذه خلاصة ماجاء فى تاريخ جبون الا ان فى حاشية هذا الفصل الذي كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب غربية (يعني فى اوربا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ماجاء فى تاريخ أبي الفرج وذكر من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادي وغيرهما كما سترى بعد فى الفصل الآتي المنقول عن رسالة شبلي افندي النعماني استاذ اللغة العربية فى مدرسة على كده بالهند سابقا وناظم مدرسة العلوم بحيدرآباد الدكن الآن

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الاوردية ترجمت الى الانكليزية في الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الاسكندرية لا انا لم نظفر بتلك الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية قالت بعد مقدمة حسنة فى تقريظ الرسالة

وخلاصة ماأراد اثباته (يعني مؤلف الرسالة) ان اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج ابن طبيب يهودي اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) فى ملاطية وكان والده قد تنصر فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينوه أسقفا لمدينة جوبا وهو في الحادية والعشرين من عمره ومازال يرتقي حتى لم يبق فوقه من الاكليريكية الا منصب البطريرك ثم ألف تاريخا فى اللغة السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتابا فى العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق الاسكندرية وتناقلها عنه كتاب الافرنج الى هذه الغاية حتى قام المؤرخ جبون الانكليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم)

وأظهر ارتيابه فى صحته لعدم وجود الادلة عليه لانه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد قبل ذلك فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول. غير ان المجتهدين منهم فى خلع هذه التهم عن الافرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا ان هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وانما ذكرها المقريزي وعبد اللطيف البغدادي وحاجى خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم ان ابن خلدون أيضا قد ذكرها

قال الهلال ثم أخذ صديقنا (أي مؤلف الرسالة) فى تفنيد هذه الاسانيد فقال:

اما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم ان لاذكر لهذه الحدثة فيه على الاطلاق . اما المصادر الثلاثة الباقية فاثبت أولا انها لاتعتبر ثلاثة مصادر مستقلة لان المقريزي ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة . اما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وانما أشار الى ان العرب فى صدر الاسلام لتعلقهم فى الوحي وخوفهم من تسلط العلوم الاجنبية على عقولهم كانوا (على ماقيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها. فيظهر من ذلك ان عبارة حاجي خليفة لاتفيد ما أرادوه لانه انما يريد الاشارة الى عدم اعتناء العرب بالعلم ولكي يؤيد قوله ألمع الى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة

اما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السواري وهذا نص عبارته « وعمود السواري عليه قبة هو حاملها

وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسططاليس وشيعته من بعده وانه دار العلوم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضي الله عنه» فيظهر من نص العبارة انه ذكر مسأله المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تتداولها الالسنة فذكرها على علاتها على ان عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث ثم أعقب هذا بالادلة على عدم امكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الامراء المسلمين وأثبت أخيرا انها انما احترقت قبل الاسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطاركة الاسكندرية قبل الاسلام :

انتهى ما لخصه الهلال عن رساله شبلي أفندي النعماني واليك ما كتبه المرحوم علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية في شأن هذه المكتبة نقلا عن مؤرخي الافرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السيرابيوم « بناء قديم بالاسكندرية ومحله يعرف بعامود السواري » انه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحقة بالسرايات . ويؤيد ذلك ما ذكره وتروف حيث قال انه كان بمدينة الاسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجوده في معبد السيرابيوم ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريقة التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندر ابنين قيصر . وقد قيل ان عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباتره أضيف اليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فاخذها انتونيوس وأهداها اليها وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة

الاسكندرية غيرها وبعد ان كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألحقا بمعبد السيرابيوم ومن ذلك الحين اتسعت شهرته الى القرن الرابع من الميلاد . ونقل أميير الفرنساوي ان هذا المعبد احترق مرتين مرة في زمن القيصر ماركوبل ومرة في زمن القيصر كومول . وفي خطط الفرنساوية ان إحراق السيرابيوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والاهالي ثم بنى محل السيرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاديوس المتولي تخت القيصرية بعد القيصر تيودوز الاكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية وهي التي ينسب حرقها الى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك اليه فان هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك الا في القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب الى أبي الفرج بطريق حلب مع انه لم يذكرها في تاريخه العام (١) وفي النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانبستيتوا) اي

(١) قوله لم يذكرها في تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م فهذا المطبوع حقيقة لم نر فيه ذكراً لمكتبة الاسكندرية مع ان شبلي أفندي النعماني قد ذكر ان الجملة تماجاءت في تاريخ مختصر الدول هذا ! وجبون قال انها جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هي ترجمة تاريخه السرياني أم تاريخه العربي المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الامر إما ان الطابع تبرئة لأبي الفرج وإلصاقا لهذا الخبر بالمسلمين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه وأما انها جاءت في تاريخه السرياني وانه هو الذي ترجم الى اللاتينية ونقل عنه الافرنج والذي يظهر هذه الحقيقة اني ظفرت عند صديق لي من المشتغلين بالتاريخ بالنسخة السريانية الا انها مكتوبة بالخط الكلداني الذي تصعب قراءته

المجلس العلمي من ضمن ما قيل فى جلسة أغسطوس سنة ١٨٧٤ ميلادية ان بولص أوروز من تلامذة ماري اجستان وماري جيروم لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بالاسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر ان القول بان إحراق كتبخانة اسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى فانه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الاسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الاعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم فى حرقها وانحصار تحقيقهم فى زمن وقوعه قبل الاسلام لانه كان كذلك ومن المستحيل ان يبقى فى هذه المكتبه مع توالي الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه عد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام



﴿ عود الى خبر الفتح ﴾

أتم عمرو رضي الله عنه بفتح الاسكندرية فتح مصر وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الفسطاط بعد ان أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشدهم قياما على العدل والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عونا للمسلمين فلم يدرك المصريين فى ولايته

على من لا يعرفه جيداً وقد كلفت صديقي بقراءة الخبر على فتح الاسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الاسكندرية فبقي ان الذين طبعوا الكتاب هم الذين حذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التي يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون وينقصون

ما أدركهم فى ولاية غيره من الجهد وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما وامارتها اليه محببة حتى شبه يوما امارتها بالخلافة اذ روي عن ابن لهيعة انه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لاهل الدولة من الروم وبين الفريقين نفور شديد لتباين فى المذهب والاعتقاد أدى الى العداوة وهي العداوة المذهبية التي ابتلي به كل أرباب الاديان فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذي عانوه على عهد الدولة الرومانية وكان أول ما بدأ به بعد ان استقرت له الامور ان كتب امانا الى البطريرك بنيامين بطريرك الاسكندرية ورده الى كرسيه بعد ان تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الامبراطور هرقل اليها فسر ذلك العمل البطريرك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقريزي . وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو

وقد ذكر هذا الخبر أيضا جونفي تاريخه وقال ان البطريرك بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص ويقدر عمله قدره .

ولا جرم ان وجود البطريرك بعيدا عن كرسيه مدة ١٣ سنة ثم عوده اليه على عهد الحكومة الاسلامية يوجد فى نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ونحن لا نشك بانه اذا كان هناك يد لاحد بمساعدة عمرو على فتح مصر فانما هي لذلك البطريرك يدلك عليه ما نقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم انه كان بالاسكندرية اسقف اسمه أبو ميامين كتب الى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم

ويأمرهم بتلقي عمرو حتى كان قبط الفرما اعوانا لعمرو . وانما اشتبه على العرب الاسم فاخطأوا فى نقل الحكاية والذي يظهر ان الذي كتب ما كتب هو البطريرك بنيامين وانه كتب من منفاه فى منف لا من الاسكندرية والقرائن كلها تدل على ان له يدا في مساعدة العرب وانهاض القبط لتعضيدهم فان جبون ذكر ان عمراً لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليعاقبة سروراعظيما وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع انه قال ان أهل المذهب الملكي وهو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان فهذا يدل على ان هذا العشر كان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به وان قوما هذا شأنهم مع حكومتهم لجديرون بموالاة المسلمين لا سيما مع علمهم بان الحكم الاسلامي مؤسس على اطلاق حرية الاديان وان المسلمين لا يتعرضون لاهل البلاد المفتتحة فى عوائدهم ودينهم بشيء البتة

وبالجملة فقد كانت امارة عمرو على مصر من أبرك الامارات وأرغبها للقبط وغيرهم ولم تقف به همته الشماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة بل طمح الى ما هو أبعد غاية وهي بلاد المغرب ليبسط جناح الاسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٢١هـ) يخترق الصحراء حتى بلغ برقة فافتتحها وافتتح فرضتها بنغازي ثم طرابلس الغرب ولما عزم على التوجه منها الى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الاقصى جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رض) ينهاه فيه عن التغرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك فى سيرة عمر فعاد مكرهاً بعد ان استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبة

ابن نافع الفهري القرشي الذي صار اليه بعد ذلك فتح المغرب

ولقد والله يحار عقل الحكيم فى اقدام أولئك الفاتحين وجرأتهم على التغلغل والامعان فى أقاصي الممالك بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة حتى افتتحوا فى ثلاثين سنة مالم يفتحه غيرهم فى اجيال ومهما بحث العاقل عن علة هذا التوفيق الغريب لا يجده الا حسن السيرة والسير مع الامم المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن في هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين



باب

ولايته على مصر

﴿ آثاره فيها وأخباره مع عمر وما كان من المكاتبات بينهما ﴾

قلنا ان عمرو بن العاص تحول الى الفسطاط بعد فتح الاسكندرية وسبب تحوله انه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها وروغا منها همّ ان يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها: فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل : فكتب الى عمرو اني لا أحب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم فى شتاء ولا صيف : فتحول عمرو الى الفسطاط ولم يكن فسطاطا بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي بابليون الى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى : وقيل في تسميته الفسطاط ان عمراً لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرّخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم: فأمر به فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا:

أين تنزل ؟ قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وقيل سمي فسطاط عمرو: أي مدينة عمرو: لان الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب

لما تحول عمرو الى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر لانه اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف (١) على الضفة الغربية فاصبحت حاضرة البلاد المصرية ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة الى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى على الخطط (وهي الحارات) معاوية ابن خُدَيْج التجيبي ، وشريك بن سمي القطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المغافري، فاختطوا لكل قبيلة خطة . واختطوا مكان الجامع المعروف الى الآن بجامع عمرو اذ كتب عمر الى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الامراء يأمرهم ان يبنوا فى كل مدينة مسجدا جامعا ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجدا

وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين وجعلوا اسقفه مطاطأً جدا واتخذ عمرو فيه منبرا من أعواد فكتب اليه عمر يعزم عليه في كسره ويقول . اما بحسبك ان تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام فى زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر الا بهذا الجامع

ثم ان المسجد ضاق بالمصلين بعدُ فى ولاية مسلمة بن مخلد فاستأذن معاوية فى الزيادة فيه فاذن له بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه .

(١) لاتقابلها تماما بل منف كانت الى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة دهشور وسقارة الآن

وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان فى سنة تسع وسبعين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ولم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه ثم هدم فى زمن قرة بن شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والامراء بالاصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد وقل ساكنو الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل الى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان لكنه فى حالة لاترضى أبدا . ولو كان المصريون ممن يعنيهم حفظ آثار الرجال لجعلوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر أحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح

واما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لماخطط فى زمن عمرو فالكلام عليه يطول وهو مبسوط فى كتاب الخطط للمقريزي فليراجعه من أحب

ومن آثاره المشكورة فى مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعدُ بخليج القاهرة الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند . والخليج قديم جدا قبل الاسلام الا انه طم وتعطل قبل الفتح فحفره عمرو بن العاص وكان سبب حفره على مانقل المقريزي عن ابن الحكم بروايته عن الليث ابن سعد قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة . فكتب الى عمرو بن العاص وهو بمصر :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصى ابن العاصي : سلام أما بعد

فلعمري ياعمرو ماتبالي اذا شبعت أنت ومن معك من أهلك أن أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب اليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين .

أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعيرا أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فبعث اليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى كل أهل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس فدفعوا الى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أوغيره فوسع الله بذلك على الناس فلما رأى ذلك عمر رضي الله عنه حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه .

فقال عمر ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ان أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد : فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فاخبر من كان معه من أهل مصر . فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر فنرى ان تعظم ذلك على امير المؤمنين وتقول له ان هذا امر

لا يعتدل ولا يكون ولا نجد اليه سبيلا : فرجع عمرو بذلك الى عمر فضحك عمر رضي الله عنه حين رآه وقال : والذي نفسي بيده (كأني أنظر اليك ياعمرو والى اصحابك حين اخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى ان تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلا : فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله ياأمير المؤمنين لقد كان الامر على ماذكرت : فقال عمر (رض) انطلق بعزيمة مني حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ثم احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل الى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم :

انتهت رواية ابن عبد الحكم

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت بطمه من بضع سنين واصبح الجزء الذي يخترق القاهرة شارعا مد عليه خط الترامواي ودعي بخط الخليج

وجاء في سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى منها ماذكره ابو الفداء ان عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذي يصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر فتحه خوفا من

وصول الروم الى البحر الاحمر ويقال ان خليج البرزخ هذا كان موجودا فى عهد البطالسة وأن أثره كان باقيا لعهد عمرو بن العاص لهذا أشار على عمر بفتحه فكان رأي عمر ان لا يفتح ونعم ذلك الرأي فان فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق وفى الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذي يقال انه كان من قبل فليرجع اليه من أحب

وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهي انهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل فكانت من عوائدهم القبيحة فيه ان يلقوا فيه كل سنة بنتا من الابكار بعد ان يزينوها بالحلي والحلل زعما منهم انه لا بقي لهم الا بهذه الضحية : ويقال ان الامبراطور قسطنطين ابطل هذه العادة فى عصره لكن المصريين عادوا اليها بدليل ان مؤرخي العرب ذكروا انها كانت موجودة لحين دخول عمرو بن العاص الى مصر فابطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وتحرير الخبر على مانقله المقريزي عن ابن عبد الحكم ان عمراً لما فتح مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لا يجري الا بها فقال لهم وما ذلك : قالوا انه اذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها فى النيل: فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله :

فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وتوت وهو لا يجري قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب بذلك:

فكتب اليه عمر ان قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى النيل اذا أتاك كتابي

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقه فاذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر : اما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك:) فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل . فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر : (*)

وكان القبط يزعمون ان النيل لا يزيد الا اذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ولهم تابوت يضعون فيه أصابعا من أصابع أسلافهم الموتى فى اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه فى النيل فأبطل ذلك العيد الامير بيبرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانغماس فى الفجور ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن ان هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص : أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة :

والذي أدركناه لهذا العهد ان البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين تلقى فى البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى عروسة النيل وهذا يدل علي صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية التي تسربت الى أرباب الاديان الآلهية مع شدة نكير هذه الاديان على أهل تلك العوائد

(*) في هذه الحكاية بحث ونظر راجع تحقيقه في المجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥٠)

ومن آثاره الجميلة مدة ولايته على مصر توزيع الجباية بالعدل وقسمتها الى ثلاثة اقسام قسم لترميم الجسور وحفر الترع ومايلزم لعمران البلاد وقسم لاعطيات الجند والباقي يرسله الى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقريزي فجباها اثني عشر مليون كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها: فقال بخصال ـ تُحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها الا من غلتها ولا يقبل مطل اهله ويوفى لهم بالشروط ويدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهله المعاون والهدايا فبذلك تعمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية فى السنين التي لا يفي فيها النيل وربما كسرها وذلك للعهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء فى ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب : وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى أحد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزي بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مالهم وعليه ماعليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ماعليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ماعليهم :على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم

المومنين: وعلى النوبة الذين استجابو كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة : شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان . . . . اه

فدخل اهل مصر في هذا الصلح جميعهم وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل فى الزيادة والنقص وربما اضطر احيانا الى كسر الخراج فكان عمر يظن فيه الظنون ولما استبطأه مرة فى الخراج كتب اليه ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : اما بعد فأني فكرت فى أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر . وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوّهم وكفرهم . فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك : فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي فى نفسي : لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرّباً كافيا صحيحا إنّ البراءة لنافعة . وان كنت مضيعا نطعا إنّ الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتلي ذلك منك فى العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا أنّ عمالك عمال السوء وما توالس عليك

وتلفف اتخذوك كهفا. وعندي بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد ان يؤخذ منك الحق وتعطاه. فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وماعنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام (١)

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو : اما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين فى الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر. لانهم كانوا على كفرهم وعتوّهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام. وذكرت ان النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها. وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وتربت. وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبْر فجئت لعمري بالمقطعات المقدعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق. ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا. نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شيئاً فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا. معاذ

(١) (تفسير الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب) قوله تأتيني بمعاريض تعبأ بها. المعاريض هي التورية بالشيء عن الشيء. وتعبأبها أي تظنها مما يعبأ به أي يهتم له وهي لاشيء عندي وقوله وان كنت مضيعا نطعا. النطع المتشدق بالكلام. وقوله ان ابتلى ذلك منك أي امتحن. وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد. وقوله الحق أبلج أي مضيء مشرق لايخفيه التمويه وماعنه تلجلج التلجلج التردد في الكلام. وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف

الله من تلك الطعم، ومن شر الشيم، والاجتراء على كل مأثم، فأمض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا، ولم تكرم فيه أخا، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما. وماعملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا. ولكني حفظت مالم تحفظ. ولو كنتُ من يهود يثرب مازدتَ، يغفر الله لك ولنا. وسكت عن أشياء كنت عالما بها. وكان اللسان بهامني ذلولا. ولكن الله عظم من حقك مالايجهل اه

فكتب اليه عمر رضى الله عنه

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام اليك فاني احمد اليك الله الذي لا إله إلا هو : اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك فى ابطائك بالخراج وكتابك الي بثنيات الطرق وقد علمتَ اني لست أرضى منك إلا بالحق البيّن لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك. فاذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين. وعندي ماقد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام ..... اما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم اني أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق. واني والله ماأرغب عن صالح ماتعلم وان أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم فيصيروا الي بيع مالاغنى بهم عنه والسلام

فقيل ان عمر رضى الله عنه كتب اليه ان ابعث اليّ رجلا قديما من القبطة. فاستخبره عمر رضي الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام. فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ماظهر له كانه لا يريدها الا لعام واحد :

فعرف عمر ماقال القبطي وعلم منه جلية الامر فقبل من عمرو ما كان يعتذر به

ولا يتبادرن الى ذهن القارئ ان إلحاح عمر رضي الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به اجهاد القبط او التوصل الى الخراج كيف ما كان الحال معاذ الله ان يخطر هذا لعمر بن الخطاب فى بال وانما هو استبطأ الخراج مع عدم قوفه على حاجة البلاد وعلمه بطمع عمرو فكتب اليه ما كتب والا فانه رضي الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصا على الرعية وقياما على العمران ومحافظة على العهود خصوصا مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم. واليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص يستوصيه بالقبط ويأمره بأن يأخذ من الخراج مايحتاج اليه مما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه ويعطي الاعطيات لاربابها ومايفيض يرسله اليه وان لا يأخذ الخراج الا من حقه وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا:

كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

اما بعد فاني فرضت لمن قِبَلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا فى المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه اليك والى البلدان. فانظر من فرضتُ له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ومن نزل

بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيتني فرضت لاشباهه وخذ لنفسك مائتي دينار (١) . فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والانصار. ولم أبلغ بهذا أحدا من نظرائك غيرك لانك من عمال المسلمين فألحقتك بأرفع ذلك وقد علمت ان مؤنا تلزمك نوفر الخراج وخذه من حقه ثم عف عنه بعد جمعه فاذا حصل اليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج اليه مما لابدّ منه. ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله اليّ. واعلم ان ماقبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح (٢) وما فيها للمسلمين فيء: تبدأ بمن أغنى عنهم فى ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ

(١) لعل هذا الفرض الذي فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لافرض العطاء اذ ان عمر (رض) كان يجري على العمال جراية هي غير نصيبهم من العطاء فقد ذكر فى سراج الملوك ان عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجربة: ومن هذا يعلم ان عماله كان لهم جرايات على هذه النسبة وهي غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وانما نبهنا على هذا الامر هنا لاهميته ولانه فاتنا ذكره والتنبيه اليه فى سيرة عمر رضى الله عنه.

(٢) قوله ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح يدل على ان مصر فتحت صلحا وان ما فتح عنوة أجري بعد ذلك مجرى الصلح الذى دخل فيه كل القبط للعهد الذى أخذه لهم المقوقس وهذا يؤيد ماجاء فى كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وان عمر وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح

(أقصى) عنهم في أعمالهم ثم أنض مافضل بعد ذلك على من سمى الله (أي في القرآن)

واعلم ياعمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه « واجعلنا للمتقين اماماً » يريد ان يقتدى به . وانّ معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما» ورحمهم انّ أم اسماعيل منهم. وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أوكلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيمة » احذر ياعمرو ان يكون رسول الله (ص) لك خصما فانه من خاصمه خصمه . والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفا وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لاخشى لومات جمل باقصى عملك ضياعا ان اسأل عنه اه

لو لم يكن لعمر الا هذا الكتاب لكفاه فضيلة في نفسه وفضلا على رعيته فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرده بالعدل وحسن السيرة في الرعية ومضاء الفكر في السياسة وشدة الاخذ على أيدي العمال واليقظة في الامور جليلها وحقيرها فرضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء

﴿كلمة ثانية في أهل الذمة﴾

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال في منعهم عن ايذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم وعملا بامره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعقل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أي قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن امتهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذي يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار ورواتها عن مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيحها من كاذبها وبدون تروّ في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزي في انّ عمر تقدم الى أحد عماله بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص(١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل ابن الجوزي كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أواداري على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لا امتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية وربما كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضعافاً الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقريزي عن ابن عبد الحكم بزيادة أحر بها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب

(١) المراد بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما في بعض التواريخ

رضي الله عنه واذ قلنا بوهن الرواية الاولى في جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردها المقريزي قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا (أي من العمال) معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لايدعون ذلك صيفا ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هـذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصي فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجد بينهما التئاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران

الامر الاول ان الشؤون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضا الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيلون احياناً على رجال الدولة وأهل المكانة وربما تحرج منهم أحيانا بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصا لهم وحطا من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وابعاداً

لهم عن مناصب الدولة وانما ألجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء في الشرع وهذا بلا ريب يعد من أولئك الوضاعين تناهيا في ضعف الرأي لاسيما اذا علموا باحوال اهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر بن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالاخص الخلفاء من بني العباس الذين كان أكثرهم متفقها في الدين واقفا على اخبار السلف كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وامثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لاسيما الاطباء والكتاب بلا أدنى تحرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من محاسنة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين ومن وقف على اخبار ماسويه وحنين بن اسحق واضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هـذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فكان القبط أرباب الكلمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقريزي يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارهة ويتصرفون بأموال الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الالقاب المضافة الى الدين للاطباء والكتبة من النصارى واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البوري الكاتب النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الاول واما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فمنشأوه نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكث

عهود هؤلاء القديمة ولما لم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمي فوق ماحدده الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على ما لهم من حقوق الذمة والجوار وانهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — مهدوا لاغراضهم السبيل بالايعاز الى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر مقدمة لاستباحة امتهانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ماحدث في عهد المروانيين من الاجتراء على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما ستراه مبسوطاً في محله ان شاء الله

على ان سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتي انهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة مالايقوى عليه الحسام، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام(١) وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب ايذائهم بالقول أو الفعل خصوصا عماله يدلك عليه ماذكره في سراج الملوك في حكاية طويلة لامحل لذكره هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد الى عملك فقال عمير أنشدك الله ان لاتردني الى عملي فاني لم أسلم منه حتي قلت لذمي : أخزاك الله : ولقد خشيت ان يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي: فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستعفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصمه رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لاشيء بالنسبة اليه قول عمير للذمي : اخزاك الله :

فاللهم انا نبرأ اليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للعقل

من الكتابيين ان ما روى عنهم من اخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع انهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثنيي العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط : مثلا كانهزام الروم . وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب التاريخ التي نقلت الينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فانه نزر يسير وهو من حشو النساخ واما كتب المتأخرين او المقلدين فان أصحابها لم يراعوا فيها ماراعاه السلف من الأدب وحسن الاداء لما وقر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الاسلام لعلم أهل ذلك الصدر ان الاسلام جاء للتأليف والوئام، لا للتفريق بين الاقوام، وان اختلاف الاديان لايوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » ولان القرآن نطق بان أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى . ذلك بانّ منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون» ولهذا سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها

هذا ماأردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب اظهارا لبراءة عمر (رض) مما عزي اليه وتنبيها لاولي النهى من المسلمين الى ان دينهم يأمر بمجاسنة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين وان مرض التعصب الذميم انما طرأت اعراضه على الامة تدريجا سيما على

عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الاهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الانسانية ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام بريآن الى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحيلة والانسان مهما ترقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يجعل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء، اذ كل امرىء مسؤول عن اعتقاده عند الله. وانه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها. ولكن: انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور :

(عود لخبر عمرو)

لما تم لعمرو بن العاص افتتاح مصر وكتب الى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب اليه كتابا يشكره فيه ويقول له ان صف لي حال مصر فكتب اليه ما نصه

ورد الي كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه يسألني عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان يدرّ حلابه، ويكثر عجاجه، وتعظم أمواجه، فتفيض على الجانبين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب .

وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن المخائل، أو ورق الاصائل، فاذ تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته، وطمى في ردته، فعند ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخفورة، (١) يحرثون بطون الارض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله عنهم بغير جدهم، فاذا أحرق الزرع وأشرق سقاه الندا، وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فاذا هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء، فاذا هي ديباجة زرقاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويقرّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، ولا يستأدى خراج ثمرة الا في أوانها، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال، على هذه الاحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق الى حسن الحال،

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتمناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأُنهي الى عمر بن الخطاب انه فشت لعمرو فاشية من خيل ومتاع، ونزعت نفسه الى الراحة والاستمتاع، وهيهات لمثله ان يتم له ما أراد ويتقلب على وثير النعم وخليفته يعاني شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ويؤدب عماله بادبه ويحملهم على طريقته تعففا عما بايدي الناس، واكتفاء بأجر الصبر والتماسا لرضا الله والرعية

روى البلاذري عن عبد الله بن المبارك قال : كان عمر بن الخطاب

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخفورة يدلك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من الجور والاهانة في دولة الروم

يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم مازاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب الى عمرو بن العاص « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر »

فكتب اليه عمرو « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلا عن مانحتاج اليه لنفقتنا »

فكتب اليه «اني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك الي كتاب من أقلقه الاخذ بالحق. وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فاطلعه طلعه واخرج اليه مايطالبك وأعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء » فقاسمه ماله

لم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، الا الخضوع لما أمره به ومقاسمته بن مسلمة ماله ذلك لانه يعلم منه الجد فى القول وقد قال له فى كتابه « وأعفه من الغلظة عليك» فانه لو لم يقاسمه راضيا لقاسمه مكرها حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع له ماله ولا جنده . فلله ماأعظم ذلك الرجل الكبير فعلا . وأعلاه فى النفوس مكانة وماأهيبه في القلوب وأرهبه للعمال على ماعرف به من التواضع للرعية والرأفة بفقراء الناس

وأخرج البلاذري أيضا عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد ابن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : ان زمانا عاملنا فيه بن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت

معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكوءها(١)

قال أنشدك الله ان لاتخبر عمر بقولي فان المجالس بالامانة : فقال لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حي

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمرو واشباههما ومن هم : هم أصحاب ذلك الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافحوا جنود فارس والروم . وانما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة وترك الادلال بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابقة والفضل فى فتوح الممالك والبلدان

فاين هذه السياسة الجليلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس الامة لكلمة سوء يتقرب بها واحدهم اليهم أو بدعة شر يعرضها عليهم لالفتح الممالك والبلدان، ولا لمكافحة جيوش فارس والرومان، وانما تأذن الله بزوال أكثر دول الاسلام لحيدهم عن طريق الشرع فى سياسة الرعية واطلاقهم يد العمال فى معاملة الامة بالعنف والتعسف بالحكم جرا لمنافعهم الذاتية ، وتهاونا بامور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»

هذا وما زال عمرو بن العاص أميرا على مصر حتى ولي الخلافة عثمان رضي الله عنه فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها فى زمن معاوية ولم تطل مدة ولايته الثانية وتوفى فيها كما سنذكر ذلك بعد

(١) أي رابطا بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسوءك قلته يقال بكأت الناقة والشاة اذا قل لبنها

هـذا ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح مصر وولاية عمرو رضي الله عنه عليها وبقي لنا كلام عن الحالة الاجتماعية في مصر رأينا من الصواب ان نرجئه الى سيرة محمد علي باشا آخر من حكموا مصر من المشاهير ليكون الكلام مبتدئا من زمن عمرو ومنتهيا الى هـذا العصر فيصير كالسلسلة المتصلة الحلقات آخذاً بعضه برقاب بعض في كل ما يتعلق بشؤون مصر العمرانية والسياسية والله الموفق والمعين ٠

باب

دهاؤه واخباره مع عثمان ومعاوية

وكلمة في الفتنة

(اخباره مع عثمان)

قبل الكلام على دخول عمرو في فتنة عليّ ومعاوية رأينا ان لا نغفل ما نقلوه عن دخوله في فتنة عثمان بيانا للحق واستيفاء لاخباره ما كان له منها وما عليه

نقم المسلمون من عثمان رضي الله عنه اشياء ليس هـذا محل بسط الكلام عليها وكان أهمها إيثاره ذوي قرابته على غيرهم من جلة الصحابة في توليتهم على الاطراف وتسليمهم ازمة الدولة بعد تتبع امراء الاعمال الأول بالعزل وابعادهم عن مناصب الدولة وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الامارة عمرو بن العاص فنقم منه مع من نقم ولو أنصف عمرو وكل من نقم من عثمان وانكر عليه تأمير ذوي قرباه ونظروا الى الظروف التي صار اليها في خلافته والاحوال التي اكتنفته في ولايته وما أحرجه به

مناظروه لما نقموا منه عمله ذلك لانه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع الى الفتنة والتوثب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر كما سنبسط ذلك فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر فجاء الى المدينة فكان عثمان رضي الله عنه يميل الى استشارته في أموره ويضعه موضع الثقة منه حتى انه لما اشتدت عليه الازمة دعاه فيمن دعاهم اليه من ذوي قرابته وعماله واستشارهم فيما يصنع لاطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما في رواية أبي جعفر الطبري

يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل، أو اعتزل، فإن أبيت فاعزم عزما، وامض قدما،

فقال له عثمان : مالك قمل فروك أهـذا تجد منك : فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لانت أكرم عليّ من ذلك ولكني علمت انّ بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا فاردت ان يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود اليك خيرا وادفع عنك شراً

وفي رواية للطبري أيضا قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويزري به ولقد خطب عثمان يوما في آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص : اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب الى الله نتب

فناداه عثمان : وانك هاهنا يا ابن النابغة قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل

وفي رواية له أيضا قال: كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول: والله ان كنت لالقى الراعي فاحرّضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سعر الشر بالمدينة خرج الى منزله بفلسطين فبينما هو بقصر ومعه ابناه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة بن روح الخزامي اذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور: فقال عمرو : انا أبو عبد الله *العير يضرط والمكواة في النار* ثم مر بهم راكب آخر فسألوه فقال: قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله اذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يامعشر قريش انما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا ان نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس في الامر شرعا سواء

هذا كل ماقيل في شأن دخول عمرو في فتنة عثمان وهذا الخبر الاخير مع مافيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الاول وانه يحتاج الى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على ان كل مانقم من عثمان (رض) انما هو ايثاره بني أمية على غيرهم في الاعمال . وقد زعم بعضهم ان عمرو بن العاص هو الذي حرك المصريين على عثمان ولا دليل عليه اذ الذي حرك المصريين في الحقيقة هو محمد بن أبي حذيفة وابن السوداء اليهودي كما سيأتي في محله وما كان لعمرو في هذه الفتنة الا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله واحسن مايعتذر به عن عمرو هو انه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك في فتنة عليّ ومعاوية يدلك عليه مانقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من رواية الواقدي عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أي لسعد) كيف

لم يمنع أصحاب رسول الله (ص) عن عثمان ؟ فقال انما قتله أصحاب رسول الله ويريد بهذا انهم شهدوا قتله ولم يكونوا لقيام من قام عليه كارهين واما انهم أرادوا قتله فمعاذ الله وانما هم نقموا منه ما نقم الناس وظنوا ان عثمان اذا اشتد عليه الامر وضايقه المحاصرون له يخلع نفسه من الخلافة فتعود شورى بين الناس وهذا غاية ماكان يطمح اليه المهاجرون الذين هم من أهل الشورى والذين كان لكل منهم حزب يريده على الخلافة ويرى انه أحق بها من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطرار الآفاق الذين حاصروا عثمان وبادروا الى قتله لما علموا انهم ان عادوا الى ديارهم مع بقاء الخليفة عثمان حياً أُخذوا لامحالة وهذا بحث طويل لامحل له هنا بل سنعود اليه ونتبسط فيه من كل وجوهه في سيرة عثمان ان شاء الله



أخباره مع معاوية

(وكله في الفتنة)

ذكرنا في سيرة سعد بن أبي وقاص في التمهيد الذي مهدناه لاخبار الفتنة انّ هذه الفتنة سياسية لادينية وان سعداً اعتزلها حباً بالسلامة وقد جاراه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة ابن شعبة وعبادة بن الصامت ونفر غيرهم . واعلم ان اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة انما كان لعدم تحققهم الحق من غيره من فريقي المتخاصمين اذ القوم كلهم مسلمون وفي الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الانصار من لم يشك في دينهم أو يقدح في عدالتهم والحكم على فريق منهم انه على غير الحق حكم على الآخر اذ الكل متساوون في الاسلام

متكافئون بالصحبة وان امتاز بعضهم عن بعض بالسابقة أو قدم الهجرة وكل مازعمه بعض الفرق الاسلامية كالمعتزلة والشيعة من ان الفريق الذي حارب عليًا رضي الله عنه من الهالكين على رأي الفرقة الاولى ومن الكافرين على رأي الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ لانهم كلهم دخلوا في الفتنة فاذا صح كما يزعمون ان الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين وهم أبرأ الى الله مما يزعمون

والعجيب في أولئك الفرق ان يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة دنيوية بل ولو دينية أيضا يرى كل شخص منهم انه الاحرى بها والاليق للقيام باعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعا دينيًا كأنه تنازع على ان الله واحد أو أكثر ينجو من آمن بوحدانيته ويهلك من قال بتعدده فيرسخ في اذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ مع ان في الحديث (من قال لاخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين لا لأنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لانهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله وكل يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست في الآخر

نعم ان لتلك الفرق ان يقولوا أن عليًا رضي الله عنه حقيق بأمرة المؤمنين لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الاوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ولكن ليس لهم ان يقولوا ان من نازعوه على الخلافة وانصارهم كفار . لم ذا ؟ لانهم نازعوه عليها . مع انه ليس هناك أمر آلهي بتخصيص الخلافة في شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضا وكل ماقيل وروي عن النبي (ص) في شأن علي وآله نصًا

ووصاية كما يقولون فقد ثبت انه موضوع وان حاول مؤسسو مذهب الشيعة ورافعو دعامته اثباته بوجوه كلها مردودة وحسبك شاهدًا على ذلك ان الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم الا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش علي أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية بل بالسابقة والقرابة ثم اجمعوا جميعهم وعلي معهم على الرضى بخلافة أبي بكر ولو كان هناك نص على علي لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا به أحدا الا اذا اعتقد الشيعة بوجود النص وان الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبي (ص) لانهم غير مؤمنين الا علي بن أبي طالب فانه كان وحده كل المسلمين . ومانخال ان الجهل يبلغ بأحد الى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله الا طائفة حقيرة منهم ظهرت في المغرب تنسب الى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوة علي وألوهيته وغير ذلك من الهذيان

وبالجملة فمن الفضول في أمر مضى زمنه، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم، ان ينقسم الناس لاجله شيعا إلى هذا اليوم. وانما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعضيدا له وأخذا بناصره وتوصلا لامرته . وأما التشيع لفريق دون فريق الى هذا اليوم فأي فائدة فيه للمتشيع له غير مايقوله الامامية من وجوب الخلافة لآل علي للنص أو العصمة وهم غير مغنيهم عن هذا الوجوب شيئًا الا ما كان في بعض العصور الاسلامية من قيام الدعاة لآل علي يتذرعون بذلك

للسيادة والملك أو الالتفاف حول صاحب الدولة(١) وناهيك بما نشأ عن هذه

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على ان نفرد له فصلا مخصوصا في سيرة علي رضى الله عنه نأتي به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلبا للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة وانما قلنا الزعماء لان العبرة فى تاريخ تلك النحل الامامية للرؤساء القائمين بها لا العامة أهلها اذ هؤلاء اتباع الرؤساء وأسرى التقليد في كل نحلة يدينون بما دان به آباؤهم كيف ما كان . على ان كلامنا في هذا الفصل جميعه اجمالي أتى معنا استطراداً والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظنن ان ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فان من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال في مذاهبهم ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم في القول بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل وبناء مذهب الامامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين على اني أعتقد ان أكثر عقلاء الشيعة والمستنيرين بنور العلم والحكمة ولاسيما خاصة أمة الفرس منهم ينكرون على الغلاة أشد الانكار ويتأففون من ذلك الخلط والخبط الذي مزق احشاء الاسلام وكل من شممت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين ومآل اليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر علي هذا القول بل أظهر من الألم من سوء هذا التعصب الاعمى والجهل مثلما أحس به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطر مصير صار اليه المسلمون بازاء الامم الاخرى لتضييعهم ايام مجدهم وابان شباب دولتهم بمثل هذه السفاسف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلتهم هذه الامور عن كل شاغل فاسترسلوا فى تيه الغفلة عما يكون من مجد الامم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتي أخذتهم صيحة المغرب من كل مكان وساقت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لامة المغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الانسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا والهمنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والاوهام وحسبنا من جزائك العادل أن صرنا وراء الامم، وأشرفنا على هوة العدم، والعياذ بالله

الدعوة من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس وما كان فوق هذا من غلو فريق كبير فى آل علي حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والاسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة التي بلغ ببعضها الجهل والتناقص فى ضعف العقول ان قالوا ان رؤية الامام وحدها كافية لاسقاط الفرائض واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلى من هذا الكتاب ان شاء الله

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بامامة آل علي . وعن ماذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على امارة المؤمنين أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم وانتهى أمر خلافهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام الى هذا اليوم حتى صاروا هذا بسنيته وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالسلك بعضهم عدو بعض يسطو قويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ولكن ما رأي الامة الآن وقد فغر حوت المغرب فاه ليلتهم القوي والضعيف ويأتى على الآكل والمأكول ما دام الكل فى الفرقة والخصام مسترسلين يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين والدين بريء مما يعملون

اذا تقرر هذا فقد علمت انه نتج مما تقدم أمور ينبغي النظر فيها وهي:

(١) ان مسئلة الخلاف على الخلافة فى ذلك العصر مسئلة سياسية باعتبار ان الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا فى صدر الجزء الاول) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية

(٢) ان الذي دعا فرق الشيعة الى إلصاقها بالدين وجعلها واجبة دينا

باعتبار انها ركن من أركان الدين انما هي السياسة نفسها وهي ارادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون ان لهم عليه حق النصرة ويقولون انه أهل لادارة مصالح الامة على محور الشرع أكثر من غيره ولكن لما علموا ان الاهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص أي ان صاحب الشرع نص على عليّ ثم جرّهم ضرورة سوق الامامة الى أولاده الى اعتقاد العصمة في عليّ وآله تدعيما لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل انزلوهم منزلة النبوة تارة والالوهية أخرى وهم رضي الله عنهم برآء مما يقول الظالمون

(٣) ان كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار ان النفر الذين تطلعوا الى الخلافة وانقسم لاجلهم المسلمون انما تنازعوا على أمر مازال يتنازع عليه الاكفاء من أهل العصبية في كل دولة من الدول وعصر من العصور

(٤) انا كما عذرنا أولئك النفر ينبغي ان نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لان له أسوة يومئذ بكل المسلمين ولا يؤخذ عليه من ذلك الا ماصنعه يوم التحكيم وهو وان ادّى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز اليه وعمل بما تقضي به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما الا أنه أوجد من الامور أمورا أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الامة . فهو اذا أوخذ فانما يؤاخذ من هذه الجهة لا من جهة انه كفر وألحد باعانته على عليّ (رض) كما يتخرص به أولئك المتخرصون . اذ ما كان ليضر عليا ممالأة عمرو عليه لو أحسن شيعته الطاعة له في حرب معاوية (رض) ويوم اختيار الحكم ولكن لله في هذا شأنا هو بالغه

عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجالهم في الجاهلية والاسلام وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة في فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب كافة المسلمين لاولئك النفر من قريش فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم في الامور ماوسع النفر المعتزلين من حب السلامة بل رأي أن انتفاع فريق من اولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل باطفاء شواظ الفتنة وحسم لمادة الاختلاف الذي أهريق فيه دم الامة . وتربص ريثما انجلت الفتنة الاولى عن قتل طلحة والزبير وانحاز الاحزاب كلهم الى علي ومعاوية رضي الله عنهما فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعاريض الساسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه : وان معاوية رجل دنيا لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرا الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه بل ربما أضمر ان ينازعه الخلافة كما نازع هو عليا عليها اذا أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه في الامر كما سترى بعدُ فانحاز الى معاوية وكان له من الشأن بعدُ ماهو معروف وما سنذكره هنا ان شاء الله

روى ابن عساكر في سبب ارتحال عمرو الى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : ان الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى بها (١) من عمرو بن العاص قال وما زال معتصما بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث الى ابنيه عبد الله ومحمد فقال لهما اني رأيت رأيا ولستما باللذين تردّاني ولكن أشيرا عليّ .

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة الجامع الازهر (اعمامها) وهي غير مفهومة كما لا يخفى

اني رأيت العرب صاروا عادين (١) يضطربان وانا طارح نفسي بين حراري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة فقال الى أي الفريقين أحمد

فقال له عبد الله ابنه ان كنت لا بدَّ فاعلا فالى عليّ فقال عمرو: ثكلتك أمك انى ان أثبتُ عليّاً قال لي انت رجل من المسلمين. وان أثبت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني فى أمره: فأتى معاوية. وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليّا دعا ابنيه عبد الله ومحمدا واستشارهما: فقال له عبد الله: صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنك راض. وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان. ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض فأرى ان تلزم بيتك فهو أسلم لدينك:

وقال له محمد أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أرى ان تختلف العرب فى جسيم أمورها ولا يرى مكانك

فقال لعبد الله اما أنت فأشرت عليّ بما هو خير لي فى آخرتي واما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري ارتحلا: فارتحل الى معاوية

وفى رواية ان عليا رضي الله عنه كتب الى معاوية كتابا بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعوه الى البيعة فطاول فى الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ثم استشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان فاشار عليه ان استعن بعمرو بن العاص فكتب اليه ما نصه:

أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله

(١) لعلها (عادين) اومحرفة عن مثنى عديد اوعد وكلاها بمعنى القرن والند

فى بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فاقبل اذاكرك أمورا لاتعدم صلاح مغبتها ان شاء الله:

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبد الله ومحمدا فاشار عليه الاول بالجلوس والثاني بالخروج الى معاوية فارتحل اليه

فلما قدم اليه دعاه الى جهاد عليّ ومطالبته بدم عثمان وصغر له من شأن علي رضي الله عنه فقال: والله يامعاوية ماأنت وعلي حملي بعير ليس لك هجرته ولاسابقته ولا صحبته ولاجهاده ولافقهه ولاعلمه. والله ان له مع ذلك لحظا فى الحرب ليس لاحد غيره. ولكني قد تعوّدت من الله تعالى احسانا وبلاء جميلا فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر:

قال معاوية: حكمك: قال عمرو: مصر طعمة: فتلكأ معاوية وقال له: أبا عبد الله أما تعلم ان مصر مثل العراق: «يريد انّ العراق بيد علي ومصر بيد عمرو فماذا يبقى له) قال عمرو: بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما كانت لك اذا غلبت عليّا على العراق:

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى ان تشري عمرا بمصر ان هي صفت لك: وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتا يقول فيها:

أيها المانع سيفا لم يهز ... انما ملت على خزّ وقزّ

الى ان قال:

واسحب الذيلَ وبادر فوقها ... وانتهزها ان عمرا ينتهز
أعطِه مصرا وزده مثلها ... انما مصر لمن عزّ فبز

واترك الحرص عليها ضلة   واشبب النار لمقرور يكز(١)
ان مصرا لعليّ أو لنا   يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله ارسل الى عمرو فاعطاه مصر على ان يعطي عطاءهم وأرزاقهم وما بقي فله. فرجع عمرو الى عبد الله ابنه فقال : الله قد أخذنا مصر : فقال وما مصر في سلطان العرب. فقال له : لاأشبع الله بطنك ان لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتابا لعمرو أراد ان يكايده حتى اذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب اليه فيما كتب « على ان لاينقض ـ أي عمرو ـ شرط طاعة» فادركها عمرو وكتب «على ان لاتنقض طاعة شرطا» وهو قلب فى العبارة بلغ الغاية فى اللطف وقلب المقصود الذي قصده معاوية الى مايقصده عمرو من ان الطاعة لاتوجب التخلي عن مصر.

على ان معاوية لما استقر له الامر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصلح بينهما معاوية بن خُدَيج (٢)

روى ابن عساكر عن أبي عون قال : لما صار الامر كله فى يدي معاوية استكثر طعمة لعمرو ماعاش : ورأى عمرو ان الامر كله قد صلح به وبتدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن ان معاوية سيزيده الشام مع مصر : فلم يفعل معاوية. فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس وظنوا انه لايجتمع أمرهما . وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو

(١) قوله وأشبب النار أي أشعلها . وقوله لمقرور يكز المقرور الذي أصابه البرد ويكز بمعنى ينقبض (٢) ضبطه ابن الاثير في التاريخ ابن خديج بالحاء المهملة وجاء في أسد الغابة له أيضا بالخاء المعجمة وفي أكثر كتب الاخبار كذلك

خاصة وللناس عامة وانّ لعمرو ولاية مصر سبع سنين ، وعلى أنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية. وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهودا ثم مضى عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله مامكث سنتين أو ثلاثا حتى مات:

ولا يتبادر الى ذهن القارئ من قوله فى هذه الرواية « لما صار الامر كله فى يدي معاوية الخ » ان مصر انتهت الى معاوية بعد استصفاء معاوية للخلافة وموت علي والحسن رضي الله عنهما كلا بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان واليا على مصر من قبل علي رضي الله عنه كما سترى بعد

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معاوية لعلي فاستشار معاوية عمرا فيمايصنع فقال انّ رد ربيعة عن عليّ خطر شديد ورأس أهل الشام شُرَحبيل بن السمط الكندي وهوعدو لجرير المرسل اليك فابعث اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس ان عليًا قتل عثمان. وليكونوا أهل رضى عند شرحبيل . فانها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب وان تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيءٍ أبدا

ففعل معاوية ماأشار به عمرو كماسنذكره في محله ان شاء الله فاغرى شرحبيل بحرب عليّ وتم لمعاوية ماأراد من جمع أهل الشام على حربه وكان بعد ذلك ماكان من حرب صفين وغيره مما سيرد فى هذا الكتاب ان شاء الله

مهد عمرو لمعاوية بدهائه ما مهد وارتحل معه الى صفين حيث كانت الحرب بين علي ومعاوية فاتى هناك بمكيدتين دلتا على عظيم دهائه

وكبير عقله الا انهما كانتا كالبركان اذا انفجر، لايبقي ولا يذر، فاما المكيدة الأولى: فهى اشارته برفع المصاحف فى وجوه أصحاب علىّ وذلك ان عمرا كان فى آخر يوم من أيام صفين بحيال الاشتر فقال لوردان مولاه: أتدري مامثلي ومثلك ومثل الاشتر: قال لا: قال كالاشقر ان تقدم عقر وان تأخر عقر لئن تأخرت لأضربن عنقك: قال أما والله ياأبا عبد الله لاوردنك حياض الموت ضع يدك على عاتقي: ثم جعل يتقدم ويقول لاوردنك حياض الموت واشتد القتال. فلما رأى عمرو أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لايزيدنا الا اجتماعا. ولا يزيدهم الا فرقة: قال نعم: قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها: هـذا حكم بيننا وبينكم: فان أبى بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا ان نقبل. فتكون فرقة بينهم. وان قبلوا مافيها رفعنا القتال عنا الى أجل

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هـذا حكم الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهله «أي من يحميها من العدو» من لثغور العراق بعد أهله: فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله:

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار بعد ان كادت جنوده تدحر جنود الشام

وأما المكيدة الثانية فهي خداعه لابي موسى الاشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه فخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الاخبار فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

اجتهد عمرو بنصرة صاحبه وتأييد جانبه فنجح فى مكيدتيه الاولى والثانية لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد؟ انّ غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الاولى ان يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون فيدب الفشل حينا فى جيش علي بن أبي طالب (ض) يلم في غضونه جيش معاوية شعثه ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو للامر حيلته ويهيئ لعمل آخر أسبابه فجاءه الامر فوق ماأراد ووقع سهمه وراء الغرض اذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب، أو أصابت جسما فاضطرب، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت فى عقل فتنشطت، ونعقت ناعقة كأنها كانت فى قفص فأفلتت، فنادت الى م تعضنا هذه الحرب بنابها، وعلام تأخذنا قريش بجريرتها، ومالنا وللامراء من عدنان أو قحطان وأمير كلّ امرء دينه، وحاكمه وجدانه، هلمّ فلنخرج عن جماعة الامراء، ولنقتلهم فى ليلة ظلماء، ونثير على الامة كلها غارة شعواء، فاما ان تفيء معنا الى كتاب الله. وأما ان نموت شهداء

هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنة وضرا على علي وأصحابه، ومعاوية وأحزابه، ومروان وجنده، وعبد الملك وكيده، والخلفاء من بعدهم. صبغوا أديم الارض بدماء المسلمين، وكدروا صفاء الدول عددا طويلا من السنين، ولولا غلو فى معتقدهم، واغراب فى بوادر ألسنتهم، وتطرف في مذهبهم، استلحموا به الناس قتلا وحربا لالتف الناس لفهم، وأخذوا جميعا أخذهم، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من أعماق الوجود، وقلبوا أوضاع الدول، ولكن أكلتهم الحروب، وفرق جمعهم الخلفاء، وأضعفهم الشذوذ فى

الاعتقاد، فلم يصلوا الى مبتغاهم وضاع أثرهم (١) بعد ان ضاع تعبهم اللهم الا أثرا فى النفوس تركوه، وطريقا لحرية القول مهدوه، فدب فى الامة من ذلك اليوم ديب الجدل لكن فى الدين، وحُبّب اليهم الانطلاق لكن عن قيود الوحدة فى المشرب والفكر، والكلام على هذا نستوفيه فى غير هذا المحل ان شاء الله

هذا ما انتجته مكيدة عمرو الاولى ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل (واما المكيدة الثانية) فحسبها ان حولت قواعد الخلافة الشرعية الى الملك العضوض، والشورى الى المغالبة، والاختيار الى الوراثة، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضي الله عنه بعد اذ ذهب مناظروه من اقيال قريش لما بقي للمغالبة بعده أثر لان النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس والنزوع الى تلك الرياسة العظمى وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة قضوا ولم يك يبقى بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون اليها الاختيار السابقين في الاهلية لرياسة الامة وكانت رسخت ليومئذ فى نفوس الامة مبادي الشورى ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطي على أساس متين فاستحال ان تدكه أيدي المتغالبين على الملك، الطامعين فى استعباد الناس،

الملك طرفان مطلق ومقيد فتنازعهما علي ومعاوية فكان علي آخر

---

(١) ان الخوارج تفرقوا فى مذاهبهم السياسة والدينية فرقا شتى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الاباضية ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس فى زنجبار ومثلهم فى بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله

الامراء المقيدين، ومعاوية أول الامراء المطلقين، ومع ماعرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فانّ هذا لم يغن الامة شيئا عن خلافة عليّ ابن أبي طالب التي كانت أحب الى الامة وأسد سبيلا فى مستقبل الايام للخلافة الشرعية وضم عقد الرعية كافة فى سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية فينقطع دابر النازعين الى الملك من غير ذوي الاهلية، وينحسم أصل النزاع على السلطان أو التسلط على الرعية، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد . وهيهات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو هيهات، والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت

قلنا فيما تقدم انّ عمرو بن العاص انما كاد ماكاد وفاء بعهده مع معاوية لا ينظر الى مانصير اليه الامور فى مستقبل السنين بل ينظر الى قضاء لبانة عرضت له والاعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ماترتب على عمل عمرو وممالأته لمعاوية هي أمور مخبوءة فى باطن الايام يتبع بعضها بعضا فى الظهور وقد لانظفر بمثل احتكاك عمرو أو أشد منه أيضا فلا ينبغي الاغراق فى مؤاخذة عمرو بن العاص مادامت تلك النتائج غير مقصودة له بالذات وانما جاءت بالعرض لاسيما وانه ربما كان يرمي الى غرض آخر من ممالأته لمعاوية وهو مصير الخلافة اليه اذا قضى علي ومعاوية رضي الله عنهما فى تلك الحرب . يدلك عليه تغريره بمعاوية فى كثير من المواضع ليطوح بنفسه الى الهلاك

ومنها تغريره له في مبارزة على بن أبي طالب فى وقعة صفين وتحرير الخبر ان عليّ بن أبي طالب (رض) نادى معاوية : علام يقتتل الناس بيننا

هلمّ أحاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الامور :

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ماأنصفت انك لتعلم انه لم يبرز اليه أحد الا قتله : فقال له عمرو : مايحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أي الخلافة » بعدي

ومنها اغراؤه له بقتل أسرى صفين وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجاؤا الى معاوية وانّ عمراً ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الاسارى لوقعنا في قبيح من الامر

ومنها اغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كثيف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدي معاوية وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الامان . ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له وأخذ مصر طعمة منه وكان بعد وقعة صفين والتباس الامور وقع الفشل في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد واختلف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل عليّ (رض) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بارسال عمرو وكتب الى شيعة عثمان بمصر فأجابه منهم مسلمة بن مُخلَّد ومعاوية بن خديج بسرعة العمل وبعث الامداد فسيّر عمراً ومعه عشرة آلاف مقاتل فتلقاه محمد بن أبي بكر بالفين فانهزم

ثم اختفى في خربة أخذه منها معاوية بن خديج وقتله وصفت مصر لعمرو ابن العاص في خلافة معاوية ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفي وهو أمير عليها

ومن أخباره مع معاوية ماروّاه ابن عساكر ان معاوية دعا عمرو بن العاص « يوم التحكيم » وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش وقال ياعمرو: ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لايريده ونحن بك راضون . وقد ضمّ اليك رجل طويل اللسان كليل المدية له بعدُ حظ من دين . فاذا قال فدعه فليقل ثم قل وأوجز . واقطع المفصل . ولا تلقه بكل رأيك . واعلم ان خفي الرأي زيادة في العقل . فان خوّفك بأهل العراق فخوفه بأهل الشام . وان خوفك بعليّ خوفه بمعاوية . وان خوفك بمصر خوفه باليمن . وان أتاك بالتفسير فاته بالجميل :

فقال له عمرو ياأمير المؤمنين أنت وعليّ رجلا قريش ولم يقل في حربك مارجوت . ولم تأمن ماخفت : ذكرت ان لعبدالله ديناً وصاحب الدين منصور وايم الله لأُبيننّ عِلله ولأَستخرجنّ خبيئه ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب عليّ فما عسيت ان أقول:

فقال معاوية: قل ماترى . فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى : وخرج مغضباً فقال لاصحابه انما أراد معاوية ان يصغر أبا موسى لانه علم انى خادعه فأحب ان يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبته بالخلاف عليه وقال في ذلك شعراً

يشجعني مُعاويةُ بن حرب كأني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غنيٌّ بحمدِ الله والله المعينُ

في أبيات

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : اولا مسيره كان لي فيه رأي : فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : أما والله انّ أمثاله من قريش لكثير ولكنك ألزمت نفسك الحاجة اليه فالزمها الغنى عنه

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه انهما كانا متفقين ظاهراً متنافرين باطناً وانّ عمراً لم يشايع معاوية رضي الله عنه حباً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ولم يكن معاوية أيضا أقل بغضاً له منه يدلك عليه ماروي ان معاوية قال يوما لجلسائه : ما أعجب الاشياء، فقال يزيد : أعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شيءٌ من تحته ولا هو منوط بشيءٍ من فوقه : وقال آخر: حظ يناله جاهل، وحرمان يناله عاقل، وقال آخر أعجب الاشياء مالم يرَ مثله : وقال عمرو ابن العاص: أعجب الاشياء انّ المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلي ومعاوية) فقال معاوية: بل أعجب الاشياء ان يعطي الانسان مالا يستحق اذا كان لا يخاف (يعرض بعمرو ومصر التي أخذها طعمة) فنفث كل منهما بما في صدره من الآخر وهذا يدل على انّ علياً رضي الله عنه لو تألف عمراً واستدناه اليه لانتفع به ولصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ولكن اغراق عليّ في حب الفضيلة دعاه الى ترك الحيلة بمثل عمر كما دعاه الى عدم قبول اشارة من أشار عليه بتألف معاوية وتثبيته على ولاية الشام كما ترى بعدُ



باب

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله

رُؤي عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فقيل له: أيها الامير تركب هذه البغلة : قال: اني لا أملّ دابتي ماحملتني، ولا زوجتي ما أحسنت عشرتي ، ولا جليسي مالم يصرف وجهه عني.

وروى ابن عساكر انه قال لابنه يوما: يابني امام عادل، خير من مطر وابل، وأسد خطوم، خير من امام ظلوم، وامام ظلوم غشوم، خير من فتنة تدوم، يابني مزاحمة الاحمق خير من مصافحته، يابني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر، يابني «استراح من لا عقل له»: فأرسلها مثلا

وروي أيضا ان عمرو بن العاص قال يوما لمعاوية : انّ الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع، فسد خصاصة (حاجة) الكريم، واقمع اللئيم،

وفي رواية أخرى له : قال عمرو بن العاص لمعاوية : ياأمير المؤمنين لا تكونن بشيء من أمور رعيتك أشد تعمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه، (ازالته) واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع:

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسدِّ النصائح

وروي أيضا عن هشام الكلبي عن أبيه قال : قال معاوية لعمرو بن

العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه . قال فمن أسخى الناس ؟ قال من بذل دنياه في صلاح دينه . قال فمن أشجع الناس ؟ قال من ردّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عُيَيْنة . قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ . ولكنه الذي يعرف خير الشرين

وروى ابن عساكر عن عمرو انه قال : الرجال ثلاثة . فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فامّا الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والالباب، فاذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلايزال كذلك مضيه موفقا . والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً وقال أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيي لرأيه . فيصيب ويخطئ . والذي لاشيء الذي لا دين ولا عقل له ولا يستشير في الامر . فلا يزال ذلك مخطئا مدبراً ، ووالله اني لأستشير في الامر الذي أردته حتى خدمي . وماعليّ بعرض عقولهم وأسمع:

وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور ياأبا عبد الله؟ قال الغمرات ثم تنجلي « كناية عن الخلاص من الشدة »

وعن سفيان بن عُيَيْنة قال قال عمرو بن العاص: ماوضعت عند أحد من الناس سراً فأفشاه فلمته . أنا كنت به أضيق صدرا حتى استودعته اياه:

ومن غرر أقواله مانقله صاحب سراج الملوك وهو:

موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة

وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب الاّ انه لايسلم من كل الوجوه وانما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دنيّ النفس

يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية فهذا مهما بلغ من علو المكانة فانه بعيد عن الفضيلة لانه لم يستمسك فى ارتفاعه باسبابها، ولم يأت البيوت من أبوابها، فيكون شراً فى مبدإ أمره، شراً فى منتهاه، ففي ارتفاعه شرٌّ على الناس لانه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للاضرار بالناس ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولو من غير طرقه المشروعة لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية فى الحكومة للسفلة لئلا يفسد السفلة أمرها، ويوهنوا بنيانها، ويرى بعضهم فى هذا العصر لهذا السبب ان أحسن الدول حكومة وأضبطها ادارة وأسدها عملا وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التي مع انها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الاشراف الارستقراطية لانها قائمة على دعائم الاشراف واهل الغنى والثروة لاتوسد مناصبها العالية الاّ لاهل البيوتات العريقة بالمجد والامارة وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى وهذا وان كان يخالف من بعض الوجوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشوروية الا انه يوافق أصول التجارب وينطبق فى كثير من الاحوال على مقاصد الحق والعدل والكلام عليه يحتاج الى بيان وتمحيص وربما نعود إليه فى محل آخر ان شاء الله

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص واما جهة من لاينطبق عليه فهو الذي يرتفع باسباب طبيعية ونريد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة فان من يرتقي باستعداده وجده ويكون بطبعه عالي النفس سليم الفطرة يرتقي بحكم الاستعداد والفطرة من طريق الفضيلة فيكون فاضلا فى مبدأ

أمره فاضلا في منتهاه فلا يستعمل ارتفاعه سلاحا يتهجم به على الناس بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لامضرة من ارتفاعه بل ارتفاعه ضروري لازم بحكم العقل والعدل فلا يشمله معنى قول عمرو ولعله لايعنيه ولكن باللاسف ان أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له

رأينا في تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمرو بن العاص من أحسن أقواله يوصي بها الناس بالقصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط وصرف العناية الى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها وغير ذلك من الوصايا الجليلة النافعة رواها ابن عساكر عن بُحَيْر بن داخِر المُعافري قال :

ركبت أنا ووالدي الى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد حمم (كذا) النصارى بايام يسيرة فأطلنا الركوع اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يؤخرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال يابني هؤلاء الشرط . واقام المؤذن الصلاة فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج (١) عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تتألق (٢) عليه ، وعليه عمامة وجبة فحمد الله واثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكوة وصلة الرحم وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك

يامعشر الناس اياي وخلالا اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العز . إياي وكثرةَ العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييعَ المال ، والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، ثم انه لا بد من فراغ يأول المرء اليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد (٣) والنصيب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه

(١) الادعج اسود العين الابلج المضيء المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص (٣) أي بالاعتدال

عادلا . يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى ، واقلعت (١) السماء ، وارتفع الوفاء ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السمائم (٢) وعلى الراعي حسن النظر . فحي بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيره ولبنه ، ومرافقه وصيده ، وأربعوا بخيلكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جُنَّتكم (٣) من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً . وإياي والمومسات (٤) المفسدات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا ابصاركم . فلأعلمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه (٥) واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسهُ من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم اليكم ، والى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة . حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله (ص) يقول (اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض) فقال له أبو بكر : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال : (لانهم في رباط الى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما اولاكم واقيموا في ريفكم ما بدا لكم . فاذا يبس العود ، وسحق العمود ، وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح (٦) البقل وانقطع الورد في على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن احدكم على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته او عسرته اهـ

(١) واقلعت السماء اي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر (٢) كذا في الاصل ولعلها السوائم وهي الماشية (٣) الجنة هي الوقاية (٤) العواهر (٥) جواب قسم محذوف اكد بالنون الثقيلة وما مصدرية اي فوالله لاعلمن اتيان رجل موصوف بتاذكر وفي طيه من الترهيب البليغ ما لايخفى وقد بين بعدُ جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ (٦) صوح اي يبس اعلاه

﴿ أخباره ﴾

(من أخباره في حسن الخلق) مارواه بن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه :

وعن قبيصة أيضا قال : صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مداراة منه ،

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى لجزيل من غير مسئلة منه،

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلما منه

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين (أوقال أنصع) طريقا منه ولا أكرم جليسا ولا أشبه سريرة بعلانية منه

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لايخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من أبوابها كلها :

ونادت امرأته مرة جارية لها فابطأت فقالت يازانية : فقال لها عمرو أو رأيتها تزني؟ قالت لا . قال لتضربن بها يوم القيمة سبعين سوطا: فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو اذا اعتقتها فاعتقتها

(ومن اخباره) التي تدل على علمه وتعقله وبعده عن الاوهام مارواه ابن عساكر عن موسى بن عليّ قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فانكسف القمر فاصبحنا مع عمرو فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدوّ الله هذا . هم علموا مافي الارض فما علمهم مافي

السماء ! قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له: انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون: ثم قرأ الآية (انّ الله عنده علمُ الساعة ويُنزّلُ الغيث ويعلمُ مافي الارحام وماتدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدا وما تدري نفس بأيّ أرض تموت) الى آخر الآية

ولا شك ان هذا الدليل الكتابي يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخالق ان الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئاً من أسرار الوجود ولم يحرم على الانسان ان يتناول بالبحث والنظر ماشاء من مجالي الطبيعة وأرشده الى انّ الغيب الذى يعلمه الله وحده هو غير مايتوهمه العقل احيانا عند تضاؤله عن ادراك الشيء وضعفه عن الوصول اليه

وحبذا لو تنبه الى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين المرء وعقله بغيا من عند أنفسهم وتحكما في الدين وصرفا للأمة عن الاخذ بالعلوم النافعة التى قام بها الآن مجد الامم واصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بعد شاهد العيان برهان

(ومن أخباره) مارواه صاحب الاغاني قال حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان فخرج اليهم حاجبه أبو درة فقالوا له استأذن للانصار فدخل اليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم الى انسابهم . فقال «أي الحاجب» هي كلمة ان مضت عرتهم ونقصتهم والاّ فهذا الاسم راجع اليهم : فقال له «أي عمرو» اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل فقالها الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم الا الانصار . فنظر معاوية الى عمرو نظراً منكراً فقال له باعدت جدا . فقال اخرج فقل من كان ههنا

من الاوس والخزرج فليدخل : فخرج فقالها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

ياسعد لاتجب الدعاء فمالنا ... نسب نجيب به سوى الانصار
نسب تخيره الاله لقومنا ... أثقل به نسباً الى الكفار
ان الذين ثووا ببدر منكمُ ... يوم القليب هم وقودُ النار

فقال معاوية لعمرو: قد كنا لأغنياء عن هذا اه

ولا ندري ان كان أراد عمرو بهذا المباعدة بين معاوية وبين الانصار اتماما لمقاصده السياسية فى إغراء مثل الانصار بمعاوية أوهو يريد الحط من قدر الانصار فقط لانهم شايعوا عليّ بن طالب أيام الفتنة خلا النعمان ابن بشير فانه كان من شيعة معاوية يومئذ

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) مارواه محمد بن سعيد عن ابراهيم بن حويطب ونقله فى العقد قال : قال عمرو بن العاص لعبدالله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ان هذا الامر الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الامر بنا وبكم الى ماترى وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنا نقول ليتها لم تكن كانت فانظر فيما بقي بغير ما مضى فانك رأس هذا الامر بعد علي فانك أمير مطاع ومأمور مطيع ومشاور مأمون وأنت هو:

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه فى رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل فى العقد خبرا آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاتر والسباب مايدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال

(ومن أخباره فى التقى والانابة) مارواه ابن عساكر عن عمرو بن

شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص كلام فى الوهط (وهو بستان لعمرو بالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن العاص: يال هصيص يسبني المغيرة : فقال له عبدالله ابنه : انا لله وانا اليه راجعون أدعوة القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فاعتق عمرو بن العاص ثلاثين رقبة عنها

وطالما كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة لما فيها من تفريق الكلمة والرجوع الى العصبية وقد نهى عنها رسول الله أشد النهي جمعاً لكلمة الامة واستمساكا بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ولكن تهاون الناس بهذه الرابطة الكبيرة فرق بينهم فى المشارب والاهواء والغايات فانقلبت الأمة حربا على بعضها يتجاذبها الامراء أو المتوثبون على الملك تارة باسم الجنسية وأخرى باسم المذهب وآونة باسم الدين حتى أنهكوا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ولايزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفريق انتحالا توصلا للرياسة ولا سيما فى شبه جزيرة العرب التى تفرق أهلها قدداً وجماعات واصبحوا فوضى مع اهواء الامراء العديدين وقد كانت أحق بان يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس كما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم على كلمة الاسلام فعملوا بقوة اجتماعهم مالم تستطع عمله أمة قط ولكن أين من يعقل والاهواء غالبة والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود والنفوس عن الاتعاظ بما لحق أكثر الثغور العربية من الاحتلال الاجنبي غافلة والله أعلم بعاقبة الامور

وأخرج ابن عساكر عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ان عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول «ان فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر» :

وروي عن ربيعة بن لنيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فان كان أحب اليك ان تسلب عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وانك آتيت عمرا أولادا فان كان أحب اليك ان تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده . وانك آتيت عمرا سلطانا فان كان أحب اليك ان تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه .

باب

(وفاته وولده)

(وفاته وكلمة مجملة فيه)

قضى عمرو بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت فما قصد غاية الا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها وكان له بين ذلك هنات تغتفر له في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ولا يلام على شيء من أمور الفتنة التي انغمست فيها قريش كلها وساقوا الأمة اليها الا بما يلام به سائرهم وانما هو سبقهم باعماله الكبار بالاضافة الى شهرته بالدهاء وحبه للظهور ومهما ترتب على اعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فانه غير مقصود له بالذات كما أبنا ذلك فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل ان يقر له بثبات الجاش وقوة الارادة وصدق العزيمة والرأي وانه من رجال الاسلام العظام وحسبه انه كان من اعوان عمر بن الخطاب وامرائه الكبار وعمر رضي الله عنه لا يضع ثقته بغير الا كفاء كما هو معروف عنه ونحن

لا نشك كما لا يشك عاقل معنافي ان ممالأته على علي بن أبي طالب انما كانت لاغراض هذا عنه ولو رغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجده عمر ومعاوية وانما كان علي رضي الله عنه قليل العناية بامثال عمرو من رجال السياسة أولاً لثقته من نفسه وثانيا لكونه يرى سلوك السبيل السوي في القول والعمل خير صاحب ومعين وهو اعتقاد حق لا يعتقد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة لكنه رضي الله عنه لم ينظر الى ما اكتنفه من الاحوال وما أحاط به من الدسائس لا سيما وان البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفعان في كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك في صدقهم وصداقتهم كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع انهم من اعداء الدين

وبالجملة فعمرو بن العاص يعد على حسن بلائه في الاسلام وسلامة يقينه من دهاة الامة في عصره وكبار رجالها الذين افتتحوا الممالك ورفعوا منار الدولة لا سيما وانه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضي عنه

روى ابن عساكر عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في ساعة الموت وولى وجهه الى الحائط وجعل يبكي طويلا فقال له ابنه : ما يبكيك أما بشرك رسول الله (ص) بكذا اما بشرك رسول الله بكذا . قال : ثم أقبل بوجهه فقال : ان أفضل ما يعد علي شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني قد رأيتني على اطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد

من الناس أبغض اليّ من رسول الله (ص) ولاأحب اليّ ان أكون استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار، فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول ابسط يدك لابايعك فبسط يمينه فقبضت يدي، فقال «مالك ياعمرو» فقلت أردت ان أشترط. فقال «تشترط ماذا» قلت ان تغفرلي ماتقدم. قال «اما علمت ياعمرو ان الاسلام يهدم ماكان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله؟» فبايعته فما كان أحد أجل في عيني منه اني لم أكن استطيع ان املأ عيني منه اجلالا له فلو مت على تلك الحال لرجوت ان أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء لاأدري ماحالي فيها فاذا أنامت فلا تتبعني نائحة ولانار فاذا دفنتموني في قبري فسنوا علي التراب سنا (أي صبوه صبا) فاذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها حتى أعلم ما اراجع به رسل ربي فاني استأنس بكم اه وروى هذا الخبر أيضا من طرق أخرى باختلاف قليل في اللفظ

وروي عن حميد بن عبد الرحمن عن عبدالله بن عمرو ان أباه قال حين احتضر: اللهم انك أمرت بأمور ونهيت عن أمور، تركنا كثيرا مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لااله الاأنت: ثم أخذ بابهامه فلم يزل يهلل حتى مات: وفي رواية انه وضع يده موضع الغل من ذقنه ثم قال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا الامغفرتك: فكانت تلك هجراه حتى مات

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين في خلافة معاوية وهو متجاوز السبعين وقيل انه تجاوز الثمانين ودفن في المقطم في جهة الفج

وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة. وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد وكان غنياً جدا على مايظهر من سيرته وقد روى ابن عساكر ان عمراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بالف ألف خشبة كل خشبة بدرهم فالكرم الذي يحتاج الى خشب بمليون درهم كم تكون غلته هذا اذا صح الخبر. وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع وكان له دور بدمشق منها دار بجيرون ودار في ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ودار تعرف بدار بني أحيحه أو بني جحيحة في رحبة الزبيب ودار تعرف بالمارستان الاول عند عين الحمى كذا جاء في تاريخ ابن عساكر وقد ذكر المؤرخون من مقدار ثروته مالا يقبله العقل فضربنا صفحا عن ذكره





ولده

ولده عبدالله ومحمد وكان عبدالله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلا فاضلا شجاعا يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلبا للسلامة وتوفي بمكة عن اثنين وسبعين سنة وله عقب من زوجه عمرة بنت عبيدالله ابن عباس وعمرو بن شعيب وكان سريا ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفا كما ذكر ذلك ابن قتيبة اه

انتهى الجزء الثالث وهو يشتمل على سيرة أشهر مشهوري الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وقد ابطأت باصدار هذا الجزء لمرض ألم بي يقضي علي بتخفيف المطالعة ومراعاة الراحة فارجو

من القراء المعذرة وأسأل الله ان يعينني على اتمام الاجزاء التالية انه أكرم مسؤل

أجوبة انتقاد

انتقد علي كثير من أصدقائي ورود خطأ كثير في الجزء الثاني غير ما أصلح في فهرس الخطأ والصواب واستكثروا أيضا ما ورد في ذلك الفهرس وعذري في ذلك ابنته في آخر الجزء وهو المرض الذي ألم بي في اثناء كتابة الجزء وعدم تمكني من مراجعته وتصحيحه حتى في حال الطبع وسأعيد طبعه مصححا مضبوطا ان شاء الله تعالى

وطلب الي بعضهم التوسع في أخبار الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية والخروج عما شرطته على نفسي في خطبة الكتاب قائلا بعد كلام طويل (انك مهدت في تاريخك هذا طريقا وعرة للمؤرخين والكتاب في اطلاق حرية الفكر والقلم من أسر التقليد والقاء الكلام على عواهنه وسرد الحوادث سردا لا تظهر منه حقيقة تاريخ الاسلام . وكما انك السابق بين مؤرخي المسلمين من أهل العربية في تحكيم العقل في أخبار التاريخ وتتبع مواضع النقد وبيان الاسباب والنتائج على اسلوب قد أشربته العقول وسيكون قدوة لمؤرخي المسلمين وهذا ما نتمناه فانا نسألك ان تقدلنا ذلك القيد الذي قيدت به نفسك في صدر الجزء الاول ولا تضن بالتوسع في أخبار الفتن التي أشرت اليها لان التوسع بها وحدها توسع في تاريخ الاسلام كله) الخ ما قال

وجوابنا عنه اني مع الشكر لحسن ظن ذلك الفاضل بي عترف باني أضعف من خط القلم وكتب في التاريخ وكل ما علقته على الحوادث من النقد والبيان انما هو نتيجة الجرأة واطلاق الفكر من أسر التحفظ الشديد والا

فان حوادث تاريخ الاسلام مكتوبة في ثنايا الكتب في أجلى مظاهر الحقيقة اذ لم يضن المؤرخون علينا بشيء من غثها والسمين فهم أصحاب الفضل واليهم يساق الثناء جزاهم الله عنا خير الجزاء وما كتبوه من أخبار الصدر الاول يدل على اغراق في حرية القلم وبيان الحقيقة ما أظننا نستطيع ان نقفو به أثرهم في هذا العصر اذا أراد أحدنا ان يكتب تاريخ واحد من الملوك من معاصريه . وانما تجنبوا البحث في الاسباب والنتائج وتعليق آرائهم الخصوصية على الاخبار لاسباب عديدة لا تخفى على من له وقوف على أحوال المسلمين وشدة ما أوجده علماؤهم من الارتباط الشديد بين الدين والسياسة حاشا المعتزلة والشيعة فانهم علقوا على أخبار الصدر الاول أفكارهم الخصوصية لكن من جهة دينية لا من الجهة الاجتماعية والسياسية وغلوا في ذلك غلوا شديدا ولا سيما الشيعة حتى ظهر التحامل على كلامهم ظهورا لم يبق له ادنى اعتبار عند من سواهم ولله در امام المؤرخين وفيلسوف العمران العلامة ابن خلدون الذي سبق كل كتاب المسلمين والمؤرخين باستقصاء فلسفة التاريخ في مقدمته الشهيرة فكان خير قدوة لمن كتب ويكتب بعده في هذا الباب سواء من أهل المشرق أو من الافرنج الا انه افرد آراءه الخصوصية بمقدمة تاريخه المشهورة ولم يأت بها في غضون التاريخ فخالفته في هذه الطريقة لما يترتب على الاتيان بالشواهد في محلها ومحاكمة الخبر عند ايراده من الاثر النافع في النفوس وان أكن انا وأمثالي عالة عليه لا ندرك له شأوا في الآراء العالية والمذاهب الصحيحة واني يدرك الظالع شأو الظليع

واني لما رأيتني أشعر بالحاجة الى التوسع في تاريخ الصدر الاول كما

شعر بها ذلك الفاضل تبسطت فى بعض المواضع من هذا الجزء أكثر مما اشترطته على نفسي مراعيا فيما قلت ونقلت جانب الادب وحسن الاداء الواجب على المؤرخ الذي لاغرض له مع شخص بعينه أو فريق مخصوص وانما غرضه بيان الحق وتوخي الحقيقة فان أخطأت في شيء مما قلت فاستغفر الله منه وانما هو رأي أبديه فلا يؤاخذني المخالفون لي في هذا الرأي لاني مؤرخ لامتكلم ولاجدلي ولافقيه. وسألم فى بقية الكلام على الصدر الاول بشيء مما بدأت به رغم تكلفي تجنب الخوض فى أخبار القوم وأراعي على قدر الامكان ماأخذته على نفسي من التأدب وعدم الاسترسال فى النقل اجابة لرغبة الراغبين والله الموفق والمعين

وطلب مني فاضل من أفاضل بيروت ان أوفق بين مانقلته فى الصفحة ٨٦ من الجزء الاول من قول أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أكبر مني وأكرم وأنا أسن منك: وبين ما نقلته فى الصفحة ١٣٧ من أن أبا بكر توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة مع ان من الثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة فيكون أكبر سنا من أبي بكر بما يوازي مدة خلافته بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهي سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام

والجواب عن هذا ان التوفيق متعذر فى الحقيقة مالم يثبت ان أبا بكر توفي وله من العمر أكثر من ثلاث وستين والاكثر على انه لم يتجاوز هذا السن واما رواية يزيد بن الاصم فهكذا نقلها السيوطي عن أحمد وابن عساكر ولكن جاء فى رواية أخرى لابن أبي شيبة ولابن عساكر أيضا ان الذي سئل وأجاب هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر

وتنبيه المنتقد الى مانبهنا اليه يرجح ان الرواية الثانية هي الاصح وقد كنت قصدت ان أشير في هامش الكتاب الى هذه الرواية لما ذكرت الرواية الاولى فأنسيت على ذلك فللمنتقد الشكر على التنبيه لهذا الامر

وانتقدت على مجلة المقتطف الغراء اختصاري فى الكلام على فتح مصر فى الجزء الثاني مع اني ذكرت فى نفس الفصل الذي كتبته ثمة عن فتح مصر ان فتحها لما كان عن يد عمرو بن العاص فقد دعاني ذلك لترك الاستفاضة فى الكلام على فتحها الى سيرة عمرو والظاهر ان المنتقد لم ير تلك الجملة لهذا أخذ علي ذلك الاختصار وقد بسطت الكلام على فتح مصر في هذا الجزء بسطا أرجو أن يكون وافيا بالغرض

وانتقد علي المقتطف أيضا انكاري على المتأخرين ذكرهم خبر خالد ابن الوليد ولحاقه بأهل دمشق وقتلهم وجزمي بأنه خبر باطل لم يرد فى تاريخ من التواريخ الاسلامية الصحيحة فرأى المقتطف انه ورد فى تاريخ اسلامي وهو فتوح الشام المنسوب للواقدي واني نقلت عنه أخبار فتح الشام فكيف أنكر هذا الخبر وعين الصحف التي ورد فيها ذلك الخبر من الكتاب المذكور ولعل الكاتب الفاضل لم يساعده الوقت على قراءة مانقلته فى افتتاح الكلام على فتح دمشق من اني نقلت أخبار الفتح عن تاريخ الطبري فلو قرأ ذلك الفصل برمته وطبق ماأوردته عن أخبار فتحها على الطبري لوجده منقولاً عنه حرفاً بحرف . ولعله لم يستقص أيضا الفصل الذي ورد تحت عنوان (بطلان خبر) كله ولم ير ما قلته فيه من ان ذلك الخبر لم ينقله أحد من ثقات المؤرخين من المتقدمين فربما يكون نقله المتأخرون عن كتب القصاصين كفتوح الشام وأمثاله) ولو قرأ هذه الجملة لما استند فى تأييد

الخبر على فتوح الشام الذي وهنت خبره في نفس الفصل واني مع شكري للمقتطف على اعطائه كتابي نصيبا من الانتقاد وحظاً من العناية التي تدل على احلاله منه محل القبول استسمح كاتبه الفاضل من أخذي عليه اعتماده كتاب فتوح الشام من التواريخ الوثيقة مع انه كتاب من كتب المغازي والقصاصين التي لم يعرف واضعوها الى الآن وانما نسب هذا الكتاب الى الواقدي لكثرة ماعرف عن الرجل من رواية الاخبار، هذا من وجه ومن وجه آخر فان الثقات من أهل الاخبار والمحدثين يوهنون رواية الواقدي فلو فرض صحة نسبة الكتاب اليه فانه عندنا غير موثوق ولنا مندوحة عنه بمثل تاريخ الطبري الذي هو أعظم تاريخ كتب في القرون الاولى ويتلوه غيره من كتب التاريخ الوثيقة وكلها لم تذكر ذلك الخبر : وفي كل حال أشكر مجلة المقتطف التي أخذت بانتقاد كتابي دون كثير من المجلات التي كنت أتمنى لو تحذو حذو المقتطف الاغر لما في ذلك من التعاون على استجلاء الحقائق التي هي مرامي أفكار الباحثين : انتهى الجزء الثالث بحمد الله؛



فهرست

الجزء الثالث من أشهر مشاهير الاسلام

صحيفة

أبو عبيدة ابن الجراح
٥٠٤ (باب) حاله في الجاهلية نسبه وأصله
٥٠٤ سيرته في قومه ومكانته عندهم
٥٠٥ (باب) اسلامه وصحبته اسلامه
٥٠٥ صحبته
٥٠٨ (باب) حروبه وفتوحاته بالشام
٥١٠ كلمة في العمال
٥١٣ باب اخلاقه وسيرته
٥١٨ تنبيه
٥١٨ (باب) وفاته
٥١٩ وصيته
٥٢٠ خطبة معاذ بعد وفاة أبي عبيدة
٥٢١ كلمة في القبور

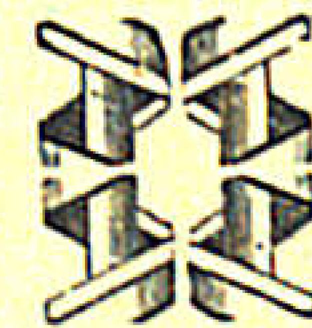
سعد بن أبي وقاص
٥٢٥ (باب) حاله في الجاهلية نسبه وأصله
٥٢٥ مكانته عند قومه وصناعته
٥٢٦ (باب) اسلامه وصحبته اسلامه

صحيفة

٥٢٨ صحبته
٥٢٩ (باب) حروبه وفتوحاته
٥٣٥ دعوة المسلمين الى الاخاء والمساواة وما نشأ عنها
٥٤١ وقائع القادسية
٥٤٩ فتح المدائن عاصمة الاكاسرة
٥٥٦ (باب) تخطيط الكوفة وامارته عليها
٥٥٨ (باب) نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة
٥٦٢ اعتزاله الفتنة
٥٦٦ (باب) وفاته وولده وصفته
٥٦٧ صفته
٥٦٧ ولده

عمرو بن العاص
٥٦٧ (باب) حاله في الجاهلية نسبه وأصله
٥٦٨ صناعته ومكانته في قومه
٥٦٩ (باب اسلامه وصحبته اسلامه
١٧٢ صحبته
٥٧٤ (باب) حروبه وفتوحاته فتح مصر وبرقة

صحيفه		صحيفة	
٥٩٣	تحقيق الكلام فى حريق مكتبة الاسكندرية	٦٢٩	اخباره مع معاوية وكلمة فى الفتنة
٦٠٠	عود الى خبر الفتح	٦٤٧	(باب) نبذ من أقواله وأخباره أقواله
٦٠٣	(باب) ولايته على مصر آثاره فيها وأخباره مع عمر	٦٥٠	خطبة له
٦١٦	كلمة ثانية فى أهل الذمة	٦٥٦	(باب) وفاته وولده وفاته وكلمة مجملة فيه
٦٢٢	عود لخبر عمرو	٦٥٩	ولده
٦٢٦	(باب) دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية وكلمة في الفتنة أخباره مع عثمان	٦٦٠	أجوبة انتقاد



فهرست مالم يصحح فى الجزء الثاني من الغلط وماوقع في هذا الجزء

تابع الجزء الثاني

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٨٥	٦	زراح	رزاح
١٨٧	٨	المشهورين	المشهورون
١٩٢	١٠	ويؤتم	ويتم
...	١٥	الخطاب	بن الخطاب
١٩٣	٥	وهب	وهبا
١٩٧	١	المتين	الامين
١١٤	١٩	الاخا	الاخاء
٢٢١	١٨	عمر	عمرو
٢٢٠	٢٠	والجنسين	والجنسان
٢٣٥	٤	مجدون	مجدين
٢٣٩	١٧	لافمن	فمن (ولا) زائدة
٢٤٦	١١	تفرج	تفرّج
٢٥٠	٢٠	حضروه	حضوره
٢٦٥	١٦	أقليم	أقاليم
٢٧٥	٨	وانتهب	وانتهت
٢٨٨	٢	التالف	التآلف
...	١١	عن عن	عن
٣١٩	٢٠	ودانقين	ودانقان
٣٢٠	١٩	لنا ذنوبنا	لنا ولاخواننا
٣٤٥	١٩	أباه	أبوه
٣٦٠	١٨	اذا	اذ
٣٦٦	١	أمرا	أمر

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٤١١	١٦	ومروأته	ومرؤته
٤١٢	١٨	التجهد	التهجد
٤١٨	٢١	لما	لم
٤٢٠	١٤	اذ لم	اذالم
٤٢٧	١٢	فافصي	فافضي
٤٢٨	١٧	الرفاه	الرفاهة
٤٣١	٣	كفايته منه	كفايته منها
٤٣٩	١٤	ححرا	جحرا
٤٤٠	١	وسنيشير	وسنشير
٤٤٨	١٣	نخيلا	بخيلا
٤٥٥	٢١	متعبة	متبعة
٤٦٠	٢٦	اذ	اذا
٤٦٨	١٢	واستجاب	واستجلاب

تابع هذا الجزء

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٥١٦	١٩	لابي عبيد	لابى عبيدة
٥١٩	١٢	ابن	بن
٥٨٩	١٦	وقد عقب	وقدرتب
٥٢٠	٤	الله تائبا	الله الاتائبا
٥٤٧	٢	الروم	الردم
٥٥٠	٦	فافتتلوا	فاقتتلوا
« « «	١٠	الغربية	الغريبة
٥٥٩	١٢	وهناعلى الامةوهونا على الامة وهونالها	وهناعلى الامة وهونالها
٥٦١	٤	الشهرة	الشهوة

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥٧٣	٦	بسلمه	بسملة
« « «	١٣	كان	كان
٥٩١	٢١	لرمي	الرومي
٥٩٢	٤و٥	استجيت	استجيبت
٥٩٤	١	لاخرق	الاخرق
« « «	٦	ق	بق
٥٩٤	٢٠	الغربة	الغريبة
٥٩٦	١٦	فوقه من	فوقه من المناصب
٥٩٨	٢١	اهداها	واهداها
٦٠٤	١٠	عمر	عمرو
« « «	١٦	الجرية	الجمة
٦٢١	٤	كانهزام	كانهزم
٥٣١	٦	بلي	بعلي
٦٣٣	٤	والتناقصي	والتناهي
٦٣٦	٤	اثبت	أتيت
٦٣٨	٤	فقال الله	فقال ياعبدالله
« « «	٧	يكايده	يكايده فيه
« « «	١٥	استكثر طعمة	استكثر مصر طعمة
« « «	٢٠	خديج	حديج
٦٤٠	١٩	أوما	واما

كتاب

مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الرابع من المجلد الأول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان

ومن اشتهر في دولته

مطبعة هندية بشارع المهدي بالازبكية بمصر

سنة ١٣٢٢ هـ و ١٩٠٥ م

عثمان بن عفان

باب

حاله في الجاهلية

(نسبه وأصله)

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ القرشي الأموي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو كنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما ولد في السنة السادسة بعد الفيل أمه اروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي وأمها البيضاء ام حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

صناعته ومكانته في قومه

كان عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك في صدر الجزء الاول وقدم الشام مرة في تجارة في رواية لابن عساكر وكان غنياً كريما حسن الشيمة محببا في قومه مأمونا عندهم محترما لديهم يدلك عليه ما أخرجه ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان في قريش محببا يوصون اليه ويعظمونه وان كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهي تقول

أحبك والرحمن حبّ قريش عثمان

باب

اسلامه وصحبته

(أسلامه)

كان أسلامه بدعوة أبي بكر رضي الله عنه وكان لابي بكر نظر واختبار ومعرفة برجال قريش واخلاقهم وكان لقريش ثقة به وركون اليه ولعله بنقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة العناد والمكابرة دعاه الى الاسلام هو والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله كما في اكثر كتب الاخبار والحديث فاجابوه واسلموا فكانوا من السابقين الاولين الذين لهم فضل السبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع اساس التوحيد الذي هدم بمدد اركان الوثنية واستفاض نوره في ارجاء الارض وكان لعثمان رضي الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للاسلام ومعاضدة نبيه عليه الصلاة والسلام كما سترى بعدُ

لا ريب في ان الاسلام انما قام بقوّة الهية وروح عالية اودعت فيه وجعلته سهلا مقبولاً لدى العقول حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمنعنا ان نقول ان النفر الذين سبقوا الى تلقيه كانوا دعامة الاسلام وممهدي طريقه وناصري دعوته والقدوة الصالحة للعرب في اتباعه لما انهم من اخيار قريش ووجوه العرب وصريح ولد اسماعيل لذا اثنى عليهم القرآن وقربهم منه النبي عليه الصلاة والسلام ومما رواه ابن الاثير في أسد الغابة عن ابن عباس ان قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الآية نزلت في عشرة: أبي بكر : وعمر : وعثمان : وعلي : وطلحة : والزبير : وسعد : وعبد الرحمن بن عوف : وسعيد بن زيد : وعبدالله بن مسعود : ومن قرأ تاريخ النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بامعان علم فضل عثمان واخوانه من السابقين رضوان الله عليهم بسبقهم للاسلام وقيامهم باعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة مع ما يعهد من امر كل دعوة من البطء في السير والمناهضة التي تلقاها من اسراء العوائد والتقليد في كل الأمم فجزاهم الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء

(صحبته)

كان في صحبته محبوبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما عنده عزيزاً عليه فحباه من كرامة المصاهرة ببنتيه بما يغبط عليه تكريما له وتقديراً لحسن بلائه في الاسلام واخلاصه في تأييد الدعوة ومبادرته لتلقي كلمة التوحيد فقد روى ابن الاثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما من المحدثين واهل الاخبار ان عثمان لما اسلم زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبنته رقية (وفي رواية السيوطي انه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة يوم ظفر رسول الله بالمشركين في وقعة بدر وكان عثمان (رض) تخلف في المدينة لاجل تمريضها فضرب له رسول الله (ص) بسهم فعد لذلك بدرياً وان لم يحضر وقعة بدر ثم زوجه بعدها بأبنته أم كلثوم ولذا سمي ذا النورين اي لانه كان ختن رسول الله على بنتيه وتوفيت أم كلثوم في السنة التاسعة من الهجرة فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو انّ لنا ثالثة لزوجناك وهذا يدل على مكانته عنده وثقته به وحبه له

ويحق له ان يرى من نبيه مثل هذا التفضل لتغاليه في طاعته واداء واجب الصحبة له وصبره بين يديه على المكاره واستمساكه بعروة الاسلام وبذله ماله في سبيله وتحمله الاذى من اجله ومن ذلك ما اخرجه ابن سعد

عن محمد بن الحارث بن ابراهيم التيمي قال : لما أسلم عثمان بن عفان اخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطا وقال ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث والله لا أدعك ابداً حتى تدع ما انت عليه . فقال عثمان والله لا أدعه ابداً ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه :

ولما رأى انّ اضطهاد قريش له واقع لا محالة وانّ الفرار بدينه أسلم هاجر الى الحبشة مع رقية بنت رسول الله (ص) فكان أول من هاجر ففي رواية عن أنس قال : اول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي (ص) صحبهما الله انّ عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط: ثم هاجر الهجرة الثانية الى المدينة

ومما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله وفي منفعة المؤمنين تجهيزه جيش العسرة بالف بعير فقد نقل في الاستيعاب عن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على الف بعير وخمسين فرسا ونقل في رواية أخرى انه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الالف بخمسين فرسا وجيش العسرة كان في غزوة تبوك

واخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان الى النبي(ص) بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول ـ ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ـ مرتين

ومن هذا القبيل ايضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبدالبر في الاستيعاب ان بئر رومة كانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله (ص) : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان

اليهودي فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشترى نصفها باثني عشر الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان (رض) ان شئت جعلت على نصيبي قرنين(١) وان شئت فلي يوم ولك يوم : قال بل لك يوم ولي يوم. فكان اذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودي قال أفسدت علي ركيتي فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم (٢)

ومن هذا القبيل ايضاً زيادته في مسجد رسول الله (ص) من ماله وذلك ان رسول الله (ص) قال :من يزيد في مسجدنا : فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده في المسجد . هكذا ذكره ابن عبد البر ورواه غيره بهذا المعنى او ما يقرب منه

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الاعمال جميل الصحبة حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم بذولا للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين لهذا اجل النبي (ص) قدره ونوه باسمه وقد وردت عن النبي (ص) احاديث كثيرة تشهد بفضله فليراجعها من احب في كتب الحديث وحسبه انه احد العشرة الكرام حواري النبي عليه الصلاة والسلام واحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى واخبر ان رسول الله توفي وهو عنهم راض واحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطي قال ابن عباد : لم يجمع القرآن من الخلفاء الا هو والمأمون: وقد شهد مع النبي (ص) بعض المشاهد وكان يستخلفه على المدينة في بعضها ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان لان هذه كانت من اجله وذلك لما ارسله رسول الله الى اهل مكة رسولاً ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بان عثمان

(١) حبلين (٢) وفي بعض الروايات ان عثمان هو الذي حفر بئر رومة

قد قتل فجمع اصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال اهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بان عثمان لم يقتل وهذا يدلك على مكانته عنده وحبه له

اخرج الترمذي عن انس قال لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله الى اهل مكة فبايع الناس فقال النبي (ص) : ان عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله . فضرب باحدى يديه على الاخرى فكانت يد رسول الله (ص) لعثمان خيراً من أيديهم لانفسهم :

باب

(خلافته والشورى وكلمة في البيعة او الخلافة والدين)

كلمة في الخلافة والدين

علم القارئ مما بسطناه في الجزء الاول والثاني عن كيفية استخلاف ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وبيعتهما ان الاولى اعتدها عمر فلتة وقى الله المسلمين شرها لانها لم تكن شورى بين المسلمين ومع ذلك فقد رضيها المسلمون أتم رضى ولم يخالف على أبي بكر احد من الصحابة ورضي بها من خالف ولو بعد حين . وانّ الثانية تمت لعمر بعهد من أبي بكر ثم برضا الامة وان عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً ويؤخذ من مجمل ما نقلناه بهذا الصدد ان البيعة وان كان يتوقف عقدها على رضى الجمهور الا انها لم تأسس على قاعدة محض الاختيار اعني اختيار الامة او من ينوب عنها من اهل الحل والعقد ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الاسلامية اقرب للجمهورية منها للملكية وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحد الى آخر على شرط تقيد الامير بقانون الشورى لكان اسلم عاقبة وأسد

لذرائع الخصام والانقسام كما قال ذلك معاوية بن ابي سفيان لابن حصين حين وفد عليه (١) ولكن لما لم تكن كذلك واخذ اصل البيعة شكلاً بين شكلين شكل الشورى وشكل الاستبداد او شكل الاطلاق والتخصيص تولدت في ثنايا الخلافة جراثيم النزاع حتى افضى الامر بعدُ الى التغالب والغالب بالضرورة قهّار قلما يراعي اميال الامة وتحري قاعدة الشورى التي نوّه بمحاسنها الشرع فلا جرم ان تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها الى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الاسلام غالب للمسلمين على امرهم كما حصل بعدُ وكان سبباً عظيماً لكمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول

---

(١) قالوا ان زياد بن ابيه اوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة فقال له يابن حصين قد بلغني ان عندك ذهناً وعقلا فاخبرني عن شيء اسألك عنه. قال سلني عما بدالك قال اخبرني ما الذي شتت امر المسلمين وملأهم وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان قال ما صنعت شيئاً . قال فمسير عليّ اليك وقتاله اياك. قال ماصنعت شيئاً . قال فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم . قال ماصنعت شيئاً. قال ما عندي غير هـذا يا امير المؤمنين . قال فانا اخبرك انه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر وذلك ان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما امره الله به ثم قبضه الله اليه وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لامر دنياهم اذ رضيه رسول الله (ص) لامر دينهم فعمل بسنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت الى ذلك نفسه ولو انّ عمر استخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف اه

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ولكن عمر رضي الله عنه لم يرد فيما صنع الا الخير لانه رأى ان لا يتحمل تبعة الخلافة ميتاً كما تحملها حياً فلم يعهد الى شخص بعينه وخاف ان يتركها لرأي الامة واختيارها فيقع الخلاف الذي اشار اليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضي الله عنه لا يقع

الاسلام حتى اذا آن اوان الراحة والنزوع الى التمتع بجني الاسلام أخذ ذلك الضعف يظهر في كل جزء من اجزاء الامة وفي كل عضو من اعضائها حاكما كان او محكوما حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع :لاوقوف معه: من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة في ابان زهوها

انّ الدول مازالت تقوم وتقعد وتضعف وتقوى والأمم كذلك غاية ما في الامر انّ الضعف اذا تناهى يغير احيانا شكل الأمم كما لو قيل انّ الرومان أخلفهم الطليان وانّ اليونان أخلفهم البزنطيون وانّ هؤلاء أخلفهم الاروام والاصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده في شكل آخر ولو مزيجاً واقام له دولة غير الاولى . وهكذا الشأن في كل أمم المغرب مع ما لاقته من ضروب الشقاء والاستبداد وما انتابها من القوة والضعف فانها مازالت تسقط وتقوم وتعالج انواع الارزاء ،وتحاول بعد الهبوط الى الحضيض العروج الى السماء ،حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن،وتقمصت في شكل جديد لم ترَ مثله عين الزمان

رب سائل يسأل كيف اذن لم يتلاف المسلمون امر ذلك الضعف واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لانهاية له غير الموت والخذلان مع ما يشاهدونه من حال الملل الاخرى التي صار اليها ملاك الاسلام. فالجواب عنه ان ذلك الضعف الذي اشرنا الى انه كمن في ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين انما منع المسلمين عن تلافيه بل وألجأهم للاعراض عن معالجتـه امران : الاول : ما قدمناه من عدم توفر شروط الشورى والاختيار في البيعة بحيث اخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج

اليها من طريق القوّة والتغالب فاوجد نزاعا مستمرًّا من اجلها في الامة أفضى الى مصير الامر ليد الغالب والغالب لايتقيد بالشورى ولا يجاري رغائب الأمة بالضرورة

والامر الثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لاولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للاخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياتا دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضية حالة كل عصر سواء كان في حياة الامم السياسية او حياتها الاجتماعية لا سيما بعد ان قالوا بحرمة الاجتهاد و وقفوا عندحد محدود من الفروع وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نموّا جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام وتعطى بأزمتها الى الامراء والحكام حتى في عصر زال فيه الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للامراء وجوبا دينياً وعرف أكثر عقلاء المسلمين ان الدين لن يكون مانعا من قيام الدول على قاعدة مراعات الاصلح وانما هو تأثر النفوس بحكم العادة المألوفة للاباء أخذ باعنة الابناء الى سلوك سبيل الاقتداء

واعلم ان الشارع جوّز الاجتهاد باحكام المعاملات دون العبادات وهي العقائد والاعمال لان الأولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لانها قطعية واما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى . هـذا في المعاملات فما بالك بامور الأمة السياسية التي يناط بها قيام الدول لاجرم انها أولى ان تعتبر دنيوية

وان تكون لذلك حياة المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا انّ الكتاب الكريم أمر بالشورى ووعد المؤمنين بالاستخلاف في الارض وانّ في هذا اشارة الى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورية فاستلزم ذلك ان تكون دينية اذ هذه اصول او كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الاحكام الأخرى من جواز الاجتهاد في جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة مع المصلحة الدنيوية . ومقوّمات الحكومة كثيرة لا تحصر في الكليات ولا تختص بزمان او مكان بل هي تابعة للحاجة سائرة مع ترقي الزمان ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لانها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة

لا جرم ان الصحابة عرفوا هـذا الاصل فجنح الخلفاء الراشدون منهم الى الشورى في تدبير امور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفتين ما فيه الكفاية وعرفوا انّ لهم ما وراء ذلك الاصل ان يأخذوا بما هو نافع لهم من مقوّمات الملك لانه منوط بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة الدولة فأخـذوا اصول الحكومة الادارية عن الفرس كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الارضين واحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ وغير ذلك مما مر بك ذكره في هذا الكتاب وفاتهم ان يأخذوا عن الرومان اصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين افراد الأمـة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي اوجبها الكتاب الكريم وانما أذهلهم عن هذا ان ليس لديهم تاريخ في اصول الحكومات يرجعون اليه وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاوريهم الرومانيين فلجأوا الى اناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا

الامر على وجهه حتى جاء عصر كان الامام فيه هو المتسلط على كل شؤون الدولة تسلطاً ملازما لتسلطه الديني فكما ان له ان ينيب عنه اماماً في الصلاة فله ان ينيب عنه قاضيا للقضاء وكانت الخلافة لذلك اشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدى الى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الافكار على مبدأ الخضوع المطلق للامير باعتبار ان الامير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل

انّ اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حوّل الاحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب الى فرق دينية كانت في الاسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين، ومثاله انّ الاحزاب السياسية التي قامت في الصدر الاول لمطلق الغرض السياسي او الانتصار لزيد والاخذ بناصر بكر ما لبثت ان انقلبت الى فرق دينية ومشت الى الانتحال في الدين كالخوارج مثلا فأنهم بعد ان كانوا يذهبون الى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام في امور الدين والدنيا انقلبوا الى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيعة فانهم بعد ان كانوا ينتصرون لعلي رضي الله عنه لاعتقاد انه أهل للخلافة و يريدونه عليها ولو بالقوّة انقلبوا ايضا الى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوبا دينيا وانفردوا بمذاهب خاصة كلها ترمي الى الدين و بالدين، وكان في غضون ذلك ما كان من الفتن التي انهكت قوى المسلمين، وصبغت بدمائهم اديم الارض باسم الدين . والدولة الاسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق، والتحزب والافتراق، في مركز واحد ومتجهة الى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير الا تحولها من الشورى

الى الاستبداد مع ان المعهود في الدول التي تنتابها الفتن وتقوم فيها الاحزاب ان ينتاب صبغتها التغيير وتتقلب اشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الاحزاب السياسية في كل زمان

هذا الاجمال ينبئك كيف استحكم داء الضعف في الأمة الاسلامية مع انه عارض قد كان في الامكان تلافيه قبل ان يستحيل الى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر أثره حتى على اعمال المسلمين واخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم بحيث صاروا لا يقبلون اي جديد الاّ باسم الدين ويرفضون كل امر نافع اذا لم يعرف عن اسلافهم الميتين حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية وهم يدافعون الخير ويأبون مجاراة الأمم لمطلق التوهم في ان مجاراة السابقين خروج عن الدين وان الاسلام والعياذ بالله قد حرّم كل امر نافع على المسلمين الاّ ما قال بحلّه شيخ من الشيوخ الماضين، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة في الاولين ولا الآخرين، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة ان الاسلام بريئ مما يزعمون . واليك مثالاً من هذا الهوس الذي جعلوه آلة لهدم تعاليم الاسلام وهم لا يشعرون

قامت في هذه الاثناء فتنة كبرى بين أميرين من امراء نجد وهما يتنازعان الامارة فرأيت بعض نبهاء النجديين ونصحته في تلافي اسباب هذه الفتنة بالانضمام الى الدولة العثمانية قبل ان تمتد الى البلاد يد اجنبية فأجابني ان هذا منى النفوس لكن النجديين يأبون دخول المستحدثات العصرية الى بلادهم ولا سيما نظام الجندية الحديث والدولة العثمانية تريدهم على مثل هذا النظام وهو في نظرهم من الحرام الخ

فانظر يا اخي الى هذه الأمة التي خاضت بخيلها على عهد الفتح الاسلامي شطوط المحيطين وبلغت دولتها من القوة الحربية مبلغا لم تصل اليه دولة قط كيف بلغ بها الهوس بالدين الى هدم أهم ركن من اركانه وهو الجهاد الذي لا يتم الا بالعمل بقوله تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) الآية ومن البديهي ان مبلغ الاستطاعة في هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوّة الاعداء القائمة بنظام الجندية ايضا وترتيبها على هذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذي ثبت عند كافة الأمم انه خير ما انتهى اليه العقل البشري في استكمال اسباب القوّة وحفظ البيضة والذود عن حياض الملك والاستقلال هذا من وجه ومن وجه آخر فان نظام الجندية الحديثة الذي يراه اولئك القوم من المحرمات له مزية اعداد الامة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل اعباء الجندية حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الاخلاد الى ظل القصور وهذا خلق طبيعي في العرب فما الذي يدعوهم الى الهروب منه واعتقاد حرمته الا ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين على غير علم بانها تهدم بهذا الهوس اركان الدين، وتنحدر في تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين، وبالاجمال فانّ حياة المسلمين السياسية لمّا لم تقم على اصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياتا دينية ترك فيها القياد الى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما سترى بعدُ وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين في كل شؤونها الدنيوية . على انّ اصطباغ الأمة بهذه الصبغة الدينية وان تأتى عن جعل الحياة السياسية حياةً دينية كما قدمنا الا انّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها الاّ تحري

المصلحة على قدر ما وصل اليه علمهم واجتهادهم وفيما عدا هذا فأنهم لم يحرجوا أنفسهم ولا المسلمين في امور الدولة الادارية وامور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما احرج هؤلاء بعدُ سوء الفهم وندرة المفهمين اذ الصحابة أخذوا عن مشركي الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ اليه علمهم من الامور النافعة التي هي من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تحرج في الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً في سيرة عمر رضي الله عنه

(خبر الشورى وخلافة عثمان)

نقلنا في الجزء الثاني شيئاً من خبر الشورى عما رواه ابن عبد ربه في العقد ووعدنا باستيفاء البحث في هذا الجزء وقد رأينا روايات كثيرة في خبر الشورى أعدلها لهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبري فآثرنا نقله على غيره من الروايات لوثوقنا باعتدال الطبري وتحريه لأصدق الحديث وقد روى الطبري في أول قصة الشورى ماهو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه انّ عمر رضي الله عنه لما عهد للستة أمرهم بالاجتماع قريبا منه ليتشاوروا فيما بينهم فاجتمعوا وتناجوا ثم ارتفعت اصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله انّ أمير المؤمنين لم يمت بعدُ : فأسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا اجمعون فاذا متّ فتشاوروا ثلاثة ايام وليصلِّ بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع الاّ وعليكم أمير منكم ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه أمركم . ومن لي بطلحة : فقال سعد بن أبي وقاص . أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله . فقال عمر ارجو ان لايخالف ان شاء الله . وما أظن ان يلي الاّ أحد هذين الرجلين . عليّ وعثمان . فان

ولي عثمان فرجل فيه لين . وان ولي عليّ ففيه دُعابة وأحرِ أنْ يحملهم على طريق الحق . وان تولوا سعداً فأهلها هو والاّ فليستعن به الوالي فاني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ـ ونعم ذو الرأي عبدالرحمن بن عوف مسدَّدٌ رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الانصاري. يا أبا طلحة انّ الله عزّ وجلّ طالما أعزّ الاسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتىّ يختاروا رجلا منهم

وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصُهيب صلِّ بالناس ثلاثة ايام وأدخل عليًا وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة ان قدم وأحضر عبدالله بن عمر ولا شيء له من الامر وقُمْ على رؤسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه او اضرب رأسه بالسيف وان اتفق اربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبدالله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فخرجوا فقال عليّ لقوم كانوا معه من بني هاشم : إن أُطيع فيكم قومكم لم تؤمَّروا ابداً : وتلقاه العباس فقال . عدلت عنا . فقال وما علمك . قال . قرن بي عثمان وقال كونوا مع الاكثر فان رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لايخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان او يوليها عثمان عبدالرحمن . فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بلَهْ أني

لاارجو الاّ (١) احدهما . فقال العباس . لم ادفعك في شيءٍ الاّ رجعت اليّ مستأخراً بما أكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله (ص) ان تسئله فيمن هذا الامر فأبيتَ وأشرت عليك بعد وفاته ان تعاجل الامر فأبيتَ وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ان لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عني واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل لا الاّ ان يولّوك واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الامر حتى يقوم لنا به غيرنا . وأيمُ اللهِ لا يناله الاّ بشر لا ينفع معه خير فقال عليّ اما لئن بقي عثمان لاذكرنه ما أتى . ولئن مات ليتداولنّها بينهم . ولئن فعلوا ليجدنّي حيث يكرهون ثم تمثل

حلفتُ بربِّ الراقصات عشيّةً ... غدون خِفافاً فابتدرنَ المُحصبا

ليَختلِيَنْ رهطُ ابنِ يَعمَرَ مارئاً ... نجيعاً بنو الشُداخ وِرْداً مُصلّبا

والتفت فرأى أباطلحة فكره مكانه . فقال أبو طلحة . لم تُرَعْ ابا الحسن .

فلما مات عمر وأُخرجت جنازته تصدّى عليّ وعثمان ايهما يصلي عليه . فقال عبدالرحمن كلاكما يحب الامرة لستما من هذا في شيء هذا الى صُهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثا حتىّ يجتمع الناس على امام : فصلّى عليه صهيب

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المِسوَر بن مَخرَمة ويقال في بيت المال ويقال في حجرة عائشة باذنها وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة ان يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمُغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان ان تقولا حضرنا

(١) لعل (الاّ) زائدة اذ الظاهر ان ليس معه احد يستثنيه هنا فليحرر

وكنا في اهل الشورى .

فتنافس القوم في الامر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة. انا كنت لأن تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون

فقال عبدالرحمن ايكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم فلم يجبه أحد فقال . فأنا انخلع منها . فقال عثمان انا أول من رضي فقد سمعت رسول الله يقول (امين في الارض أمين في السماء) فقال القوم قد رضينا وعليّ ساكت . فقال ما تقول يا أبا الحسن . قال اعطني موثقاً لتؤثرنّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رَحِم ولا تألو الأمة

فقال اعطوني مواثيقكم على ان تكونوا معي على من بدّل وغيرّ وان ترضوا من اخترت ولكم عليّ ميثاق الله ان لا أخص ذا رَحِم لرَحِمِهِ ولا آلو المسلمين : فاخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعليّ انك تقول اني أحق من حضر بالامر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ولكن أرأيت لو صرف هذا الامر عنك فلم تحضر. من كنت ترى من هؤلاء الرهط احقّ بالامر؟ قال عثمان . وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله (ص) وابن عمه لي سابقة وفضل فلن يصرف هذا الامر عني . ولكن لو لم تحضر فايّ هؤلاء الرهط تراه أحقّ به؟ قال . عليّ . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان . ثم خلا بسعد فكلمه . فلقي عليّ سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تَساءَلونَ بِهِ والارحامَ انّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً : اسئلك برحم ابني هذا من رسول الله

(ص) وبرحم عمي حمزة منك (١) ان لا تكون مع عبدالرحمن لعثمان ظهيراً عليّ فاني أُدلي بما لا يُدْلي به عثمان .

ودار عبدالرحمن لياليه يلقى اصحاب رسول الله (ص) ومن وافى المدينة من امراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم . ولا يخلو برجل الاّ أمره بعثمان حتىّ اذا كانت الليلة التي يُستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المِسْوَر بن مَخْرمة بعد ابهيرار (٢) من الليل فأيقظه فقال . الا اراك نائماً ولم اذق في هذه الليلة كثير غُمْضٍ انطلق فادعُ الزبير وسعداً . فدعاهما . فبدأ بالزبير في مؤخرّ المسجد في الصُفَّة التي تلي دار مروان. فقال له خلِّ ابنَيْ عبد مناف وهذا الامر : قال نصيبي لعليّ . وقال لسعد اذا وانت كلالة (٣) فاجعل نصيبك لي فأختار . قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعليّ أحبُّ اليّ . أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤسنا. قال يا أبا اسحق اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل وجُعل الخيار اليّ لم أُردها اني أُريت كروضة خضراء كثيرة العُشْب فدخل فحل لم ارَ فحلاً قط اكرم منه فمرّ كأنه سهم لا يلتفت الى شئ مما في الروضة حتىّ قطعها لم يعرّج . ودخل بعير يتلوه فاتّبع أثره حتىّ خرج من

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعد هي ان أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي ايضا أم المقوّم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هؤلاء اربعة بنو عبدالمطلب من هالة وهالة هذه هي عمة سعد بن أبي وقاص لحمزة اذن ابن عمة سعد وسعد ابن خال حمزة

(٢) اي بعد انتصافه

(٣) الكلالة بنو العم الاباعد

الروضة ثم دخل فحل عبقريّ (١) يجرّ خطامه (٢) يتلفت يميناً وشمالاً ويمضي قصد الأوّلين حتى خرج ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة ولا والله لا أكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضي الناس عنه قال سعد . فاني اخاف ان يكون الضعف قد ادركك فامض لرأيك فقد عرفت عهد عمر

وانصرف الزبير وسعد وارسل (اي عبدالرحمن) المسوَر بن مخرمة الى عليّ فناجاه طويلاً وهو لا يشك انه صاحب الامير ثم نهض . وأرسل المسور الى عثمان فكان في نجيهما حتى فرّق بينهما اذان الصبح . قال عمرو ابن ميمون قال لي عبدالله بن عمر يا عمرو من أخبرك انه يعلم ما كلم به عبدالرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان

فلما صلوا الصبح جمع (عبدالرحمن) الرهط وبعث الى من حضره من اهل السابقة والفضل من الانصار وامراء الاجناد فاجتمعوا حتى التج (ازدحم) المسجد بأهله فقال . ايها الناس انّ الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الامصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد انا نراك اهلاً لها . فقال أشيروا عليّ بغير هذا فقال عمار ان أردت ان لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الاسود صدق عمار ان بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبي سرح ان اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبدالله بن أبي ربيعة صدق ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتم عمار ابن أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو

(١) العقبري القوي
(٢) الخطام أي الزمام

أمية . فقال عمار ايها الناس انّ الله عزّ وجلّ أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الامر عن اهل بيت نبيكم . فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سُمية وما أنت وتأمير قريش لانفسها . فقال سعد بن أبي وقاص يا عبدالرحمن افرغ قبل ان يفتتن الناس . فقال عبدالرحمن اني قد نظرتُ وشاورت فلا تجعلنّ ايها الرهط على انفسكم سبيلا . ودعا علياً وقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ . قال نعم . فبايعه فقال علي حبوته حبو دهر ليس هذا اول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفون) والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك واللهُ كلّ يوم هو في شأن . فقال عبدالرحمن يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول . سيبلغ الكتاب أجله . فقال عمار يا عبد الرحمن اما والله لقد تركته وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال يا عمار والله لقد اجتهدت للمسلمين . قال ان كنت اردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما اوتي الى أهل هذا البيت بعد نبيهم اني لاعجب لقريش انهم تركوا رجلا ما اقول انّ أحداً اعلم ولا أقضى منه بالعدل أما والله لو أجد اعوانا

فقال عبدالرحمن يا مقداد اتق الله فاني خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله مَن أهل هذا البيت ومَن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبدالمطلب والرجل عليّ بن أبي طالب . فقال عليّ انّ الناس

ينظرون الى قريش وقريش تنظر الى بيتها (وفي نسخة تنظر في صلاح شأنها) فتقول ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم ابداً وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم . وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكلّ قريش راض به . قيل نعم فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك ان أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكلّ الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا ارغب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه .

وقال المغيرة بن شعبة لعبدالرحمن يا أبا محمد قد أصبتَ ان بايعتَ عثمان . وقال لعثمان لو بايع عبدالرحمن غيرك ما رضينا . فقال عبدالرحمن . كذبت يا أعور لو بايعتُ غيره لبايعته ولقلتَ هذه المقالة

وكان المسور بن مخرمة يقول . ما رأيت رجلاً بذّ (١) قوماً فيما دخلوا فيه بأشدّ مما بذّهم عبدالرحمن بن عوف

هذا ما رواه الطبري في تاريخه عن خبر الشورى وقد اورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم في الرواية الأولى الاّ انه اورد فيها ما دار من الخطب بين اهل الشورى مما لم نر حاجة لايراده خوف التطويل وزاد فيها ان عبدالرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر فقعد عبدالرحمن مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه وتلكأ عليّ فقال عبدالرحمن (ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدَ عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيما خدعة . قال وانما سبب قول عليّ خدعة . انّ

(١) اي غلبهم

عمر بن العاص كان قد لقي عليا في ليالي الشورى فقال انّ عبدالرحمن رجل مجتهد وانه متى اعطيته العزيمة (١) كان أزهد له فيك ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك . قال . ثم لقي عثمان فقال انّ عبدالرحمن رجل مجتهد وليس والله يبايعك الاّ بالعزيمة فاقبل : قال فلذلك قال عليّ . خدعة :

واختلفوا في اليوم الذي بويع فيه عثمان ففي رواية للطبري انه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ وفي رواية أخرى له ايضا ان عثمان استخلف لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ فخرج فصلى بالناس العصر ولعله الاصح

(هل هناك تحامل على علي)

هذا ما أورده الطبري من قصة الشورى وانت ترى من ظاهر هذه القصة ان القوم ربما تحاملوا على علي رضي الله عنه بصرف الخلافة عنه الى عثمان رضي الله عنه والذي اعتقده ان قريشا وان كانت لا تريد استخلاف عليّ لاسباب سيأتي بيانها الاّ ان الخلافة من أبي بكر الى عثمان ثم علي ترتيب طبيعي اتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين والثابت عندهم من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير الى مثل هذا الترتيب (٢) في المقام والدرجة التي وضع كلا منهم فيها رسول الله (ص) وعليّ

(١) اي متى اسرعت بالتسليم لما يشترطه عليك

(٢) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . وأشدهم في أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم عليّ الخ . اخرجه ابو يعلى عن ابن عمر ورواه احمد والترمذي عن أنس لكن ليس فيه عليّ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتبئا فقل له انّ النبي يقرأ عليك السلام ويقول ابشر بالجنة وانطلق الى عمر ..... وانطلق

نفسه يعرف ذلك ويعترف به فقد اخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حُرَيث وعن شُرَيح القاضي انهما سمعا عليّ بن أبي طالب يقول (ألا انّ خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . ثم عمر . ثم عثمان) واخرج هذا الحديث الامام احمد وقال الذهبي انه متواتر : كما ان اخلاق الاربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم للخلافة في العصر الذي استُخلف فيه ليس باعتبار ان كل واحد أفضل من الآخر او أهل منه كلا بل ان لكل واحد منهم خصالاً فاضلة تجعله اهلاً لذلك المنصب لكن في الوقت الذي أُسند فيه اليه فأبو بكر لما كان رجلاً مسناً طويل الاناة رؤف القلب وله في النفوس هيبة الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة اليه والاسلام غضا طريًا والايمان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية والاعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء في محله وملافات المرض بطبيبه يدلك عليه قول بن مسعود الذي مر معنا في اخبار الردة (لقد قمنا بعد رسول الله (ص) مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان منّ الله علينا بأبي بكر الخ) وابن مسعود انما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبي بكر (رض) يومئذ وحسب

الى عثمان ... الحديث واخرجه بن أبن عساكر في تاريخه

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله (ص) فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان وزاد الطبراني في الكبير فيعلم بذلك النبي (ص) ولا ينكره ومثله ما اخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفينا رسول الله (ص) نفضل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا . وقد ورد كثير من مثل هذه الاحاديث ولا سيما ما يشير منها الى ما يحصل لعثمان وعلي وما يكون من الفتنة في عصرها وكلها تشير الى هذا الترتيب فلتراجع في مظانها من كتب الحديث

العاقل ان ينظر في سيرة أبي بكر واخباره مع اهل الردة وتأنيه في مثل تلك الخطوب التي استقبلها بعد وفاة النبي (ص) المسلمون فيعلم ان كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبي بكر رضي الله عنه

استخضع أبو بكر اولئك الخارجين بالحرب واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالاحسان اليهم والصفح عن مسيئهم وألان جانبه للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ولما تمهد لهم طريق الفتح وفتح امامهم باب مستقبل سعيد تولد في النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ونفث فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الاسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الاعراب فاحتيج الى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشتد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفا بالشدة والارهاب حائزا لهذه الشروط فعهد اليه أبو بكر بالخلافة وهي له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعهد اليه بها أبو بكر والذي يراجع ما كتبناه من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان في حاجة الى مثله تسوق الخلافة اليه سوقاً ثم لما كان عمر شديداً بطبعه ميالاً الى التقشف والقصد وقد أخذ على شكائم النفوس اخذاً ضيق في وجوه القوم مذاهب التبسط في العيش والتطلع الى كل رغائب النفوس مع اقبال الدنيا عليهم ومصير ذلك الملك العريض اليهم احتاجوا بعده الى سائس يبسط اليهم كف العطاء. ويلين لهم جانب العقوبة. ويطلق يدهم في جنى ثمرات النصب في ذلك الفتح. وينشر عليهم جناح الرأفة. وكان المترشحون للخلافة من الستة هما عثمان وعليّ. وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد واناة الشيخوخة

كما كان عليّ معروفا بالشدة وحب القصد كعمر بن الخطاب اتجهت رغائبهم الى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة ايضا لهذا رأينا كل من استشاره عبدالرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا الى هذا بسائقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد باهلية عثمان يدلك عليه ما رواه بن سعد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود انه قال لما بويع عثمان (أمرّنا خير من بقي ولم نأل) فاذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضي الله عنه وهذه شهادة ابن مسعود له مع انه ممن ضربهم عثمان ونقم منه فيمن نقم لاجل هذا فليس هناك شيء من التحامل كما يتبادر الى ذهن القاريء من قصة الشورى . وما روي في تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو اذا صح وما اخاله صحيحا فانما هو بمحض رأي عمرو لا يد لعبدالرحمن رضي الله عنه فيه وعمرو سيق الى هذه الرغيبة كما سيق اليها غيره من المهاجرين والانصار لا سيما وانه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرته في ماله كما رأيت في سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل الى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعليّ لشدته

وهكذا يقال ايضاً عن عليّ في خلافته وانه استخلف في الوقت الذي كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن في طرق الاستمتاع وتفلت بل وأفلتت فيه من قيد الرهبة الذي قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة واكبح لجماح النفوس من استخلاف عليّ (رض) لما عرف به من الشدة والورع وحب القصد مع بلوغه السن الذي يؤهله لهذا المنصب الرفيع وقد ذهب بعضهم الى انّ علياً ضعيف الرأي لهذا غلبه على الخلافة

الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضي الله عنه له (لم أدفعك في شيء الاّ استأخرت اليّ بما أكره) الى آخر الخبر الذي مرّ في قصة الشورى واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع في الحكم لا نصيب له من التأمل فيما اكتنف علياً رضي الله عنه من الاحوال والبواعث التي بسطناها للقاريء وانما كان هذا الترتيب في الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعي كما رأيت فماذا ينفع فيه الراي والحيلة لا سيما وانّ علياً رضي الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمساك بالفضيلة لا ينزع الى خدع السياسة وليس هذا وأيم الحق بعيب يعاب به مثل عليّ وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور اذا لم يلجأ الى الحيلة في بعض الاحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه

وجملة القول انّ ما رويء من الصحابة من صرف الخلافة عن عليّ او التنحي عن نصرة بني هاشم في كثير من الاحوال وان كان فيه شيء من الخوف من سيادة بني هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ثم استئثارهم اذا صارت الخلافة اليهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار الى هذا عليّ في خبر الشورى واشياء أخرى سنأتي على ذكرها في غير هذا المحل الاّ انهم كانوا مسوقين الى ذلك ايضا باحكام الضرورة ودواعي الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهور في بعض الاحيان وهذا ما أراه موافقاً للحقيقة في هذه المسئلة والله أعلم بما وراء ذلك

(اول اعماله في خلافته)

لما بويع عثمان رضي الله عنه خطب الناس خطبة غراء في الوعظ ستأتي في باب خطبه وقيل أرتج عليه لما أراد ان يخطب فقال : ايها الناس انّ اول

مركب صعب وانّ بعد اليوم اياماً وان أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله : (اخرجه بن سعد) . قالوا وزاد في الاعطيات مائةمائة و وفد أهل الامصار : قال الطبري وهو اول من فعل ذلك وكان عبيدالله بن عمر لم يزل محبوساً عند سعد بن أبي وقاص منذ أخذه بعد قتله الهرمزان وجفينة فلما تمت البيعة لعثمان جلس في جانب المسجد ودعا بعبيدالله وقال لجماعة من المهاجرين والانصار . أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق . فقال عليّ ارى ان نقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم : وانما أشار عليّ بقتله لانه ثبت يومئذ انّ الهرمزان لما ضربه عبدالله بالسيف قال لااله الاّ الله كما انه لم يثبت اشتراكه مع أبي لؤلؤة في جريمته الاّ بما شهد به عبدالرحمن بن أبي بكر من رؤيته ليلة الحادثة مع أبي لؤلؤة وفي يدهذا خنجر سقط منه لما رهقهما عبدالرحمن. وكان عليّ شديداً في الحق فأشار بقتله وأشار غيره بعدم قتله والامر كما لا يخفى على الناقد يوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج الى أناة وكان ممن حضر يومئذ عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين انّ الله قد اعفاك ان يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك. قال عثمان انا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي : وانتهى الاشكال

هكذا رواها الطبري قال وكان رجل من الانصار يقال له زياد بن لبيد البياضي اذا رأى عبيدالله بن عمر قال

ألا يا عبيدَ الله مالك مَهرَبٌ ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبتَ دماً والله في غير حِلّه ... حراماً وقتلُ الهُرمُزان له خطر

في ابيات. فشكا عبيدالله الى عثمان فدعا زياد بن لبيد فنهاه فانشأ زياد

يقول في عثمان ابياتاً منها

أبا عمرو و عبيد الله رَهْنٌ ... فلا تشككْ بقتل الهرمزان

وفي رواية أخرى للطبري عن القماذبان بن الهرمزان انّ عثمان دعاه فامكنه من عبيدالله قاتل أبيه ليقتله فرجاه المسلمون بالعفو عنه فعفى عنه وفي هذا الخبر نظر لانه لوصح لما بقي عليّ بن أبي طالب مصرّاً على قتل عبيدالله حتى خلافته حيث دعا ذلك عبيدالله الى الفرار والانحياز الى معاوية بن أبي سفيان

ومن أحسن اعمال عثمان (رض) التي عملها عند استخلافه كتبه التي كتبها الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس فقد كتب الى كل فريق من هؤلاء كتاباً بلغ الغاية في النصح والارشاد وحمل العمال على طريق العدل وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه وصرفه في وجهه والمساواة بين الناس مسلمهم ومعاهدهم كما سترى ذلك في باب كتبه ان شاء الله

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعد بن أبي وقاص فاني لم اعزله عن خيانة) ففي رواية انّ اول عامل بعثه عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبة والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبري واما الواقدي فقد قال انّ أسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه انّ عمر أوصى ان يقرّ عماله سنة فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبة على الكوفة ثم عزله واستعمل سعد بن أبي وقاص ثم عزله واستعمل الوليد بن عقبة فان صح ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥

باب

فتوحاته

(فتح ارمينيا والقوقاز)

(وجغرافيتهما)

تحد ارمينيا من جهة الشمال بالبحر الاسود وكرجستان ومن الشرق بكرجستان ايضا وجزء من بلاد فارس ومن الجنوب بكردستان والجزيرة ومن الغرب بآسيا الصغرى. هذه حدود ارمينيا الآن الاّ انّ العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فربما ادخلوا في ارمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو أران المشتمل على مقاطعتي ايروان وتفليس وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا الى داغستان. وشرقا الى آزربيجان وبحر الخزر واماّ من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من ارمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموماً الى فتح ارمينيا ولكي يكون القارئ على بينة من الاماكن التي ورد ذكرها في فتح هذه البلاد في كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لارمينيا وما هو تابع للقوقاز رأيت من اللازم التوسع في جغرافية هذين القطرين وقبل ان ابسط جغرافية القوقاز اذكر هنا بعض الاماكن الشهيرة في ارمينيا زيادة في الايضاح

فمن مدن ارمينيا الشهيرة خلاط وقاليقلا وارزروم او ارزن الروم (ويقول أبو الفداء أنها نفس قاليقلا) والى جهة الغرب منها ارزنجان ثم ارجيش على بحيرة وان ووان المنسوبة اليها هذه البحيرة وهي في الطرف الشرقي منها

وفي الجهة الشرقية من سلسلة جبال ارمينيا جبل الجودي او أراراط الذي رست عليه سفينة نوح. ومن انهرها الفراة وأراس المعروف عند العرب بنهر الرّس وينحدر من الجبال قرب ارزروم ويمر بين مقاطعتي القارص وارزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من اعالي القارص ويصبان في بحر الخزر

واماّ القوقاز فيحدها شمالاً الروسيا وجنوبا العجم وتركية أسيا وشرقاً بحر الخزر الذي يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الاسود ويسمي العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرّان) من قبيل تسمية الكل باسم الجزء . فمن اقسام هذه البلاد الجنوبية ايبريا او كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالاً الى داغستان ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري ان العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وانه يمتد غربا الى آسيا الصغرى. ومن مدن الران الشهيرة ايروان وفيها كنيسة كبرى للارمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب او باب الابواب (١) والبيلقان : قال الاصطخري : ليس في أرّان مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس ومن اقسامه الشمالية بلاد الجركس في الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويجري فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الاسود ونهر كوما وترك (تِه رك) اللذان يصبان في بحر الخزر : ومن

(١) قال القرماني في تاريخه ما خلاصته ان باب الابواب على شاطئ بحر الخزر وان سبب هذه التسمية ان كسرى انوشروان لما بناها جعلها على سور في البحر يمتد مسافة شاسعة وجعل له ابواباً اسكن في كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالجبل من الهجوم على بلاده

أقسامه داغستان على بحر الخزر وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكو التي فيها منابع النفط ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته بالويه . ودربند على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه الى السهول الشمالية حيث قتل على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتي الكلام على ذلك

وامّا فتح ارمينيا والقوقاز فقد اضطربت الروايات في فتحهما لتعدد الغزوات التي غزاها المسلمون لهذه البلاد في خلافة عمر وعثمان رضى الله عنهما فبعضها يقول ان الفتح الاول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق وحبيب بن مسلمة الفهرى من جهة الغرب وان عبد الرحمن قتل يومئذ في بلنجر وفي بعضها انّ عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ ه في خلافة عثمان وفي بعضها انّ الذى قتل في بلنجر اخوه سلمان وذلك سنة ٢٦ وبعضها لا يقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط في غزوته الثانية والذى يؤخذ من مجموع الروايات التي جاءت في فتح ارمينيا ان عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا فى بلاد الترك او الخزر على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة كل من عبد الرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الاثير فى أسد الغابة الاّ انهما لم يحققا السنة التي قتل فيها سلمان بل قالا قيل انه قتل سنة ٢٦ وقيل انه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ وقالا انّ أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان والاختلاف فى زمن قتل سلمان وعبد الرحمن اختلاف بالضرورة فى زمن الفتح أيضاً

والظاهر ان الاضطراب في هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط في سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخي الافرنج ايضا فقد ذكر ديفرجي ان عبد الرحمن غزا ارمينيا قبل قتل يزدجرد بمدة ولم يعين تاريخ دخوله ارمينيا ثم نقل عن احد مؤرخيهم وهو المسيو سان مرتان خبر دخول سلمان وحبيب وفتحهما البلاد في خلافة عثمان سنة (٤٣٩ م) اي سنة (١٨ ه) مع ان الخليفة في هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وانّ سلمان قتل في بلنجر في هذه الغزات وجلا العرب عن ارمينيا بعد قتله ثم قال لكن العرب عادوا اليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ ه) واكرهوا امراء البلاد على دفع الجزية

ويؤخذ من هذا ان ديفرجي وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية في مكان الاولى اذ لا خلاف بين المؤرخين فى انّ العرب دوخوا ارمينيا مرتين الاولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان وقد أيدّ هذا تواريخ الارمن أيضاً وأشار اليه القس جبرائيل الخانجي فى مختصر تاريخ الارمن وان لم يذكر أسماء الفاتحين من العرب في الحرب الاولى والثانية ولم يعين تاريخهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجي بالتاريخ اذ الثابت عنده وعند مؤرخينا ان الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الاولى سنة (١٨ ه) والثانية (سنة ٢٦ ه) وانما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً في الفتح الاول والثاني أدخل هذا الوهم على مؤرخي الافرنج لذا رأيت ان أمحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد في تاريخ ديفرجي ومختصر تاريخ الارمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول

قد كان بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد فتحا في خلافة عمر (رض)

بلاد آذربيجان الواقعة الى الشرق من ارمينيا ولما كتب بكير الى عمر بالفتح كتب عمر الى سراقة بن عمرو بغزو الباب وجعله على حربها أي اميراً للحرب وجعل عمر على مقدمة سراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى احدى مجنبتيه (جناحيه) ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبدالله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة وكتب الى حبيب بن مسلمة الفهري ان يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة ونهض سراقة على هذا الترتيب من البصرة ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة الى ارمينيا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهريار فكاتبه شهريار واستأمنه ولما فرغ سراقة من الباب بعث الامراء والقواد الى ما يليه من بلاد ارمينيا فارسل بكير بن عبدالله الى موقان وحبيب بن مسلمة الفهري الى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان الى جبال اللان (القوقاز) فاشتبكت جنوده في اطراف ارمينيا مع الامير اوهان بن كامساراكان وأخيه ديران فقتلا وتشتت جندهما وذلك بخيانة أحد قواد الارمن المسمى ساحور الذي خان اوهان وانضم بجيشه الى العرب كما يقول ديفرجي وصاحب مختصر تاريخ الارمن

واما حبيب بن مسلمة الفهري فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له تيودو راحد امراء البلاد وكانت يومئذ منقسمة على بعضها واجتهد في ان يضم كل امراء ارمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح مع انه كان يساعده على هذا القصد البطريرك استراس الذي يئس من نجاح مسعاه فمات كمداً وبينما كان الارمن يشتغلون في اقامة بطريرك غيره اذ فاجأهم جند الاسلام بقيادة

حبيب بن مسلمة الفهري ووضعوا الحصار على مدينة دوفان[1] التي هي مقر البطريرك ويقول ديفرجي ان الحصار بدأ في نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعده (سنة ١٨ هـ) واستمر الى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ هـ) حيث فتحها حبيب ثم أخذ باتمام فتح ارمينيا وكرجستان ففتح وان ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرّس ويسميه الجغرافيون (أراس وأراكس) ومنها سار الى ارمينية الغربية ثم عطف على ايبريا التي هي جزء من شِرْوان وكرجستان الحالية واخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى وفي اثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبدالرحمن بن ربيعة فأقره عمر (رض) على فرج الباب وأمره بغزو الترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر وكان سكانها من الجهالة والتوحش على جانب عظيم وأمعن عبدالرحمن في البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها الى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتي فرسخ من بلنجر ثم عاد الى الباب ولم يزل يردد الغزو فيهم حتى قتل في احدى غزاته على نهر ترك (ته رك) الذي يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان شمالي ارزنجان وبعضهم سلك طريق الباب الى ارمينيا. وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن في خلافة عمر أو في خلافة عثمان أم قتل هو في خلافة عمر وأخوه في خلافة عثمان فاذا سلمنا بما رواه الطبري من انّ عثمان كان أمد عبدالرحمن بأخيه سلمان وانّ الفارين من جند عبد الرحمن التقوا بسلمان في الطريق فنجاهم الله فتكون وفاة عبدالرحمن

(١) وفي مختصر تاريخ الارمن : تفين

في خلافة عثمان ولا عبرة بتعيين السنة التي قتل فيها بل العبرة في الفتح وهل حصل في زمنه أم لا ومما لا خلاف فيه انّ عبدالرحمن بلغ في فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الاسود في خلافة عمر بن الخطاب اي ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ ه الاّ انّ ذلك الفتح كان فتحاً هيناً على الجزية ثم تراجع الامراء الذين فرقهم سراقة بن عمرو للفتح كما نقل ذلك ابن خلدون في كلامه على فتح جبال ارمينيا الا عبد الرحمن ابن ربيعة فقد بقي في بلاد الخزر . ومما يؤيدان هذا الفتح لم يكن فتحاً تثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون ايضاً من أنّ سراقة كتب الى عمر بخبر الامراء وتوجيههم الى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لانه فرج عظيم : أي انّ عمر لم يكن على ثقة من امكان فتح تلك البلاد وتملكها لاتساع فروجها اي ثغورها وتنائي إطرافها التي تحتاج الى كثير من الجند المرابط ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجي انّ المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك الى الجلاء عن كل ارمينيا وعادوا اليها بقوة اعظم سنة (٦٤٦م) أي سنة (٢٦ه) وهي السنة التي وجه فيها عثمان (رض) حبيباً وسلمان الى استرداد البلاد وفتح ارمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الاول في الحقيقة تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة الى اليوم للدول الاسلامية ولم تنتقض الا في فترات قليلة ثم استتب فيها الامر للمسلمين وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الارمن الى تسليم الارمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازدروس من قبل امبراطور القسطنطينية اذ كان الارمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التي كانت متسلطة عليهم وزالت سلطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى

الامبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مقدار سنة ومات وأخلفه ابنه سنباط

واليك بيان ما ذكره المؤرخون عن سبب ارسال عثمان (رض) لحبيب وسلمان الى ارمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٢٦ ه) ولا عبرة بما يوجد في سياق خبر الفتح الثاني من الشبه بسياق الخبر الاول فان حبيباً وسلمان سلكا على ما أرى في هذا الفتح عين الطريق الذي سلكاه في الفتح الماضي اي انّ سلمان أخذ الى القوقاز من شرق ارمينيا وحبيباً أخذ اليها من قلب ارمينيا وغربها وقد أشار ديفرجي في كلامه على فتح ارمينيا الى ان العرب لما عادوا الى فتحها في المرة الثانية سنة (٦٤٦م) (٢٦ه) انتهوا الى اراراط من الولايات التي دخلوا اليها أوّل مرة

انتقضت ارمينيا وآزربيجان ايضاً بعد الفتح الذى كان في خلافة عمر (رض) امّا لقلة الجنود المرابطة في البلاد ودخول الوهن على نفوسهم بعدقتل عبد الرحمن بن ربيعة ثم تنحيهم الى الاطراف والثغور التي من جهة فارس والجزيرة . واما لانّ الامراء الذين فتحوا البلاد يومئذ اكتفوا من السكان بالجزية ثم تراجعوا الى الثغور كما تقدم ذكره لثقتهم بضعف امراء البلاد عن النهوض الى الثورة والخروج عن الطاعة . اولعدم كفاية الجند الذين معهم للمحافظة على البلاد وبسط جناح السلطة على تلك الارجاء السحيقة عن مقر الخلافة البعيدة عن مستودع القوة والامداد كالبصرة والكوفة والشام فلما استخلف عثمان (رض) وعزل عتبة بن فرقد عن ازربيجان بلغه انّ البلاد انتقضت فاستغزى الوليد بن عقبة والي الكوفة فغزاها فصالحه أهل كور آزربيجان على صلح حذيفة بن اليمان وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي الى ارمينيا

في اثني عشر الفاً فسار اليها واثخن ثم انصرف الى الوليد وعاد الوليد الى الكوفة وجعل طريقه على الموصل فلقيه كتاب عثمان انّ الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث اليهم رجلاً من اهل النجدة والبأس في عشرة آلاف فخطب الوليد في الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم ثمانية آلاف فسار بهم الى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسلمة الفهري فشنوا الغارات واستفتحوا الحصون

المعروف ان مؤرخينا اذا ذكروا بلاد الروم انما يعنون بها آسيا الصغرى التي كانت يومئذ تابعة لامبراطورية القسطنطينية وكل ما هو تابع لها من الجزر ايضاً وربما اطلقوها احياناً على كل البلاد التي تلي الثغور الشامية والجزرية وهي ارمينيا والاناضول فاذا اعتبرنا هذا الاطلاق في هذه الرواية فيكون فتح ارمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة والاّ فيكون مسير هذه الجنود الى بلاد الروم لصد هجمة أرادها الامبراطور قسطنطين على سورية اولامداد أهل ارمينية على حبيب بن مسلمة الفهري كما ترى في الرواية الآتية التي هي أصح الروايات الواردة في اخبار فتح ارمينيا في خلافة عثمان وهي

لما استخلف عثمان (رض) كتب الى معاوية بولايته على الشام وولى عمير بن سعد الانصاري الجزيرة ثم عزله وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها وأمره ان يغزو شمشاط وهي ارمينيا الرابعة أو يغزيها وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري فتحها مع عياض بن غنم في خلافة عمر ثم أقفلت . وكان لحبيب رضي الله عنه أثر جميل في فتوح الشام والجزيرة وارمينيا فوجهه معاوية في ستة آلاف مقاتل الى فتح ارمينيا وقيل بل كتب اليه عثمان يأمره

بذلك فنهض اليها حتى أناخ على قاليقلا سنة (٢٦ هـ) فخرج اليه أهلها فقاتلهم حتى ألجأهم الى المدينة فطلبوا الصلح على الامان او الجزية فأجابهم الى ذلك فجلا منهم من جلا وأقام من أقام

وقولهم انّ حبيباً نهض الى قاليقلا يدل على ان ما يليها من البلاد الى الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة اذ انّ المؤرخين لم يذكروا لحبيب قتالاً مع أحد فيما دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه انّ بطريق ارمنياقس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة وانضمت اليه امداد أهل اللان والخاز وسمندر من الخزر . وقال بن الاثير ان ارمنياقس هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية . وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذري ولا غيره من المتقدمين في سياق هذا الخبر وانما ذكرها بن الاثير من عنده وهي خطأ على ما أرى اذ ليست الولايات التي ذكرها ابن الاثير من ارمينيا بل هي من ولايات آسيا الصغرى التابعة لامبراطورية القسطنطينية وانما كانت سيواس قديماً تعتبر من ارمينيا ثم انضمت الى الامبراطورية الشرقية فاماً ان يكون الموريان يومئذ بطريقاً على ارمينيا الغربية فسموه والي ارميناقس وهو الذي أجاب عليهم بجموع من بلاد الخزر والقوقاس وارمينيا الغربية ولا دخل في هذه التسمية لقونيه واقصره وغيرها من ولايات الامبراطورية الشرقية واماً انه كان والياً على سيواس التي هي ارمينيا الامبراطورية وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الاسيوية من قبل امبراطور القسطنطينية وعندي ان الأول ارجح

لما انتهى الى حبيب هذا الخبر كتب الى عثمان (رض) يسأله المدد

فكتب الى معاوية ان يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب في الجهاد فبعث اليه معاوية الفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها وكتب أمير المؤمنين عثمان الى سعيد بن العاص ايضا وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وهو سلمان الخير وكان غزاءً فاضلاً خيراً فسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة وقد اقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات وقد ابطأ على حبيب المدد ورأى حبيب ان يبيتهم ليلاً فأمر جنوده فبيتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوة جاشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ ان أم عبدالله الكلبية امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعدك : قال سرادق الطاغية (يعني الموريان) او الجنة : فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده

وحق لنساء مثل هذه المرأة الفاضلة التي تسابق الرجل الى الشرف او الموت أن يربين رجالاً عظاما وابطالاً كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الامم الكثيرة . . وما أقبح بالمرأة ان تفرط بالرفاهة وتستسلم لعوامل الضعف والسكينة وهي أم الرجل الذى تقوم على كواهله دعائم الحياة البيتية فاماً سعيدة واماً شقية

ثم ان سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان ان يتأمر على حبيب فأبى عليه حبيب حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء في ذلك وهو من جند سلمان

فان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم　　وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وان تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا　　وهذا أميرٌ في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته　　ليالي نرمي كل ثغر وننكل

هكذا روى البلاذري في تاريخه ان الاختلاف بينهما وقع في هذه الغزوة وذكر البيت الاول من الابيات الثلاثة لكن الطبري أورد هذه الابيات في أخبار سنة (٣٢ هـ) وقال ان هذا الاختلاف وقع بينهما في هذه السنة في بلاد الخزر حيث كان سعيد بن العاص استعمل سلمان على ثغر الباب وأمده عثمان بحبيب بن مسلمة الفهري وفي البيت الثاني والثالث ما يدل على ان هذا الخلاف كان في الباب اذ كان ثغر المسلمين يومئذ وهو تابع لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وان تقسطوا الى آخر البيت فاذا صح ان هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل في الخزر وانما الذي قتل أخوه فقط وذلك لان الذى كان يغزو الخزر بجند الكوفه من الباب يومئذ هو حذيفة بن اليمان وكان أميراً للحرب فيها وما زال يغزوهم حتى قتل عثمان (رض) كما روى الطبرى في تاريخه

لما انتهى سلمان الى حبيب وقد فرغ من القوم سار الى غزو أران ومن ثم افترق القائدان فتوغل حبيب في ارمينيا الغربية متجهاً الى الشمال واتجه سلمان الى ارمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ففتحا البلاد التي بين البحر الاسود وبحر الخزر حتى القوقاز حبيب من جهة الغرب أي من جهة البحر الاسود وسلمان من جهة الشرق أي من جهة بحر الخزر . فاما ما فتحه حبيب ابن مسلمة من البلاد فنرجئه الى خبر فتوحاته الذي سيرد في ترجمته ان شاء الله لانا عزمنا ان نفرد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه وعنهم أجمعين

واما سلمان فانه سار الى أرّان ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحا واشترط على أهلها اداء الجزية والخراج ثم اتى بردعة وعسكر على نهر الثرثور على فرسخ منها فامتنعت عليه فعاناها أياماً فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق في أران ودعا اكراد البوشنجان (او البلاسجان) الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدّى البعض الصدقة ممن دخلوا في الاسلام ثم سار الى مجمع نهر الكر (كور بالكاف الثقيلة) والرّس « أراس » فعبر الكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التي على الضفة الشمالية من نهر الكر ويسميها ديفرجى بلاد سشاكي ثم دخل بلاد سشيوان وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب وكل هذه البلاد واقعة الى الشمال الشرقي من نهر الكر حتى داغستان ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال ان سلمان انتهى الى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون وبعضهم يقول انه استخضع كل امراء الجبل ثم اجتاز مضيق دربند حيث قتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفي قتيبة بن مسلم فاتح تركستان يقول ابن جمانة الباهلي مفتخراً بهما لانهما باهليان

وانّ لنا قبرين قبر بلنجر ... وقبر بصينستان ياله من قبر
فذاك الذي في الصين عمّت فتوحه ... وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم انّ قتيبة وسلمان وأخاه ليسو بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين فخر الأمة الاسلامية والذكر الخالد لها الذي يمثل عظمة رجالها الفاتحين تمثيلاً تزدهي به صفحات التاريخ

هذا ما انتهى اليه تحقيقنا في فتح ارمينيا والقوقاز الذي بلغ به المسلمون نهر ترك الذي يصب في بحر الخزر ماراً في السهول الواقعة وراء جبل القوقاز وفي اعتقادي ان المسلمين لولم ينكبوا بنكبة نهر ترك ويخرب الخزر مابينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع صداً لهجماتهم المتوالية على تلك الاصقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزوا في فتوحاتهم يومئذ نهر قوما وأمعنوا في روسيا الشرقية على قسمين قسم ينعطف على بلاد القلموق واستراخان ويدوروا حول بحر الخزر أي بحر قزبين حتى ينتهى الى جرجان حيث يلتقي بالجيوش الاسلامية الضاربة في انحاء ولاية خراسان ويسير الى معاونة الجيوش الآخذة بتلابيت يزدجرد الذي قتل على نهر المرغاب . وقسم يتبع مجرى نهر ولغا الى قازان وما والاها والله أعلم

دخول معاوية الى بلاد الروم

(وفتح قبرص)

كان اولئك الفاتحون كالتيار الجاري اذا صُدّ من جهة انقلب الى جهة أخرى فان تذامر الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصدهم عن التوغل فيما وراء بحر قزبين حوّل وجهة الفاتحين ثانية الى بلاد الروم وقد كانت امبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية والجزيرة تنظر الى جيوش المسلمين نظر الحذر وتراقب حركات الجيوش الاسلامية مراقبة الواقف لعدوّه بالمرصاد وكان القواد وزعماء الفتح الاسلامي عرفوا من الدولة البزنطية هذا الحذر فتحولوا عن مهاجمتها الى جهات أخرى وهكذا الى سنة (٢٥ او ٢٦ ﻫ) حيث أغار معاوية بن أبي سفيان على الاناضول من جهة

اقليمي قبادوكيا وفريجيا فاخذ عمورية [1] ثم ارتد ولو رأى غرة من الروم لامعن في البلاد حتى جدران القسطنطينية لكن الظاهر انه وجد القوم في مكانة من اليقظة والتحصن وجد بها الوصول الى بغية من جهة البر أمرًا دونه الصعاب فاتجه خاطره الى البحر وقد كان شديد الرغبة بالغارة على سواحل الاناضول وجزر البحر الابيض من عهد عمر بن الخطاب ولكن عمر رضى الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضى الله عنه هذه المرة أي سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر فأذن له على شرط ان يخير الناس فمن اختار الغزو في البحر يحمله معه فأعد لهذه الغزوة اسطولاً من سواحل الشام وكتب الى عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر باعداد اسطول آخر واستعمل عبد الله بن قيس الجاسي على البحر وسار الاسطولان فاجتمعا في قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم. بمعنى ان تكون قبرص مستودعاً حربياً في البحر الابيض للمسلمين ومركز اتصال بينهم و بين اساطيلهم الماخرة في هذا البحر تلجأ اليها عند الحاجة

(1) كبادوكيا مقاطعة في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي ارمينيا وكانت تسمى قديماً بهذا الاسم وفريجيا اوفروغيا مثلها ايضاً وهي من المقاطعات الوسطى في آسيا الصغرى واما عمورية فقد قال لاروس في قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) انها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطيه وكانت موطن ومنشأ الامبراطور تيوفيل وقد تخربت في حروب المسلمين ضد الامبراطورية الشرقية

وقد ذكر سديو في تاريخه انّ معاوية فتح سنة (٢٩هـ) أيضاً اقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ومؤرخونا لم يقولوا بهذا والظاهر ان هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته ايام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لاسطولهم العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية رضى الله عنه

فتح بلاد المغرب

(وجغرافيتها)

بلاد المغرب اوافريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقا بلاد مصر والبحر المتوسط ايضاً وجنوباً الصحراء الكبيرة وغربا الاوقيانوس وكانت تنقسم في صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى وهي (المغرب الادنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس (والمغرب الاوسط) وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط (والمغرب الاقصى) وقاعدته فاس ومراكش. وينقسم الآن كل من هذه الاقسام الى أقسام صغرى فطرابلس الغرب تنقسم الى ثلاثة اقسام طرابلس وفزّان وبنغازى وهي تابعة للدولة العلية (وتونس) وهي ولاية مستقلة تحت حماية فرانسا وهي تنقسم الى أقسام كثيرة صغرى (والجزائر) وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر. ووهران وقسنطينة وهي تابعة للدولة الفرنساوية واماّ القسم الثالث وهو المغرب الاقصى فأشهر اقسامه عمالات فاس. ومراكش. والسوس. ودرعه وتافيلات وهو مستقل

يحكمه الآن مولاى السلطان عبد العزيز[1] وأشهر مدن المغرب الادنى : طرابلس الغرب: وهي فرضة بحرية : وبرقة : وكانت تسمى قديماً انطابولس

---

(١) ما زال أهالي هذا المغرب في غفلة عن اطماع الدول الاوربية في هذه البلاد وحكومتهم فوضى لاعناية لها بالتعليم وانشاء دور العلم والصناعة الحديثة وتأسيس قواعد الحكومة على الاصول الجديدة التي ترتبط بها سعادة الامم وقوتها حتى فاجأها الاتفاق الفرنساوي الانكليزي الذي عقد بين هاتين الدولتين من بضعة شهور ومن مقتضاه اطلاق يد فرانسا في مراكش وعدم تعرض انكلترا لها بشيء اذا أرادت أخذ هذه البلاد وقد بدأت الحكومة الفرنساوية في التذرع بالذرائع السياسية للاستيلاء على هذه المملكة العظيمة ولم نسمع للحكومة المراكشية بازاء هذا الخطر المقبل والعدو اللدود الا لغطاً لايغني عنها شيئاً وانما تغني القوة والقوة بالعلم والتربية التي جعلت الامة اليابانية في ثلاثين سنة من أقوى دول الارض ولعمري ان استمساك أهل المغرب بالقديم وتحريمهم على أنفسهم الاخذ بكل أمر نافع لتوهم حرمة ذلك في الدين سينتهي بهم الى ما انتهى اليه حال بقية الممالك الاسلامية في آسيا وافريقيا كالهند والتركستان وتونس والجزائر والصومال وغيرها وأين من يعقل ويتبصر • وينظر الى المستقبل ويتدبر • وقد مني المسلمون بمرض الخمول فاصبحوا كالطير التي تعيش يوماً بيوم ولا تنظر الى ما يكون في الغد ولولا ذلك لتنبه مسلمو المغرب الى ترقي اوربا منذ قرن لانهم أقرب الامم جواراً لها ولاخذوا بالاسباب التي أوصلت جيرانهم الى قمة المجد والقوة وألفوا في افريقيا الشمالية من طرابلس شرقاً الى المحيط غرباً مملكة عظمى من أخصب ممالك الارض تحتوي على ١٦ مليوناً من النفوس اذا صارت لهم حكومة منظمة وانتشرت بينهم المعارف والعلوم لا يتيسر لدولة مهما كانت قوية ان تقدم على نزع استقلالهم قط بل ولكانوا لهذا العهد أصحاب السيادة على قسم كبير من اواسط افريقيا وغربها ولعل المستقبل بهذه الامنية كفيل لاسيما متى شعر المسلمون هناك بألم الاستعباد واستناروا بشيء من نور المدنية الحديثة والله بما يأتي في الغد عليم

وفرضتها بنغازى : وتونس : وهي قرب اطلال قرطاجنة القديمة[1] وتسمى قديماً افريقيا وربما سموا اقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا القارة كلها به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء وهي على البحر ويليها : قابس: وبنزرت وصطفورة المعروفة قديماً بصوفيطوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عقبة ابن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد وبالقرب من القروان مدينة : رقادة: والى الجنوب الشرقي منها مدينة صفاقس

ومن مدن المغرب الاوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر مزغنة

---

(١) قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر الابيض المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سوريه وكان لها في التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذي غزا الرومانيين في عقر دارهم وما زالت قرطاجنة التي كانت ضرة رومة شجى في حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبون سنة (١٤٩) قبل المسيح والظاهر ان الخراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامي وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم في حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى في افريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغساني لاخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى ألجأهم للتسليم بعد ان فر منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن انقاضها عمرت مدينة تونس • وهذا التخريب وان عدّ عند الاثريين سيئة لحسان الاّ انه عند السياسيين ليس بشيء لان الدول من دأبها ان يعفي اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون في افريقيا هذه المدينة فقد اقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار انها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ • لذا فليس ببدع ان يأتي حسان ما آتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لاسيما وان اعتبار البلدان التاريخي الاثري لم يكن في تلك العصور بالمنزلة التي انتهى اليها في هذا العصر

او مزغنان : ومدينة تلمسان : وهما من الاقليمين المعروفين قديماً بموريتانية القيصرية والسيتفية : ومدينة قسنطينة : وهي حاضرة الاقليم المعروف قديماً باقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهي على البحر ويصب قربها نهر الشليف او شلف ومدينة بونه او عنابه وهي على البحر المتوسط ايضاً ووهران مثلها أيضاً

ومن مدن القسم الثالث مراكش وفاس ومكناس او مكناسة الزيتون في جهة الشمال والوسط وططوان وسبتة ومليلا على شواطئ البحر المتوسط ومغادر وطنجة والرباط وسلا على شواطئ الاوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة والسوس في جهات الجنوب والجنوب الشرقي. ومن جبالها جبل درن وغمارة ومديونة ويسر وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة

امّا فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا في سيرة عمرو بن العاص انه فتح برقة وطرابلس في خلافة عمر رضى الله عنه وضرب على أهلها الجزية ثم عاد بعد ان استخلف عقبة بن نافع الفهري على البلاد وقيل انه لم يستخلفه وانّ عثمان رضى الله عنه أرسله اليها لمّا أمر ابن أبي سرح بغزوها وتحرير الخبر عن ذلك انّ عثمان (رض) كان استعمل على الحرب في مصر عبدالله بن سعد ابن أبي سرح وأمره بغزو افريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فأمر عقبة بن نافع بن عبدالقيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقيا في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم انّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح شكا عمراً الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل بن أبي سرح على

امارتي الخراج والحرب في مصر وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد افريقيا ثانية ويستمده فاستشار عثمان (رض) الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة وابناء الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم وساروا مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة (٢٦ هـ) ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالاً خفيفاً فبث عبد الله السرايا في كل ناحية وسار الى افريقيا (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة وفي رواية بسبيطلة حاكم (بطريق) افريقيا الشمالية من قبل أمبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف مقاتل واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير [(١)] مدداً من قبل عثمان فشهد الحرب وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من يقتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده : وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سقط في يده الاّ انه جالد المسلمين جلاداً عظيماً فلما ابطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبدالله بن سعد بأن يترك جماعة من ابطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاتل العدوّ بباقي العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة فقعل

(١) الزبير هذا بفتح الزاي كما صححه في أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاى) ابن العوام والد عبد الله الذي قال بعض المؤرخين انه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع انه كان في الجيش الذي بعثه عثمان (رض) لابن سعد قبل هذا كما رأيت

وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى أتعبوهم ثم افترقوا وقد انهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله بن الزبير جرجير (غريغوار) وأُخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله

ثم انّ عبد الله بن سعد بعث سراياه الى انحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا في اقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً فاغاروا من جهة الجنوب على اقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل او الجريد ومن الشمال والغرب على اقليمي نوميديا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد الى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يدفعونها لقيصر الروم كما ذكر ذلك سديو في خلاصة تاريخ العرب واما مؤرخونا فقد اختصروا جداً في أخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذي عرضه عظماء افريقيا على ابن سعد وهو ان يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب اي مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس الى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار: قال ابن خلدون وغيره: وبعضهم يقول اعطاه اياه «أي الخمس» ولا يصح وانما اعطى عبد الله بن سعد بن أبي سرح خمس الغزوة الاولى

امّا عبد الله بن سعد فمن قائل انه عاد الى مصر ولم يولّ على افريقيا أحداً قال بهذا البلاذري في روايته عن الواقدي وقال الطبري ان عثمان صرف

عبدالله بن سعد عن افريقيا وولى عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس وقال ابن خلدون وغيره انه ولى عليهم والياً منهم ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجيء قائد من قبل امبراطور الروم وطرده للوالي الذي ولاه المسلمون كما سترى:

هذا ولما أصاب ابن سعد من افريقيا ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل (هراقليوس) امبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد ان يهاجم به الاسكندرية على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التي كان يريدها قسطنطين وفي ظني انه كان يريد افريقيا بدليل التجاء الامبراطور الى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قريبة من تونس ولما بلغ المسلمون خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته في البحر أسطولان أسطول من الاسكندرية مع عبد الله بن سعد واسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقيا معه في عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتتلوا قتالاً شديداً حتى استحرّ القتل فانهزم قسطنطين جريحاً الى صقليا بما بقي معه من الروم ولمّا علم أهل صقليا بفراره قتلوه. وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري

ثم ان الامبراطور قونستانس الثاني غضب على أهل صقليا لما اعطوه من المال لعبدالله بن سعد لانه اكثر مما كانوا يعطونه لامبراطرة الروم واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذي ولوه عليهم بعد جرجير (غريغوار) فالتجأ الى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الامر فنصره وبعث معه ابن خديج لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية كما سترى ذلك في خلافة معاوية (رض)

﴿ تتمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان ﴾

(وقتل يزدجرد)

علمنا مما تقدم في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه انّ المسلمين فتحوا قسماً عظيماً من بلاد فارس او مملكة الاكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادي وقد رأيت ان أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارئ على بينة مما فتح منها على عهد عمر (رض) وما فتح على عهد عثمان (رض) فاقول

بلاد فارس تنقسم الآن الى ثلاثة اقسام فارس الغربية وهي مملكة ايران وفارس الشرقية وهي مملكة افغانستان وبلوجستان وكان العرب يقسمونها الى اقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالي منها) مما يلي ارمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة آزربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والبير والموقان والطيلسان والى الشرق منها قزبين الواقعة شمال بلاد الجبل حيث كانت تسمى بلاد الديلم ثم الى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر الخزر او بحر قزبين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (او دنباوند) واستراباذ والدامغان وقومس في جهة الجنوب وأبيورد ونسا وسرخس ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران (والقسم الغربي منها) يعرف بالعراق العجمي وخوزستان وبلاد الجبل ومن مدن العراق العجمي الشهيرة المدائن والنهروان على دجلة ومنازر وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان واصفهان من بلاد الجبل والاهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من خوزستان (والقسم الجنوبي منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران اوكورة السند (وتعرف الآن ببلوجستان) وسجستان وهي بين مكران وخراسان ومن

مدن فارس الشهيرة إصطخر وفساودارابجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان ثم مكران وقندابيل وقنزبور وارمائيل ويبرون والديبل (ثغر على المحيط الهندي من كرمان او السند) ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان (لعلها صحراء لوط) وزرنج التي يؤخذ منها الى وادي سناروز والكش من ناحية الهند ورشت وناشرورز من سجستان (والقسم الشرقي والشمالي الشرقي) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان وهذا القسم اكثره واقع الآن في افغانستان وكان العرب يقسمونه الى اقسام كثيرة اوكور فمنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان وغزنة وكابل من زابلستان وبلخ من طخارستان : وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من خراسان وطوس الى الشمال منها ايضاً ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأبرشهر وبيهق واسفرائن وأرغيان وغيرها ثم هراة ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وباغون وطاغون وسنج وغيرها اماً طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيان فانّ من مدنها الشهيرة بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : واماً زابلستان فمن مدنها الشهيرة كابل وغزنه اه

هذا ما احببت بيانه من جغرافية هذه البلاد واما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الاكبر منها في خلافة عمر (رض) وقد كنت رأيت اختلافاً في بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر او على عهد عثمان والذي اتفق عليه اكثر المؤرخين ان فتح خراسان وسجستان

وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ثم انتقضت أكثر بلاد فارس فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان (رض) ودوخوا هذه المملكة الى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالاً فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية وجزء من السند وقسم من تركستان واليك مجمل خبر الفتح

في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضى الله عنه انتقضت آمد وبلاد الاكراد فعزم أبو موسى الاشعري والي البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد ان كان يحض على الجهاد مشياً فتألب عليه أهل البصرة وذهب منهم وفد الى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبي فعزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشي وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاصي من عمان والبحرين فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه الى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة الا أصلحها ثم ولى عليها في السنة التالية أمير بن احمر اليشكري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثي فأثخن فيها الى كابل ثم عمران بن الفضيل البرجمي وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر

ثم ان أهل فارس ثاروا وانتقضوا بعبيد الله بن معمر فسار اليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيد الله وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاصي وفي المجنبتين أبو

برزة الاسلمي ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين وكلهم له صحبة فلقيه الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح اصطخر عنوة وسار بعدها الى دار ابجرد ومدينة جور وكان هرم بن حيان محاصراً لها فلما جاء ابن عامر فتحها ثم عاد الى اصطخر وقد انتقضت ثانية فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة ففنى فيها أكثر اهل البيوتات والاساورة لانهم كانوا لجأوا اليها ووطئ ابن عامر أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل وكتب الى عثمان رضى الله عنه بالفتح فكتب اليه ان يستعمل على بلاد فارس هرم ابن حسان اليشكري وهرم بن حيان العبدي والخريت بن راشد والمنجاب ابن راشد والترجمان الهجيمي وأمره ان يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرة اليربوعي على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأمير بن أحمر على طوس وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور ثم ان عثمان رضى الله عنه جمع هذه الولاية قبل موته لقيس واستعمل أمير بن أحمر على سجستان

لما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكثهم فأتاه الاحنف بن قيس وقال له أيها الامير ان عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فان الله ناصرك ومعز دينه فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير امراءه الى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ثم تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة وأعمالها

كما سيأتي تفصيل الخبر عن ذلك في سيرة ابن عامر ان شاء الله

وسيّر ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ثم مضى الى مرو الروذ فقاتله اهلها ثم صالحوه وسيّر سرية فاستولت على رستاق بغ فعظم الامر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الصغانيان (من تركستان الشرقية) فقاتلهم الاحنف قتالاً شديداً حتى هزمهم وفل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ثم سار الى بلخ وهي مدينة (عاصمة) طخارستان فافتتحها ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر جيحون في تركستان الغربية وحاول فتحها فلم يتيسر له ذلك فعاد الى بلخ وسيأتي الكلام على ذلك مفصلا في سيرة الاحنف ان شاء الله

واما مجاشع بن مسعود السلمي الذي سار لفتح كرمان فانه فتح حميد ثم اتى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها اياماً ثم افتتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في كرمان فاستخضع اهلها ودوّخ مدنها وهرب كثير من أهل كرمان فلحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب اراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنيّ في مواضع منها وأدّوا العشر عنها

وامّا الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان فانه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان التي مرّ ذكرها) فأتى حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة (١) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم أتى روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها ثم أتى

(١) العنزة بفتحتين اطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زج كزج الرمح

ناشروذ ثم شرواذ ثم زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب الى وادي سناروذ ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد الى ابن عامر بعد ان استخلف عليها عاملاً فاخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي الف درهم (مليونين) وغلب عبدالرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداوِن حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده واخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما اردت أن أعلمك انه لا يضر ولا ينفع . وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غَزْنة ثم عاد الى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر وانصرف فعادوا الى العصيان

ولما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لاحد ما فتح عليك . فقال لا جرم لاجعلنّ شكري لله على ان اخرج محرماً من موقفي هذا : فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم الى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين الفاً لمحاربة المسلمين فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى . قال أرى ان تخلي البلاد فاني أميرها ومعي عهد من ابن عامر اذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد وأقبل الى ابن عامر فلامه ابن عامر : قال جاءني

بعهد منك :

أما ابن خازم فسار لملاقاة قارن باربعة آلاف فلما قرب منه أمر الجند ان يدرج كل رجل منهم على زج رمحه قطناً مغموساً بالدهن أو النفط فلما أمسى أمرهم ان يشعلوا النيران في اطراف الرماح وانتهت مقدمته الى قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الاعداء على دهش وكانوا آمنين من البيات ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع هالهم ذلك ثم غشيهم ابن خازم بجنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب الى ابن عامر بالخبر فرضي وأقره على خراسان فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل وأقبل الى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبيل

هذا ما احببت ايراده من فتح فارس وخراسان وأما طبرستان فقد كان فتحها على يدي سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) وذلك ان سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم وكان ابن عامر خرج من البصرة قاصداً خراسان فلما وصل سعيد وجده قد نزل ابرشهر فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتى جُرجان فصالحوه على مائتي الف ثم أتى طَميسه وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر اي بحر قزبين فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه وحاصرهم

فسألوا الامان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالاً . ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها فربما أعطوا الاتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال وما زالت هذه البلاد (اي جرجان وطبرستان) على شيء من الاستقلال يأبى أهلها الخضوع التام للدولة الاسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الامويين حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان .

(مقتل يزدجر)

كانت جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ألجأت يزدجر للفرار الى حلوان ثم اصفهان وكانت كلما تقدمت في البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال في كرمان ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثانية عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزدجر وأرسل في أثره هرم بن حيان فاتبعه الى كرمان فهرب منها الى خراسان ثم لحق بمرد الروذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فامدوه فسار بهم الى سجستان وقيل الى جرجان فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ الى مرو الشاهجان فمنعه صاحبها من الدخول وكتب الى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزدجر ومصالحة العرب عليه وان يعطيه كل يوم الف درهم فجاء نيزك الى يزدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله فاحس يزدجر بالدسيسة ففر بنفسه وآوى الى ارحاء على نهر المُرغاب وهو نهر يسيح في مرو الروذ ثم يغيض في رمال الصحراء ثم يظهر في مرو الشاهجان فقتله صاحب الرحى والقى شلوه في الماء . ويقول (سديو) في تاريخه انَّ الذي أمدَّ يزدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تائي تسنغ وانه هو الذى سلط عليه بعدذلك

من قتله فقتل على شاطئ نهر المُرغاب وانقضت بقتله ايام الدولة الساسانية التي استمرت دولتها زاهية واعلامها على تلك الممالك خافقة نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة والملك بيد الله يؤتيه من يشاء

باب

« أهم الاخبار والحوادث في عصره »

(سقوط خاتم النبي في بئر أريس)

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة نقش عليه ثلاثة أسطر محمد . و رسول . و الله . ولما توفي تختم به أبو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه فجعل مالاً عظيماً لمن جاء به واغتم لذلك غماً شديداً فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في اصبعه حتى قتل وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه وكان فقد هذا الخاتم مما أوخذ عليه عثمان رضي الله عنه لما بدأت المطاعن عليه

الطعن على العمال

(خبر الوليد بن عقبة)

كان الوليد بن عقبة (١) عاملاً لعمر (رض) على عرب الجزيرة فلما كان بين سعد بن أبي وقاص وبين عبد الله بن مسعود ما كان مما سبق ذكره في سيرة سعد عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة فقدم الكوفة وسار في الناس سيرة حسنة فكان أحب الناس في الناس

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لامه وأمهما أروى بنت عامر بن كريز

وأرفقهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب حتى نقم منه بعض الناس أموراً منها اتهامه بشرب الخمر وأفاضوا في الطعن عليه حتى استقدمه عثمان (رض) وأقام عليه الحد . وملخص الخبر على ما جاء في تاريخ الطبري ان شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه فنذر (١) بهم فخرج عليهم بالسيف فلما رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شُرَيح الخزاعي من سطح داره فصاح بهم واقبل اليهم الناس فاخذوهم وفيهم زُهَير بن جُنْدب الازدي ومورّع بن أبي مورّع الاسدي وشُبَيل بن أُبَيّ الازدي وغيرهم فشهد عليهم أبو شُريح وابنه فكتب الوليد بهم الى عثمان فكتب اليه في قتلهم فقتلهم على باب القصر في الرحبة فقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي من أبيات

لا تأكلوا ابداً جيرانكم سَرَفاً … أهل الدَّعارة في ملك ابن عفان

ولهذا نقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يترقبون به العثرات وكان شاعر من بني تغلب اسمه أبو زُبيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم في آخر قَدْمة قدمها وحسن اسلامه فاستدخله الوليد فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورّع وجُنْدباً وهم يحقدون عليه مذ قتل ابناءهم فقال لهم هل لكم في الوليد يشارب أبا زُبيد؟ فثاروا في ذلك وقالوا لاناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأبا زُبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرَّحَبة مع عُمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقتحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد فلم يُفجأ الا بهم فنحّى شيئاً فادخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه فاذا

(١) نذر بهم أي علم بهم فحذرهم

طبق عليه تفاريق عنب وانما نحّاه استحياء ان يروا طبقه ليس عليه الاّ تفاريق عنب فقاموا فخرجوا واقبل بعضهم على بعض يتلاومون وسمع الناس بذلك فاقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون اقوام غضب الله لعملهم . فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه الى ابن مسعود فقالوا . الوليد يعتكف على الخمر وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس . فقال ابن مسعود . من استتر عنّا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال ايُرضى من مثلك بان يجيب قوماً موتورين (اي لهم عليه ثار) بما أجبتَ عليّ . أيُّ شيء استتر به . انما يقال هذا للمريب. فتلاحيا « تلاوما » وافترقا على تغاضب ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ثم أتي للوليد برجل يدّعي السحر ووجب عليه الحد فجاء جندب فضربه قبل ان يأمر به الامير بشيء فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فحبس ثم أطلق بأمر عثمان وغضب لجندب اصحابه فخرجوا الى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون في الاسلام وتخرجون بغير اذن أرجعوا : فردهم فلما رجعوا الى الكوفة لم يبق موتور في نفسه الاّ اتاهم فاجتمعوا على رأي فأصدروه (اي تآمروا فيما بينهم على ان يكيدوا للوليد فكادوا له) ثم تعقلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الازديّ وأبو مورّع الاسدي فسلاّ خاتمه ثم خرجا الى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فسألهما عثمان كيف رأيتما قالا كنّا من

غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر : فقال ما يقيء الخمر الاّ شاربها فبعث اليه : فحلف له الوليد وأخبره خبرهم : فقال نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخيَّ : وأمر سعيد بن العاص فجلده وكانت عليه خميصة فنزعها عنه عليّ بن أبي طالب ثم ان عثمان (رض) ولى مكانه سعيد بن العاص :

وفي رواية انّ الوليد سكر وصلى الصبح باهل الكوفة أربعاً وقال : أزيدكم : فقال بن مسعود مازلنا معك في الزيادة منذ اليوم : وشهدوا عليه عند عثمان فامر علياً بجلده فامر عليّ عبد الله بن جعفر فجلده

وروى الطبري ان الناس كانوا في الوليد فرقتين العامة معه والخاصة عليه وفي رواية له ايضاً انّ الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الاحرار والمماليك وكان يُسمَعُ الولائد وعليهن الحداد يقلن

ياويلنا قد عُزل الوليدُ وجاءنا مُجَوّعاً سعيدُ
ينقص في الصاع ولا يزيد فَجُوّع الاماء والعبيدُ

وفي رواية له عن الشعبي ان كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد انْ ردَّ على كل مملوك في الكوفة من فضول الاموال ثلاثة في كل شهر يتسعون بها من غير انْ ينقص مواليهم من أرزاقهم

من نظر الى هذه الروايات بنظر الناقد البصير لا يرى فيها دليلاً يؤيد صحة التهمة بل يرى منها النافية ومنها المثبتة ولقد يضطرب الذهن دون التثبت من حقيقة حادثة الوليد اذ أيّ مجنون بَلْه العاقل يجلس في منزل ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الخمر وهو يعلم انه بين قوم موتورين يترقبون به الفرص ويتتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر، وعلم منهم ارادة

الغدر، على انه سواء صحت هذه التهمة او لم تصح فالذي يظهر من مجمل تلك الروايات ان هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تذرعاً للوثوب على الخلافة وإيقاظ الفتنة النائمة وحسبك دليلاً على هذا انّ سعيد ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليد لقي من أهل الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل ما لقي الوليد الذي يزعمون انه كان يعكف على الخمر كما سترى بعدُ

لو كان اهل الكوفة على حق في الطعن على العمال لظلم أصابهم أو استبداد ظهر من أمرائهم لعدّ عملهم حسنة من حسنات الحرية التي كانت تتمتع بها الأمة يومئذ والعدل الذي لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق . ولكن لمّا لم يكن الامر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلنون فالتاريخ والعدل يشهدان بموأخذتهم كما سنبسط كل شيء في محله ان شاء الله

﴿ ولاية سعيد بن العاص الكوفة ﴾

كان سعيد بن العاص مقيماً مع معاوية بالشام وكان نشأ يتيماً في حجر عثمان فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس فقيل له انه بدمشق وانه مريض : فارسل الى معاوية ان ارسل اليّ سعيداً في منقل (محفة) فبعث به اليه وهو دَنِف فما بلغ المدينة حتى أفاق فقال له يا ابن اخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً هل لك من زوجة : قال لا : فقال عمر لعثمان ما منعك من هذا الغلام ان تكون زوجته قال قد عرضت عليه فأبى : فزوجه عمر ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس وقد كان عمومته ذوي بلاء في الاسلام وسابقة حسنة وقِدْمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص مارواه الطبري عن سعيد وذكر صاحب الاغاني في خبر أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد ما يدل على انه كان من الكرم وعلو النفس على جانب عظيم فذكر انه مات في قصره خارج المدينة وعليه من الدين ثلاثمائة الف فاوصى لابنه بقوله : فاذا واريتني فانطلق الى معاوية فانعني له وانظر في ديني واعلم انه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض عليه قصري هذا فاني اتخذته للنزهة وليس بمال : فلما نعاه ابنه الى معاوية سأله عن دينه ليقضيه فأخبره بوصيته فأخذ معاوية قصره بدينه وهو ثلاثمائة الف درهم ولما أرادوا وفاء الديون وجدوا اكثرها هبات كتب بها على نفسه صكوكاً كي لا يرد سائلاً سأله شيئاً فوفوها عنه . وهذا منتهى ما يروى عن كرم النفس وشرف الطباع وانما اوردت هذا الخبر ليكون دليلاً على سيرة بعض عمال عثمان رضي الله عنه

هذا ولما ولي سعيد على الكوفة وذلك سنة (٣٠ هـ) خرج وخرج معه الاشتر وأبو خُشّة الغفاري وجُندب بن عبد الله وابو مُصْعَب بن جثّامة وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا فلما بلغ سعيد الكوفة صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال

والله لقد بعثت اليكم واني لكاره ولكني لم أجد بداً اذ أمرت ان أئتمر الا انّ الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لاضربنّ وجهها حتى أقمعها (أزيلها) أو تعييني واني لرائد نفسي اليوم ثم نزل

وسأل عن اهل الكوفة فأقيم على حال أهلها فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه . أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلبَ أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقِدْمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ،

وأعراب لحقت، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها

فكتب اليه عثمان (رض) اما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الا ان يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكلٍّ منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس (اي بحقوقهم ومراتبهم) بها يصاب العدل

فارسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الايام والقادسية فقال: أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبئ عن الجسد فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخلّة ذي الخلّة) اي الحاجة) . وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) في سمره ففشت القالة والاذاعة وانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة الى بعضهم وجعلوا يعيبون التفضيل ويعدونه جفوة فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشئ او أعرابي او محرَّر (معتوق) استحلى كلامهم فكانوا في زيادة وأولئك في نقصان حتى غلب الشر فكتب سعيد الى عثمان بذلك. فنادى منادي عثمان الصلاة جامعة فاجتمعوا فأخبرهم بالذى كتب اليه سعيد وقال: يا أهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة واني والله لا تخلصنّ لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم اه

وانما اراد عثمان بهذا الاستبدال اما ان يجعل من شهد الفتوح في العراق واهل السابقة والايام يقيمون في تلك الديار ليكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الاعراب ومنهم ظهر الشر وبهم استعان أهل الفتنة وامّا ليفرق الروادف الذين هم تبع في العطاء لاهل السابقة (١) عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأي هذا من عثمان رضى الله عنه لولم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلا بد من ظهورها

﴿ حادثة أبي ذر والقول ﴾

(بحرمة اكتناز المال)

كان ابوذرّ من المشهورين بالتقى والصلاح شديد التمسك في الاعتقاد جريئاً في قول الحق وكان مقيماً بالشام مع معاوية وكان يعتقد انّ كل اموال الفئ هي من حقوق المسلمين وليس للامام او من ينوب منابه ان يحتجن (٢) شيئاً منها بل ينبغي ان تقسم على الناس شيئاً فشيئاً كما كان ذلك على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والظاهر ان معاويه كان يتوسل الى ادخار المال لصرفه في وجوه المصالح العامة التي تقتضيها حالة الدولة وتدرجها في مدارج الحضارة بقوله: المال مال الله. ومعناه يضعه الامام حيث يشاء. فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذي ينشدونه امّا للتشويش على عثمان رضي الله عنه والتأليب على عماله لمقاصد سياسية وامّا لمطلق الافساد

(١) راجع تفصيل ذلك فيما كتبناه عن العطاء والجيش في الجزء الثاني من سيرة عمر بن الخطاب (رض)

(٢) احتجن المال ضمه واحتواه

بين المسلمين تشفياً وانتقاماً. فانطلق من هؤلاء ابن السوداء او ابن سبأ اليهودي الى الشام واندس على ابي ذرّ وامثاله من الصحابة يوسوس لهم بما يوسوس فلم تنطلِ حيلته على غير أبي ذرّ واليك مارواه الطبري بهذا الصدد عن يزيد الفقعسي قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر : الا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله الا ان كل شيء لله كانه يريد ان يحتجنه دون المسلمين ويمحوا اسم المسلمين : فأتى أبو ذر معاوية وقال ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والامر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فاني لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء . فقال له من انت أظنك والله يهودياً . فاتى عُبادة بن الصامت فتعلق به فاتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء : بشّر الذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيلِ الله بمكاوٍ من نارٍ تكوى بها جباهُم وجنوبهم وظهورُهم : فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الاغنياء (١) وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان ان أباذر قد أعضل بي وقد كان من امره كيت وكيت

(١) هذا القول يشبه ما يقول به الاشتراكيون فى هذا العصر فى اوربا من وجوب توزيع الثروة وقد بسطت الكلام عليه فى رسالة (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فلتراجع

فكتب اليه عثمان ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها فلم يبق الا ان تثبت فلا تنكأ القرح (١) وجهز اباذر اليّ وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت :

فبعث اليه بابي ذر ومعه دليل فلما قدم المدينة ورأى المجالس في اصل سلع قال . بشر اهل المدينة بغارة شعواء (٢) وحرب مذكار (٣) ودخل على عثمان فقال يا اباذر ما لاهل الشام يشكون ذرَبك (٤) فاخبره انه لا ينبغي ان يقال مال الله ولا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً . فقال يا أبا ذر عليَّ ان اقضي ماعليَّ وآخذ ماعلى الرعية ولا أجبرهم على الزهد وان ادعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار . قال او تستبدل الا شراً منها قال امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اخرج منها اذا بلغ البناء سَلْعاً . قال فانفذ لما امرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الرَّبَذة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمةً من الابل وأعطاه مملوكين وارسل اليه ان تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابياً ففعل

وروى الطبري ايضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الاعرابية وكان يحب الوحدة والخلوة فدخل على عثمان وعنده كعب الاحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ان لا يقتصر عليها حتى يحسن الى

(١) قوله فقد أعضل بي أي أعياني وقوله أخرجت خطمها أي مقدم أنفها وقوله فلا تنكأ القرح أي لا تدميه والقرح هو الجرح

(٢) أي متفرقة (٣) أي ذات أهوال لا يقدم عليها الا ذكور الرجال

(٤) أي حدة لسانك

الجيران والاخوان ويصل القرابات. فقال كعب الاحبار من أدى الفريضة فقد قضى ماعليه : فقال له أبو ذر يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا والله لتسمعنّ مني او لادخل عليك ورفع محجنه فضربه فشجه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لابي ذر) يا أبا ذر اتق الله واكففْ يدك ولسانك اه

واعلم ان قول أبي ذر بوجوب بذل المعروف والاحسان الى الناس على الوجه الذي يقوله ناشئ عن استمساكه الشديد بالدين وما اشرب به قلبه من فضائل الاسلام وتعاليمه التي ترمى الى ذلك الغرض الجليل لتجمل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء الا انه كان يتغالى بهذا المشرب تغالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها الى المزيد من كل شيء على ان القصد والتوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعز الامم جانباً وأسعدها حالاً اذ خلق التعاون على البر اذا نشأ بنشوء الامة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدور تنمو بنمو الحياة القومية . ومن العجيب ان لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه الملكة في نفوس الأمة التي نزل كتابها بالحث عليه . والتخلق به . وقام من سلفها من ينبه العقول الغافلة عنه منذ نبت الاسلام . واجتمع على كلمته اولئك الاقوام ، وعسانا نلم بشيء من هذا البحث فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

هذا وقد جاء في حكاية شخوص أبي ذر الى الربذة روايات أخرى غير ما تقدم تحاشينا ايرادها كما تحاشاه الطبري وابن الاثير وغيرهما من محققي المؤرخين علماً منهم بضعف تلك الروايات . ولا جرم ان كل ناقد بصير اذا

رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما لارتياح الضمير اليها بالاضافة الى عصر الخلفاء الراشدين الذي هو خير العصور الاسلامية بشهادة التاريخ نفسه

واما أبو ذر رضي الله عنه فقد توفي في الربذة سنة (٣٣ هـ) اي بعد حادثه هذه وشخوصه الى الربذة بثلاث سنين

(باب)

« آثاره في الخلافة »

من أعظم آثار عثمان رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء جمعه الناس على مصحف واحد بعد ان تعددت القرآآت واختلف فيها أهل الامصار . وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جمع القرآن وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الاثير وابن عساكر ان حذيفة ابن اليمان لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة آزربيجان والباب قال حذيفة لسعيد اني قد سمعت في سفري هذا امراً لئن تُرك الناس عليه ليختلفنّ في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً قال وما ذاك قال رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت اناساً من اهل حمص يزعمون لاناس من اهل الكوفة انهم اصوب قراءةً منهم وان المقداد اخذها من رسول الله (ص) ويقول الكوفيون مثل ذلك وانهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا نحن أصوب منكم قراءة ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك . فلما رجع الى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس مما سمع في غزاته تلك وحذرهم ما يخاف فساعده على ذلك اصحاب رسول الله (ص) ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له اقوام ممن قرأ على عبد الله بن مسعود وما تنكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد ؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى

ويسمونها لباب الفؤاد وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم. فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وابناؤهم وقالوا لهم انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتى امير المؤمنين لاشكون اليه ذلك ولاشيرن عليه ان يحول بينهم وبين ذلك حتى يرجعوا الى جماعة المسلمين والذي عليه أصحاب رسول الله (ص) بالمدينة فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيدبن العاص وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة الى عثمان حتى قدم عليه فاخبره بالذي حدث وقال انا النذير العريان فادركوا هذه الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذي رأى وسمع وبالذي عليه حال الناس فأعظموا ذلك ورأوا جميعاً مثل الذي رأى فارسل عثمان الى حفصة بنت عمر ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف التي كتبت في ايام أبي بكر على الوجه الذي ذكرنا في سيرته وأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . وفي رواية لابن عساكر عن مصعب بن سعيد ان عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من اكتب الناس قالوا كاتب رسول الله (ص) زيد بن ثابت . قال فأي الناس اعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليمل

سعيد وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس : قال وسمعت بعض اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول : قد أحسن وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما احرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعته انا: فجزا الله عثمان عن الامة خير الجزاء فقد أحسن وبر فيما صنع وكان له فضل في رد الناس الى قراءة واحدة كفضل أبي بكر في جمع القرآن

﴿ زيادته في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول ﴾

في سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الاثمان في بيت المال فصيحوا (١) بعثمان فأمر بهم الى الحبس وقال أتدرون ما جرأكم علي؟ ما جرأكم الا حلمي قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به. ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجوا. وفي سنة (٢٩ هـ) زاد في مسجد رسول الله (ص) ووسعه وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الاول وكان الجص يحمل اليه من بطن نخل وبناه بالحجارة المنقوشة وجعل عُمُده من حجارة فيها رصاص وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه مائة وخمسين ذراعاً وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب

﴿ جملة مآثره ﴾

من مآثره الجليلة انْ رَزَق المماليك دون ان ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليهم كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته في الاعطيات للناس . ومن مآثره ترتيب الطعام في شهر رمضان لاهل المدينة واقامته دور الضيافات في الكوفة كما روى ذلك

(١) صيح صوت باقصى طاقته

الطبرى : ومن مآثره اقطاعه الارضين التي جلا أهلها عنها للعرب لكي يعتملوا فيها ويعمروها كما مرّ بك الخبر عن مثل ذلك في فتح كرمان وقد كان عمر رضي الله عنه لا يأذن باعمال العرب في الارضين كما علمت من سيرته وأذن لهم عثمان رضى الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب في البلاد وجلا من جلا من أهلها ورأى ضرورة احياء ما تركوه من الارضين وان يقوم العرب على عمرانها ضناً بها ان تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس

ومن مآثره اتخاذه دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس قال . ارسلني العباس الى عثمان ادعوه فأتيته في دار القضاء الى آخر الحديث فاذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الاسلام داراً للقضاء وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور

﴿ أولياته ﴾

نقل السيوطي عن الاوائل للعسكري انّ عثمان أول من اقطع القطائع وأول من حمى الحمى واول من خفض صوته بالتكبير وأول من خلق (نقش) المسجد . واول من امر بالآذان الاول في الجمعة. وأول من رزق المؤذنين واول من ارتج عليه (من الخلفاء) في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . واول من فوض الى الناس اخراج زكاتهم . وأول من ولي الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . واول من اتخذ المقصورة في المسجد(المشهور ان أول من اتخذها معاوية)وأول ماوقع الاختلاف في زمانه بين الامة نخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطئ بعضهم بعضاً : هذا مانقله

السيوطي من أوائل العسكري وزاد عليه انه اول من هاجر الى الله بأهله واول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة اه

باب

« أخلاقه ومناقبه »

(سياسته وعدله)

كان عثمان رضي الله عنه ليّن الجانب رؤف القلب محسناً الى الرعية ومن أبطرته النعمة وغره حلم الامير . ولم يكن له زاجر من نفسه . ورقيب عليه من خلقه.. ربما انقلب الى الاساءة في مقابل الاحسان كما وقع ذلك لعثمان (رض) فيمن أحسن اليهم كمحمد بن أبي حذيفة وامثاله من الذين حرّضوا عليه، وأساؤا اليه ، لذا كانت سياسة اللين والاناة التي اتبعها عثمان محمودة في نفسها مذمومة في نتائجها والعرب وان كانوا يومئذ ذوي اخلاق عالية يندر وجودها في غيرهم من الامم كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والاقدام الا انه كان ينقصهم النظر في العواقب، وعدم التجارب، لبعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ويذري بهم الاستغراقُ في البداوة وفقدُهم لاصول التربية الصحيحة وشرههم الى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة وكل هذا من الامور التي تبعث على حب الشقاق وهدم أركان الالفة وتسرع بخطى الناس الى مواقع الفتن لهذا فالقوم يومئذ قل ان تنجع فيهم سياسة كلها لين بل الانجع فيهم والاولى في تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم . وتستنير بنور الاسلام عقولهم . ومن تأمل فيما جاء به الاسلام من الزواجر القامعة . والقوارع الزاجرة . والوعيد الشديد . علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة في استصلاح القوم وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا

المنهج في سياسة العرب فمضت أيامهما والأمة في شاغل من الرهبة والاشتغال بالفتح ليس فيها من يجرأ على شق عصا المسلمين او مناهضة الخليفة في شأن من شؤون الدولة الاّ ماكان من نصيحة يؤدونها أو رأي صالح يبدونه أو كلمة حق يقولونها بسائق الحرية التي ألفوها والواجب الذي يدعوهم الدين اليه فلما ولي عثمان وانكشف لهم من لينه جانب الضعف ناهضه قويّهم واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم حتى اذا أراد ان يبسط على بعضهم يد القوة . ويأخذ منهم على الشكائم . نفروا منه . وتحولوا بكليتهم عنه . فكان احسانه اليهم ولينه معهم سبب اساءتهم اليه . وافتراقهم في مذاهب الاختلاف عنه . يدلك عليه ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن سالم بن عبد الله قال

لما ولى عثمان حج سنواته كلها الى آخر حجة حجها وحج بازواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمته وأمن الناس (١) فكتب في الامصار ان توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم وكتب الى الناس والامصار ان أتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فاني مع الضعيف على القوي مادام مظلوماً ان شاء الله . فكان الناس كذلك فجرّ ذلك الى ان اتخذه اقوام وسيلة الى تفريق الامة اه (اي بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وربما يعجب القاريء ان يجر مثل هذا الحلم والتناهي في الرأفة والعدل الى ما كان من الفتن والجراة على التوثب على الخليفة لكن ما بسطناه من اخلاق القوم

(١) الناس تطاق على الواحد فاكثر فقوله امر الناس أي امر واحداً : وفي رواية الطبري فامنَ الناس وكتب الى الامصار الخ الحديث

يكفي للدلالة على ان عثمان جرّ على نفسه ماجرّ بسياسة اللين التي لا تصلح لقوم شأنهم ماذكرناه لا سيما اذا اضفنا الى هذا من سياسة عثمان رضي الله عنه أمرين عظيمين (الأول) اطلاقه سراح المهاجرين من المدينة وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثاني) استبداله بعض العمال بمن ليسوا في مقدرة من اختارهم عمر للاعمال كسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأشباههما (فاما الامر الاول) فقد ذكروا ان عمر كان حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الاّ باذن وأجل (١) وروى ابن عساكر عن محمد وطلحة قالا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان أخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام وكان مغموراً في الناس وصاروا اوزاعاً اليهم وأمّلوهم وتقدموا في ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس لها ذلك اه

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذي جرّه على نفسه عثمان بمثل هذه السياسة التي وان كانت في نفسها عدلاً وحسن صنع ومنة على قريش كمنته في بذل جانب اللين والاحسان لعامة المسلمين الاّ انها جاءت قبل اوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة كما سترى ذلك في غير

(١) روى الطبري عن الشعبي قال لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عليهم وقال ان أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد . فان كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألاّ ترى الدنيا ولا تراك .

هذا المحل ان شاء الله

واما الامر الثاني وهو استبداله من هو أقوى من العمال بمن هو هو أضعف فقد كان سببه استضعاف اعدائه له واغترارهم بحبه للانصاف اذا طلب أحد من الناس ان ينصفهم من احد عماله فكانوا يكيدون لعماله المكائد لكي يستعفوه ممن لا يريدونه منهم وكان من اكثر عماله يقظة وأشدهم أخذاً برقاب أهل الفساد وأسدهم سياسة في الرعية عمرو بن العاص فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان وجمع امارتي الخراج والحرب لعبد الله بن سعد ابن أبي سرح وقد كان عبد الله أميراً على الحرب في خلافة عثمان وأميراً على الصعيد الاعلى في خلافة عمر وتوفي عمر وهو أمير على الصعيد ولم يكن ابن أبي سرح بالضعيف ولا الجبان الا أنه كان لهم من سابقته في اهدار رسول الله (ص) دمه وقرابته من عثمان وسيلة يتوسلون بها في كل وقت الى مناهضة مثله ومحاجة عثمان بولايته وقد كان ذلك كذلك كما سترى بعدُ. واما تسرع عثمان (رض) في عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس اولئك الناس فقد رواه ابن عساكر عن يزيد الفقعسي قال

لما خرج بن السوداء الى مصر اعمر فيهم (اي لزمهم) فأقام فنزل على كنانة بن بشر مرة وعلى سودان بن حمران مرة وانقطع الى الغافقي فشجعه الغافقي فتكلم واطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم واشباه لهم فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون الى شيء مما يجيبون الى الوصية (اي وصية علي) فقال عليكم نابُ العرب وحجرهم ولسنا من رجاله فأروه انكم تزرعون ولا تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسأل من هو أضعف منه ونخلو بما نريد ونظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكان أسرعهم الى ذلك وأعلاهم فيه محمد بن أبي حذيفة وهو ابن خال معاوية وكان يتيماً في حجر عثمان . فلما ولي استأذنه في الهجرة الى بعض الامصار فخرج الى مصر وكان الذي دعاه الى ذلك انه سأله العمل . فقال (اي عثمان) لست هناك ففعلوا ما أمرهم به بن السوداء ثم انهم خرجوا أو من شاء الله منهم وشكوا عمراً واستعفوا منه . فكان كلما نهنه (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم وقال انما هو أمير. انبعث آخرون بشيء آخر وكلهم يطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فقال لهم عثمان اما عمرو فسننزعه عنكم لما زعمتم أنه أفسد واما الحرب فسنقره عليها ونولي من سألتم . فولى عبد الله بن سعد خراجهم خراج مصر وترك عمراً على صلاتها فمشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة واشباههم فيما بين عمرو وعبد الله ابن سعد واغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه وتكاتبا على قدر ما أبلغوا كلٌّ واحد منهما . فكتب عبد الله بن سعد (اي لعثمان) ان خراجي لا يستقيم ما دام عمرو على الصلاة فخرجوا فصدقوه واستعفوا من عمرو وسألوا عبد الله فكتب عثمان الى عمرو انه لا خير لك في صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبد الله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبد الله ماشأنك استحيل رأيك : فقال. يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما ادري من اين أُتيت وما اتهم عبد الله بن سعد وان كنت لاهل عملي كالوالدة وما قدر العارفُ والشاكر على معوتي اه

وقد تقدم في سيرة عمر وسياسته مع عماله انه كان لا يعزل عاملاً عن شكاة الا بعد ان يرسل محمد بن مسلمة لتحقيق وجوه الشكوى ويستقدم الشاكي والمشكو منه الى المدينة ليقف بنفسه على جلية الامر كما انه لم يول

الاعمال احداً من ذوي قرباه لذا لم يجعل لأحد من الناس سبيلاً عليه ولا على عماله الآ بالحق بخلاف عثمان فانه لما لم يسلك في سياسته مع العمال هذا الطريق الاسدّ والنهج الاوضح واطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى أوجد للقوم سبيلاً اليه فقلبوا له ظهر المجن وملأوا عليه الارض بالفتن كما سيأتي الكلام عليه في محله ان شاء الله

وامّا عدله فمما يروى عنه ما أخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال: اشترى عثمان من رجل أرضاً فابطأ عليه فقال ما منعك من قبض مالك . قال انك غبنتني فما ألقى من الناس احداً الا وهو يلومني قال أذلك يمنعك ؟ قال نعم . قال فاختر بين أرضك ومالك ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً او بائعاً. وقاضياً ومقتضياً)

ومنه ما اخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان اصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن اسعارهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على انه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

(أدبه مع نفسه ومع الرسول)

اخرج ابن عساكر عن ابن عيينة انه قال. قال عثمان بن عفان ماتغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقوله ولا مسست الخ تناه

في الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والاحترام ليده الشريفة التي مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان مع ما عرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له وبذل ماله في سبيل مرضاته فرضي الله عنه وارضاه

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

نقل في الرياض النضرة في فضائل العشرة من رواية ابن السمان عن أبي الفرات قال. كان لعثمان عبد فقال له اني كنت عركت اذنك فاقتص مني. فاخذ باذنه ثم قال عثمان. اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة.

وهذه مكانة من كرم الاخلاق وخفض الجناح والتقوى واعطاء الحق لا يبلغها الا أولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

من اخباره في التأديب ما اخرجه ابن عساكر عن أبي الزناد انه ذكر ان رجلاً من ثقيف جلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس في خلوته فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه اياه وقال . لا نعود الى مجلسك ابداً الاّ ومعنا ثالث

وروى الطبري ان رجلاً استخف بالعباس في منازعة كانت بينهما فضربه عثمان فقيل له في ذلك . فقال نعم أيُفخّم رسول الله (ص) عمه وأُرخص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله (ص) من فعل ذلك ومن رضى به منه

﴿ تواضعه ﴾

كانت اخلاق عثمان رضي الله عنه كلها فضائل اتّشح بردائها وأخذ

نفسه بها ولو لم يأت عليه الكبر فيضعفه وتضطرب سياسته من اجل ذلك في اواخر خلافته فيكون من الطعن عليه ما كان لما شاب سيرته شائبة ولكانت كسيرة صاحبيه واما ما عدا تلك الحوادث التي حدثت له ومهدت لبعضهم سبيل الانكار عليه فهو في المكانة العليا من الاخلاق البارة والشيم الجميلة وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فمما جاء من اخبار تواضعه ما اخرجه ابن عساكر في تاريخه عن الحسن قال . رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ثم يجيء الرجل فيجلس اليه ويجيء الرجل فيجلس اليه كأنه أحدهم . وروى عن الحسن ايضاً انه سئل عن القائلة في المسجد فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصا بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين

واخرج عن علي بن مسعدة عن عبد الله الرومي قال كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتني جدتي ان عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله اذا قام من الليل الا ان يجده يقظان فيدعوه فيناوله الوضوء وكان يصوم الدهر

﴿ حياؤه ﴾

كان عثمان (رض) مشهوراً بشدة الحياء وهو خلق جميل وأدب نفسي يزين المرء اذا توسطه ولم يفرط فيه ولعل من جملة ما أطمع الناس في عثمان شدة حيائه وحلمه كما أشرنا الى ذلك في سياسته ولا عجب في ذلك فان من الناس من اذا استحييت منه لم يستح منك وجرأه حياؤك عليك . ومما جاء من اخباره في الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبي جُمَيع الهُجَيمي قال

ذكر عند الحسن حياء عثمان وانا اسمع قال (اي الحسن) كان عثمان ليكون في جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء ان يرفع صلبه

﴿ شفقته على الرعية ﴾

نقل في الرياض النضرة عن سليمان بن موسى ان عثمان بن عفان دعي الى قوم كانوا على أمرٍ قبيح فخرج اليهم فوجدهم تفرقوا ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله اذ لم يصادفهم واعتق رقبة

واعلم ان الصحابة وأخصهم الخلفاء الاربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام وسنفرد للكلام على هذا الامر باباً مخصوصاً في هذا الكتاب ان شاء الله

﴿ كرمه ﴾

كرم عثمان معروف وقد سبق في هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العسرة من ماله بما لم يسبق لاحد قبله ولما ولي الخلافة زاد في أعطيات الناس ورزق المماليك كما قدمنا وأغدق على ذوي رحمه ووصلهم وأغناهم وكان هذا مما أُنكر عليه ونقم منه لاجله وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه في البذل والتوسع في المعيشة والتنعم بالرزق ولم يكن ميالاً للتقشف وشظف العيش لذلك فكما كان يحب ان يوسع على نفسه يحب ان يوسع على أهله وعشيرته وليس في هذا ما يقدح في عفته او دينه اذ الدين يأمر بصلة ذوي الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش وطريقة أبي بكر وعمر قبله في الزهد والتقشف التي أخذا بها أنفسهما ليست بالامر المستطاع لكل مسلم وانما هي تورع واتباع لطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد وهي محموده في نفسها للخلفاء

وليست بواجبة بل الواجب هو القصد وعدم السرف والعفة عن الفضول وقد كان عثمان (رض) عفيف النفس بالضرورة لان الكرم يكون مع العفة لا مع الشره وهو من اكرم الناس ولم ينحصر كرمه في ذوي قرابته بل تعداه الى غيرهم ايضاً ومما يروى عن كرمه غيرما تقدم ذكره ما اخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد بن يربوع بن عنكشة المخزومي قال انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا فاذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنة او بعض لبنة فقمت انظر اليه اتعجب من جماله ففتح عينيه فقال من انت يا غلام . فاخبرته فنادى غلاماً قريباً منه فقال لي ادعه فدعوته فامره بشيء وقال اقعد . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم فنزع ثوبي وألبسني الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجعت الى أبي فاخبرته فقال يابني من فعل هذا بك فقلت لا أدري الآ انه رجل في المسجد نائم لم أرَ قط أحسن منه . قال ذلك امير المؤمنين عثمان

وروى ابن عساكر عن أبي اسحق السرّاج قال . قال لي أبو اسحق القرشي يوماً من اكرم الناس بعد رسول الله (ص) ؟ قلت عثمان بن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت لاني رأيت الكرم في شيئين . في المال والروح .فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله (ص) ثم جاد بروحه على أقاربه. قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون الفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ما قال)

﴿ صلاحه وتقواه ﴾

كان كثير التقوى والقنوت كثير الصلاة كثير قراءة القرآن شديد

الولع به والاستظهار له وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أم مَنْ هو قانت اناء الليل) الآية قال نزلت في عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن اسرائيل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان لو انّ قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا اني أكره ان يأتي عليّ يوم لا انظر في المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة ان عثمان كثيراً ما رؤي في المقام يصلي من اول الليل الى بزوغ الفجر

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هيج الناس ما كان جعل رجل يسأل عن أفاضل اصحاب رسول الله (ص) فجعل لا يسأل احداً الآ ودله على سعد بن مالك (اي ابن ابي وقاص) فجلس اياماً لا يسأله عن شئ حتى استأنس به فذكر الحديث . قال اخبرني عن عثمان : قال كنا اذ نحن مع رسول الله (ص) كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقةً في سبيل الله اه

﴿ باب كتبه وخطبه ﴾

« كتبه »

لما استخلف عثمان (رض) كتب كتباً غراء الى عماله وولاته والعامة يوصيهم فيهابالقيام على الحق وحسن السيرة وقد اورد هذه الكتب الطبري في تاريخه وهذه صورتها

١

﴿ كتابه الى عماله ﴾

اما بعدفان الله امر الائمة ان يكونوا رعاة ،ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جُباة ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن

أمتكم ان يصيروا جباةً، ولا يكونوا رعاةً، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء، والامانة والوفاء،ألا وانّ أعدل السيرة انْ تنظروا في امور المسلمين فتُعطوهم الذي لهم .وتأخذوا بما عليهم .ثم تثنوا بالذمة (اي اهل الذمة) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم .ثم العدوّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء اه

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون في كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة والوفاء للعدوّ المحارب وقد رأيت من هذا شيئاً كثيراً في سيرة عمر (رض) وليت شعري هل للمسلمين ان يعقلوا. وللمسيحيين أهل الذمة والاجانب منهم ان يعدلوا .

٢

﴿ كتابه الى أمراء الاجناد في الثغور ﴾

اما بعد فانكم حماةُ المسلمين وذادتهم (١) وقد وضع لكم عمر ما لم يغبْ عنا بل كان عن ملإٍ منّا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه :

٣

﴿ كتابه الى عمال الخراج ﴾

اما بعد فانّ الله خلق الخلق بالحقّ . فلا يقبل الا الحقّ . خذوا الحق وأعطوا الحق . والامانةَ الامانةَ قوموا عليها . ولا تكونوا اول من يُسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم .

(١) اي المدافعون عنهم

ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم :

٤

﴿ كتابه الى العامة ﴾

اما بعد فانكم انمّا بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتّباع فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم فان امرَ هذه الدنيا صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاثٍ فيكم تكاملُ النعْم (١) وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله (ص) قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا :

٥

﴿ وكتب الى عماله ايضاً ﴾

امّا بعد استعينوا على الناس وكلّ ماينوبكم بالصبر والصلاة وأمرَ الله أقيموه ولا تدهنوا فيه واياكم والعجلة فيما سوى ذلك وارضوا من الشرّ بايسره فانّ قليلَ الشرّ كثير . واعلموا ان الذى ألّف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها من بعضٍ . سيروا سيرةَ قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر

٦

﴿ وكتب اليهم ايضاً ﴾

انّ الله ألّف بين قلوب المسلمين على طاعتهِ وقال سبحانه (لو انفقتَ مافي الارض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيتهِ . ولا تعجلوا على احد بحدٍّ قبل استيجابه فان الله تعالى قال (لستَ عليهم بمُسيطرٍ

(١) النعم ضد البؤس

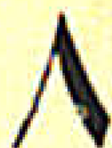
الأَ منْ تولىَّ وكفر) من كفر داويناه بدوائه ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله : ابن عساكر :



﴿ وكتب ايام الفتنة الى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم : اما بعد فاني اذكركم الله الذي أنعم عليكم . وعلمكم الاسلام . وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر . وأراكم من البينات . ونصركم على الاعداء . ووسع عليكم من الرزق . وأسبغ عليكم نعمته فان الله عزّ وجلّ يقول (وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفّار) وقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته . . الى . . يهتدون) ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير . . الى . . المفلحون) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا . . الى عظيم) وقال (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه . . الى سمعنا وأطعنا) وقال (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ . . الى . . حكيم) وقال (ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً . . الى . . أليم) وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وقال (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم . . الى . يفعلون) ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . . الى . . تختلفون) ولا تتخذوا ايمانكم دخلاً بينكم . . الى . . أليم) ولا تشتروا بعهد الله الى تعلمون) ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال (ولا تشتروا بآيات الله : الآية) وقال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم الى تأويلا) وقال وعد

الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض . . الى . . الفاسقين) ان الذين يبايعونك . . الى . . عظيماً) ابن عساكر :



﴿ وكتب مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) : اما بعد : فان الله قد رضي لكم السمع والطاعة وكره لكم المعصية والفرقة والاختلاف وقد انبأكم فعل الذين من قبلكم وتقدم اليكم فيه لتكون له الحجة عليكم ان عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه فانكم لن تجدوا أمة هلكت الا من بعد ان تختلف ولا يكون لها امام يجمعها . ومتى ما تفعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً قال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . . الى . . يفعلون) واني اوصيكم بما اوصاكم الله به وأحذركم عذابه وان القرآن نزل لنعتبر به ونتنهي اليه (اولا ترون الى شعيب قال لقومه ياقومي لا يجرمنكم شقاقي الى . . ببعيد) وياقومي استغفروا ربكم . . الى . . ودود) ابن عساكر :



﴿ وكتب كتاباً آخر مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) اما بعد فان اقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث أظهروا للناس انما يدعون الى كتاب الله والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها فلما عرض عليهم الحق اذا الناس في ذلك شتى منهم آخذ للحق ونازع عنه حين يعطاه . ومنهم تارك للحق رغبة في الأمر يريدون ان يبتزوه بغير الحق . وقد طال عمري وراث (ابطأ) عليهم أملهم في الامرة واستعجلوا القدر . واني جمعتهم والمهاجرين والانصار فنشدتهم فأدوا الذي

علموا فكان أوَّل ما شهدوا به ان يُقتل من دعا الى نفسه او الى أحدٍ : وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (اي الطعانون) وما اجابهم فيه الخ . .) ابن عساكر (١)

١٠

وكتب كتاباً ايام الحصار بعثه مع نافع بن طُرَيف الى اهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) منْ عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى منْ حضر الحجَّ من المسلمين : اماَّ بعد : فاني كتبتُ اليكم كتابي هـذا وأنا محصورٌ أشربُ من بئر القصر ولا آكل من الطعام ما يكفيني خيفـة ان تنفدَ ذخيرتي فاموت جوعاً انا ومن معي . لا أُدعى الى توبة أقبلها . ولا تُسمع مني حجةٌ أقولها فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي الاّ قدِم عليَّ فأخذ الحقَّ فيَّ ومنعني من الظلم والباطل (عن الامامة والسياسية)

١١

ومن كتبه التي كتبها للامراء وأهـل الامصار يستغيثهم بها كتابه الى معاوية وأهل الشام وهذه صورته

اماَّ بعد : فاني في قوم طالَ فيهم مُقامي واستعجـلوا القَدَرَ فيَّ وقد

(١) هذا الكتاب والكتابان اللذان قبله اوردهم ابن عساكر متفرقين وأوردهم الطبري في كتاب واحد مع اختلاف قليل في اللفظ وذكر في آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطعانين فيه وما أجابهم عنه مما لم أر حاجة لايراده اذ اوردنا من سيرة عثمان واخبار الفتنة ماهو بمعناه فمن اراد الكتاب برمته فليراجعه في المجلد السادس من تاريخ الطبري

خيَّروني بين انْ يحمـلوني على شارفٍ (١) من الابل الدحيل (٢) وبين انْ انزع لهم رداءَ الله الذي كساني . وبين أنْ أُقيدهم ممن قتلتُ . ومن كان على سلطانٍ يخطيُّ ويصيبُ . فياغوثاه ثم يا غوثاه . ولا أمير عليكم دوني . فالعجل العجل يامعاوية وأدرك ثم أدرك . وما أراك تدرك (الامامة..)

١٢

(ومثله ما كتبه لاهل الامصار)

(اماَّ بعد) فانَّ الله بعث محمداً (ص) بالحقِّ بشيراً ونذيراً . وبلَّغ عن الله ما أمرَهُ ثم مضى وقد قضى الذي عليه . وخلَّفَ فينا كتابهُ فيه حلالهُ وحرامهُ . وبيان الامور التي قدَّر فامضاها على ما أحبَّ العبادُ وكرهوا . فكان الخليفة أبو بكر . ثم عمر . ثم دخلتُ في الشورى في غير علمٍ ولا مسألةٍ عن ملاءٍ منَ الأمة . ثم اجتمع أهل الشورى عن ملاءٍ منهم ومنَ الناس عن غير طلب ولا محبة مني . فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون . تابعاً غير مستتبعٍ متبعاً غير مبتدعٍ . مقتدٍ غير متكلفٍ فلما انتهت الامور . وانتكث الشرّ بأهلهِ . بدت ضغائن واهواء على غير اجترام ولا تِرَةٍ فيما مضى الاّ امضاء الكتاب . فطلبوا امراً وأعلنوا غيرهُ بغير حجةٍ ولا عذر . فعابوا عليَّ اشياء عن ملاءٍ من أهل المدينة لا يصلح غيرها . فصبَّرتُ لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله جُرْأَةً حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرَمهِ وارضِ الهجرةِ . وثابت اليهم الاعراب فهم كالاحزاب ايام الاحزاب . أو من غزانا بأُحُدٍ الى ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق

(١) الشارف الناقة المسنة (٢) الدحيل هكذا بالاصل ولم اجد لها معنى فالتحرر

بنا فليلحق اه (عن التمهيد والبيان)

خطبه

(أول خطبة له)

قد تقدم معنا في الكلام على استخلاف عثمان (رض) ذكر الخلاف في اول خطبة لعثمان وانّ من المؤرخين من يقول انه أرتج عليه ومنهم من يقول انه خطب وقد أورد هذه الخطبة الطبري في تاريخه من رواية سيف عمن رواها قال

لما بايع اهل الشورى عثمان خرج وهو أشدّهم كآبةً فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله واثنى عليه وقال

انكم في دار قُلْعةٍ (١) وفي بقية اعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه. فلقد أُتيتم، صُبّحتم أو مُسّيتم، الا وانّ الدنيا طُويت على الغرور فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرُور. اعتبروا بمن مضى. ثم جدّوا ولا تغفلوا فانه لا يُغفل عنكم. أين ابناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها (٢) وعمروها ومُتّعوا بها طويلاً. ألم تلفظهم؛ (٣) ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها. واطلبوا الآخرة فانّ الله قد ضرب لها مثلاً فقال عزّ وجلّ (واضرِبْ لهم مَثَلَ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السماء ..الى قوله..أملا)

٢

وفي رواية أخرى للطبري ان أول خطبة خطبها عثمان هي هذه

امابعد فاني قد حُمّلتُ وقد قبلتُ ألا واني متبع ولستُ بمبتدع. ألا وانّ لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً:

(١) أي عارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ الشيء من فمه : رماه :

اتّباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم: وسنّ سنةَ أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملإٍ: والكفّ عنكم الاّ فيما استوجبتم. ألا وانّ الدنيا خضِرة قد شُهّيت الى الناس ومال اليها كثير منهم فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقةٍ. واعلموا انها غير تاركةٍ الاّ من تركها: اه

٣

وخطب أيضاً فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

ايّها الناسُ اتقوا الله فأنّ تقوى الله غُنم وانّ أكيسَ الناس من دان نفسه (١) وعمل لما بعد الموت. واكتسبَ من نور الله نوراً لظُلمةِ القبور وليَخشَ عبدٌ أن يحشرَهُ الله أعمى وقد كان بصيراً. وقد يكفي الحكيمَ جوامعُ الكلام. والأصمُّ ينادي من مكانٍ بعيد. واعلموا أنّ من كان الله معه لم يخف شيئاً. ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده. اه عن ابن عساكر

٤

وخطب مرة فقال

انّ الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (٢) واني والله لا اكون أول من فتح بابها. ولا أدار رحاها الا واني زامٌّ نفسي بزمام وملجِمُها بلجام فاقودُها بزمامها وأكبحها «امنعها» بلجامها ومناولكم طرف الحبل فمن اتّبعني حملته على الأمر الذي يعرف ومن لم يتبعني ففي الله خلفٌ منه، وعزاءٌ عنه، ألا وانّ لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً. سائقٌ يسوقها على أمر الله وشاهدٌ يشهد عليها بعملها. فمن كان يريد الله بشيءٍ فَلْيُبشر، ومن كان انما

(١) أي العاقل من قهر نفسه بمنعها عن الشهوات استعداداً لما بعد الموت

(٢) اي يبلغني عنهم امور شرور وفساد كما في لسان العرب

يريد الدنيا فقد خسراه (ابن عساكر)

٥

﴿ وخطب وهو محصور فقال ﴾

ايها الناس ان عمر بن الخطاب صيّر الامر شورى في ستة تُوفي رسول الله (ص) وهو عنهم راض فاختاروني وأجمعوا عليّ ولم آلوا عن العمل بالحقّ وما توفيقي الا بالله. وما أعلم ان لي ذنباً أكثر من طول ولايتي عليكم ولعلّ بعضكم ان يقول ليس كأبي بكر وعمر. أجل أجل لست كهما والاشياء اشباه قريبة بعضها من بعض وقد زعمتم أنكم تخلعوني فلا دون ان تعرّونى (١) بأمر لا يحلّ لي الا خلعها من عنقي. واما العتبى فلكم ونعمت العتبى اه (مفتاح الافكار)

٦

﴿ وخطب وهي آخر خطبه ﴾

اما بعد ان الله عزّ وجلّ انما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يُعطِكُمُوها لتركنوا اليها. انّ الدنيا تفنى والآخرة تبقى. فلا تُبطرنّكم الفانية ولا تشغلنّكم عن الباقية فآثروا ما يبقى على ما يفنى. فانّ الدنيا منقطعة وانّ المصير الى الله. اتقوا الله جلّ وعزّ فان تقواه جنّة (٢) من بأسه. ووسيلة عنده واحذروا من الله الغيَرَ. والزموا جماعتكم لا تصيروا احزاباً (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً) اه (رواها الطبري وابن عساكر)

(١) عرّه لطخه بشر يريد انهم لا سبيل لهم الى خلعه الا بسبب صحيح يستوجب الخلع ويحل له ترك الخلافة (٢) الجنة الترس والوقاية

باب

« اخبار الفتنة ومقتل عثمان »

{ مبادئ الفتنة }

أجمع الرواة وأهل الاخبار ان عثمان {رض} قضى الشطر الاكبر من خلافته وهو أحبّ الى الناس من عمر {رض} لشدته ورأفة عثمان ولينه واقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء ايديهم من المغانم لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالاموال الكثيرة فانحرفت عنه من اجل ذلك القلوب ونظرت اليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الامصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوّة والأثرة على الملك الى اليوم

أخرج ابن عساكر عن الحسن انه قال ادركت عثمان على ما نقموا عليه قلّ ما يأتي على الناس يوم الا وهم يقتسمون فيه خيراً فيقال لهم يا معشر المسلمين اغدوا على اعطياتكم. فيأخذونها وافرة. ثم يقال لهم اغدوا على ارزاقكم. فيأخذونها وافرة. ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل. الاعطيات جارية والارزاق دارة والعدوّ منفي وذات البين حسن والخير كثير. وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان. ألفته ونصيحته ومودته. قد عهد اليهم انها ستكون أثرة فاذا كانت ان تصبروا. قال رسول الله «ص» لأسيد بن حضير: ستلقون بعدي أثرة. قال فما تأمرنا. قال ان تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله: قال الحسن لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بامر رسول الله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق

والخير الكثير . قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلموا والاخرى كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام ما على الارض مؤمن يخاف ان يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً الى يوم القيامة اه

اما مبادئ الفتنة فقد قال ابن جرير الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس وأعان على نفسه بافعاله وباستيلاء بني أمية عليه وكان ابتداء الجراءة عليه ان إبلاً من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي العاص فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان . وقيل انه خطب يوماً وبيده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فاخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته . فلما تكاثرت احداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم الى من بالآفاق بذلك وبأن يقدموا لخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان

وقد كان اول ما تكلم به في الخارج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر انّ عابا عثمان في غزوة ذات الصواري التي غزياها مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في البحر سنة احدى وثلاثين وأظهروا عيبه وما خالف به أبا بكر وعمر وانه استعمل عبدالله بن سعد رجلاً أباح دمه رسول الله ونزل القرآن بكفره ونزع أصحاب رسول الله عن الاعمال وولاها مثل عبد الله بن سعد وسعيد بن العاص الى غير ذلك من الكلام الذي ساء عبد الله فعزلهما عن المسلمين في مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجيش الى مصر وأخذ ابن أبي حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان

والذي يؤخذ من سياق اخبار الفتنة التي أوردها الطبري وغيره من المؤرخين ولم يصرح به أحدمنهم وانما هو يستخرج من ثنايا الاخبار انّ بذار الفتنة بذرت في انحاء المملكة وعواصمها الكبرى كمصر والبصرة والكوفة بدعوة سرية قام بثها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء (وكان يهودياً من حِمير واسلم على عهد عثمان) بايعاز جمعية سرية (١) تريد بهذا أحد أمرين اما تفريق المسلمين في الدين او تفريقهم في السياسة وذلك لان الدعوة التي قام بها ابن سبأ مشتركة بين الامرين : الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الاولى وجوب الخلافة لعلي دون غيره والوثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ومن مقتضى الثانية الاعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم انه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته ان هذا الرجل لما اسلم نزل في البصرة على حكيم بن جبلة العبدي واجتمع اليه نفر فأخذ يغريهم بالدعوة التي قام بها فقبلوا منه وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها ايضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم واشباههم فقال لهم : العجب ممن يصدق انّ عيسى يرجع

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية في الاسلام وانها طالما قلبت كيان الوجود السياسي وقامت بها دول نرجئه الى سيرة علي بن ابي طالب عند الكلام على الخوارج والشيعة ليرى القارئ ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكانهم من الحياة العالية ايام شبابهم وكيف صاروا الآن الى ارذل العمر وماتت فيهم كل مشاعر الحياة

و يكذب ان محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة (١) فقبلت منه. ثم قال لهم بعد ذلك انه كان لكل نبي وصي وعليّ وصي محمد فمن أظلم ممن لم يجز وصيّة رسول الله ووثب على وصيه . وانّ عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الامر وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعاته وكاتب من استفسد في الامصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم حتى تم لهم الامر كما سترى بعد

وأنت ترى ان الدعوة في قسمها الاول اي القول بالوصاية سياسية وفي قسمها الثاني اي القول بالرجعة دينية فمصدرها امّا ان يكون من جماعة سرّية من غير أهل الاسلام يريدون ادخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق كلمتهم: واما انهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من استفحال الصبغة الاموية في الدولة كما سترى بعدُ: هذا ان كان الجماعة من قريش وان كانوا من غيرهم فانمّا يريدون التذرع باسباب الرياسة بتقربهم من عليّ او غيره وقد توسل اولئك الاحزاب السياسيون بالدين لانه أقرب الى التسلط على الاذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيءٌ بعد من امور السياسة والاجتماع.

ولا يظنن القاري انّ قيام الدعوة باسم عليّ رضي الله عنه تستلزم انه الداعي لها كلاّ فان هناك اموراً تدل على براعة القائمين بهذا الغرض بتوجيه الافكار الى عليّ لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التي يعرفها يومئذ كل المسلمين

(١) الظاهر ان الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك في علي لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ في عليّ وبنيه وقد نقل ابن حزم في الملل والنحل ان ابن سبأ قال لما قتل علي (رض) لو آتيتمونا بدماغه ألف مرة ماصدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً

وحسبك من براءته من هذا الامر الكتب التي جاءت باسمه الى أهل العراق وباسم غيره ايضاً وظهر انها مفتعلة لم يكن لعلي بها علم كما سترى بعدُ وانما هي مكائد تدبر واكثر القوم عنها غافلون يضاف اليها نزوع العرب الى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه عن طريقة صاحبيه في بعض الامور الاجتهادية انحرافاً مهد سبيل الطعن عليه واوجد قلوباً واعيةً حتى من كبار الصحابة لما يقال فيه. ولمّا هالهم اجماع أهل الامصار على الشكوى منه والطعن عليه خذلوه على ظن انه يخلع نفسه من الخلافة وتطفأ بذلك ثائرة القوم فلم يفعل حتى قُتل وهم لاعتزاله منصب الخلافة منتظرون ولقتله كارهون

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبي حذيفة وابن السوداء ومن على شاكلتهم في مصر قيام حمران بن أبان في البصرة لافساد القلوب على عثمان لانه كان حاقداً عليه اذ ضربه على زواجه بامرأة في العدة. واجتراء أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمة والتطلع الى الفتنة وقد تقدم انّ سعيد بن العاص لما ولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأهل القادسية فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الارحبي وعلقمة بن قيس النخعي وثابت بن قيس الهمداني وجُندُب ابن زهير الغامدي وعروة بن الجعد وصعصعة بن صوحان وابن الكوّاء وطُلَيحة بن خويلد في أشباه لهم وكانوا يفيضون في ايام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون الى الملاحاة والمشاتمة والضرب فاذا عزلهم حجاب سعيد نهروهم وضربوهم : وقيل انّ سعيد بن العاص قال يوماً انما هـذا السواد (يريد سواد الكوفة اي اراضيها) بستان قريش : فقال له الاشتر: السواد الذي أفاء الله علينا باسيافنا تزعم انه بستان لك ولقومك :

وخاض القوم في ذلك فأغلظ لهم عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه. فمنع سعيد بعدها السمر عنده فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان والسفهاء يغشونهم. فكتب سعيد وأهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم. فكتب ان يلحقوهم بمعاوية وكتب الى معاوية: انّ نفراً خلقوا للفتنة فقم عليهم وانههم وان آنست منهم رشداً فاقبل وان أعيوك فارددهم عليَّ:

فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ماكان لهم بالعراق وأقاموا عنده يحضرون مأيدته فقال لهم يوماً. انكم قوم من العرب لكم اسنان (اعمار) وألسنة وقد ادركتم بالاسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم. وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلةً. انّ أئمتكم لكم جُنّة (وقاية) فلا تفترقوا عن جنتكم. وان أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون عنكم المؤنة والله لتنتهنّ او ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم: فقال رجل منهم وهو صعصعة: اما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية. واما ما ذكرت من الجُنّة فانّ الجنة اذا اخترقت خاص الينا

فقال معاوية عرفتكم الآن وعلمت انّ الذي أغراكم على هذا قلة العقول. وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً. أعظم عليك أمر الاسلام وتذكرني بالجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمركم. أفقهوا عني ولا أظنكم تفقهون. انّ قريشاً لم تعز في جاهلية ولا اسلام الاّ بالله تعالى لم تكن باكثر العرب ولا أشدها ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم انساباً،

وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً الاّ بالله فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم. هل تعرفون عربياً او عجمياً أو أسود أو أحمر الاّ وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته الاّ ما كان من قريش فانهم لم يُرِدْهم أحد من الناس بكيد الاّ جعل الله خده الاسفل حتى أراد الله ان يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك الاّ عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟ أفٍّ لك ولاصحابك. امّا انت ياصعصعة فانّ قريتك شرّ القرى أنتنها بيتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الاّ سبّ بها ثم كانوا ألأم العرب ألقاباً واصهاراً نزّاع الأمم وانتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شرّ قومك حتى اذا ابرزك الاسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الذلة ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم انّ الشيطان عنكم غير غافل قد عرف بالشر فاغرى بكم الناس وهو صارعكم ولا تدركون بالشر امراً ابداً الاّ فتح الله عليكم شرّاً منه وأخزى: ثم قام وتركهم فتقاصرت اليهم أنفسهم. فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال اني قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ابداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة فان أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنّكم الانعام فان البطر لا يعتري الخيار. اذهبوا حيث شئتم فسأكتب الى أمير المؤمنين فيكم. وكتب معاوية الى عثمان

انه قدم عليّ اقوام ليست لهم عقول ولا اديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة انما همهم الفتنة واموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسو بالذين ينكون احداً الاّ مع غيرهم فانه سعيداً ومن عنده عنهم فانهم ليسو لأكثر من شغب ونكير :

فقيل انهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وهو بحمص فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان الى معاوية بردهم الى الكوفة فاطلقوا السنتهم فكتب سعيد يشكوهم فأمره عثمان باشخاصهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص وكان على حمص فقال لهم يا آلة (حرْبة) الشيطان لا مرحباً بكم ولا اهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وانتم بعدُ في نشاط خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب الى الله أقلنا أقالك الله . حتى قال تاب الله عليكم وسرّح الاشتر الى عثمان تائباً : فقال له عثمان أحلك حيث تشاء . فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك اليك فرجع الى أصحابه

وقد نقل ابن أبي الحديد وابن الاثير من رواية المدايني زيادة في هذا الخبر وكلاماً طويلا جرى بين القوم وبين معاوية وانهم تطاولوا عليه ومسك أحدهم بلحيته وناقشوه في سيرته فالان لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه فغضب منهم وكتب الى عثمان بأمرهم فأمره باشخاصهم الى عبد الرحمن : ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حباً بالاختصار واكتفاء بما تقدم من خبرهم معه

﴿ كلمة في هؤلاء الناقمين على عثمان ﴾
(وفي أهمية تاريخ الصحابة)

انّ من يطالع هذا الخبر من اسراء الاستبداد ، وأليفي الاستعباد ، يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة وأعجب منه عندهم ان يتجاوز عن القوم ولا ينالهم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ اذ لوحدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة الاسلامية يومئذ لماكان جزاؤهم الاّ القتل او قضاء الحياة في أعماق السجون ولكن شأن العرب وشأن الاسلام وحكومته يومئذ لايضاهيه شأن الأمم الاخرى وحكوماتها اذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة على حرية الفكر والقول وشرائع الاسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هي معينة لها داعية لتهذيبها وارتقائها فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحقّ وان يقوموا بالقسط ويشهدوا بالحقّ ولو على أنفسهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وفي هذا كله مايجيز لهم الانتقاد على الامراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول بشرط ان لايترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية كالقذف وكل مايمس بالشرف والعرض ويدعو الى اقامة الحد أو أية عقوبة من عقوبات التعزير لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الامصار الاسلامية يظهرون الطعن على عثمان وعماله باسم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس من يجرأ على معاقبتهم او الضرب على أيديهم من العمّال لانه حقّ من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم النكير الاّ بعد ان ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضي عنه وهذ عين ما يشاهد الآن في الممالك الاوربية ذات الحكومات الشورية

من اطلاق ألسنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير وكثيراً ما يلجئون الوزراء الى اعتزال مناصبهم اذا رأوا منهم مايستدعي ذلك فيعتزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين فى ذلك العهد مع امرائهم كما رأيت وترى العبرة فى عثمان رضى الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هي ولا نكران للحق أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة فى هذا العصر وفى كل عصر ومع هذا فقد افضى الامر الى طرد عماله من الامصار ثم اجلاب الناس عليه بالخيل والرجل من كل مصر وقتله بين ظهراني اخوانه من المهاجرين والانصار . فليت شعري كيف نسي المسلمون تاريخ هذه النشأة التى نشأ عليها اسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم التى عمل بها مؤسسوا دولتهم فاستخذوا بعد ذلك للامراء ، واستسلموا للقضاء ، حتى صاروا اسراء الاستبداد وتعبدهم الملوك في كل الانحاء ، وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من اسلامية ومسيحية ضروب الخسف .. وأذاقتهم انواع الامتهان . وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التى كانت تأبي الهضيمة وتغضب للحق فترى الموت والحياة سيان فى سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها :

لا جرم انّ الامة الاسلامية قد أُنسيت ذلك لامرين (الاول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الاصول الثابتة منذ نشؤ الدولة كما سبق بيان هذا في صدر هذا الجزء (والثاني) تحريم العلماء بايعاز الامراء الخوض (١)

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوي وهو من قولهم خاض الماء أي تغلغل فيه فاذا كان مراد القائلين بحرمة الخوض في أخبار الصحابة هذا التغلغل فلا نسلم لهم بحرمته واذا كان مرادهم به المعنى المجازي كالخوض في الباطل ونحوه فهذا مالا ننكره عليهم بل هو مما نقوله ونسلم به وأنا أريد بالخوض هنا المعنى الاول فليتنبه له

في تاريخ الخلفاء الراشدين واخبار الصدر الاول التي كلها حياة . كلها عبر . كلها حرية . وليس في كل ما كان بين الصحابة من الامور العظام ، والفتن الجسام ، ما يدعو ديناً أو أدبا الى اجتناب الخوض في اخبارهم والنظر في تاريخهم تعظيماً لهم واحتراماً لجانبهم وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب اليه خدّام الامراء من بعض العلماء اذ لوكان في اخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً او أدباً لاستلزم انها اعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم وهذا باطل بالبداهة والحقيقة هي انّ هذا التحريم لم يكن الاّ بايعاز الامراء الجبارين ، والزعماء المستبدين ، لان تاريخ الصدر الاول واخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم ، ومقاصد عالية تعلي شأن اولئك الرجال ، ووالله ليس في تاريخ من تواريخ الأمم في بدء نشأتها وابان ظهورها ما في تاريخ الخلفاء الراشدين ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمى كلها الى غرض الحرية وتمحيص الحق مما قلّ ان يكون في أمة حديثة النشأة . ودولة جديدة التكوين . اما انّ فريقاً منهم اخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بغى . وفريقاً بغي عليه . فهذا الحكم انما هو تابع للمقاصد والمقاصد كانت كلها متجهة الى تمحيص الحق والرغائب العالية فمن العبث ان يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد انه على صواب . ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فانا مع اعتقادنا انّ عثمان رضي الله عنه خير من كثير غيره ممن أتى بعده من الخلفاء ومع علمنا انه لم يأت من حب النفس او الاثرة بجزء مما يأتيه حتى أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الامويين او العباسيين او غيرهم فان اولئك الثائرين على عماله الناقمين منه مهما كان الدافع لهم الى ذلك العمل فان غايتهم التي يقصدون اليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين

ومنافع الأمة كما تعوَّدوا ذلك من الخليفتين السابقين وان كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما لهذا لم يستطع ان يمد اليهم العمال يد السوء فهم اذا أوخذوا فانما يؤاخذون من جهة انهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة اليه وانهم غلوا في ذم سيرته تذرعاً لمحو الصبغة الاموية من الدولة غلوًّا يلامون عليه، ما دام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون اليه ،

واما قتلته فانهم أخزاهم الله ليسو بموآخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة كحذيفة بن اليمان واضرابه وهم مسؤلون عن عملهم دون غيرهم وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جناية كبرى كما سنشير اليه بعدُ ان شاء الله

اذا تقرر هذا فاعلم انَّ اخبار الصحابة انما حرم بعضهم الخوض فيها لانها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة ونفوسهم بالعزة وهم بالضرورة قدوة الأمة والمنادون منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق فوقوف الناس على أخبارهم والاخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة الى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس لهذا ولما كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا الهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها فأوعزوا الى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباهها في أعصر مختلفة لاتعلم بالتحقيق الا اذا صح نسبة أكثر تلك الكتب الى الواقدي والاصمعي فانها تكون في عصر العباسيين وذلك ليتلهى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق والتشبه بسلف الأمة ورجالها ورافعي

دعامة دولتها في مناهضة ارباب العتوّ والجبروت ومحيي الاستبداد وآلهة الملك : هذا ما آراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب

﴿ ما أنكره الناس عليه ﴾

(واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه)

ذكر الطبري في تاريخه وابن قتيبة في الامامة والسياسة وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن خلدون في التاريخ الاحداث التي كانت على عهد عثمان رضى الله عنه وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه وزاد بعضهم على بعض ونقل بعضهم مالم ينقله البعض فرأيت ان استقصي هنا مانقلوه ليضعه القراء موضع المحاكمة والبحث

فمنها اتمامه الصلاة في منى وعرفة مع انَّ الامر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر . ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها اخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الربذة . ومنها سقوط خاتم النبي من يده في بئر أريس . ومنها افشاؤه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر . ومنها صلته لأهله وبنى عمه بالاموال واقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس واستئثاره برأيه ورأيهم وتركه المهاجرين والانصار لايستشيرهم ولا يستعملهم وانه أعطى مروان خمس غزوة افريقيا ووصل عبد الله بن خالد ابن أسيد باربعمائة الف درهم وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين وأعطى أبا سفيان ابن حرب مائتي الف درهم وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فاعطاه مائة الف من بيت المال . وحمى الحمى (المراعي) حول المدينة الا عن بني أمية

وردّ الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله الى المدينة وأعطاه مائة الف درهم . ومنها مجاوزته الخيزران الى السوط وانه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس . ومنها تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته . ومنها ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من اضلاعه .

هذه هي الاحداث التي نقمها الناس على عثمان وآخذوه عليها وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأي كبار الصحابة على انّ ما صح منها وان كانت احداثاً الاّ انها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه . ولعثمان رضى الله عنه اعذار اعتذرها عن بعض ماعزي اليه ونقمه القوم منه فمنها مارواه الطبري في أخبار سنة (٢٩ هـ) انّ عثمان صلّى بمنى اربعاً (اي صلاة المقيم) فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال . هل لك في أخيك قد صلّى بالناس أربعاً . فصلّى عبد الرحمن باصحابه ركعتين ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ؟ قال بلى . قال أفلم تصلّ مع أبي بكر ثم عمر ركعتين ؟ قال بلى . قال ألم تصلّ صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال بلى فاسمع مني يا أبا محمد اني أُخبرت انّ بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي انّ الصلاة للمقيم ركعتان هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة اهلاً فرأيت ان أُصلّي اربعاً لخوف ما أخاف على الناس . وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولي بالطائف مال . فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شيء لك فيه عذر اما قولك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها اذا شئت وتقدم بها اذا شئت انما تسكن بسكناك . واما قولك ولي مال بالطائف فانّ بينك

وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف واما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الاسلام فيهم قليل ثم أبو بكر مثل ذلك ثم عمر فضرب الاسلام بجرانه فصلّى بهم عمر حتى مات ركعتين . فقال عثمان هذا رأي رأيته

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن ذياب قال . صلى عثمان بأهل منى اربع ركعات فلما انصرف (اي بوجهه) اليهم قال اني صلّيت بكم اربعاً اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أتى أهل المسافر في بلدة فهو من أهلها يصلي صلاة المقيم اربعاً واني تأهلت بها منذ قدمتها فلذلك صلّيت بكم اربعاً

فاذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لعبد الرحمن اعتذار صحيح لاسيما وانه صلى لدفع شبهة جفاة الاعراب في اعتباره مقيماً لزواجه في مكة فاذا صلى صلاة القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة في جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ففعل ما فعل من قبيل البلاغ والاحتياط

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر في اعتذاره عن الحمى الذي حماه عن ابي سعيد مولى أبي أسيد الانصاري قال : سمع عثمان بن عفان انّ وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فلما سمعوا به أقبلوا نحوه وكره ان يقدموا عليه المدينة فأتوه فقالوا له ادعُ بالمصحف فافتح السابعة . وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله اذن لكم أم على الله تفترون) قالوا له قف أرأيت ما حميت من الحمى

آللهُ أذِنَ لك أم على الله تفتري: فقال امضه نزلت في كذا وكذا فأماَّ الحمى فانَّ عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى كما زادت إبل الصدقة : وزاد عليه في بعض الروايات : اني قد وليت واني لأكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي

وهذا الخبر يدل على انه حمى من المراعي حول المدينة زيادة عما كان حماه عمر فعدوها مخالفة لعمر ونقموها منه

وقد أجمع الرواة وأهل الاخبار أنَّ ما نقموه من عثمان في تقريبه أهله منه وصلتهم بالاموال قد تأوّل فيه الصلة التي أمر الله بها وقال انَّ أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأخذت ما هو لي فقسمته في أهلي: ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه ان يستعيد ما أعطاه لمروان وخالد بن أسيد فاستعاده منهما ورده لبيت المال

وفي حديث طويل رواه ابن عساكر في اعتذار عثمان عما أنكروه عليه قال فيه بعد اعتذاره عن الاشياء المتقدمة بمعنى ما تقدم : وقالوا اني رددت الحكم والحكم مكي سيره رسول الله الى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الاحداث ولم استعمل الاّ مجتمع محتمل مرضي (يريد به عبدالله ابن عامر) وهؤلاء أهل عمله (اي اهل البصرة وكانوا حضوراً) فسلوهم عنه وقد ولّى من قبلي أحدث منه وقيل في ذلك لرسول الله (ص) أشد مما قيل لي في استعماله أسامة بن زيد . وقالوا اني اعطيت ابن أبي سرح مما أفاء الله عليه واني انما نفلته خمس ما افاء الله عليه من الخمس فكان مائة الف قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر . فزعم الجند انهم

يكرهون ذلك فردَّدته عليهم وليس ذلك لهم . الى آخر الحديث وقد مر ما هو بمعناه

هذه اعذار عثمان رضي الله عنه التي اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين عنه اذ كانوا يريدون منه سيرة أبي بكر وعمر وانْ يحذو حذوهما في التعفف والتقشف والسير على طريق النبوّة الذي لا يستطاع لكل الناس وقد جاهرت له بذلك أم سلمة احدى أمَّهات المؤمنين ونصحته بتوخي السبيل التي توخاها أبو بكر وعمر في كلام طويل أجابها عنه بما يأتي

يا أمَّنا قد قلت فوعيت وأوصيت فاستوصيت . انَّ هؤلاء النفر رعاعٌ غثَرَة (١) تطأطأتُ لهم تطأطؤَ الماتح الدِلاء (٢) وتلدّدت (٣) لهم تلدّد المضطر . فأرانيهم الحقُّ اخواناً، وأراهموني الباطلُ شيطاناً ، أجْرَرْتُ المرسونَ (٤) منهم رسنَه وأبلغتُ الراتعَ مَسقاهُ . فانفرقوا عليَّ فرقاً ثلاثاً فصامت صمتُهُ أنفذُ من صول غيرهِ : وساعٍ اعطاني شاهدَهُ ومنعني غائبَهُ : ومرخَّص له في مدة رِينَتْ (٥) على قلبهِ . فأنا منهم بين ألسنٍ لِدادٍ (٦) وقلوبٍ شِدادٍ ، وسيوفٍ حِدادٍ ، عذيري الله ألا ينهى منهم حليمٌ سفيهاً . ولا عالمٌ جاهلاً . والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون، ولا يؤْذَنُ لهم فيعتذرون

﴿ ظهور الفتنة ﴾

لمَّا فشت الاذاعة في الامصار . وسرت روح الثورة في الصدور .

---

(١) سفلة (٢) اي الذي يتناول الماء من اعلى البئر (٣) تلفت يميناً وشمالاً (٤) امكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته واهماله يرعى كيف شاء (٥) اي أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه (٦) اي شديدة الخصومة

وامتلأت القلوب بالسخائم من عمال عثمان ، ومما يدسه دعاة الثورة في الاذهان ، وكثر الطعن والارجاف على الامراء. اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة اربع وثلاثين وكان قبلها قد ولّى على الاعمال امراء من قِبَله فولى الاشعث بن قيس على آزربيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همذان والسائب بن الاقرع على اصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجُرَيْر بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عُتَيْبَة بن النهّاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو وخرجوا لاعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان واستخلف عمرو بن حُرَيْث وخلت الكوفة من الرؤساء فاغتنم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم فبادره القعقاع بن عمرو. فقال انمّا نستعفي من سعيد ابن العاص فتركه وكتب يزيد الى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص في القدوم فساروا اليه وسبقهم الاشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم « اي من العطاء » ورد أولى البلاء منكم الى الفين ويزعم انّ فيئكم بستان قريش : فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والافك المفترى ونادى يزيد في الناس من شاء ان يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل فخرجوا وذوو الرأي يعزلونهم فلا يسمعون وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد وردّه. فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال انما كان يكفيكم ان تبعثوا واحداً اليّ والى عثمان رجلاً. وقال مولى له ماكان ينبغي لسعيد ان يرجع فقتله

الاشتر: ورجع سعيد الى عثمان فأخبره بخبر القوم وانهم يختارون أبا موسى الاشعري فولاه الكوفة وكتب اليهم

اما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لاقرضنكم عرضي ولابذلنّ لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدي. فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه الاّ سألتموه. ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه الاّ ما استعفيتم منه. أنزل فيه عند ما أحببتم حتّى لايكون لكم عند الله حجةٌ ولنصبرنّ كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون

ولمّا انتهى اليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الاشعري وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا وكان جاء بعض الامراء من قرقيسيا وحلوان وغيرها لاجل استصلاح القوم فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من قرب الكوفة

وكانوا يسمون اليوم الذي ثاروا فيه لرد سعيد يوم الجرعة باسم المكان وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبري ونقلها غيره من المؤرخين ومؤداها انّ اهل الكوفة أجمع رأيهم ان يبعثوا الى عثمان ويعذلوه فيما نقم منه فاتفقوا على ارسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنبر : فأتاه وقال له انّ ناساً اجتمعوا ونظروا فى اعمالك فوجدوك ركبت اموراً عظاماً فاتّق الله وتب اليه : فقال عثمان ألا تسمعون الى هذا الذي يزعم الناس انه قارئ ثم يجئ يكلمني في المحقرات (أي الصغائر) ووالله لايدري اين الله : فقال عامر بلى والله اني لادري انّ الله لبالمرصاد :

فأرسل عثمان الى معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح وسعيد بن العاص

وعبدالله بن عامر وعمرو بن العاصي وكانوا بطانته دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم: انّ لكلّ امرئ وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ماقد رأيتم وطلبوا اليّ ان اعزل عمالي وان ارجع عن جميع مايكرهون الى مايحبون فاجتهدوا رأيكم

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف انّ لكل قوم قادةً متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية أشير عليك ان تأمر امراء الاجناد فيكفيك كلّ رجل منهم ماقِبَلَه وأكفيك أنا أهل الشام . وقال عبدالله بن سعد انّ الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم. ثم قام عمرو بن العاص فقال يا امير المؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل: الى آخر ماقال وقد اوردنا قوله في سيرته في الجزء الثالث. وهذا الرأي هو انجع الآراء واحسمها لمادة الفتنة ولو تبعه عثمان رضي الله عنه واعتدل في ميله لبني أمية وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطانته وأهل شوراه كما كان الحال على عهد الخليفتين لما اجترأ احد على قتله ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة واذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجا من القتل وقضى بقية حياته محترم الجانب مكرماً من الناس لسابقته وسنه وتقواه . ولعله أراد ذلك فما مكنه بنو أمية مما يريد بعد ان صارت اليهم مقاليد الامور ولله في هذا شأن هو بالغه

رأى عثمان ان يشغل الناس عنه بالحروب والغزوات كما أشار عليه ابن عامر فردّ العمّال الى اعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم

فيها شغل: وهذا دواء وقتي لايستأصل ذلك الداء بل هو من قبيل وضع المخدّر على محل الألم لايلبث ان يسكن ساعة ثم يعود . ولمّا رجع الامراء وعاد سعيد الى الكوفة لقيه القوم بالجرعة فردّوه كما مرّ في الخبر الأوّل

استمر الناس ينالون من عثمان في المدينة وغيرها ويتكاتب بعضهم الى بعض وليس أحد من الصحابة ينهى الا نفر منهم كانوا يذبون عنه مثل زيد ابن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه فاجتمع الناس الى علي بن أبي طالب فكلموه في ذلك فدخل على عثمان: وقال: الناس ورائي وقد كلموني فيك. والله ما أدري ما أقول لك ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لاتعرفه . انك لتعلم ما أعلم ماسبقناك الى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خُصصنا بأمر دونك وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول الله رحماً ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم ينالاه وما سبقاك الى شيء فالله الله في نفسك فانك والله ماتبصر من عمي ، ولا تعلم من جهالة ، وانّ الطريق لواضح بيّن ، وانّ اعلام الدين لقائمة ، اعلم ياعثمان انّ أفضل عباد الله امام عادل هدي وهدى فاقام سنةً معلومة ، وأمات بدعةً متروكةً ، فوالله انّ كلاً لبيّن ، وان السنن لقائمة لها اعلام ، وانّ البدع لقائمة لها اعلام ، وانّ شرّ الناس عندالله امام جائر ضلّ وأضلّ فأمات سنةً معلومةً ، وأحيا بدعةً متروكةً ، واني أحذرك الله وسطواته ونقماته فان عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون امام هذه الامة الذي يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويتركها شيعاً لايبصرون

الحقّ لعلوّ الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً ،

فقال عثمان : قد علمتُ والله ليقولنّ الذي قلت . أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولاعبت عليك . وماجئت منكراً ان وصلت رحماً وسددت خلة (حاجة) وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي . أنشدك الله ياعليّ هل تعلم انّ المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم : قال فتعلم انّ عمر ولاه ؟ قال نعم : قال فلم تلومني ان وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ قال عليّ انّ عمر كان يطأ على صماخ (اذن) من ولى . ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة . وأنت لاتفعل . ضعفت ورققت على اقربائك . قال عثمان وهم اقرباؤك ايضاً : قال أجل انّ رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم : قال عثمان هل تعلم انّ عمر ولى معاوية فقد وليته ؟ فقال عليّ أنشدك الله هل تعلم ان معاوية كان أخوفَ لعمر من يرفأ غلام عمر ؟ قال نعم : قال عليّ فان معاوية يقتطع الامور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه :

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال :

امّا بعد فانّ لكل شئ آفة ، ولكل أمر عاهة وانّ آفة هذه الامة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ماتحبون ويسترون عنكم ما تكرهون يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون اول ناعق . أحب مواردهم اليهم البعيد ، لايشربون الاّ نغصاً (كدراً) ولا يردون الاّ عكراً ، ولا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الامور ، الأوالله فقد عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله . ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتكم كتفي ، وكففت يدي

ولساني عنكم فاجترأتم علي ، أمَا والله لأنا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً وأحرى ، ان قلت هلمّ أتي اليّ ، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، واخرجتم مني خلقاً لم اكن أحسنه ، ومنطقاً لم انطق به ، فكفوا عني السنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم فاني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . الا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه :

فقام مروان بن الحكم فقال ان شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . نحن وانتم والله كما قال الشاعر

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان اسكت لاسكت دعني واصحابي ما منطقك في هذا ألم اتقدم اليك أن لا تنطق . فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر فاشتد قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه

﴿ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله ﴾

رأيت مما تقدم الى أيّ حد بلغ تيار الفتنة وغليان السخائم في الصدور وتأجج نار الثورة في الاطراف وشيوع الطعن على عثمان وعماله في كل مصر من الامصار الكبيرة وانّ سببه استئثار بني أمية بعثمان وانقطاعهم اليه وركونه اليهم دون المهاجرين والانصار ثم تذرع دعاة الفتنة بهذا الى الانكار عليه ومؤاخذته على امور فيها ما يعتذر عنه واستنهاضهم الناس بهذا للجرأة عليه وطرد عماله وخلعه من منصب الخلافة وليس من يذب عنه وينتصر له الاّ نفر قليل من الصحابة وما عداهم من المهاجرين والانصار

كلهم ناقم منه مغض عن نصرته ينتظر منه اما الرجوع الى سيرة أبي بكر وعمر واما التخلي عن منصب الخلافة ليكون الامر كما قال عمرو بن العاص بين الناس شرعاً سواء . وذلك لان الامة كما علمت جديدة النشأة ميالة بفطرتها الى الحرية والمساواة وقد اعتادت من أبي بكر وعمر العدل بين الناس في المعاملة وعدم استئثارها بشيء من امور الدولة او انقطاعهما بالرأي والمشورة الى فريق مخصوص من الناس وهو ما تنزع اليه اخلاق القوم ويأمر به الاسلام لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأي والانقطاع الى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه وعلى كبار الأمة ووجوه الصحابة بالامور هالهم ذلك وخافوا من ان تنقلب الدولة أموية بعد ان كانت شورية اسلامية ليس لقوم ان يستأثروا بشأن من شؤونها دون آخرين ومما لا ريب فيه انّ الدولة اذا اصطبغت بصبغة قومية وغلب على امورها قوم دون آخرين لا تلبث ان تتنازعها اطماع الغالبين بحكم القوّة والعصبية التي تتخلل جسم الدولة ومن ثم ادرك الصحابة وبالخصوص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الامر وخافوا من اصطباغ الخلافة بالصبغة الاموية اذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاليد امورها هم بنو أمية فلما رأوا انّ الأمة تجاري رغائبهم وتشاركهم بالاحساس بمثل هذا الخطر لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد في استجاشة الخواطر عليه كطلحة ابن عبيد الله ونفر غيره ممن كان يكاتبهم أهل الامصار كما سترى بعدُ ولكن لم يبلغ منهم الامر مبلغ اهدار دمه او الممالأة على قتله معاذ الله وانما هم أرادوا الوصول الى خلعه فقط فغلب على رأيهم جفاة الاعراب لما عظمت الفتنة وأشتد صخب المتألبين عليه لما أبى الاعتزال وترك منصب

الخلافة ومع هذا فقد كان عامة اهل المدينه أخف وطأة وألزم للصبر والاناة من أهل الامصار الذين ملأوها عليه بالفتنة شأن الأمم التي تجري منها قوّة الشباب مجرى الروح من الجسم فلا تبصر اذا اندفعت لأمر في ايّ طريق تسير

لهذا لما تواترت الاخبار وتوالت على أهل المدينة الاذاعات الفاشية في الامصار أرادوا التثبت من الامر والأخذ بالاحوط رأفة بعثمان رضي الله عنه فأتوه وسألوه عن علمه بما يجري في الامصار واخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنده علما وقال لهم أشيروا عليّ وانتم شهود المؤمنين : قالوا تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر فارسل محمد بن مسلمة الى الكوفة . وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وغيرهم الى سواها . فرجعوا وقالوا ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين . هكذا نقل الطبري وابن الاثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزيدوا وظاهر انهم يريدون من عدم انكارهم لشيء اي من سيرة العمال التي يتذرع بها الناقمون الى الثورة وهذا يؤيد ما قلناه من انّ ما نقموه من عثمان هو غير ما نسبوه الى عماله واليه من الاحداث التي أكثرها مما يمكن الاعتذار عنه وانّ استيلاء بني أمية على عثمان واستبداده واياهم بالامر هو العلة الحقيقية في تذمر المتذمرين ولو كان هناك شيء مما يذيعه الناقمون من المظالم وسوء سيرة العمال لما خفي على اولئك الرسل وهم من خيرة الصحابة ولكان العلماء افضوا اليهم به ولم يكتموه وكذا العامة على أنّ تلك العلة الحقيقية ليست بالامر الهين ايضا كما علمت لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية والخطر على حياة الشورى والخطر على المترشحين لهذا

المنصب من المهاجرين يضاف الى هذه العلة ما يدسه دعاة الفتنة كعبدالله سبأ ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهما للناس وما يجهر به عمار ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر من التشنيع على عثمان انتقاماً لانفسهم منه لامور سبقت له معهم (١) ورغبة في مصير الخلافة بعده الى عليّ رضي الله عنه يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن محمد قال بعثت ليلى بنت عميس الى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت . انّ المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس فلا تأثما في أمر تسوقانه الى من لا يأثم فيه . فانّ هذا الامر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً فاتقوا ان يكون عليكم اليوم حسرةً عليكم غدا . فلجّا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان وتقول ما صنع بكما الاّ ما ألزمكما الله هـ

هذا ولما رجع الرسل من الامصار تأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه وكتب عثمان الى أهل الامصار كتاباً هذه صورته عن ابن عساكر

امّا بعد فاني آخذ العمّال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة

(١) روى الطبري عن سعيد بن المسيب انّ سائلا سأله ما الذي دعا محمد ابن أبي حذيفة الى الخروج على عثمان فقال كان يتيماً في حجر عثمان وكان عثمان والي ايتام اهل بيته ومحتمل كلهم فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولي فقال يا بني لو كنت رضي ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لي فلاخرج فلاطاب ما يقوتني . قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه ان منعه الولاية . قيل (اي للشعبي) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب كلام فضربهما عثمان : واما محمد ابن أبي بكر فقد اخرج ابن عساكر والطبري انه لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فنقمها منه محمد وسيأتي خبره في غير هذا المحل ان شاء الله

منذ وليت على الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يرفع اليّ شيء عليّ او على احدٍ من عمالي الاّ اعطيته . وليس لي ولا لعمالي حقّ قبلَ الرعية الاّ متروك لهم. وقد رفع اليّ أهل المدينة انّ اقواماً يُشتمون وآخرين يُضربون . فيا من ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم «موسم الحج» وليأخذ بحقه كيف كان مني أو من عمالي . او تصدقوا فانّ الله يحب المتصدقين

فلما قرئ هذا الكتاب في الامصار بكى الناس ودعوا لعثمان . وما أطوع الانسان ، لرب الاحسان، ولو ثبت على مثل هذا عثمان (رض) ولم يحفل باغراء مروان ومن على شاكلته ومضى في تألف الناس على وجهه لما تمكنت جذور الفتنة في البلاد ، وقعد له القوم بالمرصاد ،

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الامصار ان يوافوه في الموسم فقدموا عليه وهم عبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة اني والله لخائف ان تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب «يحاط» هذا الاّ بي . فقالوا له ألم يرجع اليك رسلك ويخبروك انّ احداً لم يشافههم بشيء والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الامر اصلاً ولا يحل الاخذ بهذه الاذاعة : فقال اشيروا عليّ : فقال سعيد هذا امر مصنوع يلقى في السرّ فيتحدث به الناس . ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم اذا أعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم : وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما والرأي حسن الادب :

وقال عمرو بن العاص أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين :

فقال عثمان قد سمعت كل ما اشرتم به علي ولكلّ أمر باب يؤتى منه . انّ هذا الامر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وانّ بابه الذي يغلق عليه ليفتحنّ . فنكفكفه (١) باللين والمواتاة (٢) الاّ في حدود الله فانْ فتح فلا يكون لاحد علي حجة . وقد علم الله اني لم آل (٣) الناس خيراً وانّ رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكّنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تُعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان الى المدينة وعاد معه القوم دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : أنتم أصحاب رسول الله (ص) وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم (يعني عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع اني ارجو ان يكون أكرم على الله ان يبلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله ان طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً الاّ ادباراً :

ولا يخفى على اللبيب انّ معاوية يعرض بالقوم ويشير الى ما في نفوسهم من الطمع بالخلافة وانهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها اليهم بالضرورة لهذا انتهره علي رضي الله عنه وقال له : اسكت لا أم لك :

(١) ندفعه (٢) حسن الموافقة (٣) لم أفتر ولم أقصر

فقال دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم قد أسلمت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم وأجبني عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن اخي أنا أخبركم عني وعما وليت . انّ صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وانّ رسول الله (ص) كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه فان رأيتم ذلك خطأً فردوه فامري لامركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنت . قد أعطيت عبدالله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين وقال له معاوية اخرج معي الى الشام فانهم (اي اهل الشام) على الطاعة قبل ان يهجم عليك مالاقبل لك به : فقال عثمان لا ابيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عنقي . قال فان بعثت اليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة ان نابت : قال اضيق على جيران رسول الله : فقال والله لتُغتالنّ ولتُغزينّ فقال حسبي الله ونعم الوكيل

﴿ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان ﴾

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر فمرّ على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : انكم قد علمتم ان هذا الامر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منهم أحد الاّ وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الامور دونه ولا يشهده ولا يوآمره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من اتبعه فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فان أخذوا بذلك وقاموا كان الامر أمرهم

والناس لهم تبع . وان صغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك وردّه الله الى من جعل له الغَلَب وكان يرأسهم أولاً فليحذروا الغيَر فان الله على البدل لقادر وله المشيئة في ملكه وأمره. اني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه (١) تكونوا أسعد منه بذلك : ثم ودعهم ومضى

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه وأوردها غيره مختصرة فاحببت نقلها عن ابن عساكر لانها أجمع وكل مافيها غرر تاريخية تبين ما كان عليه حال العرب قبل الاسلام وما صاروا اليه بعده وان التفاضل في في الاسلام ليس الاّ بالسابقة وان الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية انما صارت الى السابقين بسبقهم فاذا انتهت الى التغالب صارت الى من دخل الاسلام بعدهم لان في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد انبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغني الحيطة من الوقوع فيه مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشرأبت أعناق غير السابقين الى ما كان لهم بحكم الجامعة الاسلامية والاستحقاق وليت تلك الروح لم تكن كانت في عصر كان الناس فيه أحوج الى خلافة عثمان وعليّ واضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا باداب النبوة فكانوا أرأف بالامة وألزم لطريقة الشورى والعدل وكان يرجى لو استمرت جيلاً آخر نمو مبادئ الشورى في الدولة ونشوء الجيل القابل على حبها والتوجه الى وضع قواعدها على أصول ثابتة لاتقوى عليها ايدي المستبدين واطماع الطامعين على ان اولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله وصدقوا نصيحته اذ قال علي : ان كنت لأرى ان في هذا

(١) ارفقوا به

خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

هذا ولما دعا عثمان (رض) الامراء الى الموسم وخلت منهم البلاد اتعد المنحرفون عن عثمان ان يثبوا في مغيب الامراء فلم يتهيأ لهم ذلك فلما رجع الامراء كتب بعض أهل المدينة الى المنحرفين عن عثمان في الامصار بالقدوم عليهم وكان الذين يكاتبون أهل مصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعمار بن ياسر وسراً أناس من الناس كما في رواية ابن عساكر من حديث طويل

فتكاتبوا من امصارهم في القدوم على المدينة فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة او قتيرة بن فلان السكوني وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والاشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبدالله بن الاصم العامري . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وذريح بن عبّاد وبشر بن شريح القيسي وابن المحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج ولما كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب وتقدم ناس من اهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فنزلوا الاعوص ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ وتركوا عامتهم بذي المروة . وقال زياد بن النضر وعبد الله بن الاصم من أهل الكوفة لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا انهم عسكروا لنا

فوالله ان كان حقاً لا يقوم لنا أمر . ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وامهات المؤمنين وأخبروهم أنهم انما أتوا للحج وان يستعفوا من بعض العمال واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا الى أصحابهم فتشاوروا في ان يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق الى من هواهم فيه وقال كل فريق منهم ان بايعنا صاحبنا والا كذبناهم وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم

هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد وهو في الظاهر دهاء وتحيل على نيل المقصود الا ان الحقيقة ان ليس في القوم رجل على بصيرة من الأمر اذ لو فرض ان عثمان رضي الله عنه اصبح غير أهل للخلافة ووجب على الأمة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاة للشرع أفلا يكون من المصلحة التي يتحراها اولئك الثائرون لانفسهم وللأمة ان لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق وان تتوجه القلوب الى مقصد واحد ووجهة واحدة حتى بذلك تتم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد مما كان فيه من الاضطراب في عهد عثمان وانما يتم لهم ذلك باتفاقهم جميعاً على من يخلف عثمان والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهي خلع عثمان وقلوبهم شتى فيمن يخلفه وكل فريق منهم يميل الى شخص بعينه فكأنهم مساقون الى حيث لا يعلمون . لذا فأنهم مع صعوبة الامر الذي قاموا به وانه من المراكب الخشنة التي لا يركبها الا الاقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح لم يهتدوا الى طريق الخير والمصلحة التي يتوخاها أهل العقول في مثل هذه الحال فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم ايضا من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التي لما لم تكن في بدايتها قائمة على اساس الحكمة والتدبير انتهت بتغلب بني

أمية على الملك وتحول حال الدولة من الشورى الى الاستبداد ولله الامر

هـذا وبعد ان اتفق القوم على ما اتفقوا عليه أتى المصريون علياً وهو في عسكر عند احجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن الى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على علي أمرهم : فصاح بهم وطردهم وقال ان جيش ذي المروة وذي خشب والاعوص ملعونون على لسان رسول الله (ص) وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك : فانصرفوا وافترقوا عن هذه الاماكن الى عسكرهم على بعد وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بامان من كف يده وصلى عثمان بالناس اياماً ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم علي وقال ما ردكم بعد ذهابكم . قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم علي كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعاً هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا . ثم منعوا الناس من الاجتماع معه وكتب عثمان الى الامصار يستنجدهم ويخبرهم ما الناس فيه فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول فبعث عبدالله بن سعد من مصر معاوية بن حديج . وبعث ابو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو وبعث عبدالله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي . وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري وقيل ان معاوية تربص به فقام في اهل الشام يزيد بن الاسد القسري فتبعه خلق كثير فسار بهم الى عثمان فلما وصل الى وادي القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش

التي اقبلت من الامصار لما انتهت الى الربذة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعا وكان قام في الامصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرضون على اعانة أهل المدينة وانجاد عثمان فأجابهم الى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل ان يصل أحد الى نجدته

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فوالله انّ اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب: فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة وقام زيد بن ثابت فاقعده آخر وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وأصيب عثمان بالحصباء فصُرِع وقاتل دونه سعد بن أبي وقّاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة . ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل عليّ وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان . فقالوا لعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لتمرّن عليك الدنيا . فقام مغضباً وعادوا الى منازلهم وصلّى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي وقيل أبو أيوب الانصاري وقيل سهل بن حُنَيف حتى قُتل عثمان

وقد قيل في قتل عثمان انّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حُذَيفة كانا بمصر يحرّضان على عثمان فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد ابن أبي بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلما كان عبد الله بأَيْلَة (العقبة) بلغه انّ ابن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً اليها فمُنِعَ منها فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قُتل عثمان وقيل انه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قريش والعرب بعدُ حتى مات

امّا المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان الى بيت علي ومتّ (توسل) اليه بالقرابة في ان يركب اليهم ويردّهم لئلا تظهر الجرأة منهم : فقال له قد كلمتك في ذلك فاطعت أصحابك وعصيتني: يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد بن العاص : فعلى أي شيء اردهم . فقال علي ان أصير الى ما تراه وتشيره وان اعصى أصحابي وأطيعك . فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والانصار فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم عليّ ومحمد بن مسلمة فرجعوا الى مصر ورجع القوم الى المدينة ودخل عليّ على عثمان وأخبره برجوع المصريين وأشار عليه ان يُسْمِع الناس ماعوّل عليه من النزع قبل أن يجيء غيرهم . ففعل وخطب خطبته التي ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: انا اول من اتعظ استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه . فمثلي نزع وتاب فاذا نزلتُ فليأتني اشرافكم فليروا فيّ رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستننّ بسنة العبد ولاذلنّ ذل العبد وما عن الله مذهب الاّ اليه . فوالله لاعطينّكم الرضى ولَأُنَحِيَنَّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم : ثم بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم

أعطى الناس من نفسه الحقّ ووعد بان ينحي بني أمية عنه وهذا كل ما يطلبه منه الناس وكادت تطفأ نار الثورة وتزول اسباب الارجاف لكن بني أمية قد استحوذوا على عثمان ، وملكوا منه الجنان ، لكبر سنه وضعفه فلم يرقهم ماقال ووعد . فلمّا دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد فعذلوه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفُرافِصة زوجة عثمان وقالت لهم لا تزالون به حتى يقتلوه . فلم يرجعوا الى قولها واستذلوه في اقراره بالخطبة والتوبة عند الخوف . واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً . فقال لمروان

كلهم . فكلمهم وأغلظ لهم في القول وقال جئتم لتنزع ملكنا من أيدينا والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم منا أمر لا يسرّكم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله مانحن بمغلوبين على مافي أيدينا :

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدوّ في الداخل يثير عليه ثائرة النفوس . وبين عدوّ في الخارج يتربص به العثرات ويحس من بطانته بالخطر على الخلافة الشرعية والنزوع الى الاستئثار بالسلطة وحسبك من حقد القوم على بطانته من بني أمية ما ذكروه انّ عثمان مرّ مرةً بجبلة بن عمرو الساعدي وهو في نادي قومه وفي يده جامعة فسلّم فردّ القوم عليه . فقال جبلة لم تردّون على رجل فعل كذا وكذا ثم قال لعثمان والله لاطرحنّ هذه الجامعة في عنقك او لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة . مروان . وابن عامر . وابن أبي سرح . فمنهم من نزل القرآن بذمه ومنهم من أباح رسول الله دمه ه

والعجيب انّ بني أمية يرون الشرّ المقبل عليهم وعلى عثمان من التصاقهم به واقتطاعهم الامور دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون بعثمان وبانفسهم وبالمسلمين ويسلكون في هذا الامر مسلك الحكمة والاعتدال ويرقبون عن بعد حالة الفتنة حتى اذا تحققوا الخطر على عثمان دفعوا عنه بما في الامكان . وما نخال الفتنة تصل الى هذا الحد لو كان بنو أمية بعيدين عن عثمان .

هذا وبلغ خبر ما قال مروان علياً فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث . أسمعت خطبته بالامس ومقالة مروان للناس اليوم يالله وللناس ان قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي فان تكلمت فجاء مايريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول

وقام مغضباً الى عثمان فقال له : اما رضيت من مروان ورضي منك الاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه . وأيم الله اني لأراه يوردك ولا يصدرك . وما انا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك اذهبت شرفك . وغُلبت على رأيك . ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول عليّ فعذلته في طاعة مروان وقالت انما ترك الناس لمكانه فارسل الى عليّ فاستصلحه . فبعث اليه فلم يأته فاتاه عثمان الى منزله يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال عليّ بعد ان قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت الناس عليّ . فقال علي : والله اني اكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى جاء مروان باخرى فسمعت قوله وتركت قولي : ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل الى ان منع عثمان الماء فغضب وامر بادخال الروايا على عثمان

والحق يقال ان عليّ بن ابي طالب مع تيقنه من مصير الخلافة اليه بعد عثمان فانه لم يأله نصحاً ولم يضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ومهما كان في نفس علي من جهة بني أمية وعثمان ما فيها فانّ شيمه الجميلة وغلبة الفضيلة على رغائبه النفسية جملته أقرب في مشربه السياسي الى الاعتدال وأرأف من بقية المهاجرين بعثمان وكان عثمان يعلم ذلك ويأنس بمشورة علي أكثر من غيره يدلك على هذا ما ذكروه في بعض الروايات انّ علياً كان عند حصر عثمان بخيبر فاشتد الطعن بعد خروجه على عثمان ورجا الزبير وطلحة ان يميلا اليهما قلوب الناس ويغلبا عليهم واغتنما غيبة علي . فكتب عثمان الى عليّ

اما بعد فقد بلغ السيل الزُبى ، وجاوز الحزام الطُبيين ، وارتفع امرُ الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا انهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه

وانك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيف ولم يغلبك مثل مغلّب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب. فاقبل عليَّ اولي

فان كنتُ مأكولاً فكن انت آكلي والاّ فادركني ولمّا أمزّقِ

ولماجاء علي الى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة وقدم عليه عثمان وقال له . اما بعد فان لي حق الاسلام . وحق الاخاء والقرابة والصهر . ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف ان ان ينتزع اخوا بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخبر ثم خرج الى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في خلوة من الناس . فقال له ياطلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه . فقال ياأبا الحسن بعد ماسَّ الحزام الطبيين . فانصرف عليّ الى بيت المال وأعطى الناس فانصرفوا عن طلحة وسُرَّ بذلك عثمان . وجاء اليه طلحة تائباً . فقال والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فالله حسيبك ياطلحة

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان وهو انّ عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه الى عثمان حتى قتله فركب المصريون الى المدينة وبسطوا الامر لكبار الصحابة فاجتمعوا على عثمان وألحوا عليه في انصاف القوم من عامله فقال لهم اختاروا رجلا أُولّهِ عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه وخرج معه عدد من المهاجرين والانصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر وبينما

هم على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويبتعد عنهم فقبضوا عليه وسألوه فقال انا غلام أمير المؤمنين وجهني الى عامل مصر وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان وقيل انه أبو الاعور السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب الى عامل مصر ففتحوه فاذا فيه: اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وابطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر او لم يصح فانّ المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الامر بقتل بعضهم او جلدهم رجعوا ورجع الكوفيون والبصريون واقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة وقام عليّ ومحمد بن مسلمة فأتيا عثمان وقالا له ما قال المصريون : فاقسم بالله ما كتبه ولا علم به : فقال محمد بن مسلمة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرف الشر فيهم . وذكر ابن عديس ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم فاذا قيل له في ذلك قال هذا كتاب امير المؤمنين ثم ذكروا له امر الكتاب فحلف انه ما كتبه ولا علم له به . وسألوه عمن كتبه فقال لا ادري . فقالوا كيف يكتب بمثل هذه الامور العظيمة وينقش عليها خاتمك وانت لاتعلم فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك كما خلعك الله :

فأجابهم عثمان اني لا انزع قميصاً ألبسنيه الله ولكني اتوب وانزع :

قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا لكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك أو تلحق ارواحنا بالله تعالى وان منعك أصحابك نقاتلهم حتى نخلص اليك اه

﴿ سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة ﴾

هذا آخر سهم في المنزع وآخر الجد في امر الفتنة وقد رأى ذلك عثمان وأحسّ به وتوالت عليه النذر بحصوله فلم يتنحّ عن الخلافة وفضل القتل على ترك ذلك المنصب الرفيع لا حباً بالرياسة على ما يظهر اذ الرياسة المشوبة بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية الى ازهاق النفس لا تحب وليست مما يحرص عليه وانما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة اسباب (اما) لضعف الارادة الناشئ عن كبر السن (واما) خوفاً من ان يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الاحداث مع اعتقاده انه لم يستحل محرماً فيما فعل (واما) عملا برأي مروان واضرابه من الامويين الذين لا يرون لانفسهم حقاً بالتقدم في امور الملك والدولة الا اذا انتضي السيف واهريق الدم ما دام غيرهم من المهاجرين واهل السابقة في الاسلام موجودين واليهم ينتهي المسلمون في الاختيار والمشورة وتسليم ازمة الرياسة . ولا ارى لتمنع عثمان عن ترك الامر سبباً غير احد هذه الثلاثة اسباب والله بالحقيقة عليم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

لما أبي عثمان ان يخلع نفسه جد القوم في حصاره ولو كان لهم رغبة في قتله من مبدأ الامر لقتلوه وخرج في أثناء الحصار اناس كثيرون عن

المدينة ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبي (١) وكتب للولاة يستمدهم وصار بينه وبين القوم اخذ ورد رأوا بعده ان يمنعوا عنه الماء وكلّ صلة له بالناس تضيقاً عليه لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم وكان ذلك التضييق باشارة من طلحة اذ ذكر الطبري ان القوم كانوا يوماً ببابه يتناجون فمنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا علّ ان يراجع . فمرّ طلحة فقام اليه ابن عديس فناجاه

(١) جاء في حديث رواه بن عساكر ان القوم لما دخلوا واستولوا على المدينة كتب عثمان الى الناس يستمدهم في امصارهم ويخبرهم الخبر فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال . يا أهل المدينة والله لا يقيم بها احد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب فسار الى فسلطين وخرج معه ابناه محمد وعبد الله وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة انه دخل على عثمان وهو محصور فقال . انك امام العامة وقد نزل بك ما ترى واني اعرض عليك خصالا ثلاثاً اختر احداهنّ : اما ان تخرج فتقاتلهم فان معك عدداً وقوة وانت على الحق وهم على الباطل : واما ان نخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وانت بها : واما ان تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان . اما ان اخرج فاقاتل فلن اكون اول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء . واما ان اخرج الى مكة فانهم لن يستحلوني بها فاني سمعت رسول الله تقول يُلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن اكون انا . واما ان الحق بالشام فانهم اهل الشام وفيهم معاوية فلن افارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اه

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضى الله عنه ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالقضاء اولى منه ان يوصف بالاستبداد والأثرة اذ المستبد لا يبالي ان يلجأ الى القوة والحيلة ويستعمل نهاية الحزم في دفع الاذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه يترك الباحث في حيرة لا يدري كيف يحكم وماذا يقول

ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه لاتتركوا احداً يدخل على عثمان ولايخرج من عنده : فقال عثمان وقد كان يرى ما وراء بابه . هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفني طلحة . فانه حمل عليّ هؤلاء وألبهم عليّ والله اني لارجو ان يكون منها صفراً وان يسفك دمه :

وكان القوم بلغهم مسير من سار اليهم من الامصار فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منعهم من ذلك الحسن والحسين ابنا عليّ ومحمد بن طلحة وابن الزبير وكثير من ابناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء وكانوا ربما قاتلوهم وقاتلهم معهم أبو هريرة وسعيد بن العاص ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقاً من عروقه واحتمل وهم يظنون انه مات كل هذا وعثمان لم يأمرهم بقتالهم بل كان ينهاهم عنه فلما طال عليهم الامر وخافوا وصول المدد ويئسوا من تسليم عثمان لهم بالامر ورأى محمد بن أبي بكر انّ الحسن أصيب بجراح وخشي من ان يراه بنو هاشم فيأتون ويكشفون الناس . فأمرهم باقتحام الدار من الدور المجاورة فاقتحموها عليه من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب وانتدبوا له رجلاً يقتله فدخل عليه البيت فقال له اخلعها وندعك فأبى ووعظه فخرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً فاستحيا وخرج ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر وطعنه عمرو بن الحمق عدة طعنات ودافعت عنه نائلة فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن حمران وغيره . و بلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذي جاءهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا وقال عليّ لابنيه

كيف قتل امير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله وفي رواية ان علياً كان غائباً عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضى الله عنه وأخزى قاتليه لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣٥ هـ) ودُفن من ليلته وقيل بل بقي في بيته ثلاثة ايام ثم جاء حكيم بن حرام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهم في دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة فدفنوه في حش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع وقد كان معاوية أمر في خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين

هذا ما اخترت ايراده من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله وقد تركت شيئاً كثيراً من اخباره أيام حصاره فليرجع اليها من شاء في المطولات كتاريخ الطبري وابن الاثير وابن عساكر وابن خلدون والامامة والسياسة لابن قتيبة وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وتاريخ الخلفاء للسيوطي والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان وهي الكتب التي نقلت عنها أخبار الفتنة

وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتى عشرة سنة الا بضعة أيام على قول من قال انه قتل سنة (٣٥ هـ) واما على قول من قال انه قتل سنة (٣٦ هـ) فأكثر والاول أصح

وقد كان لمحمد ابن أبي بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود في امر عثمان رضي الله عنه وربما اغتفر ذلك لطلحة لانه كبقية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون انّ الامر يبلغ الى قتله ومهما كان من بعضهم في هذه الفتنة فان الدواعي السياسية ساقت بعضهم طوعاً

وبعضهم كرهاً الى الممالأة على عثمان رجاء اذعانه لما اجمعت عليه الافكار من لزوم اعتزاله للامر كما رأيت فيما سبق ولكن أبى رضي الله عنه ورحمه وغفر له الا الموت فاقدم عليه اولئك السفهاء وقتلوه بعد انذار كثير وبجد ظاهر لا يخفى على مثل عثمان فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب في امر الدولة والخلافة ما ترك ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجد من القوم لما كان ما كان ولله الامر

واما محمد بن أبي بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبري من رواية سيف عن مبشر قال: سألت سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر مادعاه الى ركوب عثمان؟ فقال الغضب والطمع. فقلت ما الغضب والطمع؟ قال كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغرّه اقوام فطمع. وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن. فاجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد ان كان محمداً

﴿ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان ﴾

« وبحث في دخائل الفتنة وكلمتي فيها وفي سبب اتهام اكثر بني أمية »

قد ذكروا الرواة والمؤرخون اشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ما ذكرناه لا يخلوا النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شيء من دخائل الفتنة فلا ينبغي ان نخلي هذا الكتاب منها بعد ان وعدنا القراء في خاتمة الجزء الثالث بالتوسع في سيرة عثمان اجابة لرغائب كثير منهم خلافاً لما اشترطناه في فاتحة الكتاب من لزوم الاختصار في سيرته وسيرة علي رضي الله عنهما. فمن ذلك ما ذكروه عن المكاتبات السرية التي كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح. روى ابن قتيبة في الامامة

والسياسة عن حويطب بن عبد العزى انه قال أرسل اليّ عثمان حين اشتد حصاره فقال: قد بدالي ان أتّهم نفسي لهؤلاء فأت علياً وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم فتولوه واصنعوا ماشئتم: فخرجت حتى جئت علياً فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد ثم انصرفت فاتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه احد فاخبرته بما أرسلني به عثمان فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين هل جئت علياً؟ قلت نعم فلم اخلص اليه. فقمنا جميعاً فاتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان. فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هل جئتم علياً؟ قلنا نعم فلم نخلص اليه. فارسل طلحة الى الاشتر فأتاه: فقال لي اخبره فأخبرته بما قال عثمان فقال طلحة وقد دمعت عيناه. قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين. فقام الاشتر وقال تبعثون الينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو في الامامة والسياسة فليراجعه من أحب) أليس هذا كتابكم الينا فبكى طلحة فقال الاشتر لما حضرنا اقبلتم تعصرون اعينكم والله لانفارقه حتى نقتله وانصرف: وسكوت طلحة عن انكار هذا الكتاب يدل على صحته اذا صحت الرواية. واما المختلق فقد روى ابن عساكر والمدائني انّ المصريين لما عادوا جاؤا الى عليّ وقالوا له قم معنا الى عثمان. فقال والله لا اقوم معكم. قالوا فلم كتبت الينا؟ قال والله ما كتبت اليكم كتاباً. فنظر بعضهم الى بعض وخرج عليّ من المدينة. وفي رواية الاعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه (١) موص

(١) الموص الغسل اللين

الاناء حتى تركتموه كالثوب الرحض (١) نقياً من الدنس ثم عدوتم فقتلتموه . فقال لها مروان هذا عملك كتبتِ الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه : فقالت والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا: قال فكانوا يرون انه كتب على لسان عليّ وعلى لسانها كما كتب ايضاً على لسان عثمان مع الاسود الى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة

ولا جرم ان لهذه الكتب أثراً كبيراً في اشعال نار الفتنة ولكن من هو مصدرها ومن هم المختلقون لها ؟ هذا ما لا يظهر الا للمنقب في سيرة عثمان الواقف على مقاصد الاحزاب الكثيرة التي كانت تسعى في اضرام نار الثورة فلبني أمية حزب ولطلحة حزب وللزبير مثل ذلك ولعليّ مثله ايضاً وكان حزب عليّ أشدهم تشيعاً له وطمعاً في مصير الخلافة اليه ومنهم محمد بن أبي بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذي كان شديد الحب لعلي شديد التأليب على عثمان والتحريض عليه . نقل في العقد ان سعيد بن أبي وقاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من افاضل اصحاب محمد حتى لم يبق في عمرك الا ظمء الحمار (٢) فعلت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان) فقال عمار اى شيء أحب اليك مودة على دخل او هجر جميل ؟ قال هجر جميل . قال فلله عليّ ان لا أكلمك ابداً : وروى ابن حزم في الملل والنحل ان عماراً كان ممن يقول بالتفضيل اي تفضيل عليّ على الثلاثة : وناهيك بابن السوداء ومقالته في عليّ ايضاً ومن اخذ برأيه من جفاة الاعراب الذين قل ان يفهموا من الدين شيئاً ينهي ضمائرهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن

(١) المغسول (٢) اى يسير لانه ليس شيء اقصر ظمأ منه

السوداء الذي ينكرها عليّ نفسه ويبرأ الى الله منها وقد علمت مما قررناه فيما سبق ان تغير القلوب على عثمان بسبب استئثاره بامور الامة وانقطاع بني أمية اليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس في الانكار عليه توصلا لنزع الخلافة منه وابعاد الامويين عنه ولهم في ذلك شبه عذر مادام ليس لهم رأي في قتل عثمان فلما رأى منهم احزابهم الميل الى آرائهم في الانكار عليه أخذ كل حزب يمهد لصاحبه سبيل الوصول الى الخلافة بمثل الانكار الشديد وبث روح القيام على عثمان على الوجه الذي تقدم شرحه وربما تجاوز ببعضهم الامر الى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم ممن تكتب على لسانهم رغبة في استمرار الفتنة وتوكيداً لاهل الامصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان : لكن بسبب الصلة المعنوية التي كانت بين المرشحين للخلافة وبين احزابهم كان بعض كبار الصحابة لا يخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان ففي العقد من رواية العتبي عن رجل من ليث قال . لقيت الزبير قادماً فقلت أبا عبد الله ما بالك ؟ قال مطلوب مغلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي : قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص فقلت يا أبا اسحاق من قتل عثمان قال قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه عليّ . قلت فما بال الزبير ؟ قال اشار بيده وصمت بلسانه :

(وفي العقد ايضاً) قال حسان بن ثابت لعليّ انك تقول ما قتلت عثمان ولكن خذلته . ولم آمر به ولكن لم أنه عنه . فالخاذل شريك القاتل . والساكت شريك القاتل

وانت ترى من هذا انهم انما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء لان لاحزابهم والمقربين منهم دخلاً في قتل عثمان وقلّ ما تبرأ شيعتهم لاسيما

شيعة عليّ من الممالأة على قتل عثمان كما يتبرأ منه عليّ واخوانه . اخرج ابن عساكر عن الشعبي قال لقي مسروق الاشتر فقال مسروق للاشتر قتلتم عثمان ؛ قال نعم ، قال اما والله لقد قتلتموه صوّاماً قواماً . قال فانطلق الاشتر فاخبر عماراً . فأتى عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيّرن أبا ذر (يعني الى الربذة) وليحمين الحمى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له مسروق فوالله ما فعلتم واحدة من ثنتين : ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به . وما صبرتم فهو خير للصابرين . قال فكانما ألقمه حجراً .

وهذا يدل ايضاً على انهم كانوا يعتقدون انهم غير مخطئين في قتل عثمان والناس في هذا في خلاف كبير كما سترى بعدُ واما عليّ واخوانه فانهم كانوا لا يرون قتله ولا يريدونه البتة وانما هم كانوا يرون وجوب عزله فقط فغُلبوا على امرهم لكثرة ما كان يدسه الشيع والاحزاب على عثمان ومما يدلك على انهم غلبوا على امرهم ما رواه الطبري من انّ عثمان ارسل الى عليّ وطلحة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار وعدم وجود الماء عنده فبادر عليّ اليه وانّب المحاصرين على منعه الماء وقال لهم بم تستحلون حصره وقتله فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب ومنعوا علياً عن الدنو منه فجاءت أم حبيبة زوج النبي على بغلة تحمل الماء فمنعوها وأهانوها وطلب مروان الى عائشة ان تبقى في المدينة وقد كانت عزمت على الشخوص الى مكة فأبت وخافت ان يصنع بها كما صنع بأم حبيبة وفرّت الى مكة وبلغ طلحة والزبير مالقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم: كل هذا لما غلبوا على امرهم وخرج الامر من يدهم

والظاهر من مجمل ما ذكروه من اخبار الفتنة انّ علياً كان أقدر

الناس على الدفع عن عثمان لو شاء لانّ أكثر القائمين بها من شيعته وحزبه وربما تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب انّ لعلي يداً شديدة في التأليب على عثمان . والحقيقة ان الامر ليس على ظاهره اذ عليّ سيق الى ما سيق اليه القوم بحكم الضرورة والمتابعة فلما استعصى امر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الثائر ولم يواته حزبه على ما يريد والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلي هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان توصلا بزعمهم لتبرير عمل علي في القيام على عثمان ولقد دسوا على علي (رض) اخباراً كثيرة من هذا القبيل كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وانا معه) وغير هذا من الاخبار التي يأبى تصديقها العقل السليم بالاضافة الى ماعرف عن علي من حب الفضيلة وعلو النفس ولانها تنافي مارواه الثقاة من الاخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ولو اردنا ان نستقصي ما جاء من الروايات التي تدل على براءة علي خاصة من قتل عثمان لاحتاج ذلك الى كتيب مخصوص فنجتزيء عنها بما يأتي

روى ابن عساكر عن طاوس عن ابن عباس قال قال علي ما أمرت ولا قتلت ولكني غلبت : وروي عن قيس بن عُباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول: اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي وجاؤني للبيعة فقلت والله اني لاستحي من الله ان ابايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله ألا استحي ممن تستحي منه الملائكة : واني لاستحي من الله ان ابايع وعثمان قتيل في الارض لم يدفن بعدُ فانصرفوا . فلما دفن رجع الناس يسألوني البيعة فقلت اللهم اني لمشفق مما أقدم عليه . ثم جاءت عزمة فبايعت فلما قالوا امير المؤمنين فكانما صدع قلبي : واخرج

من طرق عن أبي جعفر الانصاري قال شهدت الدار يوم قتل عثمان فررت في المسجد فاذا رجل في ظلة النساء محتبي سيفه عليه عمامة سوداء فاذا عليّ قال ما صُنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر :

هذا قليل من كثير مما جاء في براءة عليّ من دم عثمان ولا نشك ايضاً ان اخوانه طلحة والزبير مثله في البراءة من هذا الاثم الاّ ان اشياعهم دفعوا الى هذه الفتنة بالعوامل الكثيرة التي كانت قائمة يومئذ وما كانوا ينكرون عليهم لاعتقادهم بان عثمان مخطئ في بعض الامور التي أتاها وان كان هولا يعتقد خطأه بشيء من ذلك لذا ترى كل ما جاء من الاخبار عن الفتنة مجمعة على رضاهم وتحريض بعضهم عليه وكان أشدّهم عليه طلحة بن عبيد الله وأهونهم الزبير (١) كما رأيت فيما تقدم وكان عثمان كما مر مع تحققه من انّ علياً

(١) اخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف الى الزبير فقالوا يا ابا عبد الله نحن نأتيك ثم تصير الى ما تامرنا به قال فارسلني الزبير الى عثمان فقال اقره السلام وقل يقول لك اخوك ان بني عمرو بن عوف جاؤوني ووعدوني ان يأتوني ثم يصيروا الى ما امرتهم به فان شئت ان آتيك فاكون رجلاً من اهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت وان شئت انتظرت ميعاد بني عمرو فأدفع بهم عنك فعلت قال فدخلت عليه (يعني على عثمان) فوجدته على كرسي ذي ظهر ووجدت رياطاً مطروحة ومراكن مملوءة ووجدت في الدار الحسن بن علي وابن عمر وابا هريرة وسعيد بن العاص ومروان ابن الحكم وعبد الله بن الزبير . فأبلغت عثمان رسالة الزبير . فقال الله اكبر الحمد لله الذي عصم اخي قل له انك ان تأت الدار تكون رجلا من المهاجرين حرمتك حرمة رجل وغناؤك غناء رجل ولكن انتظر ميعاد بني عمرو بن عوف فعسى الله ان يدفع بك . قال فقام ابو هريرة فقال : ايها الناس لقد سمعت أذناي رسول الله يقول تكون بعدي فتن واحداث : فقلت واين النجاء منها يا رسول الله . قال الامير وحزبه : واشار الى عثمان . فقال القوم ائذن لنا فلنقاتل فقد امكنتنا

أرأفهم به وأخفهم وطأة عليه يعرف منه انحرافه عنه وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الامر (ما دون القتل) يدلك عليه ما نقله في العقد عن أبي رافع قال . قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً في المسجد فقلت . أبا الحسن انّ الناس يرون انك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم قال فأتيت عثمان فاخبرته فقال

وحرّق قيس عليّ البلا د حتّى اضطرمت أجحما

وقد كان كثير من الصحابة ممن شهد الفتنة او لم يشهدها منهم من سكت ومنهم من حرّض ومنهم من لم يدفع عن عثمان وكلهم راض من الثائرين عليه بما دون القتل حتى اذا قتل استعظموا ذلك وأكبروه وعدوه ظلما كما استعظمه علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . فقد اخرج ابن عساكر من طرق عن ابن عباس انه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفي رواية لابي الحسن المدائني نقلها في العقد قال كان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية واصحابُهُ علياً واصحابَهُ لان الله تعالى يقول (وَمَنْ قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً) ويريد ابن عباس بالولي معاوية لانه المطالب بدم عثمان . وذكر الطبرى عن حذيفة بن اليمان انه لما قفل من غزاته في بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم العن قتلته

البصائر . فقال (اي عثمان) عزمت على احد كانت لي عليه طاعة ألاّ يقاتل . قال فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه اه وانما اوردنا هذا الحديث لما فيه من الادلة على ان الزبير كان أهون على عثمان من غيره وان قيل انه من المنكرين على عثمان

وشتامه . اللهم انا كنا نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلماً الى الفتنة اللهم لاتمتهم الا بالسيوف . ومن حديث الزهري قال لما قتل مسلم بن عقبة اهل المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعلهم في عثمان ورب الكعبة

بقي ان يقال انّ عثمان رضى الله عنه هو الذي جرأ القوم على القيام عليه ثم قتله باصراره على ما انكروه عليه اولاً ثم بعدم اعتزاله منصب الخلافة ثانياً بعد ان رأى ما رأى من الشرّ في وجوه القوم : فامّا الامر الثاني فقد ذكرت فيما سبق رأيي في اصراره عليه . واما الامر الاول فاصراره على ما أنكر عليه ينحصر على ما أرى في تقريبه بني أمية منه واعطاء ذوي قرابته ولايات الامصار وما عدا هذا من الاحداث التي عدوها عليه فمنها ما تاب عنه ومنها مالا يؤاخذ عليه في الحقيقة ونفس الامر لان كله اوجله مما يعتذر عنه : اما افضاؤه الى بني أمية بأموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة . واقتطاعهم الأمور دونه . فهو الامر الذي اهتزت له اعصاب المهاجرين ، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الاموية كما بسطنا هذا في محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة ما كان يؤنبه بعضهم في شأن بطانته من الامويين ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لاولئك النفر من أهله وعشيرته وانّ اكثر ما اهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالامر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين ، لاسيما لاولى السابقة منهم والمهاجرين ، فقد كان حريصاً على ان لايتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة فيهم وليس لهذا الاصرار على ما يظهر لنا من سبب الا احد امرين : امّا لأن قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم : وامّا انه أحس منذ عهد عمر للستة

ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم وتشيع يجرّ الى الاختلاف عليه والكيد له تخشى انه هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته ان يتوثب عليه عمال الامصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوي قرابته وولاهم على الامصار فلما كثر الارجاف بهم والطعن عليهم ورغب اليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن اليهم واعتمد في الامور عليهم فكانت له ولهم أثرة انكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الانكار وتذرع الثائرون عليه بتلك الاحداث الى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الأثرة هي السبب الاول في استفحال امر الفتنة التي لما استعرت نارها ، واشتد أوارها ، اصبح اطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة ، وقادة الناس ، وربما ندموا حينئذاك على ما تقدم ، ولات ساعة مندم ، أخرج ابن عساكر عن الاوزاعي انه قال : قيل لعليّ بن أبي طالب أفقتل عثمان منافقاً ؛ قال لا ولكنه ولي فاستأثر . وجزعنا فأسأنا . وكل سيرجع الى حكم عدل . فان تكن الفتنة أصابتنا او خبطتنا فبما شاء الله :

هذا واما الداعي الى قيام هذه الاحزاب في خلافة عثمان وسبب افتراق القوم وانقسامهم فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى الى ستة نفر رأى كل شخص نفسه انه أحق بها من غيره فتطلع اليها وصار له حزب يريده عليها ولما أخذها عثمان بقي في أنفسهم ما بقي ثم مازالت تمو هذه الرغبية في نفوسهم . وتعظم أحزابهم . حتى انفجر بركان الاحزاب ، وطم ذلك العباب ، فافضى الى التغالب لعدم تقيد الامر بالشورى الصحيحة منذ اول خليفة كان كما بسطنا الكلام على هذا في فصل الخلافة والدين

هذا ما اخترت بيانه من اخبار الفتنة واسبابها ودخائلها وقد علقت على كل فصل منها مارأيته من تلك الاسباب بقدر ما انتهى اليه عقلي وبلغه بحثي واستقصائي واني استغفر الله مما أخطأ به ظني، وسبق اليه قلمي، لاني لم آت بشيء من عندي الا ما كان بطريق الحدس او الاستنتاج فاذا صح فهو المطلوب، والاَّ فمردود علي خطأي لاني مؤرخ لاجد لي فيطلب مني البرهان، بأكثر مما توخيته من البيان، وانما ذلك مطلوب من علماء الدين الذين ينظرون الى الفتنة من جهة دينية فيقولون عمل هذا حلال وعمل هذا حرام واما انا فاني لم ارد في كل ما علقته علي اخبار الفتنة الاَّ الوجهة السياسية والاجتماعية ولم احكم على شخص بخطأ او تصويب الا فيما يعود على مصالح الامة الدنيوية وحقوقها السياسية واما حقوق الله تعالى فهي بينه وبين خلقه يأخذ بها من يشاء ويعفو عمن يشاء وليس أضل عقولا من بعض الفرق الاسلامية التي حصرت النظر من اخبار الفتنة واشخاصها في الوجهة الدينية فقالت هذا استحلَّ وهذا حرّم وهذا يعاقب وهذا يثاب وفاتها انَّ ما تعلق بحقوق الله فلله واماَّ ما تعلق بالمسلمين فللمسلمين وليس لهم ان يحكموا على شخص يقول ربي الله الاَّ بالخطأ اذا أخطأ وبالصواب اذا أصاب هذا فيما يتعلق بامور الامة الدنيوية وحياة الدولة السياسية . واماَّ الحكم على هذا بالكفر وهذا بالايمان مع ثبوت انهم جميعاً من الموحدين فذلك محض افتراء وفضول اذ الحكم في هذا راجع الى الله سبحانه وتعالى وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور، وانَّ مما أضاع تاريخ هذه الامة المملوء بالعبر لاسيما تاريخ الصدر الاول جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة في الحكم انَّ زيداً كفر وعمراً فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق كانه ليس لاعمال المسلمين عمل

لا تعلق له بالدين لانه لا حظ لهم من الحياة الدنيا قط

نعم انَّ لمثل هذه الاحكام والمباحث اتصالاً بالامور الساسية والاعمال الدنيوية فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الاشخاص باعمالهم السياسية والاجتماعية ومن منهم المؤاخذ ومن منهم غير المؤاخذ ولكن أين من مؤرخينا من نظر الى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد انَّ حال بينهم وبينهم الدين فتقيدوا بايراد الاخبار كما أخذوها وتجنبوا الخوض فيها والحكم بشيء من عندهم عليها اللهم الا النذر اليسير من المؤرخين مع انَّ الصحابة والرواة من التابعين ومن أتى بعدهم لم يضنوا بشيء من مخبئات التاريخ واخبار الرجال بل غالوا في حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب مالا يذكر عن غيرهم ولم يجرأ على نقل مثله مؤرخ من مؤرخي الدول قبلهم وتجاوزوا هذا ايضاً الى وضع الاخبار واختلاقها ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة والصالحين المحسنين منهم ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاتها وزعموا انَّ من الادب ان لا يتكلم احد من الناس فيها حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث فيها وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ونوهوا بلزوم تمحيصها والتدقيق فيها

هذا واذ قد استوفينا الكلام على الفتنة واخبارها ومقدماتها فقد رأينا ان نقول كلمة في نتائج قتل عثمان رضى الله عنه وما تأتي عن حادثه العظيم من الامور في مستقبل الامة ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان واسبابه واعتذار المعتدلين من ارباب النحل عنه فنقول

انَّ أول وهن دخل على الدولة الاسلامية هي الفتنة وأول ما فرق المسلمين هو قتل عثمان وسواء كان القيام على عثمان رضى الله عنه والنكير عليه بحق او بغير حق فان الفتنة التي ثار ثائرها يومئذ امر متوقع الحصول في

الدول التي تقوم على اساس الحرية والأمم التي تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لارادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة فما بالك بتلك الأمة القريبة عهد بصاحب شريعتها صلى الله عليه وسلم الذي يقول «استقيموا لقريش مااستقاموا لكم فان لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم» (١) الآ ان الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة من حيث ظنوا ان الخطر ببقائه فيها فقد رأوا بني أمية غالبوا على الخليفة فخافوا ان يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الاولى فثاروا ثورتهم على عثمان رضى الله عنه فطالبوه بالاعتزال ولم يكتفوا بطلب العدل بين اصناف الأمة فأبى فقتلوه ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال وأسلم لهم من الوقوع في خطر الفرقة والشقاق وأقرب لدفع غائلة الامويين التي كانوا يخشونها على الخلافة وعثمان حي فكانت وعثمان مقتول

قتل عثمان فافترقت الامة بادئ بدء في امر قتله الى اربعة فرق ثم فصل منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما في رواية ابن عساكر عن ميمون بن مهران في حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق بعد ان بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوئام في عهد أبي بكر وعمر والسنين الاولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق انهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة عليّ (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فاما) شيعة عثمان فاهل الشام وأهل البصرة. وقال أهل الشام ليس أحد اولى بطلب دم عثمان من اسرة عثمان وقرابته ولا أقوى على ذلك من معاوية. وقال أهل البصرة

(١) اخرجه الامام احمد عن ثوبان وخضراءهم اي سوادهم

ليس احد أولى بطلب دم عثمان الاّ طلحة والزبير لانهما من أهل الشورى (واما) شيعة علي فهم أهل الكوفة (واما) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وامركم واحد ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وانتم مختلفون . فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً . وكان اولى بالعدل واصحابه . وبعضكم يقول كان عليّ اولى بالحق واصحابه : كلهم ثقة وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجئ امرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما (واما) من لزم الجماعة فمنهم سعد بن ابي وقاص وأبو أيوب الانصاري. واسامة بن زيد . وحبيب ابن مسلمة الفهري . وصهيب بن سنان . ومحمد بن مسلمة في عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين قالوا جميعاً نتولّى (١) عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجوا لهم ونخاف عليهم (واما) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ثم خلطوا بعد ذلك وكفَّروا كل من خالفهم .

وأنت ترى ان هذه الفرق لا تعد الاّ احزاباً سياسية اوهي عين الاحزاب التي كانت في مبدأ الفتنة لكن هذه الاحزاب نمت بعد ذلك وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل في الدين بعد ان كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة وتحقيق هل كان عثمان بعمله ظالماً يستوجب الخلع ام لا كما هي العادة في كل أمة ودولة اسلامية كانت او غيرها سنة الكون التابعة لمجرى الاحوال السياسية منذ عرف الاجتماع الى الآن وهذا الذي يدع العقول في حيرة من أمر هذه الامة والصاقها

كل شيء بالدين كما بسطناه لك في فصل سابق

هذا من جهة ما أنتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة واما من جهة ما كان من الخطر على الخلافة فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام طلحة والزبير لمغالبة علي ومنازعته سبيل القيام على علي بدعوى الطلب بدم عثمان وصدق ما انبأهم به معاوية من ذهاب الامر من يدهم اذا صاروا الى التغالب فطمح الى الخلافة ونهض الى منازعة عليّ في الامر ومغالبته على الامارة وكان ماكان من مصير الخلافة الى الأمويين بقوّة الغلب وهدمهم اساس الشورى والانتخاب واستئثارهم بالملك بقوة الارهاب وسطوة الغالبين فكان مصير الامر اليهم مبدأ انقلاب سياسي عظيم أتى على نظام الخلافة الشرعيه والحكومة الديموقراطية في الاسلام وبذر في بيوت الملك والخلافة بذور الحكم المطلق فانبتت في قصور الجبارين نبات العلقم الذي سمّوا به عقول الأمة واجسامها وأماتوا به شعورها بالظلم واحساسها بهذه الحياة الى هذا اليوم حيث صارت الى حال من الخنوع للامراء ، والاستخذاء لارباب السطوة ، والرضا بتحمل الظلم والهوان ، لا يرضاها لنفسه الحيوان بَلْه الانسان ، وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على ممالك الاسلام واخذت المسلمين الصيحة من كل مكان فلم يرعهم من ذلك رائع البوار المتوقع اعتماداً على زعمائهم ، واستسلاماً لامرائهم ، الذين انغمسوا في حمأة الشهوات ، وتربوا في سجون القصور ، ووراء الجدران الشاهقة ، فلم يعرفوا من سياسة الملك الا ارهاب الامة وقتل عواطف الرعية وارهاق المسلمين بالظلم والاستبداد وحرمانهم من كل علم نافع ، ومن كل حق ناصع ، من حقوق السيطرة التي خولهم اياها الاسلام حتى فقدت الأمة كل استعداد فطري وكل قوة ملية

تدفع بهما عن نفسها وتذود عن حوضها فخط عليها الجهل بكلكله ، وتمكن منها العدوّ بقوّته وعلمه ، وليس في امراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على احياء مجد الدولة وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الامم الغربية والحكومات الشورية الاوربية كما انه لم يبق في المسلمين معنى من معاني الحياة الملية والشعور الانساني يصوّر لهم شكل الحرية والعلم في صورة من الكمال والقوّة والمجد جعلت الشعوب المسيحية تترامى على الموت ويستهين ألوف منهم بالحياة ويخاطرون بالنفس والمال توصلاً اليها وتهافتاً عليها : وليت شعري هل من الحرص على الحياة ان يحيي الانسان ذليلاً مهاناً مهضوم الجانب مسلوب الحق كما يتوهم المسلمون فيستخذون لآلهة العروش من الامراء ، مثل ذلك الاستخذاء ، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الامراء الى دور تنبعث عنها أشعة العلم والعدل بعد ان كانت هياكل للظلم ومواقد لنيران الاستبداد ترسل شواظها على البسيط ليأكل الخضراء واليابسة ويأتي على المال والولد ويذهب بكل أصول المجد والقوّة والحياة : فاللهم انا نعوذ بك من الخذلان ، ونسألك ان تلهم المسلم رشده ليطرح عنه رداء الهوان ، ولباس الجبن والخوف الذي ألبسه اياه طواغيت الامة وعباد السلطة القاهرة والملك المطلق الذي لا يكون الا حيث يسود الجهل وتفقد كل بواعث الحياة .

﴿ باب ﴾

(ما رثي به عثمان)

اكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رثائه فمن ذلك مارثاه به حسان بن ثابت

أتركتمُ غزوَ الدروبِ وراءكم … وغزوتمونا عند قبرِ محمدِ
فلبئسَ هدي المسلمين هديتمُ … ولبئسَ أمرُ الفاجرِ المتعمدِ

وله ايضاً في أبيات .

إنْ تمسِ دارُ ابنِ أروى منهُ خاويةً … باب صريعٌ وباب محُرقٌ خربُ
فقد يصادفُ باغي الخيرِ حاجتهُ … فيها ويهوى اليها الذكر والحسبُ
يا ايها الناس أبدوا ذات انفسكمْ … لا يستوي الصدقُ عند الله والكذبُ
قوموا بحقِ مليكِ الناسِ تعترفوا … بغارةٍ عصبٍ منْ خلفها عصبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يقدمهمْ … مستلئماً قد بدا في وجهه الغضبُ

وله غير هذا أشعار كثيرة في رثاء عثمان . وممن رثاه ايضاً كعب بن مالك الانصاري وله في رثائه ابيات طويلة منها

يا للرجال لِلُبك المخطوفِ … ولدمعك المترقرقِ المنزوفِ
ويحٌ لأمرٍ قد أتاني رائعٍ … هدَّ الجبالَ فانقضتْ برجوفِ
قتلُ الخليفةِ كان أمراً مفظعاً … قامت لذاك بليةُ التخويف

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ألاَ انَّ خيرَ الناسِ بعد ثلاثةٍ … قتيلُ التجيبي الذى جاء من مصرِ

في أبيات وقال الحُباب بن يزيد المجاشعي

لعمرُ أبيكَ فلا تجزعَنْ … لقد ذهب الخيرُ الاّ قليلا
لقد سفهَ الناسُ في دينهمْ … وخلّى ابن عفان شراً طويلاً
أعاذلَ كلُّ امرئٍ هالك … فسيري الى الله سيراً جميلاً

﴿ خطبة ابنته عائشة بعد قتله ﴾

قالت بعد ان حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان انا لله وانا

اليه راجعون أُفنيتْ نفسهُ ، وطُلَّ دمهُ في حرم رسول الله (ص) ومُنِعَ من دفنهِ اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عزَّ وجلَّ حاكماً . ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً . حتى يفيء الى الحقّ من سدرَ عنه . او تطيح هاماتٌ . وتُفرَى غلاصمٌ . وتخاض دماء . ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتموه . يا من استحلَّ حرمَ الله ورسولهِ واستباحَ حماه . لقد كرهَ عثمان ما أقدمتم عليه . ولقد نقمتُم عليه أقلَّ مما أتيتم اليه . فراجعَ فلم تراجعوه ، واستقال فلم تقيلوه ،

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لأمر ربك حتى لحقتَ بهِ وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوضُ الباطل واذكاء الشنآن . وكوامنُ الاحقاد . وادراك الاحن والاوتار . وبذلك وشيكاً كان كيدُهمْ وتبغيهم : وسعى بعضهم ببعضٍ . فما أقالوا عاثراً . ولا استعتبوا مذنباً . حتى اتخذوا ذلك سبباً الى سفك الدماء . واباحة الحمى وجعلوا سبيلاً الى البأساء والعنتِ : فهل علت كلمتكم وظهرت حسكتكمْ إذ ابن الخطاب قائم على رؤسكم ماثلٌ في عرصاتكم يُرعِدُ ويبرق بارعابكم . يقمعكم غير حذرٍ من تراجعكم الامانيَّ بينكم . وهلاّ نقمتم عليه عوداً وبدأ اذ ملك ويملك عليكم من ليس منكم بالخُلق اللين والجسم الفصيل (كذا في الاصل) يسعى عليكم وينصب لكم لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ، وحذراً من شدته ، ان يهتف بكم متقسوراً ، او يصرخ بكم متعذوراً . إن قال صدّقتم قالته ، وان سأل بذلتم سألتهُ . يحكم في رقابكم واموالكم كأنكم عجائز صلعٌ واماء قصع ، فبدأ مفلتاً لابن ابي قحافة بارث نبيكم على بعد رحمهِ وضيق يده ، وقلة عدده ، فوقى الله شرها زعم لله رده ما أعرفه ما صنع . أولم

يخصم الانصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة . يمايل بكم يميناً وشمالا ، قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم ممتحناً لكم . ومعترفاً اخطاركم ، وهل تسمو هممكم الى منازعته . ولولا تيك لكان قسمه خسيساً ، وسعيه تعيساً ، لكن بدأ بالرأي وثنى بالقضاء . وثلث بالشورى . ثم غدا سامراً مُسْلطاً دِرّتهُ على عاتقهِ فتطأطأتم له تطاطؤ الحِقّة . ووليتموه ادباركم حتى علا اكتافكم فلم يزل ينعِق بكم في كلّ مَرتَع . ويشدّد منكم على كل مِخنَق . لا ينبعث لكم هتَافٌ . ولا يأتَلِقُ لكم شهاب . يهجم عليكم بالسراء ، ويتورط بالحوباء ، عرفتم اونكرتم لاتألمون ، ولا تستنطقون ، حتّى اذا عاد الامر فيكم ولكم واليكم في مُونِقَة من العيش عرقها وشيج . وفرعها عميم . وظلها ظليل . تتناولون من كَثَبٍ ثمارَها أنّي شئتم رغداً . وَحلَبَتْ عليكم عِشارُ الارض درراً : واستمرأتم اكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خَصْب غدَق وامق شَرق . تنامون في الخفض وتستلينون الدعة . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها ، واستحليتم غضارتها ونضرتها ، وظننتم انّ ذلك سيأتيكم من كَثَبٍ عفواً ، ويتحلب عليكم رسلاً ، فانتضيتم سيوفكم ، وكسرتم جفونكم ، وقد أَبَى الله ان تُشَام سيوف جرّدت بغياً وظلماً . ونسيتم قول الله عزّ وجلّ (انّ الانسانَ خُلقَ هلُوعاً اذا مَسّهُ الشرُّ جزوعاً واذا مَسّهُ الخيرُ منوعاً) فلا يهنئكم الظفرُ . ولا يستوطن بكم الظلم . الا على رجلين ، ولا ترن القوس الا على سيتين ، فاثبتوا على الفرز ارجلكم فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء كما اضل ادحيه الحسل . وسيعلم كيف تكون اذا كان الناس عباديد . وقد نازعتكم الرجال . واعترضت عليكم الامور . وساورتكم الحروب بالليوث . وقارعتكم الايام بالجيوش . وحمي عليكم الوطيس . فيوماً تدعون من لا يجيب ويوما

تجيبون من لا يدعو . وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرى انهما في سبيل الله فيد مقبوضة . واخرى مقصورة . والرؤس تنزو عن الطلى والكواهل كما ينقف التنُّوم . فما أبعد نصر الله من الظالمين ، واستغفر الله مع المستغفرين اهـ(١)

(١) تفسير الالفاظ الواردة في هذه الخطبة

قولها طل دمه اي سفك وهدر . وقولها حتى يفيء الخ اي حتى يرجع اليه من ضل أو تحير . وقولها أو تطيح هامات اي تطير رؤوس . وتفرى غلاصم اي تقطع حناجر واستوخم ما استمرأتموه اي ما استطبتموه ويقال للكلأ الطيب مري غير وخيم . تراوض الباطل اي تجاذبه . واذكاء الشنآن من اذكى النار أسعرها والشنآن البغض . كوامن الاحقاد خفيها . ادراك الاحن والاوتار اي العداوة والثأر . وشيكا كان كيدهم اي سريعاً . وجعلوا سبيلاً الى البأساء والعنت اي الى الشدائد والفساد . علنت اي ظهرت . حسكتكم . الحسك نبات شائك وهو ايضاً العداوة والحقد . مائل في عرصاتكم المائل القائم والعرصات جمع عرصة وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . يقمعكم اى يضربكم بالمقمعة وهي عصا من خشب . متقسورا اى متعززا . متعذورا اي ناجحا . عجائز صلع اي عجزة عن الحرب . واماء قصع اى بطيئات . غدا سامرا مساطا درته الخ تريد انه كان لشدته عليهم يسهر الليل وعصاه على كتفه لمراقبة الناس . والحقة الناقة الرباعية . ينعق بكم في كل مرتع اى يصيح بكم في كل مكان والمرتع موضع الرتع او الخصب . لا ينبعث لكم هتاف اى لا يخرج لكم صوت . ولا يأتلق لكم شهاب اى لا يلمع ولا يظهر . يتورط بالحوباء التورط الوقوع والحوباء النفس اى يقع بكم ضرباً وشتماً كيف شاء فلا تجسرون على التكلم . في مونقة من العيش عرقها وشيج الخ اى في مورقة متشابكة العروق وهو كناية عن السعة والراحة والتمتع بطيب العيش . تتناولون من كثب اى من قرب . وحلبت عليكم عشار الارض درراً العشار النوق المنتجة ولعله كناية عن اقبال الخير عليهم وخصب الارض لهم . غدق وامن شرق هكذا بالاصل ولا نفهم . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها اى احببتم زينة الدنيا والحرج محركة مجتمع الشجر او الغيضة . ان تشام سيوف اى تسل ، الفرز ما اطمأن من الارض والمتيهة الارض المضلة . والخرقاء الواسعة . كما اضل ادحية الحسل (كذا) والعباديد الفرق . والرؤس تنزو عن الطلى اى تثب عن الاعناق . كما ينقف التنوم . النقف ضرب الشيء بالظفر والتنوم نوع من الشجر

﴿ خطبة زوجته نائلة بنت القرافصة ﴾

(قالت بعد ان حمدت الله واثنيت عليه) عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم بعد الاعتذار وان اعطاكم العتبى (١) . معاشر المؤمنة واهل الملة لا تستنكروا مقامي، ولا تستكثروا كلامي ، فاني حرّى (٢) عبرى (٣) رزئت جليلا . وتذوّقت (٤) ثكلاً من عثمان بن عفان ثالث الاركان ، من اصحاب رسول الله (ص) في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الارشاد . فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك في فضله متأثم ، القوا اليه الازمة وخلوه والأمة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحدهم غير مدافع ، وخيرهم غير منازَع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النعماء ، اذ وصل اجنحة المسلمين حين نهضوا ، الى رؤوس أئمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الامور ، اذ لم يكن فيهم له نظير ، فسلك بهم سبيلَ الهدى ، وبالنبي وصاحبيه اقتدى ، مخسئاً للشيطان الى مداحره ، مقصيا للعدوان الى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ، وتزايل عنه المصاليت ، (٥) حتى امتد له الدين . واتصل له السبيل المستقيم . ولحق الكفر بالاطراف ، قليل الالاف والاحلاف ، فتركه حين لا خير في الاسلام في افتتاح البلاد ، ولا راي لاهله في تجهيز البعوث ، فاقام يمدكم بالراي . ويمنكم بالادنى

(١) العتبى الرجوع عن الاساءة الى ما يرضي العاتب (٢) عطشى (٣) من العبرة وهو تردد البكاء في الصدر (٤) تذوقت اي زقت مرة بعد مرة والثكل فقدان الحبيب (٥) المصاليت رجل مصلت اذا كان ماضياً في الامور وهو من مصاليت الرجال

يصفح عن مسيئكم في اساءته . ويقبل من محسنكم باحسانه ويكافئكم بماله . ضعيف الانتصار منكم . قويّ . المعونة لكم . فاستلتم عريكته حين منحكم محبته . وأجرركم أرسانكم (١) ، آمناً جرأتكم وعدوانكم ، فأراهكموه الحق اخوانا . وأراكموه الباطل شيطانا ، في عقب سيرة من رايتموه فظًّا ، وعددتموه غليظاً . فهدكم منه بالقمع . وطاعتكم اياه على الجدع يعاملكم الحبه (كذا في الاصل) ويتخونكم بالضرب . وكان والله أعلم بادابكم ومصالحكم . فلله هو كان قد نظر في ضمائركم . وعرف اعلانكم وسرائركم . فحين فقدتم سطوته . وامنتم بطشته . رايتم ان الطرق قد انشعبت لكم . والسبل قد اتصلت بكم . ظننتم ان الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الاعداء ، وشددتم شدّة السفهاء ، على التقي النقي الخفيف بكتاب الله عزّ وجلّ لساناً ، الثقيل عند الله ميزاناً ، فسفكتم دمه ، وانتهكتم حرمه ، واستحللتم منه الحُرَم الاربع . حرمةَ الاسلام . وحرمةَ الخلافة . وحرمة الشهر الحرام . وحرمة البلد الحرام . فليعلمنّ الذين سعوا في امره . ودبّوا (٢) في قتله . ومنعونا من دفنه اللهم انّ بئس للظالمين بدلاً وانهم شرّ مكاناً وأضعف جنداً . لتتعبدنكم الشبهات ، ولتفرّقنّ بكم الطرقات ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان . وكيف بسخط الله من بعده . وأين كنتم كعثمان ذي النورين منفس الكرب زوج

(١) اى خلاكم كما تشاؤن والمعني أنها اخبرت عن مسامحته وتركه التضييق عليهم (فهدكم منه بالقمع) هده ضعضعه واذله والقمع القهر والمعنى انه خوفكم منه بالقهر والغلبة وطاعتكم اياه على الجدع اي الهوان والصغار (٢) دبوا مشوا على هيئتهم

ابنتي رسول الله (ص) وصاحب المربد (١) ورومة . هيهات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بممدود ، ياهؤلاء انكم في فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الحران (٢) شوهاء العيان في كثير من الامر . قد توزع كل ذي حق حقه . ويئس من كل خير خيـر أهله . فلهوات الشر فاغرة (٣) وانياب السوء كاشرة . وعيون الباطل خُزّر (٤) واهلوه شزر (٥) ولئن نكرتم أمر عثمان . وبشعتم الدعة (٦) لتنكرنّ غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع منكم استعتاب ،

ثم اقبلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : اللهم اشهد اه :

باب

﴿ ما قيل في سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه ﴾

(ما قاله بعض الصحابة واهل السنة)

رأيت كيف ان الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين فنهض للطلب بدمه طلحة والزبير وعائشة واحزابهم ومعاوية وحزبه وانكر عليّ قتله ولعن قاتليه ونزيد هنا ما قاله بعض الصحابة ومنهم سعيد بن زيد أحد العشرة قال . لو ان أحداً انقض للذي صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً ان ينقض (اخرجه البخاري) وعن عبد الله بن سلام قال . لقد فتح الناس

(١) المربد موضع قرب المدينة ورومة بئر بالمدينة (٢) الحران مقدم العنق
(٣) اللهات اللحمة المشرفة على الحلق وفاغرة من فغر فوه انفتح (٤) الخزر النظر بلحظ العين (٥) الشزر الشدة والصعوبة (٦) الدعة سعة العيش

على انفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق عنهم الى قيام الساعة « اخرجه ابو عمر » وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (اخرجه الحاكم) وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلهم مجمعون على انّ عثمان قتل ظلماً وانّ الاحداث التي كانت على عهده لا تستوجب القتل هذا اذا صح ان كل ما أنكر على عثمان رضي الله عنه احداث يؤاخذ عليها وللمتكلمين في براءة عثمان وتعدي قاتليه كلام طويل وتفصيل يرجع اليه ومنهم ابن حزم فقد اطال بهذا الصدد في الملل والنحل وخلاصة قوله اجماع اهل السنة على بغي المحاربين لعثمان وانه ليس في عمله ما يستوجب القتـل وجماعة غيره من العلماء كلام طويل في الاعتذار عن عثمان « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبري فقد فتح باباً مخصوصاً في كتابه «الرياض النضرة في فضائل العشرة» رد فيه على من قال بصحة الاحداث التي نسبت الى عثمان « ومنهم » محمد بن يحيي الاشعري المعروف بابن بكر فتح باباً مثله في كتابه « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان »(١) استوفى فيه الكلام على مانسب الى عثمان من الاحداث وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث فاحببت ان انقل هذا الفصل هنا برمته اتماماً للفائدة قال

اعلم رحمك الله انّ الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان وتعلقوا عليه باشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة قد ذكرنا اكثرها فيما مضى ونذكر الان منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الامكان فنقول (فان قيل) فان ابن مسعود أنكر على عثمان في أمر المصاحف وتحريقها : فالجواب : انّ ابن مسعود دونه في الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قرآتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد وكان قد ولى زيد بن

(١) هذان الكتابان موجودان بالكتبخانة الخديوية المصرية وهما بخط اليد

ثابت أمر المصاحف ولو كان ذلك متوجهاً الى عثمان لكان ذلك طعناً على من قبله من الصحابة وقد روي ان علياً قال : عن ملاء منا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكراً لكان علي قد غيره لما صار الامر اليه فلما لم يغيره علم ان عثمان كان مصيباً فيما فعل (فان قيل) انه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة وانه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ثم التفت فقال ازيدكم : فالجواب : انه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق فأنزل الله (ان جاءكم فاسق بنباء) الآية فليس يلحق عثمان الا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وولى عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون البحرين فشرب الخمر متأولاً فجلده عمر وقدامة بدري من اولى السابقة والفضل وكذلك عثمان وولى علي المختار بن ابي عبيد المدائن فاتاه بصرة فقال هـذه من اجور المومسات : فقال علي (رض) قاتله الله لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو افسق من الوليد : فاخذ المختار المال ولحق بمعاوية . وكان علي يلقى من ولاته وعماله الامر الشديد فكان يقول وليت فلانا فاخذ المال ووليت فلانا فخانني الى غير ذلك ذكر هـذا ابو نعيم في كتاب الامة (فان قيل) فقد أنكر ابن مسعود وأبو ذر اتمام عثمان الصلاة بمني وانه صلى اربعا : فالجواب: انه قد اعتذر عن ذلك وقال ذلك رأي رأيته ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه فقيل لهما في ذلك فقالا الخلاف شر . وقد روي جماعة من الصحابة اتمام الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان واربعة عشر من الصحابة . والذي حمل عثمان على اتمام الصلاة انه بلغه ان قوما من الاعراب شهدوا الصلاة معه بمني . فرجعوا الى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمني . فلاجل ذلك صلاها اربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه . وكذلك فعل عمر في أمر الحج وان يجمعوا بين الحج والعمرة في أشهر الحج وخالفه ابنه عبد الله وقال سنة رسول الله أحق ان تتبع وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم واقامته على الاحرام حتى دخل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان انكارا لما تابعوه على رأيه (فان قيل) انه اعطى من مال الصدقة ووفرا قرباءه فالجواب : ان عثمان أعلم ممن أنكر عليه والامام اذا رأي المصلحة في فعل شيء فعله فلا يكون انكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها فانه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون

فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنايم خيبر في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الانصار لما رأى في ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم. وجهلوا ما رآه النبي عليه السلام من المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان لان مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من انكار من انكر عليه الا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الذي اعطى رسول الله كان من الخمس قيل له لو كان من الخمس لما أنكرت الانصار ذلك ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أعطيتهم من مال الله الا تراه استمال قلوبهم بقوله : الا ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون برسول الله الى بيوتكم : قالوا رضينا . والحديث مشهور (فان قيل) ان عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فان الامام ان يؤدب بعض رعيته بما يراه وان كان خطأ الا ترى ان النبي عليه السلام أقص من نفسه واقاد وكذلك أبو بكر وعمر أدبا رعيتهما باللطم والدرة وأقادا من أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه فوقع قميصه وقال تعالى : فاقتص : فعفا عنه . وجاء رجل الى أبي بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر انه استحملني (١) فحملته فبلغني انه باعه . ثم قال له دونك فاستقد فعفا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعدا فناوله عمر الدرة وقال له اقتص فعفا (فان قيل) عثمان لم يقد من نفسه قيل له كيف ذلك وقد بذل من نفسه مالم يبذله أحد خصوصاً يوم الدار فانه قال يا قوم ان وجدتم في كتاب الله ان تضعوا رجلي في قيد فضعوهما وقد ذكرنا ان عماراً تقاذف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فان قيل) اعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق . قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف نقبل هـذا وعثمان من اكثر الناس مالاً واكثرهم عطية ومعروفاً مع ان العصر لا يخلو من جهال يقولون مالا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال له رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبراً فقال له رجل اعدل يا محمد . فقال له (ويحك ومن يعدل اذا لم اعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من

(١) قوله استحملني اي طلب ان احمله على دابة

الجهال هذا فكيف بعثمان (رض) (فان قيل) انه ولى اقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وغيرهم: قيل: فمن اين لكم ان هؤلاء لم يعدلوا ولئن جاز لكم ادعاء الفسق في ولاة عثمان لجاز ذلك في ولاة عمر. فقد ولى المغيرة البصرة فرمي بما لا يثبت . وولى ابا هريرة البحرين فقالوا خان مال الله وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا . وولى عليّ الاشتر وامره ظاهر. وولى بن مخنف فاخذ المال وهرب . فلم خصصتم عثمان بالطعن مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد بن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكراً عليهم فيما طعنوا فيه وقالوا فيه وفي اسامة ابنه والحديث مشهور . وانما طعن الناس على عثمان للينه وحيائه وكثر في في ايامه من لم يصحب النبي عليه السلام ومن جهل فضل الصحابة (فان قيل) فقد نفى أبا ذر الى الربذة فرداً : قيل لم يكن ذلك نفياً وانما كان ذلك تخييراً له لانه كان كثير الخشونة لم يكن يداري من الناس ما يداري غيره فخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم وذلك انه كان بالشام فجرى بينه وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية هي في أهل الكتاب وقال أبو ذر هي فيهم وفينا فكتب معاوية الى عثمان في ذلك فكتب الى أبي ذر أن اقدم علي قال فقدمت عليه فانثال عليّ الناس كأنهم لم يعرفوني فشكا ذلك الى عثمان (رض) واستأذنه في الخروج من المدينة فخيره فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه فخاف الافتتان بهم هذا هو الصحيح. فأما الرافضة فيضمون عليه أشياء لا أصل لها. فان جعل اشخاص أبي ذر من الشام وحبسه بالمدينة طعناً على عثمان : قيل : الائمة اذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا الى حسمه وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لاجل أحاديث حدثوها الناس ومنعهم من الخروج ومنعهم من لبس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده فيرتكب بذلك ما ليس له مع ان للامام أن ينفي أقواماً اذا خاف الافتتان بهم . فقد روي أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشعرها فيه

هل من سبيل الى خمر فأشربها   أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

ونفى عليّ (رض) النعمان عن ملأ من الصحابة ونفى حسان أيضاً والله أعلم (فان قيل) ان جماعة وافقوا على حصره وقتله فقد روي أن حذيفة وعمارا قالا

قتلناه كافراً وان طلحة فيمن حضره وان علياً أعان على قتله وان الناس خذلوه وأسلموه الى غير ذلك من الامور : قيل: هذا لا يصح عن حذيفة (١) وانما المنقول عنه خلاف ذلك وانما هذا من كلام الرافضة وان نقل ذلك فلانه لا يخلو أحد من الصحابة من حاسد وممن يبغضه فكيف بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال والطعن على عثمان طعن على من تقدمه . وأما طلحة فانه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . وأما علي فانه قال غير مرة . اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان . وقال والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله . ولما بلغه قتله قال: اللهم اني لم أرض بقتله ولم آمر به . وقال فيه كان عثمان : من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين : وسئلت عائشة عن عثمان فقالت : قتل مظلوماً لعن الله قاتله اقاد الله من ابن أبي بكر وساق الله الى أعز بني تميم هواناً واهراق الله دماء بني بديل وساق الله الى الاشتر سهماً من سهامه : فوالله ما من القوم أحد الا أصابته دعوتها . وأما ترك الصحابة الانكار على من حصره فلقد ناصحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر يبلغ الى قتله وانما ظنوا أنها تكون معتبة . ومع ذلك فان عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال ولقد أنكروا وبالغوا في الانكار منهم علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة والزبير وابن عامر وحمل الحسن بن علي يومئذ جريحاً ولبس ابن الزبير الدرع مرتين رضي الله عنهم : وعن ابن عون لقد قتل عثمان وان في الدار لسبعمائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فانه انصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة صباحاً ومساء وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه هذا خلف . ومع هذا فينبغي الكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والامساك عما نسب اليهم من الرذائل وكذلك تباع الانبياء انما يذكر محاسنهم التي مدحوا عليها ويمسك عما سواه (فان قيل) ان عثمان حمى الحمى ومنع منه الناس قيل روي أن المصريين جاؤا الى عثمان فقالوا . ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة

(١) الصواب انه محمد بن أبي حذيفة وان صح ان الرافضة قالوا انه حذيفة فيكون ذلك افتئات ظاهر منهم وتحريف مقصود لان حذيفة من القائلين بتولي عثمان وممن لعن قاتليه كما رأيته فيما سبق من هذا الكتاب

يونس وقرأ هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منـه حراماً وحلالا) الآية فقالوا له أرأيت ما حميت من الحمى الله أذن لك أم على الله تفتري : فقال هذه الآية نزلت في كذا وكذا وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلي لا بل الصدقة فلما زادت ابل الصـدقة زدت في الحمى فجعلوا لا يأخذونه بآية الا قال نزلت في كذا وكذا حتى أخذ عليهم ان لا يشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين الى بلادهم راضين فرأوا في الطريق غلاماً معه كتاب فرجعوا اليه فقال اني لم آمر به ولا شعرت به فحصروه باغين عليه ظالمين له وقد حمى النبي صلى الله عليـه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين وقال البخاري• بلغنا ان النبي عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والربذة واستعمل على الحمى مولى له يدعى هنياً فلم يثبت على عثمان ذنب ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحريم وشق العصا وتفريق الجماعة ولكن الله اكرمه بالشهادة والحقه بالنبي عليه السلام وصاحبيه في الجنة حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلع القميص وحظى قاتلوه بالخزي واللعنة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام (فان قيل) فقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر فتنة تكون بعده وقال في عثمان فاتبعوا هذا واصحابه فانهم على هدى فاخبرنا من اصحابه : قيل اصحابه اصحاب رسول الله المشهود لهم بالجنة المذكور بعضهم في التوراة والانجيل الذين من احبهم سعد ومن ابغضهم شقي مثل علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان في وقتهم فانهم كلهم كانوا على هدى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم انكر قتله وكلهم استعظم ما جرى على عثمان وشهدوا على قتلته انهم في النار وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبد الله ابن سبأ واصحابه الذين اشقاهم الله بقتله حسداً منهم له وبغياً عليه وارادة الفتنـة وان يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما سبق عليهم من الشقاء في الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب الاليم فاجتهد الصحابة في نصرته والذب عنه وبذلوا أنفسهم دونه فأمرهم بالكف عن القتال وقال اني أحب ان القى الله سالماً مظلوماً ولو أذن لهم لقاتلوا عنه قال . ابن سيرين كان معـه في الدار جماعة من المهاجرين والانصار وابنائهم فقالوا يا امير المؤمنين خلّ بيننا و بينهم • فعزم عليهم ان يقاتلوا (فان قيـل) فقد علموا انه مظلوم وقد أشرف على الهلاك فكان ينبغى عليهم ان يقاتلوا عنه و ينصرونه وان كان قد منعهم : قيل : انّ القوم كانوا أهـل طاعة لامامهم وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل وقد فعلوا ما يجب

عليهم من الانكار بقلوبهم وألسنتهم وعرضهم لنصرته على حسب طاقتهم فلما منعهم من نصرته علموا انّ الواجب عليهم السمع والطاعة له ولا يسعهم مخالفته وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فان قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم وقد علم ان قتالهم عنه نهي عن المنكر واقامته حق يقيمونه : فالجواب : ان منعه اياهم يحتمـل وجوها كلها محمودة : احدها : علمه بانه مقتول مظلوم لاشك فيه لان النبي عليه السلام قد أعلمه انه يقتل مظلوما وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به تحقق انه مقتول وان الذى قاله النبي عليه السلام له حق لا بد ان يكون ثم علم انه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد وكان عنده من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها فاذا رضي فليس هذا بصابر اذ وعده من نفسه الصبر : الوجه الثاني : انه كان قد علم ان في الصحابة قلة عدد وان الذين يريدون قتـله كثير عددهم فلو اذن لهم بالقتال لم يأمن ان يتلف من اصحاب النبي عليـه السلام بسببه فوقاهم بنفسه اشفاقاً منه عليهم لأنه راع عليهـم والراعي يجب عليه ان يحفظ رعيته بكل ما امكنه ومع ذلك فقد علم انه مقتول فصانهم بنفسه : الوجه الثالث : انه لما علم أنها فتنة وان الفتنة اذا سلّ فيها السيف لم يؤمن ان يقتل فيها من لا يستحق القتل فلم يختر لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة اشفاقاً عليهم من تهم تذهب فيها الاموال وتهتك فيها الحريم فصانهم عن جميع هذا:ووجه رابع : وهو انه يحتمل أن يكون صبر عن الانتصار لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لان المؤمنين شهداء الله في أرضه ومع ذلك فلم يحب أن يهراق بسببه دم مسلم ولا يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في امته بسفك دم رجل مسلم فكان عثمان بهذا الفعل موفقاً معذوراً رشيداً مجبوراً وكان الصحابة في عذر وشقي قاتله وخاذله والله اعلم اه

﴿ ما قاله المعتزلة ﴾

وللمعتزلة ايضاً كلام طويل في الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل شأنهم في مثل هذه المباحث وقد اورد ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلاً بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا اتماماً للفائدة قال ابن ابي الحديد عند شرحه لكلام قاله

عليّ في شأن الاحداث لما اشار عليه اصحابه بمحاربة اهل الشام

ويجب ان نقول ههنا احداثه وما يقوله اصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى في كتاب الشافي في هـذا المعنى فنقول • ان قاضي القضاة قال في المغنى قبل الكلام في تفصيل هذه الاحداث كلاماً مجملامعناه ان كل من ثبتت عدالته ووجوب توليه اما على القطع واما على الظن فغير جائز ان يعدل فيه عن هذه الطريقة الا بامر متيقن يقتضى العدول عنها •

ثم استطرد في هذه المقدمة الى لزوم تولي عثمان وتعظيمه وحمل ما نسب اليه من الاحداث على حسن النية لما لعثمان « رض » من المزايا التي توجب احسان الظن به وان ما نسب اليه من الامور كلها محتمل فاجدر بمثله ان تحمل اعماله على الوجه الصحيح في مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا المعنى الى ان قال

وقد طعن الطعانون فيه • يعني في عثمان • بامور متنوعة مختلفة ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاماً مجملا يبين بطلانها على الجملة ثم نتكلم على تفصيلها وذلك ان شيخنا ابا علي قد قال . لو كانت هذه الاحداث مما يوجب طعناً على الحقيقة لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله ان يطلب المسلمون رجلا ينصب للامامة وان يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته ، فانه لاخلاف انه متى ظهر من الامام ما يوجب خلعه ان الواجب على المسلمين اقامة امام سواه . فلما علمنا ان طلبهم لاقامة امام انما كان بعد قتله ولم يكن من قبل والتمكن قائم . علمنا بطلان ما أضيف اليه من الاحداث. وليس لاحد ان يقول انهم لم يتمكنوا من ذلك لان المتعالم من حالهم انهم حصروه ومنعوه من التمكن من نفسه ومن التصرف في سلطانه خصوصاً والخصوم يدعون ان الجميع كانوا على قول واحد في خلعه والبراءة منه . ومعلوم من حال هـذه الاحداث انها لم تحصل اجمع في الايام التي حوصر فيها بل كانت تحصل من قبل حالابعد حال فلو ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الانكار عليه ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة اولى بذلك من الواردين من البلاد لان اهل العلم والفضل بانكار ذلك احق من غـيرهم فقد كان يجب على طريقتهم ان تحصـل البراءة والخلع من اول الوقت الذي حصل منه ما اوجب

ذلك وان لا ينتظر حصول غيره من الاحداث لانه لو وجب انتظار ذلك لم ينتـه الى حد الا وينتظر غيره . ثم ذكر انّ امساكهم عن ذلك اذا تيقنوا الاحداث منـه يوجب نسبة الجميع الى الخطأ والضلال ولا يمكنهم ان يقولوا انّ علمهم بذلك انمـا حصل في الوقت الذي حصر ومنع لان من جملة الاحداث التي يذكرونها ما تقدم هذه الحال بل كلها او جلها تقدم هذا الوقت وانما يمكنهم ان يتعلقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ الى ابن أبي سرح بالقتل. وما اوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب ان يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر • وبعد فليس يخلو من ان يدّعوا ان طلب الخلع وقع من كل الأمة او من بعضهم فاذا ادعوا ذلك في بعض الأمة فقد علمنا ان الامامة اذا ثبتت بالاجماع لم يجز ابطالها بلا خلاف لان الخطأ جائز على بعض الأمة • واذا ادعوا في ذلك الاجماع لم يصح لان من جملة أهل الاجماع عثمان ومن كان ينصره ولا يمكن اخراجه من الاجماع بان يقال انه كان على باطل لان بالاجماع لم يتوصل الى ذلك ولم يثبت . على انّ الظاهر من حال الصحابة انها كانت بين فريقين : اما من ينصره : فقد روي عن زيد بن ثابت انه قال لعثمان ومن معه من الانصار. ائذن لنا بنصرك . وروي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة ابن شعبة. والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض الا انه لو ضيق عليهم الامر في الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك. قال ثم ذكر ما روي من انفاذ امير المؤمنين الحسن والحسين وانه لما قتل عثمان لامهما على وصول القوم اليه ظناً منه انهما قصرا وذكر ان اصحاب الحديث يروون عن النبي « ص » انه قال : سيكون فتنة واختلاف وانّ عثمان واصحابه يومئذ على الهدى : وما روي عن عائشة من قولها ، قتل والله مظلوماً • قال ولا يمتنع ان يتعلق باخبار الاحاديث في ذلك لانه ليس هناك امر ظاهر يدفعه . نحو دعواهم ان جميع الصحابة كانوا عليه . لان ذلك دعوى منهم وان كان فيه رواية من جهة الآحاد واذا تعارضت الروايات سقطت ووجب الرجوع الى ما يثبت من احواله السليمة ووجوب توليه ولا يجوز ان يعدل عن تعظيمه وصحة امامته بامور محتملة فلا شيء مما ذكروه الا ويحتمل الوجه الصحيح . قال ثم ذكر ان للامام ان يجتهد رأيه في الامور المنوطة به ويعمل فيه على غالب ظنه وقد يكون مصيباً وان افضت الى عاقبة مذمومة اه

هذا مانقله ابن ابي الحديد عن قاضي القضاة اجمالاً فيما يتعلق بالدفع عن عثمان

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من أئمة الشيعة وليس من غرض كتابنا ايراد اعتراضه ومن اراد الاطلاع عليه فليراجعه في شرح نهج البلاغة

﴿ ما قاله ابن خلدون ﴾

(في سبب القيام على عثمان)

لما تكلم ابن خلدون على بدأ الانتقاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجني العرب وقيامهم على عثمان ولو أطال لابدع في المقال ولكن تقيد بما تقيد به المؤرخون واليك ما قاله في ذلك

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالامصار في حدود مابينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والانصار من قريش واهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، واما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والازد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان الا قليلاً منهم وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لانفسهم مع مايدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لامر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنفض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والانصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه ووافق ايام عثمان فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالامصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في اتباعهم وتنادوا بالظلم من الامراء في جهاتهم وانتهت الاخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل امرائه وبعث الى الامصار من يأتيه بصحيح الخبر :

ثم دخل في اخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة التي قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها الى بعض الاسباب

﴿ رأي لاحد العلماء في الفتنة ﴾

وسألت مرة صديقي العالم الفاضل السيد عبدالحميد افندي الزهراوي الحمصي رأيه في هذه الفتنة لما اعهده فيه من الاضطلاع وبعد النظر فاجابني حفظه الله ونفع بعلمه بالجواب الآتي يتكلم فيه على عموم الفتنة اي ما كان في عهد عثمان وبعده كلاماً اجمالياً جامعاً في مقدماته العالية لما يلزم محبي التاريخ الاطلاع عليه قال

﴿ ماجرى بين الصحابة ﴾

انّ الشبع التي قامت في أواخر الثلث الاول من القرن الاول قد غبي على أكثر المؤرخين امرها ولذلك دخل في سيرتهم شيء من الاضطراب حتى آل الامر الى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ وقول فريق آخر « لانخوض فيما جرى بين الصحابة » ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده المحمديّ مع انّ هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد في شيء . وعندي انه يضر الجهل بهذه الحادثة التي هي من الحلقات الأول لسلسلة تاريخ الاسلام . وقد سألتني ايها الصديق العزيز عن رأيي في هذا الأمر وانت اعرف به كأنك اردت ان تستعرض رأي غيرك مع رأيك الموفق. واني ذاكر في هذه الكلمات القليلة صفوة تاريخ صحيح مجمل:

لاجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يلزم ان نعرفهم في ايام حياته. ولأجل هذه المعرفة يلزم ان نعرفهم قبل بعثته وظهوره

﴿ العرب قبل بعثة النبي (ص) ﴾ العرب قبل ظهور الرسول (ص) ينقسمون بحسب مواقعهم الى (١) سكان الحجاز • و(٢) سكان ما عن يمينه مستقبلاً المشرق وهو اليمن • و(٣) سكان ما عن شماله • وهو الشام (اي الشمال) و(٤) سكان العراق العربي • و(٥) سكان ما بين ذلك كله وهي بلاد نجد .

من ثمة لا يسوغ لباحث ان يحكم بأمر عام على العرب من حيث انهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النحلة والعادة والمحلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قطان الشام والعراق واليمن كانوا بما آروا شيئاً من زخارف

الحياة وبما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الاسواق الجامعة قد الفوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مطلقة • وقريب منهم قطان نجد . اما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك كما ان الحجاز أبعد الديار العربية عن الحواضر وأبعد الارض عن شره الملوك . وكان اليمن والحجاز سندين لسكان الشام والعراق اذا رأو فيها محن السلطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز يلتمسون فيهما ما يشتهون من بعض اسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذي كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب واسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة • وهو الوطن الذي اعتلى فيه ايما اعتلاء شأن الحرية التي تربي الرجال والنساء أفضل تربية • وان العاقل لا يستطيع ان لا يعجب بما كان في مكة شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرفية التي تجلى في سمائها انوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهائها وهو حسير. وهذا من الاسباب في ان قريشاً كانوا أرقى عرب الحجاز •

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا التي تعرف الانسان انه لم يخلق سدى، وتعرفه ما يجب ان يقدمه اليوم ليلقاه غداً ، ومن المعارف الدنيا التي يظهر بها مبلغ استعداد الانسان للعلم والعمل• فجبر الله تعالى لهم هذا النقص اذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعلمه من الحكمة والمعارف العليا ما تتزكى به النفوس ، وتسعد به الشعوب ، ويسهل معه تحصيل المعارف الدنيا ، وجعل الأمة العالمة هي العليا •

﴿ العرب في حياة الرسول (ص) بعد بعثته ﴾ كتب هذا الامر العظيم للرسول المجتبى من قبل الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقام ينشر بينهم هذه المعارف . بيد انهم لا قبل لهم بتلقيها لانها من أفق أعلى مما تنظر اليه افكارهم فأخذتهم الدهشة وناؤا بجانبهم وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بداله من القول

وينبغي للمرء ان لا يتعجب ولا يسارع بهجو قريش الذين كانوا أرقى العرب فان كل غريب مستنكر بادئ بدء . وقريش لم يعتادوا الخضوع الذي يشعر به معنى الدين وليس ما دعاهم اليه من تلك المعارف العليا بالذي يعقل بالبداهة بل لا بد فيها من النظر والتأمل •ولنا ان نلومهم على ما فعلوه من ايذاء الرسول بالقول والفعل • ولكن هذا العيب لم يسلم منه (ويا للاسف) طائفة من طوائف الماضين

والحاضرين . [انظر ما يتقوّله المقلدون اليوم في المصلحين]على ان قريشاً لم تخل من رجال حكماء ادركوا هذا الفضل الذي جاءهم به ذلك المصطفى الكريم. أفلم يكن اولئك الذين نصروا هذه الحكمة الجديدة بادئ بدء من افاضل الحكماء . الم تكن قريش قبيلتهم ، ألم يكن بطن مكة دارهم ، ألم تك تلك الارض ارض الحرية مهدهم وظئرهم وحاضنتهم ؟

كأنّ قريشاً تلك الفتاة القوية كانت في غفلة عما في رحمها من الارواح السامية فلما ظهرت لم تلق اليها بالا حتى عاينت مراقيها البديعة في العالمين •

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية انشراح الصدر لنوال البشر كلهم « على قدر استعداد كل منهم » اسباب السعادة — على ضد رأي الذين يريدون حصرها في شعب مخصوص — ولذاك كانت دعوة هذا الرسول القرشي عامة لكل الشعوب فما لبث بعد ان دعا قومه حتى طفق يدعو مجاوريهم من القبائل ، ويراسل الملوك والاقيال.وكان اهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة • واليهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة اقام فيها يدعو المكيين ومن حولهم الى هذه الحكمة المباركة واشتد في اثنائها العداء بين انصار هذه الحكمة الجديدة التي اوحاها الله ، وبين انصار العادات القديمة التي سنها الآباء • فكانت الهجرة أسلم وأحكم ، وكانت هي باب ذلك الفوز العظيم •

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور الى طور . ثم صاح الحجاز بالعرب صيحة فاذاهم يتبدلون •

كان العرب قبائل متفرقة متعادية • يأكل القويّ الضعيف، ويهجم القريب على القريب ، فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم ، واتحدت وجهتهم ، ولانت منهم قسوة المتكبرين، واشتدت عزيمة المستضعفين ،وخضعوا جميعاً لاحكام امام واحد يروضهم بالعدل، ويروقهم بالفضل ، ينفذ فيهم امره وقضاؤه ويجل فيما بينهم ثناؤه يرضون عما رضي ، وينقمون عما نقم ، ان استنفرهم نفروا ، وان صرفهم انصرفوا ، ثم اذا شاء استصرخهم فاذا هم يلبون •

يعد هذا الذي ذكرناه تبدلاً عظيما في العرب . ولكن هل اصبح كل فرد من افرادهم متخلياً عن كل المساوي التي نهي عنها ، ومتحلياً بكل المحاسن التي أمر بها ؟ هل اصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده، او حسد كان قد خالط فؤاده ، او حقد اقتضاه مزاجه ،او تهور مضى عليه منهاجه ؟ هل خلق

لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد ، ورأي في كل الامور سديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ الاموال بالقمر ؟ الم يبق فيهم من زان ولا قاتل ، ولا سارق ، ولا غاصب . ولا نمام ، ولا مغتاب . ولا كذاب ، ولا مرتاب ولا ذي شهوة باطلة ، ولا ذي خصلة عاطلة ؟

سيحار في الجواب عن هذه السؤلات كثيرون لما يتبعها • اما الذين لا يرون العصمة لغير الانبياء فانهم لا يحارون وهم يقولون ان التبدل العظيم انما وقع في ثلاثة اشياء « ١ » في تحوّل الاكثرين عن سنن الآباء الى دعوة النبي من حيث الاجمال و « ٢ » في ترك الاكثرين للمنكرات الظاهرة من زنا ، وقتل نفس وشرب خمر ، وقمار . وسرقة ، وغصب مال . واتيانهم للمعروفات الظاهرة من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ، و « ٣ » في جمع الكلمة بعد التفرق . قلنا « الاكثرين » ولم نقل « الكل » لان تاريخ ذلك العصر على اصح الروايات يثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا الا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر ، ويقتلون النفس ، ويزنون . ويسرقون ، الخ وان كانوا قليلا . ودع عنك الذين كانوا يكذبون ، ويغتابون وينمون ، ويحسدون ، ويحقدون ، الخ

العرب بعد وفاة الرسول (ص) ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين اظهرهم • اما من بعده فيظهر ان القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوى ، ولم يتحلوا بالمحاسن قد صاروا كثيرين . يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض اركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضي الله عنه ان يعتبرهم كالمرتدين ، ويحاربهم كما كانوا يحاربون الكافرين

فهذا يدعونا ان لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (اي كل من رأى النبي وآمن به) اذ لو فسرنا هذا التفسير لما صحّ لأحد ان يقول كما هو المشهور ان كل فرد من افراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبةً حقيقيةً يصلح ان يطلق عليها لغةً وعرفاً اسم الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي واضرابهم رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء وامثالهم هم الصحابة الحقيقيون ، وهؤلاء وامثالهم هم الثقات العدول • واما اولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه فيسلمون له ولم يكونو يلبثون عنده الا عشية او ضحاها فيقال لهم مسلمون لمحمد عليه السلام • ولا يصح على هذا

التفسير الحقيقي ان يقال انهم صحابته • كما لا يصح عقلاً ونقلاً ان يقال ان كل فرد من امثال هؤلاء عدل ثقة • وكذلك الصبيان الذين كان عمر احدهم في حياته صلى الله عليه وسلم سبعاً او تسعاً مثلا من السنين •

ثم ان الذين نقول عنهم انهم عدول كما شهد لنا التاريخ لا يفرض علينا ان ننزههم كما ننزه الانبياء ورب العالمين • ولا يجب علينا ان نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لا يعرفون اصول الدين •

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون انه لا فرق بين ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم وما يراه احد اصحابه • لانه اما ان يكون للنبي نص في الشيء فالامر ظاهر سواء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص او خالفه لعدم العلم بالنص • وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز في حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم • واما ان لا يكون للنبي نص فيستوي الصحابة في نظر بعضهم • ولم يكونوا يساوون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احداً بل يستوون في نظر التابعين عليهم الرحمة •

ثم لا شك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ولكن حديث « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » قد صرح العلماء بأنه موضوع وقد صحّ ما معناه « انّ أمة النبي يردون عليه الحوض فيذاد ناس منهم فيقول يا ربّ أصحابي • فيقال له لا تدري ما أحدثوا بعدك »

﴿ الذي جرى بين الصحابة ﴾ اذا تمهد هذا فالاختلاف الذي جرى بين الصحابة لا شك بأن جرثومته من فئة لم تأخذ بنصيب واف من صحبة النبي ، ولم تتضلع من التهذيب المحمدي ، واني أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مثلهم كثيرين من غيرهم ولكني لا أثبت لغير الانبياء عصمة مطلقة كعصمتهم فأن هذا من اصول هذا الدين

هذا هو الأجمال ومنه يأخذ الاذكياء آراء مهمة عندما يقرأون الحوادث التي جرت • ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبي في هذه المختصرة ان أضيف من اجله الى هذا الأجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ومبصرات اياها بعض الدقائق :

(١) ان القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش • وأكثر افرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن ان يصحبوه — ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعةً من نهار • ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم . وهكذا حاربوا مع من بعده •

(٢) ان القبائل البدوية كانت متعادية في الجاهلية . ولما تآخت في الاسلام كان عرق العداوة يضرب في بعضها احياناً . فكانت كل قبيلة تشايع رئيساً من رؤساء قريش وتتمنى له الدولة ابتغاء ان تتميز لديه على اعدائها الاقدمين .

(٣) ان القبائل البدوية كان قد اضر بها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها ان تتضلع من نعيمها . وكانت تحين ان تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء اثر النبي صلى الله عليه وسلم الى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار ، وتوارث المناصب بالأنساب والحيل ، لا بالمواهب والعمل .

(٤) ان الأمم العجمية — من روم وفرس وسريان وعبرانيين وغيرهم — من لم يدخل في الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً ببث الدسائس ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة المحمدية على ايدي انصارها الحقيقيين . ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلبهم حب عادات سالفة لهم قومية او دينية . وما زالوا بعد امتزاجهم بالعرب حتى أدخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناحيهم .

(٥) بمجموع ما قدمنا الأشارة اليه اختل — بعض الاختلال — ذلك المحيط الذي كان بالامس أصح محيط على الأرض . ولم يكن اختلاله في ايام خلافة الصديق واوائل خلافة الفاروق رضي الله عنهما الا طفيفاً . واما في اواخر خلافة الفاروق فاشتد ذلك المرض الذي حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة في اواخر ايام علي رضي الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والملك . وهذا بعض ما كان يتمناه رجال من قريش والقبائل البدوية والأمم العجمية اه

هذا ما قيل في فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية اوردته في هذا الكتاب دون ان اعلق عليه شيئا من الرأي اذ آرائي الخصوصية بسطتها كل رأي في محله من هذا الكتاب فعلى القاريء ان يأخذ مما قلت وقال غيري بما شاء اذا ظهر له انه الحق اذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام

﴿ صفة عثمان ﴾

في تاريخ ابن عساكر كان عثمان ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية عظيمها اسمر اللون عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين كثير الشعر وكان يصفر لحيته ويشد اسنانه بالذهب

﴿ باب ﴾

(ولده وعماله)

(ولده)

ولد عثمان بن عفان هم عبدالله الاكبر وأمه فاختة بنت غزوان : وعبدالله الاصغر أمه رقية بنت رسول الله وتوفي صغيرا : وعمرو : وأبان وخالد : وعمر : وسعيد : والوليد وأم سعيد : والمغيرة : وعبدالملك : وأم عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى أولاده وأشرفهم عقبا . وكذلك ابنه عبدالله الاكبر وله عقب كثير وممن اعقب من اولاده ايضا خالد وقد درج عقبه وله من الاحفاد من ولد عمرو وعبدالله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة في المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم

﴿ عماله ﴾

كان عماله على الامصار في السنة التي توفي فيها على مكة عبدالله بن الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي وعلى صنعاء يعلى بن منية وعلى الجند عبدالله بن ربيعة وعلى البصرة عبدالله بن عامر وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري وعلى الاردن أبو الاعور السلمي وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني وعلى البحر عبدالله بن قيس

الفزاري وعلى الكوفة أبو موسى الاشعري على صلاتها وعلى خراجها جابر
ابن فلان المزني وعلى حربها القعقاع بن عمرو وعلى قرقيسيا جرير بن عبدالله
البجلي وعلى آزربيجان الاشعث بن قيس الكندي وعلى حلوان عتيبة بن
النهاس وعلى الماه مالك بن حبيب وعلى همذان النسير وعلى الري سعيد بن
قيس وعلى اصبهان السائب بن الاقرع وعلى بيت المال عقبة بن عامر وعلى
قضاء عثمان زيد بن ثابت واما عامل مصر فقد كان عبدالله بن سعد
كما رأيت فيما مرّ وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد بن أبي حذيفة

ربما يتبادر الى ذهن القارئ من اسماء هؤلاء العمال ان ليس فيهم من
قرابة عثمان الا معاوية وعبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد مع ان الفتنة
قامت لاجل ان عماله كلهم من ذوي قرابته فلكي يكون القارئ على بصيرة
ننبهه الى تقسيم الولايات في عهد عمر بن الخطاب فيرى ان الولايات
الكبرى هي مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة وما بقي فمضموم
اليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة . والكوفة وارمينيا
تابعة لقنسرين . وافريقيا تابعة لمصر . والشام تتبعها اقسامها . وكل هذه
الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولاتها من ذوي قرابته والكوفة وان
كان عليها أبو موسى الاشعري لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل
الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التنبيه

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب وانّ
الأمة خطت يومئذ خطى قليلة الى الامام في شؤونها الاجتماعية ولم تخرج
مع ما صار اليها من كنوز فارس والروم وملك الاكاسره والقياصرة عن

طريق القصد في المعيشة لحمل عمر لهم على التوسط في العيش وعدم الركون
الى الراحة في ابان الفتح ومصادمة جيوش الامم وانه لذا كان لا يرضى
للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعمال الارضين . ولما استكمل
الفتح على عهد عثمان ونزع الناس بالضرورة الى طلب الراحة واخذوا بقسطهم
من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من اهل المدن واستخشنوا عيش
البداوة واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع وكان عثمان (رض) ليس
من الشدة عليهم والاخذ على شكائمهم بالمكانة التي كانت لعمر قبله طمحت
الى ذلك نفوسهم، واتجهت لمجارات الشعوب الاخرى رغباتهم ، فاستقطعوا
من عثمان القطائع واستأذنوه في استثمار الارضين التي جلى عنها أصحابها من
أهل الذمة فاقطعهم اياها فقاموا على حرثها واخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك
فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان وروى البلاذري في فتوح البلدان
انّ عثمان لما ولى معاويه على الشام والجزيرة أمره ان ينزل العرب بمواضع
نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعمال الارضين التي لا حق فيها
لاحد فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمدبر اخلاطاً من قيس وأسد
وغيرهم . وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على
ذلك وألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل
العطاء ثم جعلهم مع عماله : وفي هذا دليل على تدرج القوم في مدارج
الرقي وجنوحهم الى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم الى الاستثمار
واذ كان عثمان غنياً جداً (١) محباً للعمران ميالاً الى التأنق في المعيشة والتطاول

«١» ذكر المسعودي ان عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون

في البنيان وانفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وذوي قرباه فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه وكانوا في عصر عمر لا يجرأون على اقتناء الضياع والدور والاكثار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش وبنى لنفسه ولنسائه واولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره وشيد داره بالحجارة والكلس وجعل ابوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمد المرفوعة وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب اتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى وجنحوا الى الحصول على المال والتنعم في المعيشة فابتنى سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم القصور خارج المدينة وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمذهبه فذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا عن مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وداراً بمصر ومثلها بالاسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وقال المسعودي بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين الف دينار والف فرس ومثلها من العبيد والاماء وخططاً بحيث ذكر من الامصار : وربما بلغت

ومائة الف دينار ومليون درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة الف دينار : وفي رواية لابن عساكر ان الثائرين انتهبوا ماله كله يوم قتل وكان ثلاثين الف الف درهم وخمسمائة الف درهم « اي ثلاثين مليون ونصف » ومائة وخمسين الف دينار وترك صدقات كان تصدق بها بين اريس وخيبر ووادى القرى قيمة مائتي الف دينار وفي هذه الرواية من الاغراق والمبالغة مالا يخفى ولعل رواية المسعودي اصح

ثروته على ما في قول بعضهم نحو نصف مليون واكثر هذه الثروة كانت من التجارة فانهم قالوا ان الزبير كان تاجراً مجدوداً (اى محظوظاً) : قال المسعودي وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودي بدار الطلحتين) وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية شراة اكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر (الطوب) والجص والساج ، وكانت ثروته من التجارة ايضاً فقد ذكر ابن قتيبة في المعارف ان طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودي عن ثروة طلحة وان كان لا يخلو من اغراق ومبالغة الا انه يدل على ما صار اليه القوم من السعة والميل الى اقتناء المال: ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف(١) وزيد بن ثابت ويعلي بن أمية وانهم بنو الدور وشيدوا

(١) وذكر في اسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقال ان عامة ماله من التجارة وانه كان عظيم التجارة مجدوداً فيها حتى قدمت له مرة عير فيها سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق وكان كثير التصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشطر ماله وتصدق مرة باربعين الف دينار وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله وهذا يدلك على ان اكثر غنى الصحابة انما كان من التجارة ايام اليسر واقبال الدنيا على المسلمين وانهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من البذل وعفة النفس كما تدلك عليه اخبار عبد الرحمن وطلحة واشباههم من كبار الصحابة واغنيائهم الذين انما تحصلوا على الثروة بالعمل والجد والاتجار وانفقوها في طرق البر وسبيل الخير والمحمدة ولابي بكر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن واضرابهم من اغنياء الصحابة اخبار كثيرة في هذا الباب لا محل لذكرها هنا وكلها ادلة واضحة على وجوب السعي والعمل وان العمل لازم من لوازم الحياة فأمر به الاسلام وان الغنى والمال ضرب من ضروب العزة التي وصف الله بها المؤمنين لذا اشتغل في اقتنائه الصحابة والتابعون فاخذوه من الطرق التي يأمر بها الشرع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون لا سيما في هذا العصر الذي اشتد فيه تزاحم الامم على

القصور وتركوا اموالاً وضياعا كثيرة وان سعد بن ابي وقاص ابتنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات ومثله فعل المقداد بداره في الجرف على اميال من المدينة :

وفي كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال في عصر عثمان وجنوحهم الى التنعم بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار الشكر للنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس الى المنكرات ومما لا ريب فيه انّ عصر الصحابة مهما انطلق أهله في مجال السعة والنعيم لا يتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بدّ من صرفه في وجوه التنعم بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات حتى لقد كان في المدينة من آثار الرفاهة وحب التلهي لما فاضت الدنيا على المسلمين ان ظهر فيها طيران الحمام والرمي على الجلاهقات « قوس البندق » فعدّوها منكراً أمر به عثمان فأزيل في الحال واستعمل على ذلك رجلاً من بني ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات :

استكمل الفتح في عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سياسة الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاها الخلفاء ، وتبعهم فيها الولاة والامراء ، فازدهى

موارد الرزق وتفنن الاوربيون بضروب السعي والاحتيال على جلب الثروة حتى سدوا في وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء في السعي وتقاصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجاراة الاوربيين في فنون التجارة والصناعة وسبب ذلك كله الجهل بتاريخ سلفهم والاستسلام للاوهام الباطلة التي اوهنت عزائمهم وذهبت بملكة النشاط منهم ولا حول ولا قوة الا بالله

امر الدولة الجديدة . وعلت كلمة العدل، وكثر المال وامتد رواق العمران . وراجت التجارة وتصاعدت اثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشرى بنسبة كثرة النقد فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة الف درهم ونخلة بألف درهم كما نقل هذا المحب الطبري في الرياض النضرة من رواية أبي عمرو عن محمد بن سيرين . وهذا غاية ما تصل اليه الممالك في ترقي العمران . وتوفر اسباب الكسب . ونموّ الثروة بين طبقات الناس

بينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يستمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الأمم ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ويسيرون سيرهم الحثيث في الفتح ويرفعون لاخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الروم والفرس صائر اليهم وعثمان في مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم . اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم في لج من التخاصم ما بلغوا ساحله الاّ وهم احزاب متفرقة وشيع متباينة فكان عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة . والراحة والتعب . والغنى والطمع . والقوّة والضعف . ومنه بدأت سلسلة الاحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الاسلامية وحوّل مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية

انّ الدول اذا قامت في أول نشأتها بقوّة الحياة الملية والتناصر القومي ونشأت على اساس الوحدة في الاعتقاد والوحدة في الفكر بين اصناف الأمة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الأخرى قلّ ان تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن او يظهر فيها من الاحزاب والشيع لهذا فانّ اضطراب

امور الدولة وتفرّق اغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في ارجاء ممالكها القاصية والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة انها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الامر، ولا تمد الى الدولة يد الغدر، حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام عليّ والاحزاب الأخرى ثم مصير الخلافة الى بني أمية ولولا ما حبّب الى الناس من خلافة الراشدين، وما بهرهم من قوّة اولئك الفاتحين، لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ بالنار، واستفز الطيش الاشرار. لكن الملك الذي يحصن بالعدل والدولة التي تقوم على الاساس الذي ذكرنا لا يزعزعهما تفرق المالكين الى احزاب، وشيع ولا يطمع في جانبهما الطامعون: والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون:

هذا ما اخترت ايراده من سيرة عثمان رضي الله عنه واسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان كما اسأل القراء المعذرة في تبسطي في اخبار الصحابة وتوسعي في وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة واسترسال قلمي من ذلك بما لم تألفه انظارهم من كتب مؤرخينا الذين عاهدوا أنفسهم على القاء الكلام عن اخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم في اخبارهم مع ان ما نقلوه من المطاعن وملأوا به صحفهم من اخبار الفتنة هي بمجردها أضر على الصحابة واشدّ جناية على التاريخ من التبسط في اخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت اليهم اذ في الوجه الثاني طريق للمؤرخ يسلكه في تبرئة المتهمين منهم بباطل والاعتذار عمن يظن انه اخطأ منهم ليدفع بهذا الشبه التي تكاثفت سحبها على النفوس من قراءة اخبار الفتنة التي ترمي كبار الصحابة بوصمة التحزب

على عثمان اذا حملت على ظاهرها كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها وتوسعوا في التنقيب عنها والتدقيق فيها وبسطوا للقراء ما ظهر لهم من اسبابها الخفية والجلية وكل ما يتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكانته من النفوس الضعيفة فتسيء الظن في رجال هم دعائم الاسلام وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين وبجدهم تأسست دولة المسلمين. وما ضرّ الصحابي منهم لو نقبنا عن سيرته ورأينا ما يوجب النقد في اخباره فاذا التمسنا له العذر فلم نجده قلنا انه مجتهد اخطأ في اجتهاده وليست العصمة الا لله وللرسل وما ادعاها لنفسه احد من الصحابة قط. وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لما نهى عن الاسراف في مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك بل قال: صدقت رجل اخطأ وامرأة أصابت: وكذلك عثمان فانه اعترف بخطائه على ملاء الناس اكثر من مرة كما رأيت فيما مرّ من سيرته: والشواهد على هذا كثيرة في اخبار الصحابة لا محل لايرادها هنا وفيما ذكر كفاية للعاقلين

وها انا ابدأ بسيرة من اشتهر من الرجال في دولة عثمان رضى الله عنه وهما حبيب ابن مسلمة الفهري وعبد الله بن عامر بن كُرَيز

﴿ عبد الله بن عامر ﴾

﴿ باب ﴾

﴿ نسبه ومولده ونشأته ﴾

(نسبه)

هو عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قُصَيّ القرشي العبشمي وهو ابن خال عثمان بن عفان . أم عثمان أروى بنت كريز وأمها وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي (ص) وأم عبد الله دجاجة بنت اسماء بن الصلت السلمية

(مولده ونشأته)

ولد عبد الله بن عامر فى مكة بعد الهجرة باربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساكر وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساكر وقد أجمع علماء قريش ان رسول الله أتى بعبد الله بن عامر في فتح مكة فجعل ينفث عليه وجعل عبد الله يبتلع ريق النبي (ص) فقال انه لمسقا وفي لسان العرب انه صلى الله عليه وسلم قال له : ارجو ان تكون سقاء : اي لا تعطش . وفي رواية لابن عساكر انه لما جيء به لرسول الله (ص) قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقا : فلم يزل عبد الله شريفا سخياً كريماً كثير المال والولد

فعبد الله بن عامر ولد مكياً ونشأ مسلما مدنياً وقد كان يعد في الطبقة الاولى من أهل المدينة كما في رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حداثة سنه فوليها وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين فقام باعباء الولاية أحسن قيام وقاد الجيوش اعظم قياد وأكمله ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية وصار الى المسلمين ملك الاكاسرة فخفقت اعلامهم على اقاصي بلاد فارس الشرقية والغربية وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من

رجال الفتح الذين خلدوا لتلك الامة فخراً لا تطاول اليه الاعناق ولا يدانيهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار ابن عامر في هذا الكتاب وكما ترى من تتمة خبره فى فتح تلك البلاد مما يأتي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(ولايته على البصرة وفتوحاته)

ذكرنا فيما تقدم ان عثمان (رض) عزل عن البصرة أبا موسى الاشعري وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨هـ) وقيل سنة (٢٩) فقال أبو موسى يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات يجمع له الجندان وزاد في رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم في سيرة عثمان وان يغزوا البلاد التي انتقضت وهي فارس وخراسان فسار بالناس الى فارس والتقى بالثائرين في اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار الى اطراف ولاية فارس فدوخها وأخضع السائرين فيها ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده في اطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيل الخبر عن ذلك وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فافتتح امامه الطبسين وهما بابا خراسان وسار الى قهستان وأبرشهر فلقيه قوم يسمون الهياطلة فقاتلهم الاحنف فهزمهم وخرج اليه أهل قهستان فقاتلهم حتى الجأهم الى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة الف درهم ثم قصد ابن عامر البلاد التي من اعمال نيسابور كبشت وخواف واسفرأين وارغيان ثم قصد نيسابور بعدان استولى على كل اعمالها فامتنعت عليه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من ارباع

المدينة مرزبان يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامان على ان يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلاففتحوا الباب وتحصن مرزبان المدينة في حصنها ومعه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على الف الف (مليون) درهم وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي . ثم أرسل ابن عامر قواده يضربون في اطراف البلاد . وقدم في أثناء ذلك بهمنة والى أبيور علي ابن عامر فصالحه على اربعمائة الف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستمائة الف درهم . ووجه ابن عامر جيشاً الى هراة وقيل سار اليها بنفسه فقاتل أهلها فأعياهم فأتاه صاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس . أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الارضين . وصالحه على هراة سهلها وجبلها على ان يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وان يقسم ذلك على الارضين عدلاً بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة . وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر اه

وهذا الكتاب يدل على حرص الامراء يومئذ على عمران البلاد اشرطهم على المرازبة اصلاح الارضين وقد مرّ مثله في سيرة عمر وما كان يشترطه الامراء في فتوحهم من اصلاح الطرق والجسور على أهل البلاد المفتتحة كما يدل ايضاً على انّ المسلمين كانوا يتركون المرازبة في البلاد التي تدخل تحت سلطانهم صلحاً شبه ولاة من قبل الخليفة او ولاة الثغور بدليل قوله في اول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله

وحسن النظر في امور البلاد لاسيما وانّ المسلمين كانوا يعهدون الى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها في احوالهم الشخصية على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ويتركون لغير المسلمين الخيار في ذلك بين الرجوع الى عوائدهم وبين الرجوع الى قضاة المسلمين وشرائعهم فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين بايصاء حكام البلاد والتشديد عليهم في القيام على العدل فيما وسد اليهم من امور الرعية .

هذا وهنا أمر آخر نحب التنبيه عليه وهو انّ اكثر البلاد التي أخذت صلحاً وترك أمرها لولاتها من الاعاجم لم يستقم أمرها للدولة بل كانت لاتلبث ان تخرج على سلطان المسلمين وينبذ أهلها طاعة الخليفة باغراء اولئك الزعماء فان اكثر البلاد النائية عن نظر ولاة الثغور البعيدة عن التأثر بسطوة الخلافة مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزوين كانت تنتابها الثورات الى اوائل عهد الامويين كما رأيت وسترى ولما استفحل الملك وتبسط العرب في الممالك وانتظمت لهم الامور واختلطوا مع الأمم في المعاملة والمصاهرة والدين وتولوا بانفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم في البلاد وسكنت اليهم الشعوب .

والعجيب في هذا الامر ان ينزع القوم الى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة في عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملأوا الارض بالعدل وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر وفي بلاد ترك لاهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ولما انقلب امر الخلافة الى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأخذتهم الدول الاسلامية بالارهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا للدولة وخضعوا لولاتها كل

الخضوع . ولا تعليل لهذا الا ان الشرقيين أمم قد تأصل في عروقها دم العبودية فصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها الاستبداد ، ولا يُطَامِنُ من اشرافها الاستعباد ، فهي مع الظالم اطوع له من الظل ، وأذل لسطوته من الذل ، كما يشاهد ذلك فيهم الى الآن في كل مكان ، فانك حيثما نظرت في المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصي الامم والظلم نشر عليهم بنوده ، وتجاوز الحكم المطلق فيهم حدوده ، حتى أودى بهم الى الهلاك . وبدولهم الى الزوال ، وبممالكهم الى الاضمحلال ، وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس . ولا عروق تنبض . ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم ، وتستنقذهم من هوّة العدم ، والمغرب امامهم يسوق اليهم العبر سوقاً ويعلمهم كيف تكون حياة الأمم . وبماذا تسعد الشعوب . وتشاد الممالك . وكيف يقضي العلم على الظلم وأهليه ، والاستبداد وعاشقيه ، وبم يسود الانسان ، وتعلو كلمة العدل في كل مكان ، وهم عن ذلك في شاغل من الخمول . واشتغال بالسفاسف . واعراض عن شؤون الحياة الطيبة . رضاء بالعبودية لطواغيت الرياسة . واستسلاماً للقضاء . وما نهاية ذلك الا الفناء العاجل بازاء الأمم الغربية التي استفاض نور مدنيتها على الارض . واندفع تيارها على كل الممالك . فلا يقوم في وجهه الا قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بعاقبة الامور

هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين في ولاية ابن عامر من بلاد فارس الشرقية والغربية وانما اجتزأنا هنا بذكر ما فتحه ابن عامر بنفسه وفاء بالوعد الذي تقدم لنا وبياناً لفضل هذا الرجل الصغير يومئذ سناً الكبير همةً ونفساً فلا حاجة للمزيد

﴿ ولايته الثانية على البصرة ﴾

(وشيء من اخباره فيها)

تلك ولاية عبد الله بن عامر الاولى وكانت في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد وليها مرة ثانيةً على عهد معاوية وذلك انّ معاوية لما صفت له الخلافة أراد ان يولي عتبة بن أبي سفيان على البصرة فكلمه ابن عامر وقال له انّ لي بالبصرة ودائع وأموالاً فان لم تولني عليها ذهبت . فولاه البصرة فقدمها سنة احدى وأربعين وجعل اليه معاوية خراسان وسجستان فاستعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين فسار قيس الى بلخ فنازلها فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حريصين على عمران البلاد وتسهيل السبل فتقدم الى عطاء بن السائب مولى بني ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة أنهر من انهر عمالة بلخ فبناها وسميت قناطر عطاء ثم انّ ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم فخاف قيس ابن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا امير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه لتضييعه الثغر واهماله امر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا فضربه وحبسه . واستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وأخذ بتدويخ البلاد التي نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلةً يجالد المشركين ويمنعهم عن سدّها حتى اصبح ولم يقدروا على سدّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة . ثم سار عبد الرحمن الى زران وبست

وخشك فظفر بأهلها وفتحها كلها . ثم سار الى زابلستان وهي غزنة واعمالها وقد كان اهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها .

﴿ شيء من اخباره في البصرة ﴾

هذه فتوح ابن عامر وولاته في ولايته الثانية على البصرة . واما غير ذلك من اخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قويت وشرهم قد استشر فخرج منهم على ابن عامر سهم بن غالب الهجيمي في سبعين رجلاً منهم الخطيم الباهلي فنزلوا بين الجسرين والبصرة فمر بهم عبادة بن فرص الليثي من الغزو ومعه ابنه وابن اخيه . فقال لهم الخوارج من انتم ؟ قالوا قوم مسلمون . قالوا كذبتم . قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله (ص) مني فاني كذبته وقاتلته ثم اتيته وأسلمت فقبل ذلك مني . قالوا انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه . فخرج اليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم وقتل منهم عدة وانحاز بقيتهم الى اجمة (غيضة) وفيهم سهم والخطيم فعرض عليهم ابن عامر الامان فقبلوه فأمنهم فرجعوا . فكتب اليه معاوية يأمره بقتلهم فابى وكتب اليه اني قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده زياد في ولايته

واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رؤفاً بأهلها كريماً عليهم لين الجانب لا يأخذ على ايدي السفهاء منهم ففسدت عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم لا سيما في بلد كثر فيه الخوارج الذين هم اعداء كل سلطان والمناهضون لكل امير يضاف الى هذا ما فطر عليه القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الامراء ومواجهتهم بقول الحق وأخذهم لهم بالهفوات

روى ابن عساكر عن ابي داود قال خرج عبد الله بن عامر الى الجمعة (أي صلاة الجمعة) عليه ثياب رقاق وابو بلال « هو مرداس بن أُدَيَّة من رؤس الخوارج » تحت المنبر وذلك في يوم الجمعة فقال ابو بلال . انظروا الى اميركم يلبس لبس الفساق . فقال ابو بكرة وهو تحت المنبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أهان سلطان الله في الارض اهانه الله)

لهذا واشباهه فسدت عليه البصرة فشكى ذلك الى زياد بن أبيه . فقال له جرد السيف . فقال اني اكره انْ اصلحهم بفساد نفسي . وهذا منه منتهى العدل والتجافي عن الاستبداد بالناس والاخذ بالقوة الاّ انه نسب بذلك الى الضعف فعزله معاوية عن العمل وذلك ان ابن عامر أوفد وفداً من البصرة الى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن أبي أوفى اليَشْكُريّ المعروف بابن الكواء فسألهم معاوية عن اهل العراق وعن أهل البصرة خاصة. فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين انّ اهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم سلطانهم. ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه. فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر لكن لم يرَ مفاجأته بالعزل اما احتراماً له واعظاماً لشأنه واما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس اليه وحب قريش له فكتب اليه كما في رواية ابن عساكر يسأله ان يزوره فقدم عليه وكان يأتيه ويتغدى عنده ثم دخل اليه يوما يودعه راجعاً الى عمله: فقال له اني سائلك ثلاثاً : فقال هي لك وانا ابن أم حكيم : قال ترد علي عملي (أي ولاية البصرة) ولا تغضب : قال قد فعلت : قال وتهب لي مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لي دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحم :

فقال ابن عامر واني سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً فقل قد فعلت :

قال معاوية قد فعلت وانا ابن هند : قال ترد اليّ مالي بعرفة : قال قد ردتت اليك مالك بعرفة : قال وتنكحني هند بنت معاوية. قال قد فعلت: قال ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع أثري : قال قد فعلت :

هكذا نقلوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة وعدم ترديده فيما طلبه ابن عامر منه مع انّ معاوية لا يفعل عبثاً وليس هو في حاجة لدور ابن عامر والسرّ في هذا انّ معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس وانه اصبح من رجال قريش النجباء ، وابنائهم العظماء ، وانه ممن يشار اليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والاحسان ، يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عن من ترى لهذا الامر (يعني الخلافة) من بعدي : قال وأمّا فتاها حياءً وحلماً وسخاءً فابن عامر :

انّ بلوغ ابن عامر هذه المكانة من نفوس الأمة هو الذي دعا معاوية لان يتلطف بعزله ويطلب منه ماله في عرفة ودوره في مكة وذلك كي لا يقصد بعد عزله مكة وكي يذهب ذهاب دوره منها بأمله في السكنى فيها والاقامة في ربوعها حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من عش النازعين الى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ولذا رأى معاوية من الحزم ايضاً ان يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره وذا من جملة ما عرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واستلم قياد الرجال

﴿ باب ﴾

(ما ذا كان منه في الفتنة)

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الامصار عليه اهل الكوفة وأهل

مصر وأمّا أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه لان ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحببه الى الناس لهذا لما استعفى عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه ان يقرّ ابن عامر على البصرة ليتحبّبه اليهم كما ذكر ذلك ابن عساكر ولما كثر الارجاف بالعمال واستعرت نار الفتنة دعا عثمان (رض) ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يغني عن الاعادة ثم لما حوصر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع ابن مسعود على جيش لانجاده حتى اذا كانوا بأداني الحجاز خرجت خارجة من أصحابه فلقوا رجلاً . فقالوا ما الخبر . قال قتل عدوّ الله نعثل وهذه خصلة من شعره . فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله فكان اول مقتول في دم عثمان ثم رجع مجاشع الى البصرة . فلما رأى ذلك ابن عامر حمل ما في بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخص الى مكة فوافي بها طلحة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام . فقال لا بل ائتوا البصرة فأن لي بها صنائع وهي ارض الاموال وبها عدد الرجال والله لو شئت ما خرجت حتى اضرب بعض الناس ببعض . فقال طلحة هلاّ فعلت أأشفقت على مناكب تميم . ثم أجمع رأيهم على المسير الى البصرة فاقبل بهم اليها. هكذا روى ابن عساكر وروى الطبري في ذهاب ابن عامر الى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك وأنهم قالوا له قبحك الله. فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما اقام معاوية فنكتفي بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب . فلم يجدوا عنده جوابا مقبولاً

وانت ترى من هذا انّ ابن عامر كان محل الظن في ان يعمل عملاً كبيراً بعد قتل عثمان وتشتت رأى الأمة لانه كان من وجوه قريش وذوى

الكلمة العليا في الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحياد حتى وصل مكة فانضم الى طلحة والزبير لذا أنّبه القوم على تركه البصرة مع قدرته على المقام فيها والاستقلال بعمل يدبره حتى استضعف جانبه لذلك كما يؤخذ من رواية الطبرى عن مسيرامراء عليّ الى الامصار بعد البيعة له اذ جاء في تلك الرواية ما نصه

واما عثمان بن حُنيف (اي عامل البصرة) فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم . ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع اهل المدينة فنصنع كما صنعوا . اه

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب او تأنيب وانما يستغرب عدم الرأي والاستقلال ممن تظن فيه القدرة على العمل كما لايخفى على الناقد وكيفما كان الامر فان ابن عامر لم يستقل بعمل في الفتنة في بادىء الامر سواء كان لرغبته في الحياد أو لعدم الحزم فانضم الى طلحة وحزبه وعاد معهم الى البصرة وحضر وقعة الجمل ولو انفرد بنفسه في عمل لرأى اعوانا كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب اليه ولانه من وجوه قريش وأمجادهم كما يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن جُويرِيَّة بن اسماء عمن سمعه يقول . قال عليّ بن أبي طالب يوم الجمل أتدرون من حاربت؟ حاربت أمجد الناس أو أنجد الناس : يعني ابن عامر : وأشجع الناس : يعني الزبير : وأدهى الناس : يعني طلحة .

قال ابن عساكر بعد ان اورد حديث اقبال القوم الى البصرة ومعهم ابن عامر : فلما كان من امر الجمل ما كان وهُزم الناس جاء عبدالله بن عامر الى

الزبير فأخذ بيده فقال . ابا عبد الله أنشدك الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خلَّ بين العارين يضطربان فانّ مع الخوف الشديد المطامع : فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدائي في خروج ابن عامر الى دمشق

أتاني من الانباء انَّ ابنَ عامرٍ ... أناخَ وألقى في دِمَشْق المراسيا
يطيف بحمّامي دمشق وقصره ... فَعَيْشك انْ لم يأتِكَ القومُ راضيا

في ابيات

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ولم يسمع له بذكر في صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التي يظهر من قوله للزبير ما قال انه ندم على دخوله فيها وخشي على المسلمين من مغبتها .وهذا ما وقفت عليه من اخباره في الفتنة والله اعلم

﴿ باب ﴾

(مآثره ومناقبه)

كان عبدالله بن عامر عالى الهمة جليل المآثر ومن مآثره العظمى التى خلدت له في بطون التاريخ اعظم الفخر ، وأشرف الذكر ، فتحه خراسان كلها واطراف فارس وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهي غزنة واعمالها اي انه فتح قسماً من فارس الغربية المعروفة الآن بايران اوأعاد فتحه وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان فقضى على دولة الفرس وقُتل في ولايته كسرى يزدجرد وانتهت ايام الدولة الساسانية في تلك المملكة الشاسعة الأكناف، المترامية الاطراف ، ورفع الاسلام على ربوعها اعلامه.

وسادت على اهلها كلمتهُ الى اليوم

بعد ان انتظم لابن عامر أمر الفتح وخلّدلنفسه هـذه المنقبة سمت همتـه الى العمران ، ورمي بطرفه الى أقصى غاية فى الاحسان ، فعول على جعل اراضي البصرة جنة تنبت الريحان ، وان يصل ما بين العراق والحجاز بالقرى العامره . والمياه النابعة. لتذهب وحشة البادية من النفوس. وتمهد طريق القوافل . ويأمن ابن السبيل . وتسهل مسالك التجارة . فأخذباحتفار الانهر في سواد البصرة فاحتفر كما في رواية ابن قتيبة ثلاثة انهر : نهر البصرة الذي يمر في السوق: والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبدالله وهي أمه: ونهر الأبِلّة : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النِباج وهي قرية بالبادية فغرس فيها الغرس فكانت تدعى نباج ابن عامر : واتخذ القريتين وغرس بها نخلاً وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر وبينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة: وحفر الحفير ثم حفر السمينة واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيـه : وكلها اماكن ومياه بين البصرة والحجاز ازهرت جوانبها وسالت بهمته وجدّه عيونها . وكان يرمي بطرفه لأبعد من هـذه الغاية لو استمر في ولاية البصرة . ويريد جعـل القرى والمحطات . بين البصرة ومكة كالسلسلة المتصلة الحلقات . فقد نقل ابن قتيبة ان ابن عامر كان يقول: لو تركتُ لخرجت المرأة في حِداجتها (محفتها) على دابتها ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة : وروى ابن عساكر وابن الاثير وابن عبد البر انّ ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها العين وسقى الناس الماء فذلك جار الى اليوم. واتخذ في البصرة السوق اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً : فهو كما أراد بشق الانهار احياء الارضين واستثمارها وترغيب الناس بالزراعة

وجنى خيرها أراد بتمهيد السبل واقامة الاسواق ترويج التجارة وترغيب أهلها والقيام على شؤونها أداء لحق الرعية وقياماً بواجب الامارة والعدل هذه الهمة التي لا مرتقي فوقها لهمة. والمنزلة التي لا متناول بعدها لذي احسان. فلقد بلغ ابن عامر باعماله غاية من الجد وتحري المصلحة والاتيان بكل ماهو نافع للأمة والدولة ليس وراءها متُجاوَز لعامل. فخقيق به المدح. وحريّ به الاقتداء. ولو سار كل عمال عثمان سيرته لاستحال على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع الى الايقاع به بسيرة العمال والطعن على الولاة فرحمه الله ورضي عنه .

﴿ كرمه ﴾

مناقب ابن عامر كثيرة وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر في الاستيعاب . كان عبد الله بن عامر سخياً كريماً حليماً ميمون النقيبة كثير المناقب : وقال ابن الاثير في أسد الغابة : كان أحد الاجواد الممدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولاجرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين الناس الكرم الذي تحلّى بحلاه ، وبلغ غاية مداه، فانه كان موُطأ الاكناف. طويل اليد بالمعروف . رَحْب الصدر بالقاصد كثير الصلة خصوصاً لذوي قرابته من قريش . نقل ابن عساكر من رواية ابن اسحق قال . قدم ابن عامر على عثمان فقال له : صلْ قومك من قريش : ففعل وأرسل الى علي ابن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة. فلما جاءه به قال (أي علي) : الحمد لله انا نرى ثرات محمد يأكله غيرنا: فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر: قبّح الله رأيك أترسل الى علي بثلاثة آلاف درهم : قال كرهت ان أغرِقَ ولم أدرِ

ما رأيك : قال فاغرق : فبعث اليه بعشرين الف درهم وما يتبعها . فراح علي الى المسجد فانتهى الى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر هذا الحي من قريش . فقال علي هو سيد فتيان قريش غير مُدافَع : قال وتكلمت الانصار فقالت ابت الطلقاء الا عداوة . فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أبا عبد الرحمن قِ عرضك ودارِ الانصار فألسنهم ما قد علمت : فأفشي فيهم الصلات والكسا فأثنوا عليه . فقال له عثمان انصرف الى عملك . فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقال عبد الله بن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة :

وروى الطبري عن سُحَيم بن حفص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية فقال العباس بن ربيعة لعثمان . اكتب لي الى ابن عامر يسلفني مائة الف . فكتب فأعطاه مائة الف وصله بها وأقطعه داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال اراد ابن عمر شرا أهل بيت كان يعجبهم فأعطى بهم الف دينار فأبى عليه ذاك فاشتراهم عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها الا القليل من الاجواد وانّ اعتاق اهل بيت برمتهم من الرق وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الاجر، وبلاعوض الأحسن الذكر، لعَمَلٌ جليل محمود ، وأثرٌ كبير معدود ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التي بلغت من الفضيلة والفضل مكاناً ليس وراءه غاية لمستزيد

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه عن عبدالله بن محمد القروي قال اشترى

عبدالله بن عامر من خالد بن عُقبة بن أبي مُعَيط داره التي في السوق ليشرع بها داره على السوق بثمانين او سبعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله : ما هؤلاء : فقيل له يبكون دارهم . فقال يا غلام فأتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً

وعن الاصمعي قال أرتج على عبدالله بن عامر بالبصرة يوم أضحى فمكث ساعة ثم قال : لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً . من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ

وقيل لما ولي ابن عامر البصرة انحدر اليه صديقان له من أهل المدينة كان أحدهما عبد الله بن جابر الانصاري والآخر من ثقيف فاقبلا يسيران حتى اذا كانا بناحية البصرة قال الانصاري للثقفي هل لك في رأي رأيته . قال اعرضه . قال رأيت ان ننيخ رواحلنا ونتناول مطاهرنا ونمس ماءهم نصلي ركعتين ونحمد الله على ما قضى من سفرنا . قال هذا الذي لا يُرد. فتوضيا ثم صليا ركعتين ركعتين فالتفت الانصاري الى الثقفي فقال . يا أخا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأيي هذا قضيت سفري وأنصبت بدني وأنضيت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير هذا؟ قال نعم اني لمّا صلّيت هاتين الركعتين فكرت فاستحييت من ربي ان يراني طالباً رزقاً من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ثم ولى راجعاً الى المدينة ودخل الثقفي البصرة فمكث اياماً فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ألم أُخبَر أنّ ابن جابر خرج معك (١) فخبره خبره فبكى

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال في الاول منهما وكان لابن عامر رجل مقيم بالمدينة فكتب اليه بشخوص من شخص يريده ولا يقدم الرجل الاّ على جائزة معدة : وهذا سبب قوله للثقفي ألم أخبر الخ الخبر

ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها اشراً ولا بطراً ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة فعلم انّ الله الذي فعل ذلك فسأله من فضله. ثم أمر للثقفي باربعة آلاف درهم وكسوة وطُرَفٍ وأضعف ذلك كله للانصاري فخرج الثقفي وهو يقول

أمامة ما حرصُ الحريص بزائدٍ ... فتيلاً ولا زهد الضعيف بضائري
خرجنا جميعاً مِنْ مساقطِ روسنا ... على ثقةٍ منا بجودِ ابن عامرِ
فلما أنخنا الناعجاتِ ببابهِ ... تأخرَ عني اليثربيُّ ابنُ جابر
وقال ستكفيني عطيةُ قادر ... على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
وانّ الذي أعطى العراقَ ابنَ عامرٍ ... لَربي الذي أرجو لسدِّ مفاقري

في ابيات

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ولما تعوّده منه قاصدوه من عدم المطل اذا أبطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسمة صدره ومؤكداً نواله ومن ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أنس بن أبي أنس شيئاً وقد كان عوّده ذلك فمطله فقام اليه بمكة في الموسم فقال

ليت شعري عن خليلي ماالذي ... غالهُ في الودّ حتى ودَعَهْ
لا تهني بعدَ اذ أكرمتني ... وقبيحٌ عادة منتزَعه
واذكر البلوى التي أبليتني ... ومقالاً قلتهُ في المجمعه
لا يكن برقُك برق خُلَّباً ... انّ خيرَ البرقِ ماالغيثُ معه

وفي ابن عامر يقول زياد الاعجم مادحاً له

أخٌ لك لا تراه الدهر الاّ ... على العلاّت بسّاماً جوادا
أخ لك ما مودته بمزقٍ ... اذا ما عاد فقرُ أخيه عادا

سألناه الجزيلَ فما تلكّا ... وأعطى فوق مُنيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا ... فأحسنَ ثم عدتُ له فعادا
مراراً ما رجعت اليه الاّ ... تبسّم ضاحكاً وثنى الوسادا

باب

(وفاته)

روى ابن عساكر عن عمر ابن ميمون ان عبد الله بن عامر حين مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه اصحاب النبي (ص) وفيهم ابن عمر . قال ماترون في حالي فقالوا مانشك لك في النجاة قد كنت تقرى الضيف وتعطي المختبط (١) . وعن ميمون قال . بعث عبدالله بن عامر حين حضرته الوفاة الى مشيخة اهل المدينة وفيهم بن عمر فقال. اخبروني كيف كانت سيرتي . قالوا كنت تتصدّق وتعتق وتصل رحمك . قال وابن عمر ساكت . فقال ياأبا عبدالله ما يمنعك ان تتكلم. قال قد تكلم القوم. قال عزمت عليك لتكلمنّ . فقال ابن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة وستقدم فترى .

قال ابن منده توفي النبي (ص) ولعبدالله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفى هو سنة تسع وخمسين وقال الحافظ أبو نعيم انه توفى سنة ستين : وفي اسد الغابة انه توفى سنة ثمان وخمسين واوصى لعبد الله بن الزبير وروى ابن عساكر ان عبد الله بن عامر توفى قبل معاوية بسنة فقال معاوية : يرحم الله أبا عبد الرحمن بمن نفاخر وبمن نباهي :

وان رجلاً تفاخر به قريش ويقول به معاوية مثل هذا القول لرجل

(١) قال أبو عبيد المختبط الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يد سلفت منه اليه ولا قرابة

كبير جدير بالاعظام حقيق بتخليد الذكر فرحمه الله ورضي عنه وكان ابن عامر كثير المال والولد فكان له النباج الذي يقال له نباج ابن عامر (مرذكره) وله الجحفة وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة وله آبار في الارض كثيرة كما ذكر ذلك ابن عساكر وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قُتل دون ماله فهو شهيد) (١) انتهى

حبيب بن مَسْلَمَةَ الفهري

باب

(نسبه ومولده ونشأته)

(نسبه)

هو حبيب بن مَسلَمة بن مالك الاكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة ابن عمرو بن شيبان بن محارب بن فِهر بن مالك بن النضر القرشي الفهري يكنى أبا عبد الرحمن ويقال له حبيب الدروب وحبيب الروم لكثرة دخوله اليهم ونيله منهم

(مولده ونشأته)

ذكر في اسد الغابة انّ حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقدكانت وفاة النبي (ص) في صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيكون مولد حبيب قبل الهجرة بسنتين فهو مكي المولد اسلامي النشأة . وقد اختلفوا في هل كانت له صحبة ام لا

(١) قال ابن عساكر في سبب روايته لهذا الحديث ان معاوية أراد ان يستصفي ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر والله لأقاتلنه دون مالي فقد سمعت رسول الله يقول .. الحديث

وأكثرهم يقول كان له صحبة الا انه لم يغزِ مع النبي (ص) وفي رواية لابن عساكر عن ابن أبي مليكة عن حبيب بن مسلمة الفهرى انه أتى النبي (ص) بالمدينة فأدركه أبوه فقال : يا نبي الله يدي ورجلي . فقال له النبي ارجع معه فانه يوشك ان يهلك . فهلك أبوه في تلك السنة . وفي رواية له ايضاً انه رجع الى المدينة وغزا مع النبي آخر غزوة وهي غزوة تبوك وهذه الرواية تؤيد قول من قال انّ له صحبة . وقدكان حبيب من اشرف قريش كما في رواية عن الزبير بن بكار ذكرها في أسد الغابة . بل كان من شجعانهم وسراتهم ورافعي راية مجدهم . والمبرزين في الحزم وحسن القيادة منهم . وهو على ما أرى في طبقة خالد بن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والاقدام والاثر الجميل في الفتح ذلك لانه شبّ منذ نعومة الاظفار على الحرب ، وألف من صغره الطعن والضرب ، فقضى معظم ايام حياته في الحروب . فكان له في تشييد دعائم الاسلام في البلاد القاصية ، والممالك النائية ، جهاد طويل ، وعمل في الفتح جليل ، لا سيما في الجزيرة وارمينيا والقوقاس كما ستري بعدُ : ومما يدل انه نشأ من صغر سنه على الحرب ما رواه ابن عساكر انّ حبيباً ذهب في خلافة أبي بكر الى الشام للجهاد فكان على كردوس من الكراديس في اليرموك . لذا لما ادمن الحرب من صغر سنه نشأ قائداً محنكاً من اعاظم قواد الفتح في عصره كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلي ان شاء الله

باب

(فتوحاته)

اختلف الرواة في هل انّ عمر بن الخطاب ولّى حبيباً في خلافته ام لا

والارجح انّ أبا عبيدة بن الجراح في عهد ولايته على الشام ولاه انطاكيه ثم لما فتح عياض بن غُنم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ولما ولى عمر ابن الخطاب سراقة بن عمرو على غزو الباب وكتب الى حبيب فيمن كتب اليهم بامداد سراقة سار حبيب من الجزيرة الى ارمينيا ومنها الى القوقاس كما مرّ الخبر عن ذلك في الكلام على فتح ارمينيا والقوقاس وفتح هو وعبد الرحمن وسراقة وغيرهم من القواد بلاد ارمينيا ثم انتقضت ثانية فغزاها في خلافة عثمان حتى أتم فتحها كما رأيت . وقد وعدنا فيما مضى بايراد الخبر عن مسير حبيب الى ارمينيا وفتحه فيها وما كان له من البلاء الحسن في الحروب التي كانت للمسلمين في الجزيرة وارمينيا فنقول

كان حبيب بن مسلمة مع أبي عبيدة بن الجراح في حروبه في شمال سورية ولما فتح أبو عبيدة انطاكية الفتح الثاني بعد انتقاضها ولّى عليها حبيب ابن مسلمة فتولاها وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن فقصد جبل اللكام وكان فيه قوم اشداء يسمون الجراجمة فلم يقاتلوه بل بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية ما داموا من اعوان المسلمين وجندهم ودخل معهم في هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الانباط وأهل القرى فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعوجّون أخرى حتى غزاهم مسلمة ابن عبد الملك وأجلاهم عن جبل اللكام وان ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويبقوا على نصرانيتهم ولا تؤخذ منهم الجزية وان يجرى عليهم الرزق كبقية الجند فنزل بعضهم حمص وبعضهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها . ولعلّ الحي الموجود الى هذا العهد في مدينة

حماه المعروف بحارة الجراجمة ينسب الى اولئك القوم لانه نزل منهم فريق فيه

ثم لما سار عياض بن غنم الى فتح الجزيرة كان حبيب في جملة قواده ففتح سميساط وقرقيسيا وقري حولها ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ثم سار الى ارمينيا بأمر عمر ففتح منها ما فتح وذلك الفتح الاول الذي انتقضت بعده وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان وقد بسطنا كيفية مسيره اليها وانه لما انتهى اليه سلمان بن ربيعة الباهلي الذى كان أرسله عثمان رضي الله عنه مدداً له سار حبيب من غرب ارمينيا وسلمان من شرقيها وقد ذكرنا ما فتحه في طريقه سلمان واوردنا الخلاف بين المؤرخين في خبر ذلك الفتح وفي المكان الذي اجتمع فيه حبيب وسلمان وبقي ان نذكر ما فتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب كما بلغه سلمان من جهة الشرق

ذكرنا في سيرة عثمان انّ سلمان بعد ان فتح قاليقلا أجلبت عليه الروم بجموع عظيمة وانه بيتهم قبل وصول المدد اليه فاجتاحهم وذكر في فتوح البلدان انّ حبيباً لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد اليه نزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم وكان عياض قد أمنه على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على اتاوة فانفذه حبيب له ثم نزل منزلاً بين الهرك ودشت الورك فاتاه بطريق خلاط بما عليه من المال وأهدى له هدية لم يقبلها منه ونزل خلاط ثم سار الى الصيسانة فلقيه فيها صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرّجان فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلاً وكتب له كتاب صلح وأمان ووجه الى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم أتى ازدساط واجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحي

حتى بلغ سراج طير وبغروند فاتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على اتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم (ضيافتهم) ومعاونتهم على اعدائهم : وهذه صورة كتاب صلح دبيل

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم . أني امنتكم على على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم. فأنتم آمنون. وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيدا: وختم حبيب بن مسلمة :

وأتاه بطريق البسفرّجان فصالحه على جميع بلاده . وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم اليه هدية وسأله كتاب صلح وأمان فكتب حبيب اليه

اما بعد فان (نقلى) رسولكم قدم علي وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم انا أمة أكرمنا الله وفضلنا وكذلك فعل الله وله الحمد كثيراً وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام وذكرتم انكم احببتم سلمنا وقد قوّمت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فان قبلتموه ووفيتم به والا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى .

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون عن كثير من الضرائب التي كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ونقول ضرائب لان الهدايا التي كان يقدمها الولاة لارباب الدولة سواء كان في فارس اوغيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها يدلك عليه ما سبق ايراده

في اخبار الفتح من ذكر الهدايا التي كانت تقدم للامراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها الاّ اذا احتسبت من الخراج او الجزية ومانعرف في تاريخ الصحابة احداً قبل مثل هذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذي يصالح عليه العدوّ الاّ عبد الله بن عامر اذ قُدّم لاحد امرائه في خراسان هدية فسأل سببها فقيل له هذه عادة عندنا فأبى قبولها الاّ بعد استشارة الاحنف بن قيس الامير يومئذ من قبل ابن عامر فلما استشاره عنها أبى قبولها ايضاً وأمره ان يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمها القرشي وكان مضماً : اشارة الى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وانّ مثل هذه العفة من اولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غايةً من العدل وحسن السيرة لا يبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ومن دقق النظر في تاريخ تلك الامة يعجب ممن عاصرها من المؤرخين ومن بعدهم من اهل الملل الاخرى في عدم انصافهم لها واعراضهم عن ذكر اخلاقها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل لا الوجه الذى يقتضيه الغرض والتعصب الذميم

هذا ثم انّ حبيباً سار الى تفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لاهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالامان على انفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على اقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت دينار . وليس لكم ان تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية . ولا لنا ان نفرق بينهم استكثاراً منها . ولنا نصيحتكم وضلعكم على اعداء الله ورسوله

(ص) ما استطعتم و قرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا . وان انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم اداؤه الى ادنى فئة من المؤمنين الا ان يُحال دونهم . وان أنبتم وأقمتم الصلاة فأخواننا في الدين والاّ فالجزية عليكم . وان عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوّكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم . هذا لكم . وهذا عليكم . شهدالله وملائكته وكفى بالله شهيدا اه

ثم انّ حبيبا فتح كسفربيس وسمسخي وخنان والجردمان وكستسجى وشوشت وبازليت وقلرجيت وثرياليت وخاخيط وخوخيط وأرطهال وغيرها من بلاد ايبريا وأرمينيا الغربية منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الاسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزبين كما مر الخبر عن ذلك في سيرة عثمان (رض)

ولما فتح حبيب ما فتح من ارمينيا كتب الى عثمان بذلك فوافاه كتابه وقد نعي اليه سلمان فهمّ انّ يوليه جميع ارمينيا ثم رأى ان يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة لغَنائه ونكايته في الروم فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فانقلب راجعاً الى الشام ونزل حمص ثم اخذه معاوية الى دمشق وكان يردد الغزو الى الروم وله في الحروب معهم بلاء حسن لما عرف عنه من الشجاعة والاقدام وحسن قيادة الجيوش فقضى كل ايام حياته في الجهاد . وتدويخ البلاد . فكان من خيرة قواد المسلمين . وابطال الفاتحين كما رأيت من اخباره في فتح الجزيرة وارمينيا فرحمه الله ورضي عنه



﴿ باب ﴾

(اخباره في الفتنة)

لما نزل بعثمان ما نزل كان حبيب بن مسلمة بالشام وأرسله معاوية لنجدته فلم يدركه بل قتل قبل وصوله الى المدينة

روى في التمهيد والبيان عن سعيد بن عبد الله الجمحي قال . قال حبيب ابن مسلمة رأيت فيما يرى النائم انّ بعيرا عربياً سميناً بينا هو قائم انتهى اليه اعراب مَذْلى (١) فأطافوا به فخفتهم عليه وصحت بهم فبادروه فعقروه ثم انتهبوه . فلما اصبحت أتاني اصحابي واني لأقصها عليهم اذ جاءني رسول معاوية فأتيته . فقال ياحبيب انّ عثمان قد تُركَ منزولا به ولاأدري الى ما يترامى هذا الامر فتجهز وأعجل . فرجعت الى أصحابي فاخبرتهم الخبر واستكتمتهم الرؤيا فبينا نحن في ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حُصِرَ . فأرسل الي (اي معاوية) واخبرني الخبر وأخرجني فخرجت فأقمت لاصحابي بالطريق حتى يلحقوني

وروى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا . لمّا أتى معاوية الخبر أرسل الى حبيب بن مسلمة الفهري فقال . انّ عثمان قد حُصِرَ فأشرعليّ برجل ينفذ لأمري ولا يقصّر . فقال ما اعرف ذلك غيري . قال أنت لها فأشر عليّ برجل أبعثه على مقدمتك لا يتّهم رأيه ولا نصيحته أعجله في سرعان الناس . فقال أمِنْ جندي أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام . فقال ان أردته من جندي أشرت عليك وان كان من غيرهم فاني أكره انْ أغرك بمن لا علم لي به . فقال فهاته من جندك قال يزيد بن شجعة (او مشجعة) الحميرى .

(١) اي خائفون غير مطمئنين

قال كما تحب . فانهم لفي ذلك اذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاهما ثم قال لهما . النجاء سيرا فأغيثا أمير المؤمنين وتعجل يايزيد . فان قدمت يا حبيب وعثمان حيّ فهو الخليفة والامر أمره فانفذ لما يأمرك وان وجدته قد قُتل فلا تدعن أحداً أشار اليه ولا أعان عليه الا قتلته وان أتاك شيء قبل ان تصل فأقم حتى أرى من رأي . وبعث يزيد بن شجعة فامضاه على المقدمة في الف فارس على البغال يقودون الخيل معهم الأبل عليها الروايا (القرب) واتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس . وخرجوا جميعاً وأغذ يزيد السير فانتهى الى ما بين خيبر والسُقيا فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان ابن بشير بالخبر ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان (رض) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب :

وفي هذا الخبر ما يدل على اهتمام معاوية بامر عثمان واسراعه في انجاده منذ وصله الخبر خلافاً لما جاء في بعض الروايات من انه تباطأ في اغاثة عثمان (رض) والله اعلم

هذا وقد ذكر بعض الرواة ان حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه في حروبه وقال أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب : روينا انّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال لحبيب بن مسلمة في بعض خرجاته بعد صفين . ياحبيب رب مسير لك في غير طاعة الله . فقال له حبيب . اما الى ابيك فلا . فقال له الحسن بلى والله ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت في هواه ، فلئن كان قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في دينك ، فليتك اذ اسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) ولكنك كما قال

الله تعالى (كلاّ بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على انه مما يضعف هذه الرواية شهرة حبيب بالصلاح وحسن اعتقاده بعلي وعثمان وانه من فريق المعتدلين الذين قالوا نتولّى عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجو لهم ونخاف عليهم كما روى ذلك ابن عساكر في حديث مرّ معنا ذكره في اخبار الفتنة ولو فرضنا صحة خبر أبي عمر الذي قال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلاً واضحاً على انّ كل فريق من المختلفين في الفتنة كان يرى نفسه على حق اذ لا يتأتى لمثل حبيب بن مسلمة على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح ان ينضم الى معاوية وهو يعتقد انه على غير حق ويقول للحسن ما قال واما انّ معاوية طالب دنيا وعليّ طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من احزابهما من الاعتقاد بفضل صاحبه وانه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقاتل عليها الا انّ هناك فرقاً بين علي ومعاوية في انّ الاول يطلبها بحق البيعة التي وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول (ص) ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين وأبقى على أصول الشورى الانتخابية . والثاني يطلبها بالقوّة والخلافة التي تؤخذ بالقوّة مصيرها الى الاستبداد ولكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وامثاله من وجوه المسلمين وصلحائهم بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولان القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة أو النبوة أو ألوهية في البعض الآخر كما حدث ذلك بعدُ بين المسلمين بل كانوا يرون انهم كلهم في الاسلام والصحبة سواء وان امتاز بعضهم عن بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة لذا كان مما يدلك على انّ حبيباً وامثاله لم يمالئوا معاوية الا لمحض الاعتقاد الحسن به لا لغرض آخر وانّ حبيباً كان

لا يزال يطالب معاوية بسنة أبي بكر وعمر حتى مات كما سترى بعدُ وهذا ما يدعونا الى ان نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع علي اومعاوية وضلع في تلك الفتنة ولو جزمنا بان علياً كان أحق من معاوية اذ ان كل فريق من المتحاربين يومئذكان يرى لصاحبه من الحق ما لم نرَه نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام اليه فحكمنا على فريق بانه على غير الحق حكم على الفريق الآخر كما بسطنا الكلام على هذا في اكثر من محل من هذا الكتاب وانما عدنا الى الاشارة اليه تنبيهاً للشيع الاسلامية التي لا يزال بعضها يغلو في مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلواً ينزلهم في منزلة الانبياء . ويغلو في وصم بعضهم بكل شنيعة غلواً ينزلهم في منزلة العامة والدهماء . وكلا الامرين تفريط وافراط يعيبان تاريخ الامة لاسيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الاسلام . وتدويخ الممالك والبلدان . وتأسيس بنيان الدولة التي نشرت على معظم الارض جناح السلطان . ما يوجب على كل فرد من افراد المسلمين عنده ذرة من العقل . وقليل من الانصاف . ان يقدرهم قدرهم . ولا يبخسهم من الثناء حقهم . ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الأمر منهم . اعلاء لشأنهم . وتنويهاً بجليل عملهم . وجميل صحبتهم . وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار اعمالهم . واستصغار اقدارهم . من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى والله يتولى هدانا جميعاً . وهو خير المرشدين

باب

(شيء من سيرته)

أجمع الرواة على انّ أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسلمة ثناء حسناً ويعتقدون فيه منتهى الصلاح لهذا كانوا يقولون كان مجاب الدعوة ومما يدلك على صلاحه ما رواه بن عساكر انّ حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال . وهذا من نعيم من ما ينعم به أهل الدنيا ولو مكثت فيه ساعة لهلكت ما انا بخارج منه حتى استغفر الله تعالى فيه الف مرة . قال فما فرغ حتى ألقي الماء على وجهه مراراً (لعله لانه كان يغشى عليه) . ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائما يلح على معاوية بالعمل بسيرة أبي بكر وعمر . وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى بن عساكر عن ابن عجلان قال . لما أتى معاوية موت حبيب بن مسلمة سجد ولما أتاه موت عمرو بن العاص سجد فقال له قائل . يا أمير المؤمنين سجدت لوفدين وهما مختلفان . فقال اما حبيب : فكان يأخذني بسنة ابي بكر وعمر : واما عمرو بن العاص : فيأخذني بالامرة الامرة (٢) فلا ادرى ما أصنع

(وفوده على عمر وولايته)

روى ابن عساكر من طرق ان حبيب بن مسلمة كان يلي الصوائف على عهد عمر وبلغ عمر عنه ما يحب ولم يثبته (اي بالجيش) حتى قدم عليه في حجة وكان تام القامة فسلم على عمر : فقال له انك لفي قناة رجل قال اني والله

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذي جاء قبله انه اسم حمام بحمص او لعله بستان فليحرر

(٢) وفي رواية احدهما كان يقول الامرة الامرة والآخر يقول السنة السنة

وفي سنانها : وفي رواية انه قال له انك لجيد القناة : قال وجيد سنانها : قال عمر افتحوا له الخزائن فليأخذ ماشاء : ففتحوها له فعدا عن الاموال وأخذ السلاح . وفي رواية لا بن عساكر ان عمر لما عزل عياض بن غُنم عن الجزيرة ولّى حبيب بن مسلمة وضم اليه ارمينيا وأزربيجان ثم عزله وولى عمير بن سعد الانصاري وسعيد بن عامر بن حذيم . وقد كان كثير الغزو الى الروم والنكاية فيهم فدخل مرة ارض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خرَّ ساجدا لله .

ولأدمان حبيب الحرب اصبح مشهوراً بالشجاعة محبوباً من الناس منوها باسمه على السن الشعراء وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان (رض)

يا أيها الناس أبدُوا ذاتَ أنفسكم — لا يستوي الصدقُ عند الله والكذبُ
قوموا بحقِّ مليكِ الناس تعترفوا — بغارةٍ عُصَبٍ من بعدها عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يقدُمُهم — مستلئماً قد بدا في وجههِ الغضبُ

وفيه يقول شريح بن الحارث من ابيات

ألا كلُّ من يُدعَى حبيباً وانْ بدت — مرُوَّته يفدي حبيبَ بني فهرِ

باب

(وفاته وولده)

في رواية لابن عساكر ان حبيباً دخل الحمام فأطال المكث فيه فمرض مرضه الذي مات فيه وقد اختلف المؤرخون في محل وفاته فقال البلاذري في فتوح البلدان انه لما أمره عثمان بالانصراف الى الشام نزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن

عبد البر ان معاوية وجهه الى ارمينيا والياً عليها فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وكذلك قال ابن سعد وابن عساكر وانه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه الله ورضي عنه

(ولده)

روى ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال . لحبيب ابن مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق ومنزلهم بطرف من اطراف حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير اليَّ في منزلي :

انتهى ما وصل اليه علمنا من سيرة حبيب بن مسلمة الفهري وبه ينتهي الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس في سيرة عليّ بن أبي طالب أن شاء الله . وانى ابسط في هذا الجزء رجائي للقراء كما بسطته في الاجزاء الماضية في تنبيهي الى مواقع الخطأ منه وقد نبهني بعض الاصدقاء لغلط جاء في بعض الآيات التي وردت في الجزء الاول فلم اصلحه هنا اعتماداً على انى سأعيد طبع الجزء الاول قريباً ان شاء الله لنفاد الطبعة الاولى واصلح ما وقع من الغلط فيه

تنبيه

قد جاء في الجزء الثالث اغلاط غير الاغلاط التي اصلحناها فيه لم ننتبه اليها فأحببنا اصلاحها هنا وهي (اودى) في ص ٥١٧ س ١٨ وصوابها (ادّى) و (عظم) في ص ٥٤٨ س ١٣ وصوابها (عظيم) وفي ص ٥٨٠ س ١٧ (وعلى) وصوابها (وعلم) وفي ص ٥٨٢ س ١٦ (اجابة) وصوابها (اجابه) وفي ص ٥٩٩ س ١٣ (اللانبستيتوا) وصوابها ان تحذف الالف التي بعد

الواو : وفي ص ٦٠٠ س ١٠ (عد) وصوابها (يد) وفي ص ٦٣٢ س ١٦ (سؤ) وصوابها (سؤ مغبة) وفي ص ٦٣٨ س ١٨ (امرهما وكتب) وصوابها (فدخل بينهما معاوية بن خديج فأصلح أمرهما وكتب) وفي ص ٦٤٦ س ١٧ (عمر) وصوابها (عمرو) وفي ص ٦٤٩ س ١٨ (طبيعية) وصوابها (غير طبيعية) وفي ص ٦٥٩ س ١٦ (وعمرو بن) وصوابها (ومنهم عمرو بن) انتهى







فهرست الجزء الرابع

صحيفة	
	عثمان بن عفان
٦٧٠	(باب) حاله في الجاهلية
	نسبه واصله
٦٧٠	شرفه وصناعته
٦٧١	(باب) اسلامه وصحبته
	اسلامه
٦٧٢	صحبته
٦٧٥	(باب) خلافته والشورى وكلمة في البيعة او الخلافة والدين
	كلمة في الخلافة والدين
٦٨٣	خبر الشورى وخلافة عثمان
٦٩١	هل هناك تحامل على علي
٦٩٥	اول اعماله في خلافته
٦٩٨	(باب) فتوحاته
	فتح ارمينيا والقوقاز وجغرافيتهما
٧١١	دخول معاوية الى بلاد الروم وفتح قبرص
٧١٣	فتح بلاد المغرب وجغرافيتها
٧٢٠	تتمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان وقتل يزدجرد
٧٢٧	مقتل يزدجرد
٧٢٨	(باب) أهم الاخبار والحوادث في عصره
	سقوط خاتم النبي في بئر اريس
٧٢٨	الطعن على العمال
	خبر الوليد بن عقبة
٧٣٢	ولاية سعيد بن العاص الكوفة
٧٣٥	حادثة أبي ذر والقول بحرمة اكتناز المال
٧٣٩	(باب) آثاره في الخلافة
	جمعه الناس على مصحف واحد
٧٤١	زيادته في المسجد الحرام ومسجد الرسول
٧٤١	جملة مآثره
٧٤٢	اولياته
٧٤٣	(باب) اخلاقه ومناقبه
	سياسته وعدله
٧٤٨	ادبه وتأديبه
	ادبه مع نفسه ومع الرسول
٧٤٩	تأديبه لنفسه
٧٤٩	تأديبه للمسلمين
٧٤٩	تواضعه
٧٥٠	حياؤه
٧٥١	شفقته على الرعية
٧٥١	كرمه
٧٥٢	صلاحه وتقواه
٧٥٣	(باب) كتبه وخطبه
	كتبه

صحيفة

٧٦٠ خطبه

٧٦٣ (باب) اخبار الفتنة ومقتل عثمان
مبادئ الفتنة

٧٧١ كلمة في هؤلاء الناقين على عثمان
وفي اهمية تاريخ الصحابة

٧٧٥ ما انكره الناس عليه واعتذاره عن
بعض ما أنكر عليه

٧٧٩ ظهور الفتنة

٧٨٥ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله

٧٩١ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان

٧٩٣ عود الى ما نحن بصدده

٨٠٢ سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة

٨٠٢ عود الى ما نحن بصدد

٨٠٦ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان

٨٢١ (باب) ما رثي به عثمان

٨٢٢ خطبة ابنته عائشة بعد قتله

٨٢٦ خطبة زوجته نائلة

٨٢٨ (باب) ما قيل في سبب الفتنة
وقتلة عثمان والاعتذار عنه
ما قاله بعض الصحابة واهل السنة

٨٣٥ ما قاله المعتزلة

٨٣٨ ما قاله ابن خلدون في سبب القيام
على عثمان

٨٣٩ رأي لاحد العلماء في الفتنة

٨٤٥ صفة عثمان

صحيفة

٨٤٥ باب ولده وعماله
ولده

٨٤٥ عماله

٨٤٦ الحالة الاجتماعية على عهده

٨٥٣ عبد الله بن عامر
(باب) نسبه ومولده ونشأته
نسبه

٨٥٤ مولده ونشأته

٨٥٥ (باب) ولايته على البصرة وفتوحاته

٨٥٩ ولايته الثانية على البصرة وشيء
من اخباره فيها

٨٦٠ شيء من اخباره في البصرة

٨٦٢ (باب) ماذا كان منه في الفتنة

٨٦٥ (باب) مآثره ومناقبه

٨٦٧ كرمه

٨٧١ (باب) وفاته

٨٧٢ حبيب بن مسلمة الفهري
(باب) نسبه ومولده ونشأته
نسبه

٨٧٢ مولده ونشأته

٨٧٣ (باب) فتوحاته

٨٧٩ (باب) اخباره في الفتنة

٨٨٣ (باب) شيء من سيرته

٨٨٤ (باب) وفاته وولده

٨٨٥ ولده

٨٨٥ خطأ وصواب الجزء الثالث

الخطأ والصواب الواردين في هذا الجزء

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦٧١	١٠	بعدد	بعدُ
٦٨١	٣	زمان	مكان
٦٨٨	٧	الامير	الامر
٦٨٨	٢٠	العقبري	العبقري
٦٩٠	١٨	اوفيّ	اوفى
٦٩٥	١١	رويْ	رؤي
٧١٠	١٩	الفاتحتين	الفاتحين
٠٠٠	٢٠	« »	«...»
٧١١	٧	ويدوروا	ويدور
٧١٢	٣	بغية	بغيته
٧١٣	٢٠	غمالات	عمالات
٧١٤	٢	ويرقه	وبرقه
٧١٩	١٦	صقليا	افريقيا
٧٤٠	١	الفوآء	الفوآد
٧٤٥	٩	انقطع	انقطع اليهم
٧٥٠	١٩	حياءك	حياؤك
٧٥٦	٩	نعمه	نعمة
٧٨٤	١٩	الآ	ألا
٧٩١	٢١	وقاموا	وقاموا به
٨٠٠	٦	امرق	امزق
٨١٣	٧	حتى	حتى اذا
٨٣٩	٢	مرهْ	مرة
٠٠٠	١٢	تاربخية	تاريخية
٠٠٠	٢٢	بأمر	بأمرما
٨٤٠	٥	فيها	فيهما

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٤٠	١٠	مكة	مكة التي
...	٢٢	وناؤا	وناأوا
٨٤١	١	انظر	انظروا الى
...	١٠	ولذاك	ولذلك
...	١٧	بالعرب صيحة	بالعرب كلهم صيحة واحدة
...	٢٣	عما	مما
٨٤٢	٢٥	الصحابة	الصحبة
٨٤٧	٨	لمجارات	لمجاراة
...	..	رغباتهم	رغائبهم
...	١٠	فقاموا	فقاموا
...	١٦	والمصالح	والمسالح
٨٤٩	١٠	ين	بن
...	٢٣	الشرع فكانوا	الشرع وأنفقوه في الطرق التي يأمر بها الشرع فكانوا
٨٥٣	١٢	بخطائه	بخطأه
...	..	ملاء	ملأ
٨٥٥	١٤	السائرين	الثائرين
٨٥٨	٨	تنبض	تنبض
٨٦٦	٢١	الانها	الانهار
٨٦٧	٢٠	زات	تراث
٨٦٨	٥	فالسنهم	فالسنتهم
٨٧٤	١٠	ثمال	شمال
...	٢١	الموحود	الموجودة

